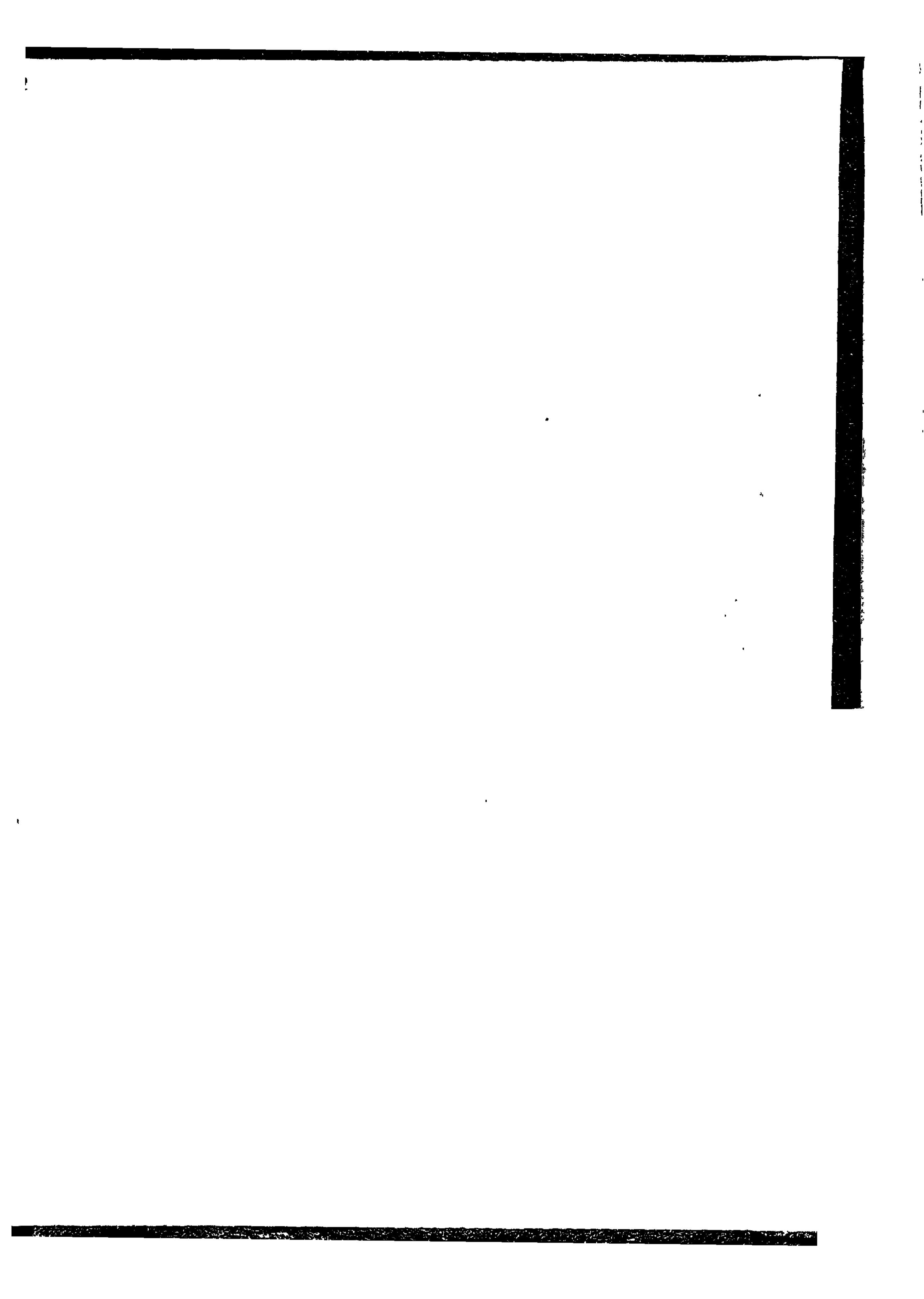
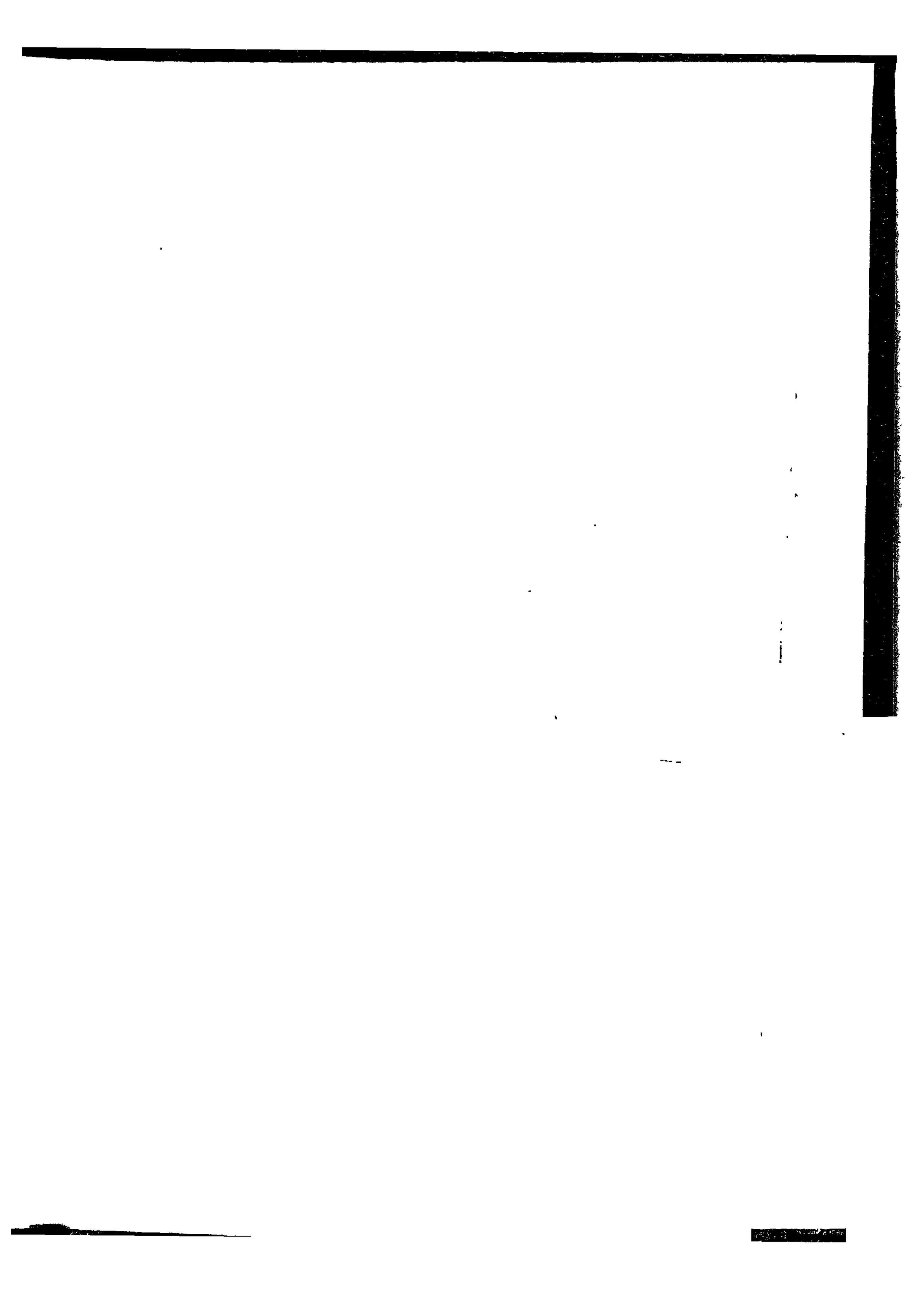






2280

حسن المحاضرة

في تاريخ مصر والقاهرة

للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي

بتحقيق
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الثاني

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الأولى
(١٩٦٨ م - ١٣٨٧ هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر أمراء مصر من حين ملكها بنو أيوب
إلى أن اتخذها الخلفاء العباسيون دار الخلافة

لمّا قتِل صاحب مصر الظافر، وصلت الأخبار إلى بغداد، بأن مصر قُتِل صاحبها، ولم يبق فيهم إلّا صبيّ صغير، ابن خمس سنين، قد وَلّوْه عليهم، ولقّبوه الفائز. فكتب الخليفة المقتفى[1] عهداً للملك نور الدين محمود بن زَنْكِى على البلاد الشامية والمصرية، وأرسله إليه، فسار حتى أتى دمشق، فحاصرها وانتزعها من يد ملكها مجير الدين بن طُغْتِكين، وشرع فى فتح بلاد الشام بلدا بلدا، وأخذها من أيدى مَن استولى عليها من الفرنج.

فلما كان فى سنة اثنتين وستين أقبلت الفرنج فى محافل كثيرة إلى الديار المصرية، فأرسل نور الدين محمود أسدَ الدين شِيركوه بن شادى، ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، فسار إليها فى ربيع الآخر، وقد وقع فى النّفوس أنّ صلاح الدين سيملك الديار المصرية، وفى ذلك يقول عرقلة الشاعر:

أقول والأتراك قد أزمعَتْ   مصرَ إلى حرب الأعاريبِ
ربّ كما ملّكتَها يوسفَ الصّدّيقَ من أولاد يعقوبِ
يملكها فى عصرنا يوسفُ الصّادقُ من أولاد أيوبِ
مَنْ لم يزل ضرّابَ هام العِدَا   حقًّا وضَرّابَ العراقيبِ

---

(١) كذا فى الأصل، وهو الصواب، وفى ح، ط: «المكتفى» وانظر أخبار الخلفاء ٤٤٠.

وسار إلى الفرنج ، فاقتتلوا قتالا عظيما ، فهُزِم الفرنج ولله الحمد ، وسار أسد الدين بعد كسر الفرنج إلى الإسكندرية، فملَكها، واستناب عليها ابنَ أخيه صلاح الدين، وعاد إلى الصعيد ، فملَكه .

ثم إنّ الفِرنج والمصريين اجتمعوا على حصار الإسكندرية ، فصالح شاوَر وزير العاضد أسد الدين عن الإسكندرية بخمسين ألف دينار ، فأجابه إلى ذلك ، وخرج صلاح الدين منها ، وسلَّمها إلى المصريين ، وعاد إلى الشام فى ذى القعدة ، وقرّر شاوَر للفرنج على مصر فى كلّ عام مائة ألف دينار ،وأنْ يكون لهم شِحْنةٌ[1] بالقاهرة. وسكن القاهرة أكثرُ شجعان الفرنج ، وتحكّموا فيها بحيث كادوا يستحوِذون عليها ، ويخرِجون المسلمين منها . فلمّا كانت سنة أربع وستين ، قدِمَ أمداد الفرنج فى محافلَ هائلة ، فأخذوا مدينة بِلبيس ، فقتلوا وأسَرُوا ونزلوا بها ، وتركوا فيها أثقالهم ، وجعلوها موئلاً ومعقلا . ثم جاءوا فنزلوا على القاهرة من ناحية باب الشرقية ، فأمر الوزير شاوَر الناس أن يحرِقوا مصر ، وأن ينتقلوا إلى القاهرة . فنهب البلد ، وذهب للناس أموال كثيرة ، وبقيت النّارُ تعمل فى مصر أربعة وخمسين يوما ؛ فعند ذلك أرسل الخليفة العاضدُ يستغيث بالملك نور الدين ، وبعث إليه بشعور نسائه يقول : أدرِكْنى ؛ واستنقذ نسائى من أيدى الفرنج . والتزم له بثلث خراج مصر على أن يكون أسد الدين مقيماً عندهم ، ولهم إقطاعات زائدة على الثلث .

فجهّز نور الدين الجيوش وعليهم أسد الدين ومعه صلاح الدين ، فدخلوا القاهرة وقد رجع الفرنج لما سمعوا بوصولهم . وعظُمَ أمرُ أسد الدين بالديار المصرية ، وقتل الوزير شاوَر ، قتله صلاح الدين . وفرح المسلمون بقتله ، لأنّه الذى كان يمالئ الفرنج على المسلمين ، وأُقيم أسد الدين مكانه فى الوزارة ، ولُقِّب الملك المنصور ؛ فلم يلبث إلا شهرين وخمسة أيام ، ومات فى السادس والعشرين من جمادى الآخرة .

(١) الشحنة : رئيس الشرطة .

فأقام العاضدُ مكانه في الوزارة صلاح الدين يوسف ، ولقّبه الملك الناصر .. قال أبو شامة : وصفة الخِلْعة التي لبسها صلاح الدين يومئذ عِمامة بيضاء تِنّيسيّ بطرف ذهب ، وثوب دَبيقي [1] بطراز ذهب ، وجُبّة بطراز ذهب ، وطيلسان بطراز ذهب ، وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار ، وسيف محلّى بخمسة آلاف دينار ، وحجره بثمانية آلاف دينار ، وعليها سرْج ذهب وسريسار ذهب مُجوْهر ، وفي رأسها مائتا حبّة جوهر ، وفي قوائمها أربعة عُقود جوهر ، وفي رأسها قصبة بذهب ، وفيها شدّة بيضاء بأعلام بيض ، ومع الخلعة عدة بقَج [2] ، وخيل وأشياء أُخَر ، ومنشور الوزارة مكتوب في ثوب أطلَس أبيض ؛ وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين ؛ وكان يوماً مشهودا ، وارتفع قَدْر صلاح الدين بالديار المصرية ، وائتلفت عليه القلوب ، وخضعت له النفوس ، واضطهد العاضدَ في أيامه غاية الاضطهاد .

فلمّا كان سنة خمس وستين حاصرت الفرنج دمياط خمسين يوما ، فقاتلهم صلاح الدين حتى أجلاهم ، وأرسل نور الدين إلى صلاح الدين يأمره أنْ يخطب للخليفة المستنجد العباسيّ بمصر ؛ لأن الخليفة بعث يعاتبه في ذلك ؛ فلمّا كان سنة ست وستين ، اتّفق موت المستنجد ، وقام المستضيء ، وشرع صلاح الدين في تمهيد الخطبة لبني العباس ، وقطع الأذان بحيّ على خير العمل من ديار مصر كلها ، وعزل قضاةَ مصر لأنّهم كلّهم كانوا شيعة ، وولّى أقضى القضاة بها صدر الدين بن درباس الشافعيّ ، واستناب في سائر الأعمال شافعيّة .

---

(١) ثوب دبيق : منسوب إلى دبيق ، بلدة بمصر اشتهرت بالثياب ، قال ياقوت : « كانت بمصر بين الفرما وتنيس » .

(٢) البقجة : الصرّة من القماش ؛ توضع بها الثياب أو النقود أو الأوراق الخاصة وتجمع على بقج ، فارسية — محيط المحيط .

فلما دخل سنة سبع وستين أمر الملك صلاح الدين بإقامة الخطبة لبنى العباس بمصر فى أوّل جمعة من المحرّم وبالقاهرة فى الجمعة الثانية ، وكان ذلك يوما مشهودا ؛ والعجب أنّ أوّل مَنْ خطب للمعزّ حين أخذت مصر عمر بن عبد السميع العباسىّ الخطيب بجامع عمرو وبجامع ابن طولون ؛ فكان أوّل مَنْ خطب لبنى العباس هذه التّوبة شريف علوىّ ، يقال له محمد بن الحسن بن أبى الضياء البعلبكىّ . ولما بلغ الخبرُ نور الدين أرسل إلى الخليفة المستضىء يعلمه بذلك ، فزُيِّنت بغداد ، وغُلِّقت الأسواق وعملت القباب ، وفرح المسلمون فرحا شديدا ، قال ابن الجوزىّ :وقد ألّفت فى ذلك كتابا سميته : «النصر على مصر » . وكتب العماد الكاتب عن السلطان صلاح الدين إلى الملك نور الدين يبشره بذلك :

قد خَطبنـــا للمستضىء بمصْرِ نائبِ المصطفى إمام العصر

فى أبيات ذكرتُها فى تاريخ الخلفاء[١] .

وقال بعض شعراء بغداد فى ذلك[٢] :

ليهنِكَ يا مـــولاى فتحٌ تتابعتْ إليك به خُوصُ الرّكائب تُوجِفُ

أخذت به مصراً وقد حال دونهـا مِنَ الشِّرك ناس فى لها الحقِّ تَقْذِفُ[٣]

فعادت بحمْد الله باســم إمامنا تَتيهُ على كلِّ البلاد وتشرُف

---

(١) تاريخ الخلفاء ٤٤٦ ، وبعده هناك :

وخــذلْنا لنصره العضُد العا ضِدَ والقاصِرَ الذى بالْقَصْرِ

وتركنا الدعىّ يدعو ثبورًا وهو بالذلّ تحت حجرٍ وحَصْرِ

(٢) هو شمس المعالى أبو الفضائل الحسين بن تركان ؛ ذكره أبو شامة فى الروضتين ١ : ١٩٧ ، قال : « وكان حاجب ابن هبيرة ، قالها حين سمع تأويل رؤيا منامية ، ومطلع الأبيات هناك:

لتهنِك يامولى الأنام بشـــارة بها سيف دين الله بالحق مرهفُ

(٣) كذا فى الأصل والروضتين وفى ط : « فيهم الحق يقذف » ، وبعده فى الروضتين :

وقدْ دنَّستْ فيها المنابرَ عصبةٌ يعاف التّقى والدين منهم ويأنَفُ

فطهّرها من كلّ شركٍ وبدعةٍ أغرّ غريرٌ بالمكارم يشغف

ولا غَرْوَ أن ذلّت ليوسف مصرُه[1] وكانت إلى عليـــائه تتشوّفُ
تملّـكها من قبضةِ الـكفر يوسفٌ وخلّصها من عُصْبة الرّفض يوسفُ
كشَفْتَ بهـا عن آل هاشِم سبّةً وعاراً أبَى إلّا بسيفك يكشف

وهى طويلة .

قال أبو شامة : أنشدتُ هذه القصيدةَ للخليفة قبل موته ، عند تأويل منام رُئىَ فى هذا المعنى ، وأراد بيوسف الثانى الخليفة المستنجد ، فلم يخطب إلّا لولده المستضىء ، فجرى الفألُ باسم الملك النّاصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وأرسل الخليفة المستضىء بأمر الله إلى الملك صلاح الدين خِلعة سنية ، ومعها أعلام سود ، ولواء معقود ، ففرّقت على الجوامع بالشام وبلاد مصر ، وكتب له تقليدا ؛ وهذه صورته :

أما بعد ، فإنّ أميرَ المؤمنين يبدأ بحمد الله الذى يكون لـكل خطبة قيادا ، ولـكلّ أمرٍ مهادا ، ويستزيده من نِعَمِه التى جعلت التقوى لها زادا ، وحمّلته أعباء الخلافة فلم يضعف عنه طوقاً ولم يَألُ فيه اجتهادا ، وصَغَّرَتْ لديه أمر الدنيا فما تسوّرت له محرابا ولا عرضت عليه جياداً ، وحقّقت فيه قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخرة نجعلُها لِلّذين لايريدون علوًّا فى الأرض ولا فسادا ﴾[2] .

ثم يصلّى على من أنزلت الملائـكة لنصره إمدادا ، وأسرىَ به إلى السماء حتى ارتقى سَبْعاً شِدادا ، وتجلّى له ربُّه فلم يزغ منه بصر ولا كذب فؤاداً .

ثم من بعده على أسرته الطاهرة التى زكتْ أوراقاً وأعوادا ، وورثت النّور المبين بلادا ، ووُصِفت بأنها أحد الثّقلين هداية وإرشادا ؛ وخصوصا عمّه العباس المدعوّ له بأن يُحفَظ نفسا وأولادا ، وأن تبقى كلمة الخلافة فيهم خالدةً لا تخاف دَرَكا ولا تخشى نفادا .

وإذا استوفى العلم مرادَه من هذه الحمـدلة ، وأسند القول فيها عن فصاحته المرسلة

---

(١) فى الروضتين : « أن دانت » . (٢) القصص ٨٣ .

فإنه يأخذ فى إنشاء هذا التقليد الذى جعله حليفاً لقرطاسه ، واستدام سجوده على صفحته حتى لم يكدْ يرفع من راسه ؛ وليس ذلك إلا قاضية فى وصف المناقب التى كثرت فحسن لها مقام الإكثار ، واشتبه التطويل فيها بالاختصار ، وهى التى لا يفتقر واضعها إلى القول المعاد ، ولم يستوعر سلوك أطوادها ؛ ومن العجب وجود السهل فى سلوك الأطواد .

وتلك هى مناقبُك أيها الملك الناصر السيّد الأجلّ الكبير ، العالم العادل المجاهد المرابط صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب .

والديوان العزيز يتلوها عليك تحدّثاً بشكرك ، ويباهِى أولياءه تنويهاً بذكرك ، ويقول : أنت الذى تَستكفِى فتكون للدّولة سهمَها الصائب ، وشهابَها الثاقب ، وكنزَها الذى تذهب الكنوزُ وليس بذاهب . وما ضرّها وقد حضرت فى نصرتها إذا كان غيرُك هو الغائب ؛ فاشكر إذاً مساعيكَ التى أهّلتْك لِمَا أهّلتك ، وفضّلتك على الأولياء بما فضّلتك . ولئن شُورِكت فى الولاء بعقيدة الإضمار ، فلم تشارَك فى عزمِك الذى انتصر للدولة فكان له بسطة الانتصار . وفرْقٌ بين مَنْ أمدّ بقلبه وبين من أمدّ بيده فى درجات الإمداد ، وما جعل الله القاعد كالذى قال : لو أمرْتَنا لضربْنا أكبادها إلى برْك الغِماد .

وقد كفاك من المساعى أنّك كَفيْتَ الخلافة أمر منازِعيها ، وطمستَ على الدعوة الكاذبة التى كانت تدّعيها . ولقد مضى عليها زمنٌ ومحرابُ حقّها محفوف من الباطل بمحرابيْن ، ورأت ما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم من السّوارين اللّذيْن أوّلهما كذابين ؛ فبمصر منهما واحد تجرى أنهارُها من تحتِه ؛ ودعا الناس إلى عبادة طاغوته وجِبته ، ولعب بالدّين حتى لم يدرِ يوم جُمعته من يوم أحدِه ولَا سبتِه .

وأعانه على ذلك قومٌ رمى الله بصائرَهم بالعَمَى والصَّمَم ، واتّخذوه صنماً ولم تكن الضّلالة هناك إلا بعجْل أو صنم ؛ فقمت أنت فى وجْه باطله حتى قعَد ، وجعلتَ فى جِيده

حبلًا من مسد؛ وقلت ليده : تَبّتْ، فأصبح ولا يسعى بقدمٍ ولا يبطش بيد .وكذلك فعلتَ بالآخر الذى نجمتْ باليمن ناجمتُه،وسامت فيه سائمتُه : فوضع بيته موضع[1] الكعبة اليمانيّة ، وقال هـذا ذو الخَلَصة الثانية . فأىّ مقامك يعترف الإسلام بسبقه ، أم أيّهما يقوم بأداء حقّه .

وهاهنا فليُصْبِح القلم للسيف من الحُسّاد ، وليقصر مكانته عن مكانته وقد كان له من الأنداد ، ولم يُحَظْ بهذه المزيّة إلا أنه أصبح لك صاحبا ، ونخر بك حتى طال نخرا كما عزّ جانباً ، وقضى بولايتك فكان بها قاضيا ، لمّا كان حدّه ماضياً .

وقد قلّدك أميرُ المؤمنين البـلاد المصريّة واليمنيّة غَوْراً ونجْداً ، وما اشتملت عليـه رعيّة وجنـدا ، وما انتهتْ إليه أطرافها برًّا وبحـرا ، وما يستنقذ من مجاوريها مسالمةً وقهرا . وأضاف إليها بلاد الشام وما تحتوى عليـه من المدن المدّنة ، والمراكز المحصّنـة مستثنيا منها ماهو بيد نور الدّين إسماعيل بن نور الدين محمـود رحمه الله وهو حلَب وأعمالها ؛ فقد مضَى أبوه عن آثار فى الإسـلام ترفع ذكره فى الذاكرين ، وتخلفه فى عقبه فى الغابرين ، وولدهُ هذا قد هذّبته الفطرة فى القول والعمَل ، وليست هـذه الرّبوة إلّا من ذلك الجَبَل ؛ فليـكن له منك جارٌ يدنو منه وداداً كما دنا أرضا ، وتُصبح وهو له كالبنيان يشدُّ بعضـه بعضا ؛ والذى قدمناه من الثنـاء عليك ربمّا تجاوزتْك درجة الاقتصاد وألْفتْكَ عن فضيـلة الازْدِياد . فإيّاك أن تنظر إلى سعيك نظرَ الإعجـاب ، فتقول : هذه بلادُنا افتتحتها بعد أن أضرب عنها كثير من الأضراب . ولـكن اعلم أنّ الأرض لله ولرسوله ، ثم لخليفته من بعده ، ولا مِنّةَ للعبد بإسلامه ، بل المنة لله بهداية عبده . وكم سلَف قبلك ممّن لورام مارمتَـه لدنا شاسعهُ وأجاب مانعُه ؛ لـكن ذخره الله لك لتحظى فى الآخرة بمفازه ، وفى الدنيا برقم طرازه . فألق بيدك عند هذا القول إلقاء

(١) ح : « بموضع » .

التّسليم ، وقل ﴿ لا علم لنا إلا ماعلّمتنا إنّك أنتَ العليمُ الحَكيمُ ﴾ .

وقد قُرِن تقليدُك هذا بخاتمة تكون لك فى الإسلام شعارا ، وفى الرّسم فخارا ، وتناسب محلّ قلبِك وبصرِك : وخير ملابس الأولياء ماناسب قلوبًا وأبصارا ، ومن جملتها طوْقٌ يُوضع فى عنقك موضع العهد والميثاق ، ويشير إليك بأنّ الإنعام قد أطاق بك إطاقة الأطواق بالأعناق .

ثم إنّك خُوطبتَ بالمُلْك وذلك خطاب يقضى لصدرك بالانشراح ، ولأملِك بالانفساح ، وتؤمر معه بمدّ يدك العليا لاتضمّها إلى الجناح.

وهذه الثلاثة المشار إليها هى التى تكمل بها أقسام السيادة ، وهى التى لامزيد عليها فى الإحسان فيقال إنّها الحسنى وزيادة ؛ فإذا صارت إليك فانصب لها يوما يكون فى الأيّام كريم الأنساب ، واجعله لها عيداً وقل هذا عيد الخلعة والتقليد والخطاب .

هذا ولك عند أمير المؤمنين مكانَةٌ بجعلك إليه حاضرا وأنت ناء عن الحضور ، وتضنّ أن تكون مشتركة بينك وبين غيرك والضّنّة من شيم الغيوب ؛ وهذه المكانة قد عرّفَتْك نفسَها وما كنت تعرفها ؛ وما نقول إلّا أنها لك صاحبة وأنت يوسفها ، فاحرسها عليك حراسة تقضى بتقديمها ، واعمل لها فإن الأعمال بخواتيمها .

واعلم أنّك تقلّدْت أمرا يُفتَنُ به تقىّ الحلوم ، ولا ينفكّ صاحبه عن عهدة اللوم ، وكثيرا ماترى حسناته يوم القيامة وهى مقسومة[1] بأيدى الخصوم ؛ ولا ينجو من ذلك إلامن أخذ أهْبَة الحِذار ، وأشفق من شهادة الأسماع والأبصار . واعلم أنّ الولاية ميزانٌ إحدى كفتيه فى الجنة والأخرى فى النار ؛ قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « يا أبا ذرّ إنى أحبّ لك ما أحب لنفسى ، لا تأمّرنّ على اثنين ، ولا تَولينّ مال يتيم ». فانظر إلى هذا القول النبوىّ نظر مَنْ لم يخدع بحديث الحرْص والآمال ، ومثّل الدنيا وقد سيقت إليك بحذافيرها ، أليس مصيرها إلى زوال ! والسعيد من إذا جاءته قضى بها أرب الأرواح

(١) ط : « مقتسمة » .

لا أرب إلجسوم ، واتخذ منها وهى السمّ دواء وقد تُتخذ الأدوية من السموم .

وما الاغتباطُ بما يختلف على تلاشيه المساء والصباح ، وهو كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرّياح .

والله يعصم أمير المؤمنين وولاة أمره من تبعاتها التى لابستْهم ولابسوها، وأحصاها الله ونسوها ، ولك أنت من الله هذا الدعاء حظٌّ على قدر محالّك من العناية التى حدثت بصنيعك ، ومحالك من الولاية التى بسطت من ذرعك .

فخذ هذا الأمْرَ الذى تقلّدته أخذ مَنْ لم يتعقّبه بالنّسيان ، وكنْ فى رعايته ممنّ إذا نامت عيناه كان قلبه يَقْظان ؛ وملاكُ ذلك كلّه فى إسباغ العدْل الذى جعله الله ثالثَ الحديث والكتاب ، وأغنى بثوابه وحده عن أعمال الثواب ؛ وقدّر يوما منه بعبادة ستين عاما فى الحساب ، ولم يأمر به آمرٌ إلاّ زيد قوّةً فى أمره ، وتحصّن به من عدوِّه ومن دهره . ثم يُجاء به يوم القيامة وفى يده كتاب أمان ، ويجلس على منبر من نور عن يمين الرحمن ؛ ومع هذا فإن مركبه صعب لايستوى على ظهره إلّا مَنْ أمسك عنان نفسه قبل إمساك عنانه ، وغلبت لمّة ملكه على لمّة شيطانه. ومن آكد فروضه أن تمحَى السِّيَر السّيئة التى طالت مدد أيامها ، ويئس الرّعايا من رفع ظلاماتها فلم يجعلوا أمداً لانحسار ظلامها ؛ تلك السِّير هى المكوس التى أنشأتها الهمم الحقيرة ، ولا غنى للأيدى الغنية إذا كانت ذا نفوس فقيرة ؛ وكلّما زيدت الأموال الحاصلة منها قدراً ، زادها الله محقا ؛ وقد استمرّت عليها العوائد حتى ألحقها الظالمون بالحقوق الموجبة فسموها حقًّا ، ولو أنّ صاحبها أعظم الناس جرما لما أغلظ فى عقابه، ومثلت توبة المرأة الغامدية بمتابه ؛ وهى أشق ممّن يكون السواد الأعظم له خصما ، ويصبح وهو مطالب بما يعلم وبما لم يحط به علما ؛ وأنت مأمورٌ بأن تأبى هذه الظلامات فتنهى عن إجرائها ، وتلحق أسماءها فى المحو بإهمالها ؛ حتى لايبقى لها فى العيان صورة منظورة ، ولا فى الألسنة أحاديث مذكورة .

وإذا فعلتَ ذلك كنتَ أزلت عن الماضى سنّةَ سوء سنّتْها يداه ، وعن الآتى متابعة ظلم وجده طريقا مسلوكا فجرى على بداه ، فبادر إلى ما أمِرت به مبادرة من يضيق به ذراعا ، ونظر إلى الحياة الدنيا بعينها فرآها فى الآخرة متاعا . واحمد الله على أن قيّض لك إمام هدًى يقف بك على هداك ، ويأخذ بحُجزتك عن خطوات الشيطان الذى هو أعدى عداك ؛ وهذه البلاد المنوطة بنظرك تشتمل على أطراف متباعدة ، وتفتقر فى سياستها إلى أيدٍ متساعدة ؛ ولهذا يكثر بهــا قضاة الأحكام ، وأولو تدابيرات السيوف والأقلام ؛ وكلّ من هؤلاء ينبغى أن يفتّن على نار الاختبار ، ويسلّط عليه شاهد عدل من أمانة الدرهم والدينار ، فمــا أضلّ الناس شىء كحبّ المــال الذى فورقت من أجــله الأديان ، وهجِرت بسببه الأولاد والإخوان ؛ وكثيرا مايرى الرّجل الصائم القائم وهو عابدٌ له عبادة الأوثان ؛ فإذا استعنتَ بأحدٍ منهم على شىء من أمرك ، فاضرب عليه بالأرصاد ، ولا ترضَ بما عرفته من مبدأ حاله فإن الأحوال تنقل بنقل الأجساد . وإيّاك أن تُخدَع بصلاح الظاهر كما خُدِع عمر بن الخطاب بالربيع بن زياد .

وكذلك نأمُرُ هؤلاء على اختلاف طبقاتهم بأن يأمروا بالمعروف وينهوْا عن المنــكر محاسبين ؛ ويعلموا أن ذلك من دأب حزب الله الذين جعلهم الغالبين ، وليبدءوا أوّلًا بأنفسهم فيعدِلُوها عن هواها ، ويأمروها بما يأمرون به سواها ، ولا يكونوا ممّن هدى إلى طريق البرّ وهو عنها حائد ، وانتصب لطبّ المرضى وهو محتاج إلى طبيب وعائد ؛ فما تنزل بركات السماء إلاّ على مَنْ خاف مقام ربّه ، وألزم التقوى أعمال يده ولسانه وقلبه ؛ فإذا صلحت الولاة صلحت الرعيّة بصلاحهم ؛ وهم لهم بمنزلة المصابيح ولا يستضىء كل قوم إلا بمصباحهم . وممّا يُؤمرون به أن يكونوا لمن تحت أيديهم إخــوانا فى الأصحــاب ، وجيرانا فى الاقتراب ، وأعوانا فى توزّع الحمل الذى يثقل على الرقاب ؛ فالمسلم أخو المسلم وإن كان عليه أميرا ، وأوْلَى الناس باستعمال الرفق مَنْ كان فضــل الله

عليه كثيرا ؛ وليست الولاية لمن يستجد بها كثرة اللفيف ، ويتولاها بالوطء العنيف ؛ ولكنها لمن يمال عن جوانبه ، ويؤكل من أطايبه ، ولمن إذا غضبَ لم ير للغضب عنده أثر ، وإذا ألحف فى سؤاله تخلّق بخلق الضّجر ، وإذا حضر الخصوم بين يديه عدَل بينهم فى قسمة القول والنظر ؛ فذلك الذى يكون لصاحبه فى أصحاب اليمين ، والذى يُدْعَى بالحفيظ العليم والقوىّ الأمين .

ومن سعادة المرء أن تكون ولاته متأدّبين بآدابه ، وجارين على نهج صوابه ؛ وإذا تطايرت الكتب يوم القيامة كانوا حسناتٍ مثبتةً فى كتابه .

وبعد هذه الوصية ، فإن هاهنا حسنة هى للحسنات كالأمّ الولود ؛ ولطالما أغنت عن صاحبها إغناء الجود ، وتيقّظت لنصره والعيون رقود ؛ وهى التى تُسبَغ لها الآلاء ، ولا يتخطّاها البلاء ، ولأمير المؤمنين عناية تبعثها الرحمة الموضوعة فى قلبه ، والرغبة فى المغفرة والرحمة لما تقدم وتأخر من ذنبه . وتلك هى الصدَقة التى فضّل الله بعض عباده بمزيّة إفضالها ، وجعلهاسببا إلى التعويض عنها بعشر أمثالها ؛وهو يأمرك أن تفقّد أحوال الفقراء الّذين قدرت عليهم مادة الأرزاق، وألبسهم التعفّف ثوب الغِنَى وهم فى ضِيق من الإملاق ؛ فأولئك أولياء الله الذين مسّتهم الضراء فصبروا ، وكثرت الدنيا فى يد غيرهم فما نظرُوا إليها إذا نظروا.وينبغى لك أن تهيّئ لهم من أمرهم مرفقاً ، وتضرب بينهم وبين الفقر مَوبقا .

وما أطَلْنا لك القول فى هـذه الوصية إلا إعلاما بأنّها من المهمّ الذى يستقبَل ولا يُستدبَر ، ويُستكثَر منه ولا يستكبَرَ ؛ وهذا يعدّ من جهاد النفس فى بذل المال ، ويتلوه جهاد العدوّ الكافر فى مواقف القتال ؛ وأمير المؤمنين يعرّفك من ثوابه مايجعل السّيْف فى ملازمته أخا ، وتسخو له بنفسك إن كان أحـد بنفسه سخا . ومن صفاته أنّ العمل المحبوب بفضل الكرامة ، الذى ينمو أجره بعد صاحبه إلى يوم القيامة ، وبه يمتحن طاعة

الخالق على المخلوق ، وكلّ الأعمال عاطلة لاخلوق لها وهى المختصّ دونها بزينة المخلوق ، ولولا فضله لمَا كان محسوباً بشطر الإيمان ؛ ولَمَا جعل الله الجنة له ثمنا وليست لغيره من الأثمان ، وقد علمت أنّ العـدوّ هو جارك الأدنى ؛ والذى يبلغك وبباغه عيناً وأذنا ، ولا تـكون للإسلام نعم الجار ؛ حتى تكون له بئس الجار . ولا عذرَ لك فى ترك جهاده بنفسك ومالك إذا قامت لغيرك الأعذار . وأميرالمؤمنين لايرضى منك بأن تلقاه مصافحاً، أو تطرُق أرضه مماسياً أو مصابحا ، بل يريد أنْ تقصِد البلاد التّى فى يده قصـد المستغير لا قصد المغير ، وأن تحكم فيها بحكم الله الذى قضاه على لسان سعد فى بنى قُريظة والنّضير ، وعلى الخصوص البيت المقدّس فإنّه بلاد الإسلام القديم ، وأخو البيت الحرام فى شرف التعظيم ، والّذى توجّهت إليه الوجوه من قبل بالسجود والتسليم . وقد أصبح وهو يشكو طولَ المدّة فى أسر رقبته ، وأصبحت كلة التوحيد وهى تشكو طول الوحشة فى غربتها عنه وغربته . فانهض إليه نهضة متوغّل فى فرَحِه ، وتبدل صعب قياده بسمحِه ؛ وإن كان له عام حُديبية فاتبعه بعام فتحه . وهذه الاستزادة بعد سداد مافى اليد من ثَغرٍ كان مهملاً فحميتْ مواردُه، أو مستهدماً فرفعتْ قواعدُه، ومن أهمّها ما كان حاضر البحر كأنه أعمه عورته مكشوفة ، وخطّة مخوفة،والعدوّ قريب منه على بعده . وكثيرا مايأتيه فجاءة حتى يشقّ برقه برعدِه ؛ فينبغى أن ترتّب بهذه الثغور رابطة يكثر شجعانها ، ويقلّ أقرانها، ويكون قتالها لأنْ تكون كلة الله هى العليا لالأنْ يرى مكانها ، وحينئذ يصبح كلٌّ منها وله من الرجال أسوار ، ويعلم أهله أن بناء السيف أمنَع من بناء الأحجار ؛ ومع هـذا فلا بدّ له من أسطول يكثر عدده ، ويقوى مدده ، فإنه العمدة التى يستعين بها على كشف العماء ، والاستـكثار من سبايا العبيد والإماء ، وجيشه أخو الجيش السليمانىّ ، فذاك يسرِى على متن الريح وهذا يجرى على متن الماء .

ومن صفات خيله أنّها جمعت بين العوْم والمطار،وتساوت أقدار خلقها على اختلاف

مدّة الأعمار ، فإذا أشرعت قيل جبال متلفّعة بقطع من الغيوم ، وإذا نظر إلى أشكالها قيل أهلّة غير أنها تهتدى فى مسيرها بالنجوم ، ومثل هذه الخيل ينبغى أن يغالى من جيادها ، ويُستكثر من قيادها ، وليؤمّر عليها أمير يلقى البحر بمثله من سعة صدره ، ويسلك طرقه سلوك من لم تقتله بجهلها ، ولكن قتلها بخبره ؛ وكذلك فليكن ممّن أفنت الأيّام تجاربُه ،ورحمتها منا كَبِه ، وممّن بذل الصّعب إذا هو ساسه وإن سيس لَان جانبه، وهذا هوالرجل الذى يرأس على القوم فلا نجد هذه بالرياسة ، فإن كان فى الساقة ففى الساقة أوكان فى الحراسةففى الحراسة .ولقد أفلحت عصابة اعتصبت من ورائه ، وأيقنت بالنصر من رايته كما أيقنت بالنجح من رأيه .

واعلم أنه قد أخلّ من الجهاد بركن يقدح فى عنه ، وهو تمامه الذى يأتى فى آخره كما أنّ صدق النية تأتى فى أوله ؛ وذلك هو قسم الغنائم فإن الأيدى قد تناولته بالإجحاف، وخلطت جهادها فيه بغلولها فلم ترجع بالكفاف . والله قد جعل الظلم فى تعدّى حدوده المحدودة ، وجعل الاستئثار بالمغنم من أشراط الساعة الموعودة ؛ ونحن نعوذ به أن يكون زماننا هذا شرّ زمان وناسه شرّ ناس ، ولم يستخلفنا على حفظ أركان دينه ثم نهمله إهمال مضيع ولا إهمال ناس .

والذى نأمرك به أن تُجرِىَ هذا الأمر على المنصوص من حكمه وتبرِّئَ ذمّتك مما يكون غيرك الفائز بفوائده وأنت المطالب بإثمه ، وفى أرزاق المجاهدين بالديار المصرية والشامية مايغنيهم عن هذه الأكلة التى تكون غداً نكالا وجحيما ، وطعاماً ذا غصّةٍ وعذابا أليما .

فتصفّحْ ماسطّرناه لك من هذه الأساطير التى هى عزائم مبرَمات ، بل آيات محكمات ، وتحبَّبْ إلى الله وإلى أمير المؤمنين باقتفاء كتابها ، وابنِ لك بها مجداً يبقى فى

عقبك إذا أصيبت البيوت فى أعقابها : وهذا الذى ينطق عليك بأنّه لم يألُ فى الوصايا التى أوصاها ، فإنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها .

ثم إنه قد ختم بدعوات دعَا بها أمير المؤمنين عند ختامه ، وسأل فيها خِيرة الله التى تتنزّل من كلّ أمر منزلة نظامه. ثم قال : إنى أشهدك على من قلّدتُه شهادة تكون عليه رقيبة وله حسيبة ، فإنى لم آمره إلا بأوامر الحقّ التى فيها موعظة وذكرى ، ولمن تبِعَها هدًى ورحمة وبشرى ، وإذا أخذَ بها فاج بحجّته يوماً يُسأل فيه عن الحجج ، ولم يختلج دون رسوله على الحوض فى جملة مَنْ يختلج ، وقيل له : لاحرج عليك ولا إثم إذ نجوت من وَرَطات الإثم والحرَج . والسلام .

قال الفقيه عُمارة اليمنى يرثِي العاضد — وكان من خواصّهم :

ياعاذلِى فى هوى أبناء فاطمةٍ	لكَ الملامةُ إن قَصّرتَ فى عَذَلِى
باللهِ زُرْ ساحة القصرين وابكِ مَعِى	عليهمَا لا على صِفّينَ والجَمَلِ

وقال بعض الشعراء يمدح بنى أيوب على مافعلوه :

ألستم مُزيلى دولة الكفر من بنِى	عُبيدٍ بمصرٍ ، إنّ هذا هو الفضلُ[1]
زنادقةٌ شيعيّةٌ باطنيّــةٌ	مجوسٌ وما فى الصالحين لهم أصلُ
يُسِرّون كفرا ، يظهرون تشيُّماً	ليستروا شيئاً ، وعمّهم الجهل

وقال حسان عرقلة[2] :

أصبح الملك بعد آل عُبيدٍ[3]	مشرقًا بالملوك من آل شاذِى
وغدا الشرقُ يحسد الغرب للقوْ	م ومصرٌ تزهُو على بغداذِ
ماحووْها إلا بعزمٍ وحزمٍ	وصليل الفؤاد فى الفولَاذِ
لا كفرعونَ والعزيز ومن كا	ن بهـا كالخصيب والأستاذ

(١) كتاب الروضتين ١ : ٢٠٢ .   (٢) كتاب الروضتين ١ : ٢٠٠ .

(٣) فى الروضتين : « آل علىّ » ، وقال : « يعنى بذلك بنى عبيد المستخلفين » .

قال أبو شامة : يعنى بالأستاد كافور الإخشيدىّ .

قال : وقد أفردت كتابا سميته : « كشف ما كان عليه بنو عبيْد ، من الكفر والكذب والمكر والكيد » . وكذا صنف العلماء فى الردّ عليهم كتبا كثيرة من أجلّها كتاب القاضى أبى بكر الباقلاّنىّ الّذى سماه « كشف الأسرار وهتك الأستار » .

ولمّا استقلّ السلطان صلاح الدين بأرض مصر ، أسقط عن أهلها المكوس والضرائب ، وقرأ المنشور بذلك على رءوس الأشهاد يوم الجمعة بعد الصلاة ثالث صفر سنة سبع وستّمائة . واستولى على القصر وخزائنه وفيها من الأموال مالا يحصى ؛ من ذلك سبعمائة يتيمة من الجوهر ، وقضيب زمرّد طوله أكثر من شبر وسمكه نحو الإبهام ، وَعِقْدٌ من ياقوت ، وإبريق عظيم من الحجر المائع إلى غير ذلك من التّحَف ، ووجد خزانة كتب ليس فى الإسلام لها نظير ، تشتمل على نحو ألفىْ ألف مجلد منها بالخطوط المنسوبة مائة ألف مجلد ، فأعطاها القاضى الفاضل . وأخذ السّلطان صلاح الدين فى نصر السنة وإشاعة الحق ، وإهانة المبتدعة والانتقام من الروافض ، وكانوا بمصر كثيرين .

ثم تجرّدت همته إلى الفرنج وغزوهم ؛ فكان من أمره معهم ماضاقت به التواريخ ، واستردّ منهم ما كانوا استولوا عليه من بلاد الإسلام بالشام . من ذلك القدس الشريف فتحه ، بعد أن كان فى يد الفرنج[1] ... وأجلى ما بين الشام ومصر من الفرنج . ثم افتتح الحجاز واليمن من يد متغلّبيها وتسلّم دمشق بعد موت نور الدين ، فصار سلطان مصر والشام واليمن والحجاز .

قال ابن السبكى فى الطبقات الكبرى : له من الفتوحات التى خلّصها من أيدى الفرنج قلعة أيلَة ، طبَرِيّة ، عكا ، القدس ، الخليل ، الكَرَك ، الشّوبَك ، نابُلس ،

(١) بياض فى الأصل

(حسن المحاضرة ٢/٢)

عَسْقلان ، بيروت ، صَيْدَاء ، بَيْسان ، غَزّة ، لُدّ ، حيفا ، صفُّوريه ، مَعْليا ، الفُولة ، الطّور إسكندرونة ، هفوس[١] ، يافا ، أرْسُوف ، قيسارية ، جبل ، نبل[١] ، معليكة[١] ، عَفْربَلاَ ، اللّجّون ، لستمة[١] ، ياقون ، مجْدل يابا ، تلّ الصافية ، بيت نُوبَا ، الطّرُون ، الجيب البيرة ، بيت لحم ، رِيحاء ، قرا[١] ، واحصر[١] الديْر ، دمرا[١] ، قلقيلية[١] ، صرير الزّيت[١] ، الوعر[١] ، الهرمس[١] ، تفليسا[١] ، العَازريّة ، تفرع[١] ، الكَرْك ، مَجْدَل ، الحارغير[١] فى جبل عاملة ، الشّقيف ، سَبَسْطِية ويقال بها قبر زكريا ، وجُبَيْل ، وكوكب ، وأنطَرْطُوس واللاّذِقيّة ، وبِكِسرائيل ، صِهْيَوْن ، جَبلة ، قلعة العبد ، قلعة الجماهرية ، بلاطُنس ، الشُّغر ، بَكاس ، وسمر[١] سامية ، بُرْزية ، ودَرْبَساك ، وبغْرَاس ، وصَفد .

وله مصَافّات يطول شرحها .

وافتتح كثيرا من بلاد النّوبة من يد النصارى ، وكانت مملكته من المغرب إلى تخُوم العراق ومعها اليمن والحجاز ، فملك ديار مصر بأسرِها مع ما انضمّ إليها من بلاد المغرب والشام بأسرها مع حلَب ومَا والاها ، وأكثر ديار ربيعة وبكْر والحجاز بأسره واليمن بأسره ، ونشرَ العدْل فى الرعيّة ، وحكَم بالقسط بين البريّة ، وبنى المدارس والخوَانِق ، وأجْرَى الأرزاق على العُلماء والصّلحاء ، مع الدِّين المتين والورع والزهد والعلم ، وكان يحفظ القرآن والتنبيه والحماسة . وهو الّذى ابتَنَى قلعة القاهرة على جبل المقطّم التى هى الآن دار السلاطين ، ولم يكن السلاطين يسكنون قبلها إلا دار الوزارة بالقاهرة . وفتح من بلاد المسلمينَ حرّان ، وسُروج ، والرّها والرّقة ، والبيرة ، وسنجار ، ونصيبين ، وآمِد . وملك حلب ، والمواريخ وشهرز . وحاصر الموصل إلى أن دخل صاحبُها تحت طاعته ، وفتح عسكرهُ طرابلس الغرب وبرْقة من بلاد المغرب ، وكسر

---

(١) وردت أسماء هذه البلاد محرفة فى الأصول وقد رجعت إلى كتب المعاجم وطبقات الشافعية ؛ فلم أهتد لتصويبها .



عسكر تونس ، وخطب بها لبنى العباس . ولو لم يقع الخلف بين عسكره الذين جهّزهم إلى المغرب لَمَلَكَ الغرب بأسره ، ولم يختلف عليه مع طول مدته أحدٌ من عسكره على كثرتهم . وكان النّاس يأمنون ظُلْمَه لعدلِه ، ويرجون رِفْدَه لكثرته ، ولم يكن لمبطلٍ ولا لصاحب هزلٍ عنده نصيب . وكان إذا قال صدق ، وإذا وعد وفَى ، وإذا عاهد لم يَخُنْ .

وكان رقيق القلب جدًّا ، ورحل إلى الإسكندريّة بولديه الأفضل والعزيز لسماع الحديث من السِّلَفيّ ، ولم يُعْهَد ذلك لملك بعد هارون الرشيد ، فإنّه رحل بولديْه الأمين والمأمون إلى الإمام مالك لسماع الموطّأ . هذا كله كلام السبكى فى الطبقات [١] .

قال : ومن الكتب والمراسيم عنه فى النّهى عن الخوض فى الحرْف والصوت ؛ وهو من إنشاء القاضى الفاضل : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ... ﴾ [٢] الآية خرج أمرنا إلى كلّ قائم فى صفّ ، أو قاعدٍ فى أمام وخلْف ؛ ألّا تتكلم فى الحرف بصوت ، ولا فى الصّوت بحرف ، ومن تكلّم بعدها كان الجديرَ بالتّنكيل ، ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ [٣] ، ويسأل النواب القبض على مخالفى هذا الخطاب ، وبسط العذاب ، ولا يسمع لمتفقّه فى ذلك تحرير جواب ، ولا يقبل عن هذا الذنب متاب . ومن رجع إلى هذا الإيراد بعد الإعلان ؛ وليس الخبر كالعِيان ، رجع أَخْسَرَ مِنْ صفقة أبى غَبْشان [٤] ، وليُعْلَن [٥] بقراءة هذا الأمر على المنابر ، وليعلم به الحاضر والبادى ليستوىَ فيه البادى والحاضر ، والله يقول الحقّ وهو يهدى السبيل [٦] .

---

(١) طبقات الشافعية ٤ : ٣٢٩ ، ٣٣٠ . (٢) سورة الأحزاب ٦٠ .

(٣) النور ٦٣ . (٤) وردت هذه الجملة محرفة فى الأصول، والصواب ما أثبته . وصفقة أبى غبشان يضرب بها المثل فى الخسران ، وكان أبو غبشان والى أمر خزاعة ، وكانت خزاعة سدنة الكعبة قبل قريش ؛ ولأبى غبشان ولصفقته خبر فى المضاف والمنسوب ١٣٥ .

(٥) فى الأصول : « وليعلى » ، والصواب ما أثبته من الطبقات .

(٦) طبقات الشافعية ٤ : ٣٣١ .

ومن صنائع السلطان صلاح الدين أنّه أسقط المكوس والضرائب عن الحجّاج بمكة، وقد كان يُؤخـذ منهم شيء كثير ، ومن عَجَز عن أدائه حُبس ، فربّما فاته الوقوف بعَرفة ، وعوّض أميرها تمال إقطاعا بديار مصر ، يُحمل إليه منه فى كلّ سنة ثمانية آلاف أردبّ غلّة ، لتكون عونًا له ولأتباعه ، وقرّر للمجاورين أيضا غَلاّت تحمَل إليهم وصِلاتٍ ، فرحمة الله عليه فى سائر الأوقات ، فلقد كان إماماً عادلا ، وسلطانا كاملا لم يلِ مصرَ بعد الصّحابة مثله ، لا قبله ولا بعده !

وقد كان الخليفة المستضىء أرسل إليه فى سنة أربع وسبعين خِلَعاً سنية جدّا ، وزاد فى ألقابه « معزّ أمير المؤمنين » . ثم لمّا ولى الخليفة الناصر فى سنة ست وسبعين أرسل إليه خِلْعة الاستمرار ، ثم أرسل إليه فى سنة اثنتين وثمانين يعاتبه فى تلقيبه بالملك الناصر ، مع أنّه لقب أمير المؤمنين ، فأرسلَ يعتذر إليه بأنّ ذلك كان من أيّام الخليفة المستضىء ، وأنه إن لقّبَه أميرُ المؤمنين بلقب ، فهو لا يعدِل عنه ، وتأدب مع الخليفة غاية الأدب .

قال العماد : وقد كان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام الفرنج فيسرقون ، فاتّفق أنّ بعضهم أخذَ صبيًّا رضيعا من مهده ابن ثلاثة أشهر ، فوجَدَت عليه أمُّه وجْداً شديدا، واشتكت إلى ملوكهم ؛ فقالوا لها : إنّ سلطان المسلمين رحيم القلب ، فاذهبى إليه ، فجاءت إلى السلطان صلاح الدين فبكتْ ، وشكت أمر ولدها ، فرَقّ لها رقّةً شديدة، ودمعت عيناه ، فأمر بإحضار ولدها ، فإذا هو بيع فى السوق ، فرسَم بدفع ثمنه إلى المشترِى ، ولم يزل واقفا حتى جىء بالغلام ، فدفعه إلى أمّه ، وحملها على فرس إلى قومها مكرّمة .

واستمرّ السلطان صلاح الدين على طريقته العظيمة ؛ من مثابرة الجهاد للكفّار ، ونشْر العدل ، وإبطال المكوس والمظالم ، وإجراء البرّ والمعروف إلى أن أصيبَ به

المسلمون ، وانتقل بالوفاة إلى رحمة الله تعالى ليلة الأربعاء سادس عشرى صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، وله من العمر سبع وخمسون سنة . وعمل الشعراء فيه مراثىَ كثيرة ، من ذلك قصيدة للعماد الكاتب ، مائتان وثلاثون بيتا أولها :

شَمْلُ الهُدَى والملكِ عمّ شتاتُه ... والدّهر ساء وأقلعتْ حسناتُه[1]

بالله أين النّاصر الملك الّذى ... لله خالصــــةً صفت نيّاتُه

أينَ الّذى مازال سلطانًا لنـــا ... يُرْجَى نَدَاه وتُتّقَى سَطَواتُه

أين الذى شرُفَ الزمانُ بفضلِهِ ... وسمت على الفضلاء تشريفاتُه

أين الّذى عنَتِ الفرنجُ لبأسِهِ ... ذُلًّا ومنهـــا أدركَتْ ثاراته

أغلالُ أعناق العِـــدَا أسيافُه ... أطواقُ أجيادِ الوَرَى مِنّاتُه

قال العماد وغيره : لم يترك فى خزانته من الذهب سوى دينار واحد صوريٍّ وستة وثلاثين درهما ، ولم يترك داراً ولا عَقاراً ولا مَزْرَعة، ولا شيئا من أنواع الأملاك، وترك سبعة عشر ولدا ذكرا وابنة واحدة .

وكان متديّنًا فى مأكله ومشربه ومركبه وملبسه ، فلا يلبس إلا القُطْن والكتّان والصّوف ، وكان يواظب الصلاة فى الجماعة ، ويواظب سماع الحديث ، حتى أنه سمع فى بعض المصافّات جزءا وهو بين الصفّين ويتبجح بذلك ، وقال : هذا موقف لم يسمع فيه أحد حديثًا .

وبالجملة فمناقبه الحميدة كثيرة لا تُستقصى إلا فى مجلداتٍ ، وقد أفرد سيرته بالتصنيف جماعة من العلماء والزّهاد والأدباء ، وكان به عَرَج فى رجله ، فقال فيــه ابن عنّين الشاعر :

سلطانُنَا أعرجٌ وكاتبُـــــه ... ذو عَمَشٍ والوزير مُنْحدِبُ

(١) النجوم الزاهرة ٦ : ٦٠ ، وكتاب الروضتين ٢ : ٢١٥ .

قال ابن فضل الله فى المسالك : ومن غرائب الاتفاق أن الشيخ علمَ الدين السخاوىّ مدح السلطان صلاح الدين ، ومدحه الأديب رشيد الدين الفارقىّ ، وبين وفاتيهما مائة سنة .

وذكر اليافعىّ فى رَوْض الرياحين أنّ السلطان صلاح الدين كان من الأولياء الثلثمائة ، وأنّ السلطانَ محموداً كان من الأولياء الأربعين .

***

وقام بمصر من بعده ولدُه الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان ، وكان نائب أبيه بها فى حياته مدّة اشتغاله بفتح البلاد الشامية ، فاستقلّ بها بعد وفاته ، فسار سيرة حسنة بعفّة عن الفرْج والأموال ، حتى إنه ضاق مابيده، ولم يبق فى الخزانة لا درهمٌ ولا دينار، فجاءه رجل يسعَى فى قضاء الصَّعيد بمالٍ فامتنع ، وقال : والله لا بعتُ دماء المسلمين وأموالَهم بملك الأرض . وسعى آخر فى قضاء الإسكندريّة بأربعين ألف دينار ، وحملها إليه فلم يقبلْها ، ولم يزل إلى أن مات فى المحرم سنة خمس وتسعين ، وله سبعٌ أو ثمان وعشرون سنة ، ودفن فى قبّة الإمام الشافعىّ .

فأقيم ولده ناصر الدين محمد ، ولقّب المنصور فاستمرّ إلى رمضان سنة ست وتسعين، ثم استفتى عمُّ أبيه الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب بن شاذِى الفقهاء فى عدم صحّة مملكتِه لكونه صغيرا ابن عشر سنين ، فأفتوْا بأنّ ولايته لا تصحّ ، فنُزِع وأقيم الملك العادل . وقيل إن العادل أخذها من الأفضل علىّ بن السلطان صلاح الدين ، وكان الأفضل غلب عليها ، وانتزعها من المنصور ، وأرسل العادلُ إلى الخليفة يطلبُ التقليد بمصر والشام ، فأرسله إليه مع الشهاب السُّهرَوَرْدىّ ، فكان يَصيف بالشام ويَشتِي بمصر ، وينتقل فى البلاد إلى أن مات يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة .

ومن قول ابن عنّين فيه :

إنّ سلطاننا الذى نرتجيــه   واسعُ المال ضيّق الإنفاقِ
هـو سيفٌ كما يقال ولكن   قاطعٌ للرّسومِ والأرزاقِ

والعادل أوّلُ مَنْ سكن قلعة الجبل بمصر من الملوك ، سكنها فى سنة أربعين وستمائة، ونقل إليها أولادَ العاضد وأقاربَه فى بيتٍ فى صورة حَبْسٍ ، وكان ابنه الملك الكامل ناصر الدين أبو المعالى محمد ينوب عنه بمصر فى أيام غيبته ، فاستقلّ بها بعد وفاته .

***

وفى هذه السنة نزلت الفِرِنْج على دمياط ، وأخذوا بُرْجَ السِّلسلة، وكان حصناً منيعا ، وهو قُفْل بلاد مصر، وصفته أنّه فى وسط جزيرة فى النيل عند انتهائه إلى البحر ؛ ومن هذا البُرْج إلى دمياط وهى على شاطىء البحر وحافّة النّيل سلسلة ، ومنه إلى الجانب الآخر ، وعليه الجسر سِلْسلة أخرى، ليمنعَ دخول المراكب من البحر إلى النيل ؛فلا يتمكّن من البلاد ، فلما ملكت الفرنج هذا البُرْج شقّ ذلك على المسلمين بديار مصر وغيرها ، ووصل الخبر إلى الملك العادل وهو بمرْج الصُّفْراء ، فتأوّه تأوّها شديدا ، ودقّ بيده على صدره أسفاً وحزنا ، ومرض من ساعته مرض الموت .

ثم فى سنة ستّ عشرة استحوذ الفِرِنْج على دمياط ، وجعلوا الجامع كنيسة لهم ، وبعثوا بمنبره وبالرّبعات ورءوس القتلى إلى الجزائر ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ! واستمرّت بأيديهم إلى سنة سبع عشرة .

وكان الكامل عرض عليهم أن يردّ إليهم بيت المقدس وجميع ما كان صلاح الدين فتحه من بلاد السواحل ويتركوا دمياط ؛ فامتنعوا من ذلك [1] ؛ فقدّر الله أنه ضاقتْ

---

(١) ج : « هذا » .

عليهم الأقوات ، فقدمت عليهم مراكب فيها ميرة ، فأخذها الأسطول البحرىّ ، وأرسلت المياه على أراضى دمياط من كلّ ناحية ، فلم يمكنهم بعد ذلك أنْ يتصرّفوا فى أنفسهم ، وحصرهم المسلمون من الجهة الأخرى ؛ حتى اضطروهم إلى أضيق الأماكن ، فعند ذلك أنابوا إلى المصالحة بلا معارضة ، وكان يوماً مشهودا ، ووقع الصُّلح على ماأراد الكامل ، ومدّ سماطا عظيما ، وقام راجح الحِلِّىّ فأنشد :

هنيئاً فإن السّعد أضحى مخلّداً　　وقد أنجز الرّحمنُ بالنّصرموعِدَا

حبانا إله الخلق فتحاً بدَا لنا　　مبيناً وإنعاما وعِزّاً مؤيَّدا

إلى أن قال :

أعُبّادَ عيسى إن عيسى وحِزْبه　　وموسى جميعاً يخدُمون محمّدا

وكان حاضرا حينئذا الملك المعظم عيسى والملك الأشرف موسى ابنا الملك العادل .

قال أبو شامة : وبلغنى أنّه لما أنشد هذا البيت ، أشار إلى الملِك المعظم عيسى والأشرف موسى والكامل محمد ؛ فكان ذلك من أحسن شىء اتّفق ، وتراجعت الفِرنج إلى عكّا وغيرها من البلدان . قال الحافظ شرف الدين الدمياطى فى معجمه : أنشدنا أبو زكريا يحيى بن يوسف الصّرصرىّ لنفسه ببغداد ، وقد ورد كتاب من ديار مصر إلى الديوان بانتصار المسلمين على الرُّوم وفتح ثغر دمياط :

أتانا كتاب فيه نسخةُ نُصرَةٍ　　أُلخص معناها لذى فِطَنٍ جَلْدِ

يقول ابن أيّوب المعظّمُ حامداً　　لربّ السماء الواحد الصمد الفردِ

أمِسرْنا بحمد الله جلّ ثناؤه　　وعز أرى دَفْرِيس فى طالع السّعْدِ

تركنا من الأعلاج بالسيف مطعناً　　ثلاثين ألفا للقشاعِم والأسْدِ

ومنهم ألوفٌ أربعون بأسْرِنا　　فكم ملكٍ فى قبضنا صارَ كالعبدِ

ودمياط عادتْ مثل مابدأت لنا ... ويافاً مَلَكْناها ، فيالكَ من جَدّ!
ونحن على أن نملك السِّيف كله ... على ثقة ممّن له خالصُ الحمدِ
ألا يا بن أيوبٍ لقد نلتَ غايةً ... من النّصر ضاهت ما بلغتَ من المجدِ
قهرت فرنج الرُّوم قهراً سماعه ... يقسم ذلّ الرعب فى التّرك والسُّغْدِ (١)
ومانلتَ أسبابَ العلا عن كَلَالةٍ ... ولم يأتِكَ المجدُ المؤثّل من بُعدِ
ولكن ورِثْتَ الملك والفضل عن أبٍ ... جليلٍ وعن عمٍّ نبيلٍ وعن جَدّ
لجأتَ إلى ركن شديد ومَعْقِلٍ (٢) ... منيعٍ وكنز جامعٍ جَوْهرَ المجدِ
إلى فاتحٍ بابَ الرشاد ببعثه ... وخاتم ميثاق النبوّة والعَهْدِ
إلى الشافعى المنجِى الوجيهِ محمدٍ ... فأحسنتَ فى صدق التوجّه والقَصْدِ
فمهما تجدْ من كيد ضدٍّ مضاغنٍ ... بوجْهٍ به تظفرْ وتُنصرْ على الضدِّ
فلا صَدّ عن عزّ سوابق مجدكمْ ... كلال ولا غالَى الكُلول شَبا الحَدِّ
إلى أن تذيق الرّوم فى عقر دارهمْ ... زُعافا وتسقى المؤمنين جَنَى الشّهد

* * *

ولما تولّى المستنصر الخلافة أرسل إلى الكامل محيى الدين يوسف بن الشيخ أبى الفرج بن الجوزىّ ، ومعه كتاب عظيم فيه تقليده الملك ، وفيه أوامر كثيرة مليحة من إنشاء الوزير نصير الدين أحمد بن الناقد ؛ رأيت بخط قاضى القضاة عزّ الدين بن جماعة .

قال : وقفت على نسخة تقليدٍ من الخليفة المنصور أبى جعفر المستنصر بالله أمير المؤمنين بخط وزيره أبى الأزهر أحمد بن الناقد فى رجب سنة نيّف وعشرين وستمائة للملك الكامل .

الحمد لله الّذى اطمأنّتْ القلوب بذكره ، ووَجَب على الخلائق جزيل حمده وشكره

(١) ط : « السغد » ، تحريف .
(٢) ط : « معمل » تحريف .

ووسعت كلّ شيء رحمته ، وظهرت فى كل أمر حكمتُه ، ودلّ على وحدانيّته بعجائب ما أحكم صنعاً وتدبيرا ، وخَلَق كلّ شيء فقدّره تقديرا ، ممدّ الشا كرين بنعمائه الّتى لاتُحصى عددا ، وعالم الغيب الّذى لايُظهر على غيبه أحداً ؛ لامعقب لحكمه فى الإبرام والنقص ، ولا يئوده حفظُ السموات والأرض ، تعالى أن يحيطَ به الضّمير ، وجلّ أن يبلغَ وصفَه البيانُ والتفسير ؛ ليس كمثلِه شيء وهو السميع البصير .

وأحمد الله الذى أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، وابتعثَه هادياً للخلق ، وأوضح به منـاهج الرّشد وسُبُل الحقّ ، واصطفاه منِ أشرف الأنساب وأعزّ القبائل ، وجعله أعظم الشُّفعاء وأقربَ الوسائل ، فقذف صلى الله عليه وسلم بالحقّ على الباطل ، وحمل النّاس بشريعته على المحجّة البيضاء والسّنن العادل؛ حتى استقام اعوجاجُ كلِّ زائغ ، ورجع إلى الحقّ كلّ حائد عنه ومائل، وسجد للهِ كلّ شيء تتفيّأُ ظلاله على اليمين والشمائل ؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الكرام الأفاضل ، صلاةً مستمرّةً بالغَدَوات والأصائل ، خصوصا على عمّه وصِنْو أبيه العباس بن عبدالمطلب الّذى اشتهرت مناقبه فى المجامع والمحافل، ودَرّتْ ببركة استسقائه[1] أخلافُ السّحب الهَوَاطل ، وفاز من تنصيص الرسول صلى الله عليه وسلم فى الخلافة المعظّمة بما لم يفُزْ به أحد من الأوائل .

والحمد لله الذى حاز مواريثَ النبوّة والإمامة ، ووفّر من جزيل الأقسام من الفضل والكرامة، لعبده وخليفته ، ووارث نبيّه ومُحيي شريعته وسنّته .

ولمّا وفّق الله نصير الدين محمد بن سيف الدين أبى بكر بن أيوب من الطاعة المشهورة ، والخدم المشكورة ، أنعم عليه بتقليد شريف إمامىّ ، فقلّده على خيرة الله الرّعاية والصلاة وأعمال الحرب والمعاون والأحداث والخراج والضياع والصّدقات والجوالى وسائر وجوهِ الجبايات ، والقرْض والعطاء ، والنفقة فى الأولياء ، والمظالم

(١) صبح الأعشى : « الاستسقاء به » .

والحسبة فى بلاده ، وما يفتتحه ويستولى عليه من بلاد الفرنج اللاعين ، وبلاد مَنْ تبرز إليه الأوامر الشريفة بقصده من المارقين عن الإجماع المنعقد بين علماء المسلمين . ومنه أمره بتقوى الله تعالى التى هى الجُنّة الواقية ؛ والنعمة الباقية ، والملجأ المنيع ، والعماد الرفيع ، والذّخيرة النافعة فى السرّ والنّجوَى ، والجَذْوة المقتبسة من قوله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فإنّ خَيْرَ الزَّادِ التقوَى ﴾ [١]؛ وأن يدّرع شعارها فى جميع الأقوال ،ويهتدى بأنوارها من مشكلات الأمور والأحوال ، وأن يعمل بها سرّاً وجهرا ، ويشرح للقيام بحدودها الواجبة صدراً ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهُ يكفرْ عنه سيئاته ويعظم له أجرا ﴾[٢]، وأمره بتلاوة كتاب الله تعالى ، متدبّراً غوامض عجائبه ، سالكاً سبيل الرشاد ، والهداية فى العمل به ، وأن يجعلَه مثالاً يتّبعه ويقتفيه ، ودليلا يهتدى بمراشده الواضحة فى أوامره ونواهيه ؛ فإنه النقْل الأعظم ، وسبب الله المحكم ، والدّليل الذى يهدِى للتى هى أقوَم ؛ ضرَب الله فيه لعباده جوامع الأمثال ، وبيّن لهم بهداه مسالك الرّشد والضّلال ، وفرّق بدلائله الواضحة ونواهيه الصادقة بين الحرَام والحلال ، فقال عزّ مِنْ قائلٍ : ﴿ هذا بيانٌ للناسِ وهُدًى وموعظةٌ للمتقين ﴾ [٣] ، وقال تعالى : ﴿ كِتابٌ أنزَلناه إليك مباركٌ ليدبروا آياته وليتذكّر أولوا الألباب ﴾ [٤] .

وأمره بالمحافظة على مفروض الصَّلَوات والدخول فيها على أكملِ هيئة من قوانين الخشوع والإخبات ، وأن يكون نظره فى موضع نجواه من الأرض ، وأن يمثل لنفسه فى ذلك موقفه بين يدى الله تعالى يوم العرْض ، قال تعالى : ﴿ والذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ [٥] ، وقال سبحانه : ﴿ إنَّ الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا ﴾ [٦]

---

(١) سورة البقرة ١٩٧ .
(٢) سورة الطلاق ٥ .
(٣) آل عمران ١٣٨ .
(٤) سورة ص ٢٩ .
(٥) سورة المومنون ٢ .
(٦) سورة النساء ١٠٣ .

وألّا يشتغل بشاغل عن أداء فروضها الواجبة ، ولا يلهو بسببٍ عن إقامة سنتها الراتبة ، فإنها عماد الدّين التى سمت أعاليه ، ومهاد الشّرع الذى رست قواعده ومبانيه ، قال تعالى : ﴿حافظوا على الصّلَوات والصلاة الوُسطى وقُومُوا لله قانتين﴾ [1] ، وقال تعالى : ﴿إنّ الصَّلاةَ تَنْهَى عن الفحشاء والمنكَرِ﴾ [2] .

وأمره أن يسعى إلى صلاة الجُمَع والأعياد ، ويقوم فى ذلك بما فرضه الله عليه وعلى العِباد ، وأن يتوجّه إلى المساجد والجوامع متواضعاً ، ويبرز إلى المصلّياتِ الضاحية فى الأعياد خاشعا ، وأن يحافظ فى تشييد قواعد الإسلام على الواجب والمندوب ، ويعظّم باعتماده ذلك شعائر الله التّى هى من تقوى القلوب .

وأن يشمَل بوافر اهتمامه واعتنائه ، وكمال نظره وإرعائه ، بيوتَ الله التى هى محالّ البركات ، وموطن العبادات ، والمساجد التى تأكّد فى تعظيمها وإجلالها حكمُه ، والبيوت التى أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمُه ، وأن يرتّب لها من الخدم مَنْ يتبتّل لإزالة أدناسها ، ويتصدّى لإذكاء مصابيحها فى الظلام وإيناسها ، ويقوم لها بما يحتاج إليه من أسباب الصلاح والعمارات ، ويحضر إليها ما يليق من الدّهن والكسوات .

وأمره باتّباع سنة رسول الله صلّى الله عليه وسلم التّى أوْضح جَدَدها ، وثقّف عليه السلام أَوَدَها ، وأن يعتمِد فيها على الأسانيد التّى نقلتها الثقات ، والأحاديث التّى صحّت بالطرق السليمة والروايات ، وأن يقتدىَ بما جاءت به من مكارم الأخلاق التّى ندب صلّى الله عليه وسلم إلى التمسك بسببها ، ورغّب أمته فى الأخذ بها والعمل بأدبها ،

(١) سورة البقرة ٢٣٨ . (٢) سورة العنكبوت ٤٥ .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسولُ فخذوه وَمَا نَهَاكُمْ عنه فانتهوا ﴾ [١] ، وقال سبحانه وتعالى:
﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فقد أطاع الله ﴾ [٢] .

وأمره بمجالسة أهل العلم والدين ، وأولى الإخلاص فى طاعة الله واليقين ، والاستشارة بهم فى عوارض الشكّ والالتباس ، والعمل بآرائهم فى التمثيل والقياس ؛ فإنّ فى الاستشارة بهم عين الهداية ، وأمناً من الضلال والغواية ، وألّا يلقح عقم الأفهام والألباب، ويقتدح زناد الرشد والصواب ، قال الله تعالى فى الإرشاد إلى فضلها ، والأمر فى التمسك بحبلها : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فى الأمر ﴾ [٣] .

وأمره بمراعاة أحوال الجند والعَسْكر فى ثغوره ، وأن يشملهم بحسن نظره وجميل تدبيره ، مستصلحاً شأنهم بإدامة التلطّف والتعهّد ، مستوضحا أحوالهم بمواصلة التفحّص عنها والتفقّد ، وأن يسوسهم بسياسة تبعثُهم على سلوك المنهج السليم ، ويهديَهم فى انتظامها واتساقها إلى الصراط المستقيم ، ويحملهم على القيام بشرائط الخدَم ، والتمسّك منها بأقوى الأسباب وأمتن العِصَم ، ويدعوهم إلى مصلحة التواصل والائتلاف ، ويصدّهم عن موجبات التخاذل والاختلاف ، وأن يعتمد فيهم شرائط الحزْم فى الإعطاء والمنع ، وما تقتضيه مصلحة أحوالهم من أسباب الخفض والرفع ؛ وأن يثيب المحسن منهم على إحسانه ، ويسبل على المسىء ما وسعه العفو واحتمل الأمر ذيلَ صفحه وامتنانه ، وأن يأخذ برأى ذوى التجارب منهم والحُنْكة ، ويجتنى بمشاورتهم ثمر البَرَكة [٤] ؛ إذ فى ذلك أمنٌ مِنْ خطأ الانفراد ، وتزحزح عن مقام الزَّيْغ والاستبداد .

وأمره بالتبتّل لما يليه من البلاد ، ويتصل بنواحيه من ثغور أولى الشِّرك والعِناد ؛ وأن يصرِف مجامع الالتفات إليها ، ويخصّها بوفور الاهتمام بها والتطلع عليها ، وأن

---

(١) سورة الحشر ٧ .
(٢) سورة النساء ٨٠ .
(٣) سورة آل عمران ١٥٩ .
(٤) صبح الأعشى : « الشركة » .

يشمل ما ببلاده من الحصون والمعاقل بالإحكام والإتقان ، وينتهى فى أسباب مصالحها إلى غاية الوسع والإمكان ، وأن يشحنها بالميرة الكثيرة والذخائر ، ويمدّها من الأسلحة والآلات بالعدد المستصلح الوافر ، وأن يتخيّر لحراستها من الأمناء الثقات[١] ، ويسدّها بمن ينتخبه من الشجعان الكماة ، وأن يؤكّد عليهم فى استعمال أسباب الحَيْطة والاستظهار ، ويوقظهم إلى الاحتراس من غوائل الغَفْلة والاغترار ، وأن يكون المشار إليهم ممن تربَّوْا فى ممارسة الحروب على مكافحة الشدائد ، وتدرّبوا فى نصب الحبائل للمشركين والأخذ عليهم بالمراصد ، وأن يعتمد هذا القبيل بمواصلة المدد ، وكثرة العَدَد ، والتّوسعة فى النفقة والعطاء ، والعمل معهم بما يقتضيه حالهم وتفاوتهم فى التقصير والغَناء ، إذ فى ذلك حَسْمٌ لمادة الأطماع فى بلاد الإسلام ، ورَدٌّ لكَيْد[٢] المعاندين من عَبَدة الأصنام ؛ فمعلوم أنّ هذا الفرض أوْلى ما وُجِّهت إليه العِنايات وصُرِفتْ ، وأحقّ ما قَصُرَتْ عليه الهِمَم ووقفتْ ؛ فإن الله تعالى جعله من أهم الفروض التى لزم القيام فيها بحقّه ، وأكبر الواجبات التى كتب العمل بها على خلقه ، فقال سبحانه وتعالى هاديا فى ذلك إلى سبيل الرشاد ، ومحرّضاً لعباده على قيامهم له بفرض الجهاد : ﴿ ذَلِكَ بأنّهُم لا يُصيبهم ظمأ ولا نصبٌ ... ﴾ ، إلى قوله تعالى : ﴿ ليجزِيَهم اللهُ أحسن ما كانوا يعملون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَاقْتُلوهمْ حيث ثَقِفتموهم ﴾[٣] ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « مَنْ نزل منزلا يُخيف فيه المشركين ويُخيفونه ، كان له كأجرِ ساجدٍ لا يرفع رأسه إلى يوم القيامة ، وأجرِ قائم لا يقعد إلى يوم القيامة ، وأجر صائم لا يفطر » . وقال صلى الله عليه وسلم : « غَدْوة فى سبيل الله أو رَوْحة خير ممّا طلعت عليه الشمس » ، هذا قوله صلى الله عليه وسلم فى حق من سمع هذه المقالة فوقف لديها ، فكيف بمن كان قال

---

(١) صبح الأعشى : « النقاه » . (٢) ح ، ط : « لكثير » ، وصوابه من الأصل وصبح الأعشى.
(٣) سورة البقرة ١٩١ .

عليه السلام : « ألا أخبرُكم بخير النّاس؟ ممسكٌ بعنان فرسه فى سبيل الله، كلّما سمع هَيْعةً طار إليها » .

وأمره باقتفاء أوامر الله تعالى فى رعاياه ، والاهتداء إلى رعاية العدل والإنصاف والإحسان بمراشده الواضحة ووصاياه ؛ وأن يسلك فى السياسة بهم سبيل الصّلاح ، ويشملهم بلين الكَنَف وخَفْض الجناح ، ويمد ظلّ رعايتهم على مسلمهم ومعاهدهم ، ويزحزح الأقذاء والشوائب عن مناهلهم فى العدل ومواردهم ، وينظر فى مصالحهم نظراً يساوى فيه بين الضعيف والقوىّ ، ويقوم بأودهم قياماً تهتدى به ويهديهم إلى الصراط السوىّ ؛ قال الله تعالى : ﴿ إنَّ الله يأمُر بالعَدْلِ والإحسان . . . ﴾[1] الآية .

وأمره باعتماد أسباب الاستظهار والأَمَنَة واستقصاء الطاقة المستطاعة والقدرة الممكنة ، فى المساعدة على قضاء تفث حُجّاج بيت الله الحرام ، وزوّار نبيّه عليه أفضل الصلاة والسلام ، وأن يمدّهم بالإعانة فى ذلك على تحقيق الرجاء وبلوغ المرام ، ويحرسهم من التخطف والأذى فى حالتى الظّعن والمقام ؛ فإن الحج أحدُ أركان الدين المشتدة ، وفروضه الواجبة المؤكّدة ، قال تعالى : ﴿ ولله عَلَى النَّاس حِجّ البيتِ مَن اسْتَطَاع إليه سبيلا ﴾[2] .

وأمره بتقوية أيدى العاملين بحكم الشّرع فى الرّعايا، وتنفيذ مايصدر عنهم من الأحكام والقضايا ، والعمل بأقوالهم فيما يثبت لذوى الاستحقاق ، والشدّ على أيديهم فيما يرونه من المنع والإطلاق ، وأنّه متى تأخّر أحدُ الخصمين عن إجابة داعى الحكم ، أو تقاعس فى ذلك لما يلزم من الأداء والغُرْم ، جذبه بعنان القَسْر إلى مجلس الشّرْع ، واضطره بقوّة الأنصار إلى الأداء بعد المنع ، وأن يتوخّى عمّال الوقوف التى تقرّب المتقربون بها ،

---

(١) سورة النحل ٩٠ .
(٢) سورة الحج ٩٧ .

واستمسكوا فى ظلّ ثواب الله بمتين سببها ، وأنْ يمدّهم بجميل المعاونة والمساعدة ، وحُسْن المؤازرة والمعاضدة ، فى الأسباب التى تؤذِن بالعِمارة والاستنماء ، ويعود عليها بالمصلحة والاستخلاص والاستيفاء ، قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا على البِرِّ والتقوَى﴾[1] .

وأمره أن يتخيَّر من أولى الكفاية والنزاهة من يستَخلِصه للخدم والأعمال ، والقيام بالواجب؛ من أداء الأمانة والحراسة والتمييز لبيت المال ، وأنْ يكونوا من ذوى الاطّلاع بشرائط الخدم المعيّنة وأمورها ، والمهتدين إلى مسالك صلاحها[2] .

قال الصلاح الصَّفَدِىّ فى تاريخه : حكى صاحب كتاب الإشعار بما للملوك من النوادر والأَشعار ، قال : كان الملك الكامل ليلة جالسا فدخل عليه مظفّر الأعمى ، فقال له أجزْ يا مظفّر :

* قد بلغ الشوقُ منتهاهُ *

فقال مظفّر :

* وما درى العاذلون ماهو *

فقال السّلطان :

* ولى حبيب رأى هوانى *

فقال مظفّر :

* وما تغيّرتُ عن هواه *

فقال السّلطان :

* رياضة النفس فى احتمالٍ *

فقال مظفّر :

* وروضةُ الحسن فى حُلَاهُ *

---

(١) سورة المائدة ٢ .

(٢) العهد فى صبح الأعشى ١ : ٩٩ – ١١١ مع حذف واختصار .

فقال السلطان :

* أسمرُ لَدْنُ القوام ألْمَى *

فقال مظفّر :

* يعشقُــه كُلُّ مَن يراهُ *

فقال السُّلطان :

* وريقُــه كلّهُ[1] مُدامٌ *

فقال مظفر :

* ختامُهُ المسك مِنْ لَمَاهُ *

فقال السلطان :

* ليلته كلُّهـــا رقادٌ *

فقال مظفّر :

* وليلتِي كلُّهـــا انتباهُ *

فقال السلطان :

* وما يرى أن أكون عبداً *

فقام مظفّر على قدميه ، وقال :

* بالملِكِ الكامل احتماه *

العـــالم العاملُ الذى فى كلِ صـــلاة ترى إياهُ

ليثٌ وغيثٌ وبدْر تمٍّ ومنصب جَـلّ مرتقاه

قال الحافظ عبد العظيم المنذريّ : أنشأ الملك الكامل دارَ الحديث بالقاهرة ، وعَمّر القبّة على ضريح الشافعيّ ، وأجرى الماء من بركة الحَبَش إلى حوض السبيل والسّقاية على باب القبّة المذكورة ، ووقف غيرذلك من الوقوف على أنواع البِرّ ، وله المواقف المشهودة

(١) ج ، ط : « كلها » ، والصواب ما أثبته من الأصل .

بدِمياط ، وكان معظِّماً للسّنّة وأهلها، قال الذهبيّ : وكانت له إجازة من السِّلَفِيّ ، وخرّج له أبو القاسم بن الصَّفراويّ أربعين حديثاً سمعها من جماعة .

وقال ابن خَلِّكان : اتّسعت المملكة للملك الكامل ، حتى قال خطيب مكّة مرة عند الدعاء له : سلطان مكة وعبيدِها ، واليمن وزَبيدِها ، ومصر وصعيدِها ، والشام وصناديدِها ، والجزيرة ووليدِها ، سلطان القِبلتيْن ، وربّ العلامتين ، وخادم الحَرَمَيْن الشريفين ، الملك الكامل أبو المعالى ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين .

وكانت وفاته بدمشق يوم الأربعاء حادِى عشرِى رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة.

* * *

وأقيم بعده ولده الملك العادل أبو بكر ، وكان نائب أبيه بمصر مدّة غيبته، فبلغ ذلك أخاه الأكبر الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل صاحب حصن كَيْفا ، فقدِم ، وبرز العادل إلى بِلْبِيس قاصدًا للقتال ، فاختلفت عليه الأمراء ، فقيّدوه واعتقلوه ، وأرسلوا إلى الصالح أيّوب فوصل إليهم ، فملّكوه ، وذلك فى صفر سنة سبع وثلاثين . فأقام فى الملك عشر سنين إلّا أربعةَ أشهر . وكان مهيباً جدًّا، دَبّر المملكة على أحسن وجه ، وبنى المدارس الأربعة بين القَصْرَيْن ، وعمّر قلعةً بالروضة ، واشترى ألفَ مملوك وأسكنهم بها ، وسمّاهم البحريّة ، وهو الذى أكثر من شراء الترك وعِتْقِهم وتأميرهم ، ولم يكن ذلك قبله ، فقام الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام القوْمَة الكبرى فى بيع أولئك الأمراء ، وصرف ثمنهم فى مصالح المسلمين، وقال بعض الشعراء :

الصالحُ المرتَضى أيّوب أكثَرَ مِنْ ... تُرْكٍ بدولته ، ياشَرَّ مجلوبِ !

قد آخـــذ اللهُ أيّوبًا بفَعلتِه   فالنَّاسُ كلّهمُ فى ضُرّ أيوبِ

***

ولما تولّى الخليفة المستعصم أنفذ الصالح إليه رسولَه ، يطلب تقليدًا بمصر والشـام ، فجاءه التشريف والطّوْق الذهب والمركوب ، فلبس التشريف الأسود والعمامة والُجبّة ، وركب الفرس ، وكان يوما مشهودا .

فلمـا كان سنة سبع وأربعين ، هجمت الفرنج على دِمْياط ، فهرب مَنْ كان فيها ، واستحوذوا عليهـا ، والملك الصالح مقيم بالمنصورة لقتالِهم ، فأدركه أجلُه ومرض ومات بها ليلة النصف من شعبان . فأخفَتْ جاريته شجر الدرّ موتَه ، وبقيت تعلِم بعلامته سواه ، وأعلمت أعيان الأمراء ، فأرسلوا إلى ابنه الملك المعظم تُوران شاه وهو بحصْن كـيْفا ، فقدم فى ذى القعدة ، وملّـكوه ، فركب فى عصائب الملك ، وقاتل الفرنج وكسَرهم ، وقتل منهم ثلاثين ألفا ولله الحمد .

وكان فى عسكر المسلمين الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام ، وكانت النّصرة أولا للفرنج ، وقويت الرّيحُ على المسلمين ، فقال الشيخ عزّ الدين بأعلى صوته مشيرا بيده إلى الريح : ياريح خذِيهم ، عدّة مرار ، فعادت الريح على مراكب الفرنج فـكسرتْها ، وكان الفتح ، وغرق أكثر الفرنج ، وصرخ من المسلمين صارخ : الحمد لله الذى أرانا فى أمّة محمد صلى الله عليه وسلم رجـلًا سخَّر له الريح ، وكان ذلك فى يوم الأربعـاء ثالثَ المحرّم . وأُسِر الفرنسيس ملك الفرنج ، وحُبِس مقيَّدا بدار ابن لقمان ، ووكل بحفظه طواشى يقـال له صبيح . ثم نفرت قلوب العسكر من المعظم لـكونه قرَّب مماليـكَه ، وأبعد مماليك أبيه ، فقتلوه فى يوم الاثنين سابع عشر المحرم وداسُوه بأرجلهم ، وكانت مملـكته شهرين .

قال ابن كثير وقد رُئىَ أبوه الصالح فى النوم بعد قتل ابنه ، وهو يقول :

قتلوه شرّ قِتْلَهْ   صَـارَ للعالم مُثْلَهْ

لم يراعُوا فيــه إلًّا   لا ولا مَنْ كان قَبْلَهْ
ستراهم عن قريبٍ   لِأقلِّ الناس أكْلَهْ

فــكان كذلك ، وقع بعد ذلك قتال بين المصريين والشاميّين ، وعدم من المصريين طائفة كثيرة[1] .

* * *

واتفقوا بعــد قتل المعظّم على توليةِ شجر[2] الدرّ أم خليــل جارية الملك الصالح ، فملّــكوها ، وخُطِب لها على المنابر ، فــكان الخطباء يقولون بعد الدعاء للخليفة : واحفظ اللهمّ الجهة الصالحة ملــكة المسلمين ، عصمة الدّنيا والدّين، أمّ خليل المستعصميّة ، صاحبة السلطان الملك الصالح . ونقِش اسمهــا على الدينار والدرهم ، وكانت تُعلم على المنــاشير وتــكتب : والدة خليل . ولم يل مصرَ في الإسلام امرأة قبلها .

ولمّا وليتْ تــكلّم الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام في بعض تصانيفه على ماإذا ابتُلِيَ المسلمون بولاية امرأة ، وأرسل الخليفة المستعصم يعاتبُ أهلَ مصر في ذلك ويقول : إن كان مابقيَ عندكم رجلٌ تولّونه، فقولوا لنا نرسل إليكم رجلًا .

ثم اتّفقت شجر الدّرّ والأمراء على إطلاق الفرنسيس ، بشرط أن يردّوا دمياط إلى المسلمين ، ويعطَوْا ثمانمائة ألف دينار عوضاً عمّا كان بدمياط من الحواصل ، ويطلقوا أسَرَاء المسلمين . فأطلق على هذا الشّرْط ، فلمّا سار إلى بلاده أخذ في الاستعداد والعوْد إلى دمياط ، فندِمت الأمراء على إطــلاقه ؛ وقال الصاحب جمــال الدين بن مطروح — وكتب بها إليه :

---

(١) البداية والنهاية ١٣ : ١٨٠ ، قال في آخر الخبر : « فنهم الشمس لؤلؤ مدير ممالك الحلبيين ، وكان من خيار عباد الله الصالحين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر » .

(٢) كذا ورد اسمها في الأصل ، وهو الصواب ، وفي ح ، ط : « شجرة الدر » .

قلْ للفرنسيس إذا جئتَــه ... مقالَ صِدْقٍ من قؤول نصيحْ[١]

آجَرَكَ اللهُ على ماجَرَى ... من قتــل عُبّادِ يسوعَ المسيحْ

أتيت مصرَ تبتغى مُلْـكَهَا ... تحسب أن الزّمر بالطّبلِ ريحْ[٢]

فســاقك الحَيْنُ إلى أدهمٍ ... ضــاق به عن ناظريْك الفسيحْ

وكلّ أصحــابك أودعتَهم ... بحسن تدبيرك بطنَ الضَّريحْ

تسعين ألفاً لاترى منهمُ[٣] ... إلّا قتيــلًا أو أسيراً جَريحْ

وفّقك الله لأمثالِهــــا ... لعلّ عيسى منكُمُ يستريحْ

إن كان باباكُمْ بذَا رَاضياً ... فرب غِشٍّ قد أتَى من نَصيحْ

وقــل لهمْ إن أضمروا عودةً ... لأخــــذ ثأرٍ أو لعقد صحيحْ :

دارُ ابن لقمانَ على حالِهــــا ... والقيد باقٍ والطَّواشى صَبيحْ

فلم ينشب الفرنسيس أن أهلــكه الله ، وكفى المسلمين شرّه ، وأقامت شجر الدرّ فى المملــكة ثلاثة أشهر ، ثم عزلت نفسها . واتّفقوا على أن يملّــكوا الملك الأشرف موسى بن صلاح الدين يوسف بن المسعود بن الملك الــكامل ، فملّــكوه وله ثمان سنين، وذلك فى يوم الأربعاء ثالث جمادى الأولى سنة ثمان وأربعين . وجُعل عزّ الدين أيبك التركمانىّ مملوك الصالح أتابكه[٤] ، وخُطِب لهما ، وضُربت السكّة باسمهما ، وعظم شأن الأتراك من يومئذ ،ومدّوا أَيديَهم إلى العامّة ، وأحدث وزيره الأسعد الفائزىّ ظلامات ومكوسا كثيرة :

---

(١) النجوم الزاهرة ٦ : ٣٧٠ .

(٢) النجوم الزاهرة : « يا طبل ريح » .

(٣) النجوم الزاهرة : «خمسون ألفا » .

(٤) يطلق هذا اللفظ على مقدم العساكر أو القائد العام ، وهو لفظ تركىّ أصله : « أطابك » .

ثم إنّ عز الدين خلع الملك الأشرف واستقلّ بالسلطنة فى سنة اثنتين وخمسين ، ولُقِّب الملك المعزّ ؛ وهو أول مَنْ ملك مصر من الأتراك ، وممّن جرى عليه الرّقّ ، فلم يرض النّاسُ بذلك حتى أرضى الجند بالعطايا الجزيلة . وأمّا أهلُ مصر فلم يرضوْا بذلك ، ولم يزالوا يُسمِعونه ما يكره إذا ركب ويقولون : لانريد إلا سلطانا رئيسا ولد على الفطرة ، وكان المعزّ تزوّج شجر الدّر .

ثم إنه خطب ابنة صاحب الموصل ، فغارت شجر الدّر فقتلتْه فى أواخر ربيع الأول سنة خمس وخمسين ، وأقيم بعده ولده علىّ ولُقِّب المنصور [١]، وعمره نحو خمس عشرة سنة ، فأقام سنتين وثمانية أشهر ، وفى أيامه أخذ التتارُ بغدادَ ، وقتِل الخليفة .

ثم إنّ الأمير سيف الدين قُطُز مملوك المعزّ قبضَ على المنصور ، واعتقله فى أواخر ذى القعدة سنة سبع وخمسين ؛ وتملّك مكانه ، ولُقِّب بالملك المظفَّر بعد أن جمع الأمراء والعلماء والأعيان ، وأفتوْا بأن المنصور صبىّ لا يصلح للملك، لا سيّما فى هذا الزمان الصعب الذى يحتاج إلى ملك شهم مطاع لأجل إقامة الجهاد ، والتتارُ قد وصلوا البلادَ الشاميّة ، وجاء أهلها إلى مصر يطلبون النّجدة ؛ وأراد قُطُز أنْ يأخذ من الناس شيئاً ليستعين به على قتالهم ؛ فجمع العلماء ، فحضر الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام ، فقال : لا يجوز أن يؤخذ من الرعيّة شىء حتى لا يبقى فى بيت المال شىء ، وتبيعوا مالكم من الحوائص والآلات ، ويقتصر كلٌّ منكم على فرسه وسلاحه ، وتتساووْا فى ذلك أنتم والعامة . وأما أخذُ أموال العامّة مع بقاء ما فى أيدى الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا . ولم يكن قُطُز هذا مرقوقَ الأصل ، ولا من أولاد الكفر .

قال الجزرىّ فى تاريخه : كان قطز فى رقّ ابن الزعيم ، فضربه أستاذه فبكى ، فقيل له : تبكى من لَطْمة ! فقال : إنما أبكى من لَعْنة أبى وجدّى ، وهما خير منه ، فقيل :

مَنْ أبوك ! واحد كافر . قال : ما أنا إلا مسلم ، أنا محمود بن مودود بن أخت خوارزم شاه من أولاد الملوك .

وخرج المظفر بالجيوش فى شعبان سنة ثمان وخمسين متوجِّهاً إلى الشام لقتال التتار وشاويشه[1] ركن الدين بيبرْس البُنْدقدارِىّ ، فالتقوْا هم والتتار عند عين جالوت، ووقع المصافّ يوم الجمعة خامس عشرى رمضان ، فهزِم التتار شرّ هزيمة ، وانتصر المسلمون ولله الحمد ، وجاء كتاب المظفّر إلى دمشق بالنصر ، فطار الناس فرحاً ، ثم دخل المظفر إلى دمشق مؤيداً منصورا ، فأحبّه الخلق غاية المحبة ، وقال بعض الشعراء فى ذلك :

هَلَكَ الكفرُ فى الشآم جميعاً ... واستجدّ الإسلام بعد دُحُوضِه[2]

بالمليك المظفّر الملك الأرْ ... وعِ سيفِ الإسلامِ عند نُهوضِه[3]

وقال الإمام أبو شامة رحمه الله فى ذلك شعرا :

غَلَبَ التَّتَار على البلاد فجاءهمْ ... من مصر تركىٌّ يجودُ بنفسِهِ

بالشّام أهلكهمْ وبدّد شملهمْ ... ولكلِّ شىء آفة من جنسِه

وساق بيبرس وراء التتار إلى حلب ، وطردهم عن البلاد، ووعده السلطان بحلب . ثم رجع عن ذلك ، فتأثّر بيبرس ووقعت الوحشة بينهما ، فأضمر كل لصاحبه الشرّ ، فاتفق بيبرس مع جماعة من الأمراء على قتل المظفّر ، فقتلوه فى الطريق فى سادس عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين بين العرابى والصالحية ، وتسلطَن بيبرس، ولقّب بالملك القاهر ، ودخل مصر وأزال عن أهلها ما كان المظفّر أحدثه عليهم من المظالم ، وأشار عليه الوزير زين الدين أن يغيّر هذا اللقب ، وقال : ما تلقّب به أحد فأفلح ؛ فأبطل السلطان هذا اللقب، وتلقّب بالملك الظّاهر .

---

(١) الشاويش ، أو الجاويش : لفظ تركى، وكان من وظيفة الجاوشية أيام المماليك السير أمام السلطان فى مراكبه .

(٢) النجوم الزاهرة ٧ : ٨٢

(٣) فى الأصول : « دحوضه » ، تحريف .

[أرجوزة الجزار فى الأمراء المصرية]

وقد نظم الأديب جمال الدين للصرى المعروف بالجزار الشاعر المشهور أرجوزة سماها « العقود الدرية فى الأمراء المصرية » ، ضمّنها أمراء مصر من عمرو بن العاص إلى الملك الظاهر ، هذا فقال :

الحمدُ لله العلىّ ذكرُه ... ومَنْ يفوقُ كلَّ أمرٍ أمرُهُ
أحمدُه وهُوَ ولّى الحمدِ ... على توالِى برِّهِ والرِّفْدِ
ثم الصّلاةُ بعد هذا كُلِّهِ ... على أجلّ خلقِه ورُسْلِهِ
محمّدٍ خير بنى عدنانِ ... ومَنْ أتاه الوحْىُ بالتِّبيانِ
دامتْ عليه صلوات رَبِّهِ ... ثمّ على عِترته وصَحْبِهِ
ياسائِلِى عن أمراء مصرِ ... منذ حباها عُمَرٌ لعمرِو
خذ من جوابى مايزيل اللّبْسَا ... واحفظه حفظَ ذاكرٍ لا يَنْسَى
أوّلُ مَنْ كان إليه الأمْرُ ... مفوّضاً بعد الفتوح عمرُو
وابن أبى سَرْح تولّى أمرَها ... وقيسُ ساس نفعَها وضُرّها
ثم تولّى النَّخَعِىُّ الأشترُ ... وابن أبى بكر كما قد ذَكَرُوا
ثم أعيدتْ بعده لعمرِو ... ثانيةً وعُتْبَةٍ فى الإثْرِ
وعُقْبة ثم الأمير مَسْلَمَهْ ... وابن يزيدَ وهو نجلُ عَلْقَمَهْ
ثم تولّى الأمرَ عبدُ الرّحمنْ ... وبعده تأمّر ابنُ مَرْوانْ
إذ كان ولّاها لهُ أبُوهُ ... وهو بمصر حَوْلَهُ ذَوُوهُ
ثم لعبد الله تعزَى الإمْرَهْ ... وبعده نجل شريك قُرّهْ

ثم تولّى بعــده عبدالملكْ نَقْلاً صحيحاً غـير نقلِ مؤتفكْ
وابن شُرَحبيلَ الأمير أيوبْ وبشرٌ فالأمر إليــه منسوبْ
ثم أخو بشرٍ الأمير حنظَلَهْ ثم غـــدَا محمدٌ والأمْرُ لَهْ
والحرّ نجل يوسفٍ وحَفْصُ من بعــده جاء بذاك النَّصُّ
ثم فتَى رفاعــةٍ عبدالملكْ ثم الوليد صنوُه كلّ مَلِكْ
ثم ابنُ خالدٍ بعــدَ تاليَهْ ثمّ ابنُ صفوانٍ تولَّى ثانيَهْ
وحفصُ قد عاد إليها والياَ وقام حسّانُ الأمير تالياَ
ثم تولّى حفصُ وهى الثالثهْ وابنُ سهيل جاء فيها وارثهْ
وابن عُبيدٍ واسمه المغــيرهْ دبَّر إقليماً غــدا أميرَهْ
ثم ابن مروانَ ولىّ نخم وكان للدولة أىَّ خَتمِ
وصالح أوّلُ مَنْ تولّى ثم ابنُ عونٍ وهو نعم المولَى
ثم أُعيدَ صالحٌ لمصرِ ثانيةً بنهيــه والأمرِ
ثم أبو عونٍ لهـا أعِيــدا ثانيةً وأدرَك المقصودَا
وجاء موسى بعده ابنُ كعبِ محكّماً فى سِلْمِها والحربِ
ثم أتى محمدُ بن الأشعثِ فاسمع لمــتْنا حدثْته وحَدِّث
ثم حميدٌ وهو إبن قَحْطَبَهْ ثم يزيد نال أيضا منصِبَهْ
وقام عبد الله فيهــا يحمَدُ ثمّ أخوه بعده محمَّــدُ
ثم غــدا الأمير موسى بن عِلِى وبعده عيسى بن لقمان وَلِى
وواضحٌ وكان مولَى المنصورْ وبعد ذاك ابن يزيد منصورْ
وجاء يحيى بعــده ابنٌ ممدودْ وسالم فى الأمراء معــدودْ
وبعده أبراهيم نجــل صالح ولم يزل ينظر فى المصالح

وجاء موسى وهو نجل مُصْعَبِ وبعده أسامةٌ بها حُبِي
والفضل نجـلُ صالح أيضا وَلِي وبعده نجل سليمانٍ علِي
ثم حَوَى موسى بن عيسى حرمَهْ ثم تولّاها ابن يحيى مسلمهْ
وابن زهـير واسمه محمّـدُ وجاء داودٌ وهــذا مسنَدُ
وجاء موسى نجـل عيسى ثانيَهْ ونال فى إمرتها أمانيَـهْ
كذاك إبراهيم أيضا وُلِّى فيها كما قد قيل بعد العَزْلِ
وحاز عبد الله منهـا الآفَاقْ وابن سليمان المسمى إسحاقْ
ثم أتى هرثمةٌ وهو الملكْ وبعده ابنُ صالحٍ عَبْدُ الملكْ
ثم عُبيْدُ الله نجـل المهدِى وكان ربَّ حَلِّهـا والعَقْدِ
وبعـده موسى بن عيسى ثالثهْ حتى رأى من دَهْرِه حوادِثَهْ
ثم عُبيد الله نجـل المهدِى ثانيةً فى حَلِّها والعقْدِ
وجاء إسماعيلُ نجل صالحٍ يأمر فى الغادى بها والرّائحِ
وبعده سَمِيُّهُ ابن عيسى تحدُو إليه القاصدون العِيساَ
ثم تولّى الليثُ نجل الفضلِ وأحمد من بعده ذو الفضلِ
وجاء عبد الله يقفو جندَهُ ثم الحسين بن جميل بَعْدَهُ
ثم تولى مالك ثم الحسنْ كلاهما أوضح فى الْعَدْلِ السُّنَنْ
ثم غدا الأمـير فيها حاتمُ وجابرٌ بالأمر فيهـا قائمُ
ثم لعبـاد غدت تنتسبُ وبعــده أميرُها المطّلِبُ
ثم تولَّى أمرَهـا العباسُ وفوّضَ الأمرَ إليـه الناسُ
ثم أعيـد الأمر للمطَّلِبِ ثانيـةً ثم السّرِىّ فاعْجَبِ
ثم سليمان له الأمر حَصَـلْ ثم السرىّ بعد ما كان انفصلْ

ثم تولّى ابن السرىّ الأمْرَا ... وطالَمَا سَاءَ بِهـا وسَرّا
ثم عبيد الله وهو ابن السَّرِى ... وبعـده ابن طاهرٍ لخزَّرِ
وبعده عيسى فتى يزيدِ ... ثم عُميرٌ من بنى الوليدِ
قد كان ولّاها له لمّا قَدِمْ ... على البلاد ابنُ الرشيد المعتصمْ
وعاد عيسى وهو فيها والِى ... وعبدَوْيه ذو المحلِّ العالِى
وقد تولى بعده ابنُ منصورْ ... عيسى وهذا الأمر أمرٌ مشهورْ
وعند ذاك قدم المأمونُ ... لمصر والدُّنيـا لَهُ تَدِينُ
فى سنة تعدُّ سَبْعَ عَشْرَهْ ... ومائتين بعـد عامِ الهجرَهْ
ثم تولّى نصرٌ وهْو كيـدَرُ ... ثم تولاها ابنـه المظفَّرُ
ثم تولّى ابن أبى العبـاسِ ... مُوسى بلا شك ولا التباسِ
ومالك بن كيدرٍ ثم على ... وبعده عيسى بن منصور وَلِى
وبعده هرثمـة بن النَّضْرِ ... وحاكم وكان ربَّ الأمْرِ
ثم علىّ نجلُ يحيى ثانيـهْ ... وجاء إسحاقُ بن يحيى تاليَهْ
وبعده الأميرُ عبد الواحـد ... وهْو ابن يحيى فارْضَ بالفوائدِ
وبعـده عنبسة بن إسحاقْ ... ثم يزيدُ حاز منها الآفاقْ
ثم تولّى أمرَهـا مُزاحمُ ... ثم ابنه أحمـد فيها القائمُ
ونال أرجوزٌ بها ما يقصِدُ ... ثم ابن طولون الأمـير أحمدُ
ثم أبو الجيش ابنهُ من بعـدِهِ ... ثم أتى جيش ولىّ عهدِهِ
ثم تولّى بعـده هارونُ ... وبعده من جَدِّه طولُون
وبعده عيسى فتَى محمّدِ ... ثم تَكين صار ربّ السُّؤدُد
ثم تولاها ذَكَا الأعـورُ ... ثم تكين وهو وقت آخر
ثم هـلالٌ وهُو ابنُ بدرِ ... أصبح فيهـا وهُو ربُّ الأمرِ
ثم تولّى أحمـد بن كَيْغَلَغْ ... ثم تَكينُ إذْ لَهُ الأمر بلغْ

ثم أتى محمّدُ بن طُغْجِ وأحمد ثانيهُ فى النَّهْجِ
ثم تولاّها ابن طغجٍ ثانيه ثم أبو القاسم جاء تاليَهْ
ثم أتى الإخشيدُ من بعد علِى وبعد ذاك الأمر كافورُ وَلِى
وبعد كافورٍ تولّى أحمَدُ ثم أتى جوهر وهْو أيْدُ
ثم تولاَّها المعزّ إذ أتَى ثمَّ العزيز نجلُه خَيْرُ فتَى
ثم ابنه الحاكم ثم الظّاهرُ وكلّهم فى المآثرات باهرُ
ثم تولّى أمرَها المستنصرُ وهْو لعمرِى يقظٌ مستبصِرُ
ثم تولّى أمرَها المستعلِى وكان ربَّ عَقْدِها والحلِّ
وبعد ذاكَ قَدْ حواها الآمِرُ ولم تَكدْ تُعْصَى له أوَامِرُ
ثم تولاَّها الإمام الحافظُ وهو على تدبيرها محافظُ
وجاء إسماعيل وهْو الظافرُ ثم ابنه الفائز وهْو الآخِرُ
أعنى بمن قلت الإمامَ العاضدا محرَّرًا فاغتنم الفوائدَا
وشِيرِكُوه مُدّةً يسيرَهْ تناهز الشهرين منه السِّيرَهْ
ثم تولاَّها الصَّلاحُ يوسفُ ثم العزيز وابنه مستضعَفُ
ثم أتى الأفضلُ نور الدِّينِ وبعده العادل ذو التَّمْكِين
ثم ابنه الكاملُ ثم العادلُ كلاهما بالحكم فيها عادلُ
ثم أتى الصّالحُ وهو الأعظمْ ثم تولاّها ابنُه المعظَّمْ
وبعده أمٌّ خليل ملكتْ وطابَتِ الأفعال فيها وزَكَتْ
والملك الأشرف كان طفلاَ فلم يدبِّرْ عقدها والحلاَّ
ثم استبدّ الملِك المعزُّ ثم ابنه ووافقته الغُزُّ
ثم حواها الملك المظفَّرُ وحظّه من نصره موَفَّرُ
ثم حوى الأمر المليكُ الظاهرُ لازال للأعداء وهو قاهرُ!

ذكر من قام بمصر من الخلفاء العباسيين

كان لانقراض الخلافة ببغداد وما جرى على المسلمين بتلك البلاد مقدّمات نبّه عليها العلماء :

منها ، أنه فى يوم الثلاثاء ثامن عشر ربيع الآخر سنة أربع وأربعين وستمائة ، هبّت ريح عاصفة شديدة بمكّة ، فألقت ستارة الكعبة المشرّفة ، فما سكنت الريح إلّا والكعبة عُريانة ، قد زال عنها شِعار السواد ، ومكثت إحدى وعشرين يوما ليس عليها كسوة .

وقال الحافظ عماد الدين بن كثير : وكان هذا فألا على زوال دولة بنى العباس ؛ ومنذِراً بما سيقعُ بعد هذا من كائنة التّتار لعنهم الله[1] .

ومنها، قال ابن كثير فى حوادث سنة سبع وأربعين : طغى الماء ببغداد، حتى أتلف شيئاً كثيرا من المحالّ والدُّور الشهيرة ، وتعذّرت إقامة الجمعة بسبب ذلك[2] .

وفى هذه السنة هجمت الفرنج على دِمياط ؛ فاستحوذوا عليها وقتلوا خلقاً من المسلمين[3] .

وفى سنة خمسين وقع حريق بحلَب احترق بسببه ستمائة دار ؛ فيقال : إن الفِرنج لعنهم الله ألقوه فيها قصداً[4] .

وفى سنة اثنتين وخمسين ، قال سبط ابن الجوزى فى مرآة الزمان : وردت الأخبار من مكّة شرفها الله ، بأنّ نارا ظهرت فى أرض عدَن فى بعض جبالها ، بحيث أنه يطير

---

(١) البداية والنهاية ١٣ : ١٧٣ . (٢) البداية والنهاية ١٣ : ١٧٧ ، وبعدها : « سوى ثلاث جوامع » . (٣) البداية والنهاية ١٣ : ١٧٧ ، قال : « وذلك فى ربيع الأول منها » .
(٤) نقله ابن كثير فى البداية والنهاية ١٣ : ١٨٢ .

شررها إلى البحر فى الليـل ، ويصعد منها دخان عظيم فى أثناء النهار ،[١] فتاب الناس وأقلعوا عمَّا كانوا عليه من المظالم والفساد ، وشرعوا فى أفعال الخير والصّدقات[٢] .

وفى سنة أربع وخمسين زادتْ دِجْلة زيادة مهولة ، فغرق خلق كثير من أهل بغداد ، ومات خلق تحت الهدْم ، وركب النّاس فى المراكب ، واستغاثوا بالله ، وعاينوا التَّلَف ، ودخل المـاء من أسوار البلاد ، وانهدمت دار الوزير وثلثمائة وثمانون دارا ، وانهدم مخزن الخليفة ، وهلك شىء كثير من خِزانة السلاح[٣] .

قال ابن السّبـكى فى الطبقات الـكبرى : وكان ذلك من جملة الأمور ، التى هى مقدّمة لواقعة التتّار .

وفى هذه السنة،فى يوم الاثنين مستهلّ جمادى الآخرة،وقع بالمدينة الشريفة صوت يشبه صوت الرّعد البعيد تارة وتارة،وأقام على هذه الحالة يومين،فلما كان ليلة الأربعاء تعقّب الصوتَ زلزلة عظيمة ، رجفت منها الأرضُ والحيطان ، واضطرب المِنبر الشريف ، واستمرّت تزلزل ساعة بعد ساعة إلى يوم الجمعة خامس الشهر ، ظهر من الحرّة نار عظيمة، وسالت أودية منها سيلَ المـاء ، وسالت الجبال نارا ، وسارت نحو طريق الحـاجّ العراقىّ ، فوقفت وأخذت تأكل الأرض أكلاً ، ولها كلّ يوم صوت عظيم من آخر الليل لى الضحوة ، واستغاث النَّاس بنبيهم صلى الله عليه وسـلم ، وأقلعوا عن المعاصى ، واستمرّت النار فوق الشهر ، وخسف القمر ليـلة الاثنين منتصف الشهر ، وكسفت الشمس فى غَـدْوة ، وبقيت أياما متغـيّرة اللون ضعيفة النور ، واشتدّ فزع الناس ، وصعد علماء البلد إلى الأمير يعِظونه ، فطرح المـكوس، وردّ على الناس ما كان تحت يده من أموالهم[٤] .

---

(١) بعـدها فيما نقله ابن كثير : « فما شكوا أنها النار التى ذكر النبى صلى الله عليه وسلم أنها تظهر فى آخر الزمان » . (٢) نقله ابن كثير فى البداية والنهاية ١٣ : ١٨٥ . (٣) البداية والنهاية ١٣ : ١٩٠ ، ١٩١ . (٤) البداية والنهاية ١٣ : ١٨٧ .

وقال سيف الدين عليّ بن عمر بن قذل المشدّ فى هذه النار :

ألا سلّما عنّى على خـير مُرْسَلِ ... ومَنْ فضلُه كالسّيل ينحطُّ مِنْ عَلِ
وأشرفِ مَنْ شُدَّت إليـه رحالُنا ... لتُورِدِ هِيمَ الشّوق أعذَب منهلِ
تحمَّلْنَ منّا كلّ أشعثَ أغـبرٍ ... فياعجبا من رَحْلِهَا المتحمّلِ!
إلى سيد جاءت بعـالي محلِّه ... ومعجزه آىٌ الـكتاب المنزَّلِ
نبيٌّ هـدانا للهدى بأدلّةٍ ... فهمنا معانيها بحسن التأوُّلِ
محمّدٌ المبعوث والغىّ مظـلمٌ ... فأصبح وجه الرّشد مثل السَّجَنْجَلِ
وقولا له : إنّى إليـك لَشَيِّقٌ ... عسى الله يدنِى من محلك مَحْمَـلِي
فتخمُدَ أشواقِى وتَسْكُن لوعتى ... وأُصبـح عن كلٍّ الغرام بمعزِلِ
ولمّـا نفى عنّى الـكرَى خبرُ التى ... أضـاءت بإذن ثم رَضْوى ويذبلِ
ولاح سَنَاهـا من جبال قُريظـةٍ ... لسـكان تيماَ فاللِّوى فالعَقَنْقَلِ
وأخـبرت عنها فى زمانك منـذراً ... بيوم عبوسٍ قَمْطَرِيرٍ مُطَـوَّلِ
فقلتَ كلاما لا يدين لقـائلٍ ... سواك ولا يسْطِيعُه ربُّ مِقْوَلِ :
سَتَظْهَر نارٌ بالحجـازِ مضيئةٌ ... كأعناق عيسٍ نَحْو بُصرى لمخيـلِ
فـكانت كما قد قلتَ حقًّا بلا مِرًى ... صدقت وكم كذبت كلّ مُعطِّلِ
لهـا شَرَرٌ كالبرق لـكن شهيقُها ... فـكالرّعد عند السّامِـع المتأمّلِ
وأصبح وجهُ الشمس كالليـل كاسفاً ... وبدرُ الدّجى فى ظلمـة ليس تَنْجَلِي
وغابتْ نجومُ الجوّ قبـل غروبِها ... وكدّرَها دَوْر الدخان المسلسلِ
وهبّت سمومٌ كالجحـيم فأذبلت ... من الباسقات الشمّ كلّ مذلّلِ
وأبدتْ من الآيات كلّ عجيبـةٍ ... وزُلزلت الأرضون أىّ تزلزلِ
وأيقنَ كلُّ النّاس أن عذابَهُمْ ... تعجـل فى الدُّنيا بغير تمهُّلِ

وأعولتْ الأطفالُ مَعْ أمّهاتِهــا ... فيا نفس جُودِى ، يا مدامعِىَ أهملى
جزعت فقام النَّاس حولِى وأقبَــلُوا ... يقولون : لا تهــلِكْ أسًى وتجمَّــلِ
لعــلّ إله الخــلق يرحم ضعفهمْ ... وما أظهروه من عَظِيم التــذلّلِ
وتاب الورى واستغفروا لذنوبِهِمْ ... ولاذوا بمنوالِ الــكريم المبجَّلِ
شفعْتَ لهم عند الإله فأصبحوا ... من النار فى أمنٍ وبرٍّ معجَّل
أغاثهم الرحمن منكَ بنفحــــةٍ ... ألذَّ وأشهى من جنًى ومُعسَّل
طَفى النارَ نورٌ من ضريحك ساطعٌ ... فعادت سـلاما لاتضر بمُصْطلى
وعاش رجاء الناس بعــد مماتهمْ ... فيالكَ من يوم أغرَّ محجــــل!
فيــا راحــلا عن طَيبةٍ إنّ طيبةً ... هى الغاية القصوى لــكل مؤمِّل
قفا نبك ذكراها فإن الذى بها ... أجلُّ حبيب وهْى أشرف منزل
دخلت إليهــا مُحْرِمًا وملبيّــا ... وأضربْتُ عن سِقْطِ الدَّخُول فحَوْملِ
مواقف أمّــا تُربها فهْىَ عنـبرٌ ... وأما كَلَآها فهو نبتُ القَرنفُلِ
يفوح شــذاها ثم يعقب نشرها ... لِمَا راوحَتْها من جَنوبٍ وشمْأل
فيا خيرَ مبعوثٍ وأكرَم شافعٍ ... وأنجَحَ مأمولٍ وأفضلَ موئل
عليكَ سلامُ اللهِ بَعْدَ صلاتِهِ ... كما شُفِــع المسك العبيقُ بمَنْدَلِ

وقال بعضهم فى ذلك[1] :

يا كاشف الضُرّ صفحاً عن جرائمنا ... لقـــد أحاطت بنا يارَبِّ بأساء
نشــكو إليك خطوباً لا نطيق لها ... حَمْلا ونحن بهــــا حقا أحِقّاء
زلازلاً تخشع الصُّمُّ الصِّلابُ لها ... وكيف يَقْوَى على الزلزال شَمّاء
أقام سبعا ترجّ الأرض فانصدعت ... عن منظر منـه عينُ الشمس عشواء

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٣ : ١٩١.

بَحْرٌ من النار تجرى فوقه سفنٌ ... من الهضاب لها فى الأرض إرساء

كأنما فوقه الأجبال طافيةٌ [١] ... موجٌ عليه لفرط الهيْج وعثاء [٢]

ترى لها شرراً كالقصر طائشةً [٣] ... كأنها ديمة تنصبُّ هطلاء

تنشقّ منها قلوب الصخر إن زفرتْ [٤] ... رُعْباً، وترعَد مثل السّعف أضواء [٥]

منها تكاثف فى الجوّ الدخانُ إلى ... أن عادت الشمسُ منه وهى دهْماء

قد أثرت سفعةً فى البدر لفحتُها ... فليلة التِّمّ بعد النّور ليلاء [٦]

وقال آخر فى هذه النار، وغرق بغداد:

سبحان من أصبحتْ مشيئتُه ... جاريةً فى الورى بمقدارِ [٧]

أغرق بغدادَ بالمياه كما ... أحرق أرضَ الحجاز بالنار

قال أبو شامة: والصواب أن يقال:

فى سنة أُغرِق العراق وقدْ ... أُحْرِقَ أرضُ الحجاز بالنَّارِ

وذكر ابن الساعى أنّ النجاب لمّا جاء إلى بغداد بخبر هذه النار، قال له الوزير: إلى أىّ الجهات ترمى شررها؟ قال: إلى جهة الشرق [٨].

قال أبو شامة: وفى ليلة الجمعة مستهلّ رمضان من هذه السنة، احترق المسجد الشريف النبوىّ، ابتدأ حريقه من زاويته الغربيّة من الشّمال، وكان دخل أحدُ القَوَمة إلى خِزانةٍ ثَمّ، ومعه نار فعلِقت فى الآلات، واتّصلت بالسقف بسرعة [٩]، ثم دبّت فى السقوف، فأعجلت النار عن قطعها، فما كان إلّا ساعة حتى احترقت سقوف المسجد أجمع،

(١) ح، ط: «طائفة»، صوابه من الأصل وابن كثير.

(٢) ح، ط: «عثاء» تحريف.

(٣) ابن كثير: «ترمى».

(٤) ط: «ظفرت» تحريف.

(٥) الذيل: «مثل السيف».

(٦) وانظر فى ابن كثير والذيل على الروضتين ١٩٣ بقية الأبيات.

(٧) ابن كثير ١٣: ١٦٢.

(٨) نقله ابن كثير فى البداية والنهاية ١٣: ١٩٢.

(٩) ط: «سرعة».

ووقعت بعض أساطينه ، وذاب رصاصها [وكل ذلك قبل أن ينام الناس] (١) ، واحترق سقف الحجرة النبوية الشريفة، واحترق المنبر الذى كان النبى صلى الله عليه وسلم يخطب عليه .

قال أبو شامة : وعُدّ ماوقع من تلك النار الخارجة وحريق المسجد من الآيات ، وكأنها كانت منذرةً بما يعقبها فى السنة الآتية من الكائنات (٢).

وقال أبو شامة فى ذلك :

نار أرض الحجاز مع حَرَقِ المسـجد معَ تغريق دار السلام (٣)
بعد ستٍّ من المئين وخمسين لدى أربع جرى فى العام
ثم أخْذُ التتار بغدادَ فى أوّ ل عام من بعد ذاكَ وعامِ
لم يُعَنْ أهْلها وللكفر أعوا نٌ عليهمْ ياضيعة الإسلام !
وانقضت دولة الخلافة منها صار مستعصمٌ بغير اعتصام
فحناناً على الحجاز ومصرٍ وسلاماً على بلاد الشّآمِ (٤)

وفى تاريخ ابن كثير عن الشيخ عفيف الدّين يوسف بن البقّال أحد الزهاد ، قال : كنت بمصر ، فبلغني ماوقع ببغداد من القتْل الذريع ، فأنكرته بقلبى ، وقلت : يارب كيف هذا وفيهم الأطفال ومن لا ذنب له ! فرأيت فى المنام رجلا وفى يده كتاب فأخذته فإذا فيه :

دع الاعتراضَ فما الأمر لكْ ولا الحكم فى حركاتِ الفَلكْ
ولا تسأل اللهَ عن فعله فمن خاض لجة بحرٍ هلكْ

---

(١) من الذيل . (٢) الذيل على الروضين ١٩٤ .
(٣) البداية والنهاية ١٣ : ١٩٣ ، والبيت الأول بعد الثانى هناك .
(٤) بعده فى ابن كثير :

ربِّ سَلِّمْ وصُنْ وعافِ بقايا الـ مُدْن ، ياذا الجلال والإكرام

قلت : أجرى الله تعالى عادته أن العامة إذ زاد فسادها وانتهكوا حرمات الله ، ولم تقم عليهم الحدود أرسل الله عليهم آية فى إثر آية ، فإنْ لم ينجح ذلك فيهم أتاهم بعذاب من عنده ، وسلّط عليهم من لا يستطيعون له دفاعا ؛ وقد وقع فى هذه السنين مايشبه الآيات الواقعة فى مقدّمات واقعة التتار ، وأنا خائف من عقبى ذلك ، فاللهمّ سلم سلم ! فأول ماوقع فى سنة ثلاث وثمانين حصول قَحْط عظيم بأرض الحجاز .

وفى سنة خمس وثمانين لم يزد النّيل القدْر الذى يحصل به الرِّىّ ، ولا ثبت المدّة التى يُحتاج إلى ثبوته فيها ، فأعقب ذلك غلاء الأسعار فى كلّ شىء (١) .

وفى سنة ست وثمانين فى سابع عشر المحرم زلزلت مصر زلزلةً منكرة لها دوىّ شديد ، وقع بسببها قطعة من المدرسة الصالحية على قاضى الحنفيّة شمس الدين بن عيد ، وكان من خيار عبادِ الله فقتلتْه .

وفى ليلة ثالث عشر رمضان من هذه السنة ، نزلت صاعقة من السماء على المسجد الشريف النبوىّ فأحرقته بأسره وما فيه من خزائن وكتب ، وأحرقت الحجرة الشريفة والمنبر والسُّقوف ، ولم يبق سوى الجدران ، واحترقت فيه جماعة من أهل الفضلِ والخير ؛ وكان أمراً مهولا .

وفى هذه السَّنَة وقع بالغربيّة بَرَدٌ كبار بحيث قتَل كثيراً من الطير ؛ وقيل إن وزن البَرَدة سبعون درهما .

وفى سنة سبع وثمانين ورد الخبر بأن صاعقة نزلت بحَلَب ، وبأنّ الفناء وقع ببغداد وبلاد الشرق عظيما جدًّا حتى قيل إنه عُدّ ببغداد مَنْ تأخّر من الرجال ؛ فكانوا مائتين واثنين وأربعين نفسا .

وفى ذى الحجة وردت الأخبار بأنّه حصل بمكة فى يوم الأربعاء رابع عشر ذى القعدة

---

(١) البداية والنهاية .

سيلٌ عظيم بحيث دخل البيت الشريف ، فكان فيه قامة ، وأخرب بيوتا كثيرة ، وهدّم جملة من أساطين الحرَم ، ووجد فى المسجد من الغرقاء سبعين إنساناً وخارج المسجد خمسمائة نفس ، واستمرّ الماء فى المسجد إلى يوم السبت ، ولم تُصَلَّ الجمعة . وكتب القاضى برهان الدين بن ظهيرة إلى مصر كتابا بذلك يقول فيه : إنّ هذا السَّيْل لم يعهد مثله لافى جاهلية ولا فى إسلام ، وإنه ذرَع موضع وصوله فى المسجد ؛ فكان سبع أذرع وثلث ذراع ؛ وقد قلت فى ذلك هذه الأبيات :

فى عام ستّ أتى المدينة فى الـــمسجد ناراً أفنته بالحرَقِ
وعام سبع أتى لمكةَ فى الـــمسجد سيْلٌ قد عَمَّ بالغرقِ
وقبلها القحْطُ بالحجاز . فشا ومصْرُ قد زُلزلت من الفرقِ
وانهبط النيل غيرَ منتَفع به وضاقتْ معايش الفرقِ
فهذه جملة أتت نُذُراً مستوجباتٍ للخوف والقلقِ
فليحذر الناس أن يحلَّ بهمْ ما حلّ بالأولين من حَنَقِ

* * *

ولما أخذ التتار بغداد ، وقتل الخليفة ، وجرى ماجرى، أقامت الدّنيا بلا خليفة ثلاث سنين ونصف سنة ؛ وذلك من يوم الأربعاء رابع عشر صفر سنة ست وخمسين ، وهو يوم قتْل الخليفة المستعصم رحمه الله إلى أثناء سنة تسع وخمسمائة ؛ فلما كان فى رجب من هذه السنة قدِم أبو القاسم أحمد بن أمير المؤمنين الظَّاهر بأمر الله وهو عمّ الخليفةالمستعصم وأخوالمستنصر ، وقد كان معتقَلاً ببغداد ثم أطلق ، فكان مع جماعة الأعراب بالعراق ، ثم قصد الملك الظاهر حين بلغه ملكه ، فقدم عليه الدِّيار المصرية صحبة جماعة من أمراء الأعراب عشرة، منهم الأمير ناصر الدين مهنا وكان دخوله إلى القاهرة فى ثانى رجب

فخرج السّلطان للقـائه ، ومعه القاضى تاج الدين والوزير والعلماء والأعيـان والشهود والمؤذّنون فتلقّوه ، وكان يوما مشهودا ، وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بإنجيلهم ، ودخل من باب النّصْر بأبّهةٍ عظيمة .

فلمّا كان يومُ الاثنين ثالث عشر رجب ، جلس السلطان والخليفة فى الإيوان بقلعة الجبل والقاضى والوزير والأمـراء على طبقاتهم ، وأثبت نسب الخليفة على القاضى تاج الدين ؛ فلما ثبت قام قاضى القضاة قائمـاً ، وأشهد على نفسه بثبوت النسبة الشريفة . ثم كان أوّل من بايعه شيخ الإسلام عزّ الدين بن عبدالسلام ، ثمّ السلطان الملك الظاهر ، ثم القاضى تاج الدين ، ثم الأمـراء والدولة ، وركب فى دست الخلافة بمصر والأمراء بين يديه ، والنّاس حولَه ، وشقّ القاهرة ، وكان يوما مشهوداً ولقب المستنصر بالله بلقب أخيه ، وخطِب له على المنابر ، وضرب اسمه على السّـكّة ، وكتبت بيعته إلى الآفاق ، وأنزل بقلعة الجبل هو وحشمه وخـدمُه ، فلمـا كان يوم الجمعة سابع عشر رجب ، ركب فى أبهة السواد ، وجاء إلى الجامع بالقلعـة فصعِد المنبر ، وخطب خطبـة ذكر فيها شرف بنى العباس ، ودعا للسلطان ، ثم نزل فصلّى بالناس ، وكان وقتا حسنا ويوما مشهودا .

ثم فى يوم الاثنين رابع شعبان ركب الخليفة والسلطان والقاضى والوزراء والأمراء وأهل الحلّ والعقْد إلى خيمة عظيمة قد ضربت ظاهر القاهرة ؛ فألبس الخليفة السلطان بيده خِلْعَةً سوداء وعمـامة سوداء ، وطوْقاً فى عنقه من ذهب ، وقيْداً من ذهب فى رجليه . وفوض إليه الأمور فى البلاد الإسـلامية وما سيفتحه من بلاد الـكفر ، ولقبه بقسيم أمير المؤمنين ؛ وصعد فخر الدين بن لقمان رئيس الـكتّاب منبرا ، فقرأ عليه تقليد السلطان ، وهو من إنشائه وصورته :

الحمد لله الذى أضْفى [(١)] على الإسلامِ ملابس الشَّرَف ، وأظهر بهجة دُررِه وكانت

---

(١) ط : « أخفى » تحريف . وفى السلوك : « اصطفى » .

خافيةً بما استحكم عليها من السُّدَف ، وشيّد ما وهَى من علائه حتى أنسى به ذكرَ مَنْ سَلَفْ ، وقيّض لنصره ملوكا اتّفق عليهم من اختلاف .

أحمده على نِعَمِه التى رتعت(١) الأعين منها فى الرّوض الأُنُف، وألطافه التى وقف الشاكر عليها فايس له عنها مُنْصَرف . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادةً توجب من المخاوف أمْناً، وتسهِّل من الأمورما كان حَزْناً .

وأشهد أنّ سيّدنا محمّدا عبده ورسوله الذى جبر من الدين وَهْناً ، والذى أظهر من المكارم فنوناً لا فنّ ، صلّى الله عليه وعلى آله الذين أضحت مناقبُهم باقيةً لاتفنَى، وأصحابه الّذين أحسنوا فى الدين فاستحقوا الزّيادة بالحسنَى ، وبعد :

فإنّ أوْلَى الأولياء بتقديم ذكره ، وأحقّهم أن يصبح القلم راكعا وساجدا فى تسطير مناقبه وبرِّه ، مَنْ سعى فأضحى سعيُه للحمد متقدِّما ، ودعا إلى طاعته فأجابَ مَنْ كان منجداً ومُتْهِما ، وما بدت يد فى المكرُمات إلّا كان لها زَنْدا ومِعْصَما ، ولا استباح بسيفه حمى وغًى إلا أضرم منه نارا وأجرى منه دما .

ولمّا كانت هذه المناقب الشريفة مختصّة بالمقام العالى المولوىّ السلطانىّ الملكىّ الظاهرىّ الركْنىّ شرّفه الله وأعلاه . ذكره الديوان العزيز النبوىّ الإمامىّ المستنصرىّ أعز الله سلطانه تنويهاً بشريف قدره ، واعترافاً بصنيعه الذى تنفدُ العبارة المسْهبة ولا تقوم بشكره .

وكيف لا ، وقد أقام الدولة العباسيّة ، بعد أن أقعدتها زَمَانة(٢) الزّمان ، وأذهبت ما كان لها من محاسن وإحسان ، وعتب دهرها المسىء لها فأعتب(٣) ، وأرضَى عنها

---

(١) ح : « وقعت » .
(٢) الزمانة : الضعف .
(٣) أعتب : « أرضى » .

زمنَها . وقد كان صال عليها صَوْلة مغْضب ، فأعاده لها سِلْما بعد أن كان عليها حرباً ، وصرف إليها اهتمامه فرجع كلّ متضايق من أمورها واسعا رَحْباً .

ومنح أمير المؤمنين عند القدوم عليه حنوًّا وعطفا ، وأظهر من الوَلاء رغبة فى ثواب الله مالا يخفَى ، وأبدَى من الاهتمام بأمر الشريعةِ والبَيْعة أمرًا لوْ رامَهُ غيرُه لامتنع عليه ، ولو تمسّك بحبله متمسِّك لانقطع به قبل وصوله إليه ، ولكن الله ادّخر هذه الحسنة ليُثقِل بها ميزان ثوابِه ، ويخفّف بها يوم القيامة حسابَه والسعيدُ من خفّف من حسابه . فهذه منقبة أبى الله إلا أن يخلِّدها فى صحيفة صُنعِه ، ومكرمة تضمنت لهذا البيت الشريف بجمعه، بعد أن حصل الإياس من جمعه . وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ؛ ويعترف أنّه لولا اهتمامُك لاتّسع الخرق على الراقع ، وقد قلّدك الديار المصرية والبلاد الشاميّة ، والديار البكريّة والحجازيّة واليمنية والفراتيّة ، وما يتجدّد من الفتوحات غَوْراً ونجْداً ، وفوّض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحتَ بالمكارم فرْدا ، ولا جعل منها بلدًا من البلاد ولا حصنا من الحصون يُستثنَى ، ولا جهةً من الجهات تعدّ فى الأعلى ولا فى الأدنى .

فلاحِظْ أمورَ الأمّة فقد أصبحت لها حاملا ، وخلّصْ نفسك من التّبعات اليوم ففى غدٍ تكون مسئولا لاسائلا ، ودع الاغترار بأمر الدنيا فما نالَ أحدٌ منها طائلا ، وما رآها أحد بعين الحق إلّا رآها حائلا زائلا ؛ فالسعيد مَنْ قطع منها آماله الموصولة ، وقدّم لنفسه زاد التقوى ؛ فتقدِمةُ غير التقوى مردودة لامقبولة . وابسط يدك بالإحسان والعدل فقد أمر الله بالعَدل وحثّ على الإحسان ، وكرّر ذكره فى مواضع القرآن ، وكفّر به عن المرء ذنوبا كتبت عليها وآثاما ، وجعل يوماً واحدا منها كعبادة العابد ستين عاما . وما سلك أحد سبيلَ العدل إلّا واجتُنيت ثماره من أفنان ، ورجع الأمر به بعد بعد تداعِى أركانه وهو مشيّد الأركان ، وتحصّن به من حوادث زمانه ؛ والسعيد من تحصّن من حوادث الزمان .

وكانت أيّامه فى الأيّام أبهى من الأعياد ، وأحسن فى العيون من الغُرَر فى أوجه الجياد ، وأحلَى من العقود إذا حُلِّىَ بها عاطل الأجياد .

وهذه الأقاليم المنوطةُ بك تحتاج إلى نوّاب وحكّام ، وأصحاب رأىٍ من أصحاب السيوف والأقلام ؛ فإذا استعنتَ بأحدٍ منهم فى أمورك فنقِّبْ عليه تنقيبا ، واجعل عليه فى تصرّفاته رقيباً ، واسأل عن أحواله ففى يوم القيامة تكون عنه مسؤولا ، وبما اجترم [١] مطلوبا . ولا تولِّ منهم إلا من تكون مساعيه حسنات لك لاذنوبا .

وأْمرْهم بالأناة فى الأمور والرّفق ، ومخالفة الهوى إذا ظهرت أدلّة الحقّ ، وأن يقابلوا الضعفاء فى حوائجهم بالثغر الباسم والوجه الطلق ؛ وألّا يعاملوا أحدًا على الإحسان والإساءة إلا بما يستحق ، وأن يكونوا لمن تحت أيديهم من الرعايا إخوانا ، وأن يوسعوهم برًّا وإحسانا ، وألّا يستحلّوا حرماتهم إذا استحلّ الزمان لهم حرمانا ، فالمسلم أخو المسلم ولو كان أميرا عليه وسلطانا . والسعيد مَنْ نسج ولاتُه فى الخير على منواله ، واستنّوا [٢] بسنته فى تصرّفاته وأحواله ، وتحمّلوا عنه ما تعجز قدرته عن حمل أثقاله ؛ ومما يؤمرون به أن يمحى ماأحدث من سيّئ السّنَن ، وجدّد من المظالم التى هى من أعظم المِحَن ، وأن يُشترى بإبطالها المحامد ، فإن المحامد رخيصة بأغلى ثمن . ومهما جُبِى منها من الأموال فإنما هى باقية فى الدم حاصلة ، وأجياد الخزائن وإن أضحت بها حالية ؛ فإنما هى على الحقيقة منها عاطلة ؛ وهل أشقَى ممّن احتقبَ [٣] إثما ، واكتسب بالمساعى الذميمة ذمًّا ، وجعل السّواد الأعظم له يوم القيامة خَصْما ، وتحمّل ظلم الناس فيما صدر عنه من أعماله ، وقد خاب من حمل ظلما ! وحقيقٌ بالمقام الشريف المولوىّ السلطان الملكىّ الظاهرىّ الركنىّ أن تكون

---

(١) السلوك : « أجرم » .
(٢) ط : « استسنوا » .
(٣) احتقب : حمل .

ظلامات الأنام مردودةً بعدلِه ، وعزائمه تخفّف ثقلًا لاطاقة له بحمله ؛ فقد أضحى على الإحسان قادرا ، وصنعتْ له الأيّام مالم تصنعه لغيره ممّن تقدم من الملوك وإن جاء آخراً .

فاحمد الله على أن وصل إلى جانبك إمام هدًى أوجبَ لك مزيّة التعظيم ، ونبّه الخلائق على مافضّل الله به من هذا الفضل العظيم . وهذه أمورٌ يجب أن تلاحظ وترعى، وأن يوالى عليها حمدُ الله ؛ فإنّ الحمد يجب عليها عقلاً وشرعا ، وقد تبيّن أنك صرتَ فى الأمور أصلًا وصار غيرك فرعا . وممّا يجب أيضا تقديم ذكره أمْر الجهاد الذى أضحى على الأمة فرضاً ، وهو العمل الذى يرجع به مسودّ الصحائف مبيضًا .

وقد وعد اللهُ المجاهدين بالأجر العظيم ، وأعدّ لهم عنده المقام الكريم ، وخصّهم بالجنّة التى لالغوَ فيها ولا تأثيم .

وقد تقدّمت لك فى الجهاد يدٌ بيضاء أسرعت فى سواد الجهاد ، وعُرِفتْ منك عزيمة هى أمضَى ممّا تجنّه ضمائر الأغماد ، وأشهى إلى القلوب من الأعياد ، وبك صان الله حمَى الإسلام من أن يُبتذَل ، وبعزمك حفظ على المسلمين نظامَ هذه الدول ؛ وسيفك أثّر فى قلوب الكافرين قروحاً لاتندمِل ، وبك يرجَى أن يرجع من الخلافة ما كان عليه فى الأيّام الأوّل .

فأيقِظْ لنصرة الإسلام جفنا ما كان غافيا ولا هاجعا ، وكنْ فى مجاهدة أعداء الله إماماً متبوعا لاتابعا ، وأيّد كلمةَ التوحيد فما تجد فى تأييدها إلّا مطيعا سامعا[1] ، ولا تُخْلِ الثّغور من اهتمامٍ بأمرها تبسم لك الثغور ، واحتفالٍ يبدّل مادَجَى من ظلماتها بالنور ، واجعلْ أمرها على الأمور مقدّما ، وشيِّد منها كلّ ماغادره العدوّ منهدماً ؛ فهذه حصون بها يحصل الانتفاع ، وهى على العدوّ داعيةُ الافتراق والاجتماع، وأولاها بالاهتمام ما كان

(١) ط : « متابعا » .

البحر له مجاورا ، والعدوّ له ملتفتاً ناظرا ؛ لاسيّما ثغور الديار المصرية ، فإنّ العدوّ وصل إليها وأتى وراح خاسرا ، واستأصلَهم اللهُ فيها حتى ماأقال منهم عاثرا . وكذلك أمرُ الأسطول الذى تُزْجِى خيلُه كالأهـلّة ، وركائب سائقه بغير سائقٍ مستقلّة ، وهو أخو الجيش السّليمانىّ فإنّ ذاك غدت الرياحله حاملة ، وهذا تـكفّلت بحمله المياه السـائلة . وإذا لحظها جاريةً فى البحر كانت كالأعلام ، وإذا شبّهها قال : هذه ليالٍ تُقلِـع بالأيام . وقد سُـاق الله لك من السعادة كلّ مطلب ، وآتاك من أصَالة الرّأى الذى يريك الُمغيَّب ، وبسط بعد القبض منك الأمل ، ونشّط بالسعادة ما كان مِنْ كسل . وهداك إلى مناهج الحقّ ومازلتَ مهتدياً إليها ، وألزمك المراشد ولاتحتاج إلى تنبيه عليها. والله يمدّك بأسباب نَصْره ، ويُوزعك شكر نِعَمه ، فإنّ النعمة تستتمّ بشـكره[١] !

ثم ركب السلطان بهذه الأبّهة والقيد فى رجليْه ، والطوق فى عنقه ، والوزير بين يديه، على رأسه التقليد ،والأمراء والدّولة مشاة سوى القاضى والوزير . فشقّ القاهرة وقد زُيّنت له ، وكان يوما عظيما .

ثم طلب الخليفة من السلطان أن يجهّزه إلى بغداد ، فرتّب له جندا ، وأقام له كلّ ما يحتاج إليه ، وعزم عليه ألف ألف دينار . وسار السلطان صحبته إلى دمشق ، فدخلاها يوم الاثنين سابع ذى القعدة ، وصلّيا فيها الجمعـة . ثم رجع السـلطان إلى مصر وسار الخليفة ومعه ملوك الشرق ، ففتح الحديثة[٢] ثم هِيت ، فجاءه عسكر من التّتـار فتصافّوا ، فقتِل من المسلمين جماعة وعـدم الخليفة ، فَلَا يُدْرَى : أقتِل[٣] أم هرب ! وذلك فى ثالث المحرم سنة ستين . فـكانت خلافته دون ستة أشهر .

***

(١) التقليد فى السلوك ١ : ٤٥٣ ـ ٤٥٧

(٢) ح ، ط : «الحديث» ،والصواب ما أثبته من تاريخ الخلفاء ٤٧٨ . (٣) تاريخ الخلفاء : « فقيل قتل هو والظاهر، وقيل: سلم وهرب فأضمرته البلاد» .

وكان ممّن شهد الوقعة معه وهرب فيمن هرب أبو العباس أحمد بن الأمير أبى على الحسن القُبىّ[(١)] بن الأمير علىّ بن الأمير أبى بكر بن أمير المؤمنين المسترشد بالله فقصد الرّحبة ، وجاء إلى عيسى بن مهنا ، فكاتب فيه الملك الظاهر[(٢)] فطلبه، فقدِم القاهرة ومعه ولده وجماعة ، فدخلها فى سابع عشرى ربيع الآخر فتلقّاه السلطان ، وأظهر السرور به ، وأنزله بقلعة الجبل ، وأغدقَ عليه ، واستمرّ بقية العامِ بلا مبايعة ، والسّكة تُضرب باسم المستنصر المقتول أوّل العام .

فلما كان يوم الخميس ثامن المحرم سنة إحدى وستين جلس السّلطان مجلسا عاما ، وجاء أبو العباس المذكور راكباً إلى الإيوان الكبير ، وجلس مع السلطان ، وذلك بعد ثبوت نَسَبه ، فقرئ نسبه على الناس ، ثم أقبل عليه السلطان وبايعه بإمْرَة المؤمنين . ثم أقبل هو على السلطان ، وقلّده الأمور ، ثم بايعه الناس على طبقاتهم ، ولقّب الحاكم بأمر الله ؛ وكان يوما مشهودا .

فلمّا كان من الغد يوم الجمعة خطب الخليفة بالناس ، فقال فى خطبته :

الحمد لله الذى أقام لآل العباس ركناً وظهيرا ، وجعل لهم من لدنه سلطانا نصيرا . أحمَده على السرّاء والضرّاء ، وأستعينه على شكر ماأسبَغ من النّعماء ، وأستنصره على الأعداء ، وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، وأنّ محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه نجوم الاهتداء ، وأئمة الاقتداء [لاسيما][(٣)] الأربعة الخلفاء ، وعلى العباس عمّه ، وكاشف غمّه ، وعلى السّادة[(٤)] الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهديّين ، وعلى بقيّة الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

---

(١) ضبطه فى تاريخ الخلفاء : « بضم القاف وتشديد الباء الموحدة » . (٢) تاريخ الخلفاء : « فطالع به الناصر صاحب دمشق » . (٣) من البداية والنهاية لابن كثير .
(٤) ابن كثير : « أبى السادة » .

أيّها الناس ، اعلموا أنّ الإمامة فرض من فروض الإسلام، والجهاد محتومٌ على جميع الأنام،ولا يقوم علَم الجهاد،إلا باجتماع كلمة العباد ، ولا سُبيت الُحرَم إلا بانتهاك المحارم ، ولا سُفِكت الدّماء إلّا بارتكاب المآثم ، فلو شاهدتم أعداء [(١)] الإسلام حين دخلوا دار السّلام ، واستباحوا الدماء والأموال ، وقتلوا الرّجال والأطفال [وسبوا الصبيان والبنات ، وأيتموهم من الآباء والأمهات] ، وهتكوا حرم الخلافة والحريم ، وأذاقوا مَن استبقوا العذابَ الأليم ؛ فارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل ، وعلَتْ الضجّات من هَوْل ذلك اليوم الطويل ؛ فكم من شيخٍ خُضبت شيبته بدمائه ، وكم من طفلٍ بكى فلم يُرحَمْ لبكائه ! فشمّروا ساقَ الاجتهاد فى إحياء فرض الجهاد .

﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا وأطيعوا ، وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ [(٢)]، فلم تبق معذرة فى القعود عن أعداء الدين ، والمحاماة عن المسلمين .

وهذا السلطان الملك الظاهر ، السّيد الأجلّ العالم العادل المجاهد المؤيّد ، ركن الدنيا والدين ، قد قام بنصر الإمامة عند قلة الأنصار ، وشرّد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار ، فأصبحت البَيْعة باهتمامه منتظمةَ العقود ، والدولة العباسيّة به متكاثرة الجنود .

فبادروا عباد الله إلى شكر هذه النعمة ، وأخلصوا نيّاتكم تنصروا ، وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا ، ولا يرد عنكم ماجرَى ؛ فالحرب سجال والعاقبة للمتقين . والدهر يومانِ والآخر للمؤمنين ؛ جمع الله على التقوى أمركم ، وأعزّ بالإيمان نصركم ، وأستغفر الله العظيم لى ولكم ولسائر المسلمينْ . فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم [(٣)] .

---

(١) فى الأصول : « أهل » ، والصواب ما أثبته من ابن كثير . (٢) سورة الحشر ٩ .
(٣) نقلها ابن كثير فى البداية والنهاية ١٣ : ٢٢٨ .

ثم خطب الثانية ، ونزل فصلّى بالناس ، وكتب بيعته إلى الآفاق ليُخطَب له ، وتُكتَب السكة باسمه .

قال أبو شامة : فخُطب له بجامع دمشق وبسائر الجوامع يوم الجمعة سادس عشر المحرّم [١] .

قال ابن فضل الله : ونقش اسمه على السّكّة ، وضُرب بها الدينار والدرهم . قال : ثم خاف الظّاهر عاقبة أمره ، فأسكنه عنده فى القلعة ، وعند حريمه وخدمه وغلمانه ، موسّعاً عليه فى النفقات والكساوى ، يتردد إليه العلماء والقراء على أكمل ما يكون من أنواع الإكرام ، وملاحظة جانب الإجلال والمهابة ، ممنوعا من اجتماع أحد من أهل الدولة . ثم أسقط اسمه من سكّة النقود ، وأبقاه على المنابر .

ثم لاحظه الملك الأشرف خليل بن قلاوون أتمّ من تلك الملاحظة ، ورعى لودّ نعمة الخلافة فيه حقّها ، من جميل المحافظة . انتهى .

قال غيره : وقد خطب بالقلعة مرة ثانية يوم الجمعة رابع شوال سنة تسعين بسؤال الملك الأشرف له فى ذلك ، وذكر فى خطبة توليته السّلطنة للأشرف . ثم خطب مرة ثالثة بالمنصورية بحضرة السلطان والقضاة ، وحضّ على غزو التتار واستنقاذ بلاد العراق من أيديهم ؛ وذلك فى ذى القعدة سنة تسعين . ثم خطب مرة رابعة فى التاسع والعشرين من ربيع الأول سنة إحدى وتسعين ، وحثّ على الجهاد والنّفير ، وصلّى بالناس الجمعة ، وجهر بالبسملة .

قال الذهبى فى العبر : آخر خليفة خطب يوم الجمعة الراضى بالله ، ولم يخطب بعده خليفة إلى الحاكم العباسىّ هذا ، فإنه خطب فى خلافته . انتهى .

* * *

---

(١) نقله ابن كثير فى البداية والنهاية ٣ : ٢٣٨ .

قال ابن فضل الله : ثم لما ملك المنصور لاجين زاد فى إكرامه وصرفه فى الركوب والنزول ، فبرز إلى قصر الكبش ، وسكن به . ثم إنه حجّ فى سنة سبع وتسعين ، فأعطاه المنصور لاجين سبعمائة ألف درهم ، ورجع من الحجّ ، فأقام بمنزله إلى أن مات ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى سنة إحدى وسبعمائة ، ودفن بجوار السيدة نفيسة فى قبّة بنيت له ؛ وهو أوّل خليفة مات بها من بنى العباس . وأرسل نائب السلطنة الأمير سلار خلْف كلّ مَنْ فى البلد من الأمراء والقضاة والعلماء والصّوفيّة ومشايخ الزوايا والرُّبط وغيرهم ؛ حتى حضروا الصلاة عليه .

***

ووليَ الخلافة بعده بعهد منه ولدُه أبو الربيع سليمان،ولقّب المستكفى بالله ، وخُطب له على المنابر بالبلاد المصرية والشامية وسارت البشارة بذلك إلى جميع الأقطار والممالك الإسلامية .

***

قال ابن كثير : قدم البريد من القاهرة سادس جمادى الآخرة ، فأخبر بوفاة أمير المؤمنين الحاكم ومبايعة المستكفى ، وأنه حضر جنازته الناس كلّهم مشاة [١] .

فخُطب يوم الجمعة تاسع جمادى الآخرة للخليفة المستكفى بجامع دمشق ، وكتِب له تقليد بالخلافة ، وقرئ بحضرة السلطان والدولة يوم الأحد العشرين من ذى الحجّة ، ولم يكن السلطان أمضى له عهد والده ؛ حتى سأل الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد ، وهو قاضى القضاة يومئذ : هل يصلح للخلافة أم لا ؟ فقال الشيخ تقىّ الدين : نعم يصلح ، وإنما احتِيج إلى ذلك لأنه كان صغير السنّ ، لم يبلغ عشرين سنة ، فإن مولده فى أربع وثمانين

---

(١) بعدها فى ابن كثير ١٤ : ١٨ : « ودفن بالقرب من الست نفيسة،وله أربعون سنة فى الخلافة » ، وقدم مع البريد تقليد بالقضاء لشمس الدين الحريرى الحنفى .

وستمائة ، وكان له ابن أخ أسنّ منه ، فكان ينازعه الأمر ، فلما أشار الشيخ باستخلافه ، أمضى عهد والده ، وهذه صورة العهد :

الحمد لله الذى رفع المستكفى به لمّا انتصب بشريف همّته للمحلّ الأسمى ، ومنح الأمّة به ربيعَ خفضِ العيْش ، وجزم أمرهم على الصّلاح والتوفيق جزماً ، وأدام الأئمة من قريش ونظم لآلئ حكم أحكامهم فى جِيد الزمان نظما ، وجعل النّاسَ تبعا لهم فى هذا الأمر فغيْرهم بالخلافة المعظمة لا يدعى ولا يسمّى ، فالحاكم الحسن المسترشد المستظهر بذخيرة الدّين القائم بأمر الله القادر المقتدر المعتضد الموفّق المتوكل المعتصم الرشيد المهدى الكامل مَن اقتفى لسنَن سنّتهم رسماً ، استودع الخلافة فى بنى العباس الّذى كان لنبيّه الكريم عمًّا ، وفرّج عنه ليلة العقبة بمبايعة الأنصار كربةً وغمًّا ، فبشّره بأن الخلافة فى عقبه فعمّه بالسرور عمًّا . فلما انتهى ذلك السرّ فى العوالم إلى الحاكم قيل وقد أمسكت هيبة الخلافة عن معرفة حقوقها العظيمة من كلّ عظيم فما ﴿ ففهّمناها سُليمانَ وَكُلًّا آتينا حكما وعلما ﴾ [1] .

أحمَده حمدَ من لم يثنِ عن طاعته وطاعة رسوله وأولى الأمر عزما ، ويورثها من يشاء من خلقه اختيارا ورَغْماً ، وأشهد أنّ محمدا عبده ورسوله الّذى دعا إلى مودّة أولى القربى ومن أفضل من قرابته زكاة وأقرب رُحْماً ، فصلى الله عليه وآله وصحبه وخلفائه وعِتْرته ، الذين هم أعدل البريّة حكما ، وبعد :

فإنّ الملك السّلام منذ أسجد لآدم ملائكته الكرام فى سالف الزمان قِدْماً ، جعل طاعة خلفائه فى بلاده على سائر عباده حتماً ، كيف لا وبهم يعمُر الوجود ، وتقام الحدود وتهدّم أركان الجحود هدماً ! فبحياتهم تأمنُ البلاد وربما صادف قرب وفاتهم أن لبس القمر ليلة التّمّ حُلّة السّواد وأخفى جرما . ولمّا كان سنّة من تقدّم من الأئمة الخلفاء إذا

---

(١) الأنبياء ٧٩ .

خاف أن يهجم عليه الحِمام هجماً ، أو تهدى إليه الأيّام ألماً وسقما ، تفويض الأمر بولاية العهد على الخلق لخير ذويه وبنيه نجْدَةً وحَزْما ، أشهد على نفسه الشريفة مولانا الإمام الحاكم — والحاكم عليه تقواه — المراقب لله فى سرّه ونجواه ، الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين ، ابن عمّ سيد المرسلين ، وارث الخلفاء الراشدين ، أبو العباس أحمد بن الأمير الحسن بن الأمير أبى بكر بن الأمير على القُبِّى بن أمير المؤمنين الرّاشد بالله بن أمير المؤمنين المسترشد بالله أبى منصور الفضل بن أمير المؤمنين المستظهر بالله أبى العباس أحمد بن أمير المؤمنين أبى القاسم عبد الله بن المرحوم الذّخيرة للدّين ولىّ عهد المسلمين محمد بن الإمام القائم بأمر الله أبى عبد الله محمد بن القادر بالله أبى العباس أحمد بن أمير المؤمنين أبى الفضل جعفر المقتدر بالله بن أمير المؤمنين المعتضد بالله أبى العباس بن الأمير محمد الموفّق بالله أبى طلحة ولىّ عهد المسلمين بن أمير المؤمنين جعفر المتوكّل بن أمير المؤمنين أبى إسحاق محمد المعتصم بن أمير المؤمنين هارون الرّشيد بن أمير المؤمنين محمد المهدىّ بن أمير المؤمنين عبد الله المنصور بن محمد الكامل بن علىّ السجّاد بن عبد الله حَبْر الأمّة بن العباس بن عبد المطلب عمّ النبى صلى الله عليه وسلم ، أعزّ الله به الدين ، وأمتع ببقاء نسلِهِ الشريف الإسلام والمسلمين ؛ وهو فى حالة يَسوغُ معها الشهادة عليه ، ويرجع فى الأمور المنوطة للخلافة الشريفة إليه :

أنه عهد إلى ولده لصُلْبِهِ الإمام المستكفِى بالله أبى الربيع سليمان ، شيّد الله به أركان الإيمان ، ونصر ببركة سلفه العِصابة المحمدية على أهلِ الكفر والطغيان ، وجعله ولىّ عهده ، واستخلفه من بعده ، لما علمه من أهليّته وعدالته وكفالته ، وصلاحه لذلك وكفايته ، وشخصه لشهود هذا المكتوب الشريف ، ونبّه على استحقاقه لذلك ومحلّه العالى المنيف ، عهداً صحيحاً شرعيًّا ، معتبرا تاما مرعيًّا ، وفوّض إليه أمر الخلافة المعظّمة تفويضا شرعيًّا صريحا ، وعقد له عقد ولاية العهد على الأمّةِ عقدا صحيحا ، وقبل

ذلك منه القبول الشرعىّ المعتبر المرضىّ ، فالله تعالى يجمع به كلمة الإسلام ، ويصحبه فى خلافته الشريفة رأياً موفّقا ، ويُقمع ببركة سلفه الكرام أهل الطغيان ، ويهيِّئ له من أمره مرفقاً ؛ بمنّه وكرمه آمين .

والحمدُ لله ربّ العالمين ، وصلاته على سيد المرسلين نبيّه وآله وصحبه أجمعين . وبه شهد فى اليوم المبارك السابع عشر من جمادى الأولى سنة إحدى وسبعمائة ، أحسن الله العقبى فى ختامها ، وأجرى الخيرات فيما بقىَ من شهورها وأيامها ، وشهد عليه بذلك أربعةُ شهود ، ورسموا خطوطَهم تحت نسخة العهد بما نصّه :

أشهدنى مولانا الإمام جامع كلمة الإيمان ، ناظم شمل الإسلام ، سيد الخلفاء الأعلام ، إمام المسلمين ، والمناضل عن شريعة سيّد المرسلين ـ الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، أعزّ الله به الدّين ، وأمتع ببقائه الإسلام والمسلمين ، على نفسه الزكيّة الشريفة ، وهو على الحالة التى يسوغ معها تحمّل الشهادة عليه بما نسب إليه أعلاه وشخّص ، إلى مولانا وسيّدنا الإمام المستكفى بالله أمير المؤمنين فى التاريخ المذكور فيه ، وثبت هذا العهد على قاضى القضاة شمس الدين الحنفىّ .

وكتب صورة الإسجال بما نصّه :

ثبت إشهاد مولانا الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، سليل الأئمة المهديّين ، بركة الإسلام والمسلمين ، المنتظم به عِقْد جواهر زواهر أحكام الدّين ، ابن عمّ سيد المرسلين ، أبى العباس بن أحمد الرّاقى بهمّة شرفه أعالىَ الدّرجات ، المنقول برحمة الله ومنّه وحسن سيرته إلى روضات الجنّات ، المشار إليه بأعاليه ، قرن الله يمن خلّته خَلَفَه تأييداً وتسديدا وتوفيقا ، وقرّب له إلى مشاهدة ابن عمه والخلفاء الراشدين فى دار كرامته طريقاً ، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

وإشهاد ولده لصلبه ولىّ عهده المختار للخلافة الشريفة المعظمة من بعده مولانا الإمام المستكفى بالله أبى الربيع سليمان ، ثبّت الله به أركان الإيمان ، وسلّك به مسالك الخلفاء الراشدين وآبائه الطاهرين التابعين لهم بإحسان ، وبارك للأمة المحمّدية فيه ، ونصرهم ببركة سلفه على أهل الطغيان ، على أنفسهما الشريفة المكرّمة ، الطاهرة الزاكية المعظّمة ، بجميع ما نسب إليهما فى كتاب العهد الشريف المسطّر بأعاليه ، على ما نصّ وشرح فيه المؤرّخ بالسابع عشر من جمادى الأولى سنة تاريخ هذا الإسجال ، ثبوتاً صحيحا شرعيًّا ، معتبَرا تامًّا مرعيًّا ، عندسيدنا ومولانا العبد الفقير إلى الله تعالى الكريم ، الحامد فيضَ فضله العميم ، قاضى القضاة ، حاكم الحكّام ، مفتى الأنام ، حجّة الإسلام ، عمدة العلماء الأعلام ، شمس الدّين ، خالصة أمير المؤمنين ، أبى العباس أحمد بن الشيخ الصالح الورع الزاهد ، برهان الدين أبى إسحاق إبراهيم بن عبد الغنى الحنفىّ ، عامله الله بلطفه الخفىّ ، الناظر فى الحكم بالقاهرة ومصر المحروستين ، وسائر أعمال الديار المصرية بالتولية الصحيحة الشرعية . أدام الله أيامه الزاهرة ، وجمع له بين خيرى الدنيا والآخرة ؛ وذلك بشهادة الشهود المعلّم لهم بالأداء أعلاه ، بعد أن أقام كل واحد منهم شهادته بذلك بشروط الأداء المعتبرة ، وذلك أنه شهد على مولانا الإمام الحاكم بأمر الله المشار إليه ، تغمّده الله بالرحمة والرضوان ، وأسكنه فسيح الجنان ؛ وهو على الحالة التى تسوغ معها الشهادة عليه أحسن الله فى آخرته إليه . فقبِل ذلك منه ، وأعلم له ماجرتْ به العادة من علامة الأداء والقبول على الرسم المعهود فى مثله . وحكم مولانا قاضى القضاة شمس الدين الحاكم المذكور ، وقاه الله كلّ محذور ، بذلك كلّه الحكم الشرعىّ ، المعتبر المرعىّ ، وأجاز ذلك وأمضاه ، واختاره وارتضاه ، وألزم ما اقتضاه مقتضاه ، بسؤال من جازت مسألته ، وسُوّغت فى الشريعة المطهرة إجابته ، وذلك بعد استيفاء الشرائط الشرعيّة ، والقواعد المحرّرة المرعية ، وتقدّم الدعوى المعتبرة المرضيّة . وتقدّم هذا الحاكم وفّقه الله لمراضيه ،

وأعانه على ماهو متولّيه ، بكتابة هذا الإسجال ، فكتب عن إذنه الكريم على هذا المنوال ، بعد قراءته وقراءة ما يحتاج إلى قراءته من كتابة العهد الشريف المسطّر أعلاه ، على شهود هذا الإسجال ، وهو وهم يستمعون لذلك فى اليوم المبارك من العشر الأخير من جمادى الأولى سنة إحدى وسبعمائة ، أحسن الله تقضّيها فى خير وعافية .

وبايعه السلطان والقضاة والأعيان ، وألبس جبة سوداء وطرْحة [1] سوداء ، وخلع على أولاد أخيه خِلع الأمراء ، وأشهد عليه أنه ولىّ الملك الناصر جميع ماولاّه والده ، وفوّضه إليه .

ثم نزل إلى داره بالكبش ، ونقش اسمه على سكة الدينار والدرهم . ثم رسم السلطان فى جمادى الآخرة بأن ينتقل الخليفة وأولاده وجميع مَنْ يلوذ به إلى القلعة إكراما لهم . فنزلوا فى دارين ، وأجرى عليهم الرواتب الكثيرة ، واستمرّ دهراً وهو والسلطان كالأخويْن يلعبان بالأكرة ، ويخرجان إلى السّرحات ، وسافرا معا إلى غزوة التّتار نوبة غازيين ، حتى وشى الواشِى بينهما ، فتغيّر خاطر الناصر منه ، وذلك فى سنة ست وثلاثين .

فأمره أن ينتقل من القَلعة إلى مناظر الكبش [2] حيث كان أبوه ساكنا ، ثم أمره أن يخرج إلى قُوص ، فيقيم بها وذلك فى ثامن عشر ذى الحجة سنة سبع وثلاثين ، فخرج إليها هو وأولاده وأهله ، وهم قريب من مائة نفس ، ورتّب له على واصل المكارم أكثر ممّا كان له بمصر ، وتوجّع الناس لذلك كثيرا .

قال الحافظ ابن حجر : وكان بطول مدّته يُخطَب له على المنابر ؛ حتى فى مدة إقامته بقُوص ، واستمرّ بها إلى أن مات فى شعبان سنة أربعين وسبعمائة ، ودفن بها وقد عهد

---

(١) الطرحة : ملبوس القضاة .

(٢) مناظر الكبش: كانت على جبل يشكر بجوار الجامع الطولونى ، وتعرف اليوم باسم قلعة الكبش .

بالخلافة إلى ابنه أحمد وأشهد عليه أربعين عَدْلاً ، وأثبت ذلك على قاضى قوص .

فلما بلغ الناصر ذلك لم يلتفت إلى ذلك العهد ، وطلب ابن أخى المستكفى إبراهيم ابن ولىّ العهد المستمسك بالله أبى عبد الله محمد بن الحاكم بأمر الله أبى العباس أحمد ، وكان جدّه الحاكم عهِد إلى ابنه محمد ، ولقّبه المستمسك بالله ، فمات فى حياته .

فعهد إلى ابنه إبراهيم هذا ظنا أنه يصلح للخلافة ، فرآه غير صالح لما هو فيه من الانهماك فى اللّعب ومعاشرة الأرذال ، فنزل عنه ، وعهد إلى ولد صُلْبه المستكفى ، وهو عمّ إبراهيم ؛ وكان إبراهيم قد نازعه لما مات الحاكم ، فلم يلتفت إلى منازعته اعتمادا على قول الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد ، فأقام على ضغينته حتى كان هو السبب فى الوقيعة بين عمّه وبين الناصر ، وجرى ماجرى .

فلم يمض الناصر عهدَ المستكفى لولده ، وبايع إبراهيم هذا فى يوم الاثنين ثالث رمضان ، ولقّب الواثق بالله ، وراجع الناس السلطان فى أمره ، ووسموه بسوء السِّيرة، خصوصا قاضى القضاة عز الدين بن جماعة ، فإنّه جهد كل الجهد فى صرف السلطان عنه ، فلم يفعل ؛ وما زال بهم حتى بايعوه .

ثم إنّ الله فجع النّاصِرَ بموت أعزّ أولاده الأمير أنوك ، فكان ذلك أول عقوباته ولم يتّع بالملك بعد وفاة المستكفى ، فأقام بعده سنة وأياما ، وأهلكه الله .

وقد قيل: إن وفاة المستكفى كانت سنة إحدى وأربعين ، فعلى هذا لم يتمّ الحوْل على الناصر ، حتى مات بعد ثلاثة أشهر؛ سنّة الله فيمن مسّ أحداً من الخلفاء بسوء ، فإنّ الله يقصِمه عاجلا ، وما يدّخره له فى الآخرة من العذاب أشدّ .

* * *

ثم إنّ الله انتقمَ من النّاصر فى أولاده فسلّط عليهم الخلْع والحبْس والتشّريد فى

البلاد والقتل ، لجميع مَنْ تولّى الملك من ذريته؛ إما أن يخلَع عاجلا ، وإما أن يقتل[1]؛ فأوّل ولد تولّى بعده ، عوجل بخلعه ونفيه إلى قوص ، حيث كان سيّر الخليفة ، ثم قتل بها . وغالب مَنْ تولى من ذريته لم تَطُلْ مدته كما سيأتى .

وقد أقام النّاصر فى السلطنة نيّفا وأربعين سنة ، وتولّى من ذرّيته اثنا عشر نفرا ، لم يتمّوا هذه المدّة ، بل عُجّلوا واحدا فى إثر واحد ، فما أشبّههم إلا بملوك الفرس حيث قال الكاهن لكسرى لما سقطت من إيوانه أربع عشرة شُرْفة ليلة ولد النبى صلى الله عليه وسلم : يملك منكم أربعة عشر ملكا ؛ ثم يذهب الملك منكم ، فقال كسرى : إلى أن يمضىَ أربعة عشر ملكا تكون أمور وأمور ! فانقرضوا فى أقصر مدة ، وكان آخرهم فى زمن عثمان بن عفان رضى الله عنه .

ثم إنّ الله نزع الملك من ولد قلاوون ، وأعطاه بعض مماليكهم ، ولم يُمد إليهم إلى وقتنا هذا ، وبعض ذُرّيته أحياء إلى الآن فى أسوأ حال ، ديناً ودنيا . ومن تأمّل بدائع صنع الله رأى العَجب العجاب ؛ ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون ، وإنما يتذكر أولو الألباب !

ولما حضر الناصرَ الوفاة ندم على ما فعل من مبايعة إبراهيم ، فأوصى الأمراء بردّ العهد إلى ولىّ عهد المستكفى ، فلما تسلطَن ولده أبو بكر المنصور عقد مجلسا يوم الخميس حادى عشر ذى الحجة سنة إحدى وأربعين ، وطلب الواثق إبراهيم وولىّ العهد أحمد ابن المستكفى والقضاة ، وقال : مَنْ يستحقّ الخلافة شرعا ؟ فقال ابنُ جماعة : إنّ الخليفة المستكفى المتوفَّى بمدينة قوص أوصَى بالخلافة من بعده لولده أحمد، وأشهد عليه أربعين عَدْلاً بمدينة قوص ، وثبت ذلك عندى بعد ثبوته على نائبى بمدينة قوص .

فخلع السلطان الواثق حينئذ وبايع أحمد ، وبايعه القضاة .

---

(١) ح ، ط : « قتل بها » .

قال الحافظ ابن حجر . ولقّب أولا المستنصر، ثم لقب الحاكم بأمر الله لقّب جدّه وكتب له ابن فضل الله صورة المبايعة ؛ وهى هذه :

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ إنّ الذين يُبايعونك إنما يبايعُونَ الله يدُ اللهِ فوقَ أيديهمْ فَمَنْ نكث فإنما ينكث على نَفْسِهِ وَمَنْ أوفى بما عاهد عليهُ الله فسيؤتيهِ أجراً عظيما ﴾ [(١)] ، هذه بيعة رضوان وبيعة إحسان ، وبيعة رضا يشهدها الجماعة ويشهد عليها الرحمن . بيعة يلزم طائرها العنق ، ويحوم بسائرها وكلّ أنبائها البرارى والبحار مشحونة الطرق ، بيعة يُصلح الله بها الأمة ، ويمنح بسببها النعمة ، ويتجارى الرّفاق ، ويسرى الهناء فى الآفاق ، وتتزاحم زهر الكواكب على حوض المجرّة الدّقاق . بيعة سعيدة ميمونة ، بها السّلامة فى الدين والدنيا مضمونة ، بيعة صحيحة شرعيّة ، بيعة ملحوظة مرعيّة ، تسابق إليها كلّ نيّة ، وتطاوع كلّ طويّة ، ويجمع عليها شتات البريّة . بيعة يستهلّ بها العام ، ويتهلّل البدر التمام ، بيعة متّفق على الإجماع عليها ، والإجماع يبسط الأيدى إليها ، انعقد عليها الإجماع فاعتقد صحّتها من سمع لله وأطاع ، وبذل فى تمامها كل امرئٍ ما استطاع ، حصل عليها اتفاق الأبصار والأسماع ، ووصل بها الحقّ إلى مستحقّه وأقرّ الخصم وانقطع النزاع . تضمنها كتاب مرقوم يشهده المقرّبون ، وتلقّاه الأئمة الأقربون .

﴿ الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدىَ لولا أنْ هدانا الله ﴾ [(٢)] ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، وإلينا بحمد الله وإلى بنى العباس . أجمع على هذه البيعة أربابُ العقد والحلّ ، من أصحاب الكلام فيما قلّ وجلّ وولاة الأمور والحكّام ، وأرباب المناصب والأحكام ، وحملة العلم والأعلام ، وحماة السيوف والأقلام ، وأكابر

(١) سورة الفتح ١٠ (٢) سورة الأعراف ٤٣

بنى عبد مناف ، ومن انخفض قدره وأناف ، وسرواتُ[1] قريش ووجوه بنى هاشم ، والبقيّة الطاهرة من بنى العباس، وخاصةالأئمة وعامة الناس ، بيعة تُرَى بالحرمَيْن خيامُها ، ويخفق بالمأزمين أعلامها ، وتتعرّف عرفات بركاتها ، وتعرف بمنًى ويؤمّن عليها يوم الحج الأكبر ، ويوم ما بين الركن والمقام والمنبر ، ولا يُبتغى بها إلّا وجه الله الكريم . بيعة لا يحلّ عقدها ، ولا ينبذ عهدها ، لازمة جازمة ، دائبة دائمة ، تامة عامة شاملة كاملة ، صحيحة صريحة ، مُتعبة مريحة ، ولا مَنْ يوصف بعلم ولا قضاء ، ولا من يُرجع إليه فى اتّفاق ولا إمضاء ، ولا إمام مسجد ولا خطيب ، ولاذو فتوى يُسْأل فيجيبُ ، ولا مَنْ حشى المساجد[2] ، ولا من تضمّهم أجنحة المحاريب ، ولا من يجتهد فى رأى فيخطئ أو يصيب ، ولا مجادل بحديث[3] ، ولا متكلم فى قديم وحديث ، ولا معروف بدين وصلاح ، ولا فرسان حرب وكفاح ، ولا راشق بسهام ولا طاعن برماح ، ولاضارب بصفاح ، ولا ساع بقدَم ولا طائر بجناح ، ولا مخالط الناس ولا قاعد فى عُزْلةٍ ، ولا جَمع تكسير[4] ولا قلّة، ولا من يُستقلّ بالجوزاء لواؤه ، ولا من يعلو فوق الفرقدين ثواؤه ، ولا باد ولا حاضر ، ولا مقيم ولا سائر ، ولا أول ولا آخر ، ولا مسرّ فى باطن ولا معان فى ظاهر ، ولا عرب ولا عجم ، ولا راعى إبل ولا غنم ، ولا صاحب أناة ولا بِدار ، ولا ساكن فى حضر وبادية بدار ، ولا صاحب عُمُدٍ ولا جدار ، ولا ملجّج فى البحار الزاخرة والبرارى القفار ، ولا مَنْ يعتلى صهوات الخيل ، ولا من يُسبل على العجاجة الذَّيْل ، ولا من تطلع عليه شمس النهار ونجوم الليل ، ولا مَنْ تظلّه السماء وتقلّه الأرض ، ولا مَنْ تدلّ عليه الأسماء على اختلافها وترفع درجاتٍ بعضهم على بعض ؛ حتى آمن بهذه البيعة وأمّن عليها ، وآمن بها ومنّ الله عليه وهداه إليها ، وأقرّ

---

(١) ط : « وسراة » .

(٢) تاريخ الخلفاء : « لزم المساجد » .

(٣) تاريخ الخلفاء : « محدّث » .

(٤) تاريخ الخلفاء : « كثرة » .

بهـا وصدّق ، وخفض لها بصَره خاشعا وأطرَق ، ومدّ إليهـا يده بالمبايعة ، ومعتقده بالمتابعة ، ورضىَ بها وارتضاها ، وأجاز حكمها على نفسه وأمضاها ، ودخل تحت طاعتها. وعمل بمقتضاها ، ﴿ وقُضِى بينهم بالحقِّ وقِيل الحمدُ لله رَبِّ العالمين ﴾[١] .

وإنّه لما استأثر الله بعبده سليمان أبى الربيع الإمام المستـكفى بالله أمير المؤمنين كرّم الله مثواه ، وعوّضه عن دار السلام بدار السلام ، ونقله مزكّى به عن شهادة الإسلام ، بشهادة الإسلام حيث آثره بقربه ، ومهّد لجنبه ، وأقدمه على ماقدّمه من مرجوٍّ عمله وكسبه ، وحاز له فى جواره فريقا ، وأنزله مع الّذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

الله أكبر ليومه لولا مخلفة[٢] كانت تضيق الأرضُ بما رَحُبت ، وتجزى كلّ نفس بما كسبت ، وتنبئ كلّ سريرة ما ادّخرت وما خبّأت[٣] . لقـد اضطرم سعير[٤] إلا أنّه فى الجوانح ، لقد اضطرب منبرٌ وسرير لولا خلَفه الصالح ، لقد اضطرب مأمور وأمير لولا الفـكر بعدَه فى عاقبة المصالح ؛ ولم يـكن فى النسب العباسىّ ولا فى البيت المسترشدىّ، ولا فى غيره من بيوت الخلفاء من بقايا آباء[٥] وجدود ، ولا مَنْ تلده أخرى الليالى وهى عاقر غير ولود ؛ من تُسَلِّم إليه أمة محمد عقد نيّاتها ، وسرَّ طويّاتها ، إلا واحد وأين ذلك الواحد ! هو والله مَن انحصر فيـه استحقاق ميراث آبائه الأطهـار ، وتراث أجداده [الأخيار][٦] ، ولا شىء هو إلا ما اشتمل عليه رداء الليل والنهار ؛ وهو ولد المنتقل إلى ربّه ، وولد الإمام الذاهب لصلبه ، المجمَع على أنّه فى الأيّام فرد الأنام ، وواحد وهكذا فى الوجود الإمام ، وأنّه الحائز لما زرّت عليه جيوبُ المشارق والمغارب ، والفائز لملك[٧] مابين المشارق والمغارب ، الرامى فى صفيح[٨] السماء هذه الذرّوة المُنيفة ، الراقى بعد الأئمة

(١) الزمر ٧٥ . (٢) تاريخ الخلفاء « مخلفـة » . (٣) تاريخ الخلفاء : « جنت » .
(٤) ط : « سعر » تحريف . (٥) ط : « آبائهم » . (٦) من تاريخ الخلفاء . (٧) تاريخ الخلفاء : « يملك » . (٨) تاريخ الخلفاء : « صفح » .

الماضين ونعم الخليفة ، المجتمع فيه شروط الإمامة ، المتضع لله وهو ابن بيت لا يزال الملك فيهم إلى يوم القيامة ، الّذى يفضح السحاب نائلُه ، والذى لا يَعزّه عادله [1] ولا يغيّره [2] عاذلُه ، والذى ما ارتقى صهوة المنبر بحضرة سلطان زمانه ، إلا قال ناصره وقام قائمه ، ولا قعد على سرير الخلافة إلا وعرف أنّه ماخاب مستكفيه ولا غاب حاكمه ، نائب الله فى أرضه ، والقائم مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وخليفته وابن عمّه ، وتابع عمله الصالح ووارث علمه ، سيدنا ومولانا عبد الله ، ووليّه أبو العباس الإمام الحاكم بأمر الله ، أمير المؤمنين، أيّد الله ببقائه الدّين، وطوّق سيفه رقابَ الملحدين، وكبت تحت لوائه المعتدين ، وكتب له النّصْر إلى يوم الدين ، وكبّ [3] بجهاده على الأذقان طوائف المفسدين ، وأعاذ به الأرض ممّن لا يدين بدين ،وأعاد بعدله أيام آبائه الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهذّبين ، الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون ، ونصرَ أنصارَه ، وقدّر اقتدارَه ، وأسكن فى القلوب سكينتَه ووقارَه ، ومكّن له فى الجود وجمع له أقطاره .

ولمّا انتقل إلى الله ذلك السيّد ولقىَ أسلافَه ، ونُقِل إلى سرير الجنّة عن سرير الخلافة ، وخلا العصر من إمام يُمسك ما بقى من نهاره ، وخليفة يغالب مزيدَ الليل بأنواره ، ووارث نبىٍّ بمثلِه ومثل آبائه استغنى [الوجود] [4] بعد ابن عمه خاتم الأنبياء عن نبىٍّ يقتفى على آثاره ، ومضى ولم يعهد فلم يَبْقَ إذ لم يوجد النص إلا الإجماع ، وعليه كانت الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا نزاع ، اقتضت المصلحة الجامعة عَقْدَ مجلس كلّ طرف منه معقود ، وعقد بيعة عليها الله والملائكة شهود ، وجُمِع الناس له وذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ؛ فحضر مَنْ لم يعبأ بعده بمن تخلّف ،

(١) لا يعزه : لا يغلبه . وعادله : مساويه .
(٢) تاريخ الخلفاء : « لا يغره » .
(٣) تاريخ الخلفاء : « كبته » .
(٤) من تاريخ الخلفاء .

ولم ير بائعه وقد مدّ يدَه طائعا لمزيدها وقد تـكلّف ، وأجمعوا على رأى واحد استخاروا الله فيه نخار ، وأُخِذ يمين تمدّ لها الأيمان ، ويُشدّ بها الإيمان ، وتُعطَى عليهـا المواثيق ، وتعرض أماناتها على كلّ فريق ؛ حتى تقلّد كلّ من حضر فى عنقه هذه الأمانة ، وحطّ على المصحف الـكريم يده وحلف بالله وأتمّ أيمانه ، ولم يقطع ولا استثنى ولا تردّد ، ومنْ قطع عن غير قصد أعاد وجدّد ، وقد نوى كلّ مَنْ حلف أنّ النية فى يمينه نيّةمن عُقدت له هذه البيعة ونية من حُلف له ، وتذمّم بالوفاء له فى ذمته وتـكفله ، على عادة أيْمان البيعة وشروطها وأحكامها المردّدة ، وأقسامها المؤكدة ، بأن يبذل لهذا الإمام المفترض الطاعةِ الطاعـةَ ، ولا يفارق الجمهور ولا يفرّ عن الجماعة الجماعة ، وغير ذلك ممـا تضمنتْه نسخُ الأيمان المـكتتب فيها أسماء مَنْ حلف عليها ممّا هو مكتوب بخطوط مَنْ يكتب منهم ، وخطوط العدول الثّقات عمّن لم يكتبوا وأذنوا أن يُـكتب عنهم ؛ حسبما يشهد به بعضهم على بعض ، وتتصادق عليـه أهلُ السماء والأرض ، بَيعة تمّ بمشيئة الله تمامُها ، وعمّ بالصّوْب المغدق غمامها ؛ وقالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزَن ، ووهب لنـا الحسن ، ثم الحمد لله الـكافى عبدَه ، الوافى لمَنْ تضاعف على كلّ موهبة حَمْده ، ثم الحمد لله على نعمةٍ يرغب[1] أمير المؤمنين فى ازديادها ، ويرهب إلّا أنْ يقاتلَ أعداء الله بإمدادها ، ويرأب بها من أثر فى[2] منابر ممالـكهُ مابان من مباينة أضدادها؛ نحمده والحمد لله ، ثم الحمد لله ، كلمة لا يملّ من تردادها ، ولا تخِلّ بما تفوّقُ السهام من سدادها ، ولا تبطل إلّا على مايوجب تـكثير أعـدادها ، وتـكبير أقدار أهل ودادهـا ، وتصغير التحقـير لا التحبيب لأندادها .

ونشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة تتقايس بدماء الشّهداء وإمداد

---

(١) فى الأصول : « برغبـة » ، والأجود ما أثبتـه من تاريخ الخلفاء . (٢) تاريخ الخلفاء : « من ارتقى منابر » .

مدادِها ، وتتنافس طرر الشباب وغُرَر السحاب على استمدادها ، وتتجانس رقومها المدبّجة وما تلبسه الدولة العباسيّة من شعارها والليالى من دثارها والأعداء من حدادها ؛ صلى الله عليه وعلى جماعة أهله ، ومَنْ خلَف من أبنائها وسلف من أجدادها ، ورضى الله عن الصحابة أجمعين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد ؛ فإن أمير المؤمنين لمّا ألبسه الله من ميراث النبوّة ما كان لجدّه ، ووهبه من الملك السليمانىّ مالا ينبغى لأحد من بعده ، وعلّمه منطقَ الطّير بما تحمّله حمائم النطائق (١) من بدائع البيان ، وسخّر له من البريد على متون الخيل ماسخرّه من الريح لسليمان ، وآتاه من خاتم الأنبياء ماامتدّ به أبوه سليمان وتصرّف ، وأعطاه من الفَخَار به ماأطاعه كلّ مخلوق ولم يتخلّف ، وجعل له من لباس العبّاس مايقضى سواده بسؤدد الأجداد ، وينفض على ظلّ الهُدْب مافضل عن سويداء القلب وسواد البصر من السواد ، ويمدّ ظله على الأرض وكل مكان دار ملك وكلّ مدينة بغداد ، وهو فى ليله السجّاد ، وفى نهاره العسكرىّ وفى كرمه جعفر وهو الجواد ؛ يُديم الابتهال إلى الله فى توفيقه ، والابتهاج بما يَغَصّ كلّ عدوّ بريقه .

وتبدأ بعد(٢) المبايعة بما هو الأهمّ من مصالح الإسلام ، وصالح الأعمال فيما تتحلّى به الأيّام ، ويقدّم التقوى أمامه ، ويقرّر عليها أحكامَه ، ويتبعُ الشرع الشريف ويقف عنده ويوقف الناس، ومن لايحمل أمرَه طائعا على العين يحمله غصْباً على الراسْ ، ويعجّل أمير المؤمنين بما استقرّتْ به النفوس ، ويردّ به كيد الشيطان إنه يئوس ، ويأخذ بقلوب الرعايا وهو غنىّ عن هذا ولكنه يسُوس .

وأمير المؤمنين يُشهد الله وخلقه عليه ، أنه أقرّ ولىّ كلّ أمر من ولاة أمور الإسلام

---

(١) تاريخ الخلفاء : « البطائق » .

(٢) تاريخ الخلفاء : « يوم » .

على حاله ، واستمرّ به فى مقيله تحت كنف ظلاله ، على اختلاف طبقات ولاة الأمور ، وطرقات الممالك والثغور ، برًّا وبحرا ، سهلًا ووعْرا ،شرقًا وغربا ، بعدًا وقُرْبا ، وكلّ جليل وحقير ، وقليل وكثير ، وصغير وكبير ، وملك[1] ومملّك وأمير ، وجندىّ يُرَى[2] له سيف شهير ، ورمح ظهير ، ومنْ مع هؤلاء من وزراء وقضاة وكتّاب ، ومَنْ له تدقيق فى إنشاء وتحقيق فى حساب ، ومنْ يتحدّث فى بريد وخراج ، ومن يحتاج إليه ومَنْ لايحتاج ، ومَنْ فى التّدريس والمدارس، والرّبط والزّوايا والخوانق ، ومن له أعظم التعلّقات وأدنى العلائق ، وسائر أرباب المراتب ، وأصحاب الرواتب ، ومَنْ له من الله رزق مقسوم ، وحق مجهول أو معلوم ، استمرارًا لكلّ امرئٍ على ماهو عليه ، حتى يستخير الله ويتبيّن له مابين يديه ، فمن ازداد تأهيلُه زاد تفضيلُه ، وإلّا فأمير المؤمنين لايريد إلا وجه الله ، ولا يحابى أحداً فى دين الله ، ولا يحابى حقًّا فى حقّ ؛ فإن المحاباة فى الحق مداجاة على المسلمين ، وكلّ ما هو مستمر إلى الآن مستقرّ على حكم الله ممّا فهّمه الله له ، وفهّمه سليمان ، لايغيّر أمير المؤمنين فى ذلك ولا فى بعضه شكرا لله على نعمه ، وهكذا يجازِى من شكر ، ولا يكدّر على أحد موردا نزّه الله نعمه الصافية عن الكدَر ، ولا يتأوّل فى ذلك متأوّلٌ إلا مَنْ جحد النّعمة أو كفر ، ولا يتعلّل متعللٌ ؛ فإن أمير المؤمنين يعوذ بالله ويعيذ أيامه [الغرَر][3] من الغيَر ، وأمرأمير المؤمنين ـ أعلى الله أمرَه ـ أن يعلن الخطباء بذكره ، وذكر سلطان زمانه على المنابر فى الآفاق ، وأن تُضرب باسمهما النقود وتسير بالإطلاق ، ويوشّح بالدّعاء لهما عطف الليل والنهار ، ويصرّح منه بما يشرق به وجهَ الدرهم والدينار .

---

(١) تاريخ الخلفاء : « وممالك ومملوك » .
(٢) تاريخ الخلفاء : « يبرق له » .
(٣) من تاريخ الخلفاء .

وقد أسمع أمير المؤمنين فى هذا المجمع المشهود ما يتناقله كل خطيب ، ويتداوله كلّ بعيد وقريب ، ومختصره أنّ الله أمرَ بأوامر ونهى عن نواهٍ وهو رقيب ، وسيفرغ لها الأولياء السَّجايا ، ويفرع الخطباء لها شعوب الوصايا ، وتتصّل بها المزايا ، وتخرج من المشايخ الخبايا من الزوايا ، ويسمر[(١)] بها السّمار ويترنّم بها الحادى والملاّح ، ويرق شجوها فى الليل المقمر ويرقم على جبين الصباح ، وتعظ بها مكة بطحاءها ، ويحيا بحُدَائها أفناءه ، ويلقنها كلّ أب فهمه ابنه ويسأل كلّ ابن نجيب أباه ؛ وهو لكم أيها الناس من أمير المؤمنين مَنْ سدّد عليكم سنّة ، وإليكم ما دعاكم به إلى سبيل ربّه من الحكمة والموعظة الحسنة .
ولأمير المؤمنين عليكم الطاعة . ولولا قيام الرعايا ما قبل الله أعمالها ، ولا أمسك بها البحرَ ودحَى الأرض وأرسى جبالها ، ولا اتّفقت الآراء على من يستحق وجاءت إليه الخلافة تجرّ أذيالها ، وأخذها دون بنى أبيه :

ولم تكُ تصلُح إلاّ له ولم يَكُ يصلح إلّا لها

وقد كفاكم أمير المؤمنين السؤال بما فتح لكم من أبواب الأرزاق وأسباب الارتزاق ، وآجركم على وفاقكم وعلّمكم مكارمَ الأخلاق ، وأجراكم على عوائدكم ، ولم يمسِكْ خشية الإنفاق ، ولم يبق لكم على أمير المؤمنين إلا أن يسير فيكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويعمل بما يسعد به من يجىء - أطال الله بقاء أمير المؤمنين - مِنْ بعده ، ويزيد على من تقدم ، ويقيم فروض الحج والجهاد ، ويقيم الرعايا بعدله الشامل فى مهاد .

وأمير المؤمنين يُقيم على عادة آبائه موسم الحجّ فى كلّ عام ، ويشمل برّه سكان الحرمين الشريفين وسَدَنة بيت الله الحرام ، ويجهّز السبيل على حالته[(٢)] ،

---

(١) فى الأصول : « يستمر » وصوابه من تاريخ الخلفاء .
(٢) تاريخ الخلفاء : « ويجهز السبيل على ضالة » .

ويرجو أن يعود على حاله الأوّل فى سالف الأيّام ، ويتدفّق فى هذين المسجدين بحرُه الزاخر ويرسل إلى ثالثهما فى البيت المقدّس ساكبَ الغمام ، ويقيم بعدله[١] قبور الأنبياء صلى الله عليهم وسلم أينما كانوا وأكثرهم فى الشام .

والجَمع والجماعات هى فيكم على قديم سُنّتها وقويم سَنَنها ، وستزيد فى أيام أمير المؤمنين لمن تضمّ إليه ، وفيما يتسلّم من بلاد الكفر ويُسلِم منهم على يديه .

وأمّا الجهاد فكفى باجتهاد القائم عن أمير المؤمنين بمأموره[٢] ، المقلّد عنه جميع ما وراء سريره . وأمير المؤمنين قد وُكِّل منه ــ خلّد الله ملكه وسلطانه ــ عيناً لاتنام ، وقلّد سيفا لو أغفتْ بوارقُه ليلةً واحدة عن الأعداء سلّتْ خيالَه عليهم الأحلام ؛ وسيؤكّد أمير المؤمنين فى ارتجاع ما غلب عليه العِدَا .

وقد قدّم الوصية بأن يوالى غزو العدوّ المخذول برّا وبحراً . ولا يكفّ عمّن ظفِر به منهم قتلا ولا أسراً ، ولا يفكّ أغلالا ولا إصْراً ، ولا ينفكّ يرسل عليهم فى البرّ من الخيل عِقْباناً وفى البحر غِرْباناً ، تحمل كلّ منهما من كل فارس صقرا ، ويحمى الممالك مما يتخرّق أطرافها بإقدام ، ويتحوّل أكنافها بأقدام ، وينظر فى مصالح القلاع والحصون والثغور ، وما يحتاج إليه من آلات القتال وأمهات الممالك التى هى مرابط البنود ، ومرابض الأسود ، والأمراء والعساكر والجنود ، وترتيبهم فى الميمنة والميسرة والجناح الممدود ، ويتفقّد أحوالَهم بالعرْض ، بمالهم من خيل تُعقد ما بين السماء والأرض ، ومالهم من زَرَدٍ موضون ، وبيض مسّها ذائب ذهب[٣] فكانت كأنها بيض مكنون ، وسيوف قواضب ، ورماح بسبب دوامها من الدماء خواضب ، وسهام تواصل القسىّ وتفارقها ، فتحنّ حنين مفارق وتزمجر القوس زمجرة مُغاضب .

---

(١) ط : « معونة » .　　(٢) ح : « بمأموره » .

(٣) تاريخ الخلفاء : « ذهبذائب » .

وهذه جملة أراد بها أمير المؤمنين إطابةَ قلوبكم ، وإطالة ذيل التطويل على مطلوبكم ، ودماؤكم وأموالكم وأعراضكم فى حماية إلّا ما أباح الشرع المطهّر ، ويزيد[1] الإحسان إليكم على مقدار ما يخفى منكم ويظهر . وأما جزئيّات الأمور فقد علمتم بأنّ من بَعُد عن أمير المؤمنين غَنِيَ عَن مثل هذه الذكرى ، وأنتم على تفاوت مقاديركم وديعة أمير المؤمنين ، وكلُّكم سواء فى الحقّ عند أمير المؤمنين ، وله عليكم أداء النصيحة ، وإبداء الطاعة بسريرة صحيحة ؛ فقد دخل كلٌّ منكم فى كنف أمير المؤمنين وتحت رقّه ، ولزمه حكم بيعته وألزم طائره فى عنقه ؛ وسيعلم كل منكم فى الوفاء بما أصبح به عليما ، ومَنْ أوفى بما عاهد عليهُ الله فسيؤتيه أجرا عظيما .

هذا قول أمير المؤمنين ؛ وقال وهو يعمل فى ذلك كله بما تحمد عاقبته من الأعمال ، وعلى هذا عهِد إليه وبه يمهد ، وما سوى ذلك فجوْر لا يشهد به عليه ولا يشهد ؛ وأمير المؤمنين يستغفر الله على كلّ حال ، ويستعيذ به من الإهمال ، ويسأله أن يمدّه لما يحب من الآمال ، ولا يمدّ له حبل الإهمال .

ويختم أمير المؤمنين قوله بما أمر الله به من العدل والإحسان ، والحمد لله وهو من الخلق أحمد، وقد آتاه الله ملك سليمان، والله يمتع أمير المؤمنين بما وهبه ، ويملّكه أقطار الأرض ويُورثه بعد العمر الطويل عقِبه ، فلا يزال على سُدّة العلياء قعودُه ، ولدست الخلافة به أبهة الجلالة كأنه مامات منصوره ولا أودى مهديه ولا رشيدُه[2] .

* * *

ومن قصيدة ابن فضل الله التى سماها حسن الوفاء بمشاهير الخلفاء :

وطار منهم نحو مصرَ قشعمٌ ... قَدْ جاءها كما يجيء الطائرُ

---

(١) تاريخ الخلفاء : « ومزيد » .

(٢) نقله السيوطى فى تاريخ الخلفاء ٤٩١ ـ ٤٩٩ .

قال أخى مستنصرٌ ووالدى والدهُ وهْو الإمام الظاهر
فلقّبوه مثــله مستنصرا وذاك أن جـدّ هـــذا الناصر
وكان منــه الظاهر السلطـان ذا خوف ومن بأسائه يحاذِرُ
فبايعوا الحاكم بعـــد أن أتى وفر فالتفّت به العشائر
وهْو أبو العباس أحمد الرضــا من ولد الرّاشد نجم زاهـرُ
وقام مستــكفٍ كفـاه ربّه جميـعَ مايخاف ناهٍ آمرُ
وبعـــده الواثقُ إبراهيم لا عاد ولا دارَتْ له الدوائر
والحاكم الآن إمام عصرنا بُشْرَى لنـا إنّا له ننــاصِرُ

ثم فى يوم الاثنين ثانى محرم سنة اثنتين وأربعين حضر الخليفة الحاكم والسلطان المنصور والقضاة بدارِ العدل ، فجلس الخليفة على الدرجة العلياء ، وعليـه خلعة خضراء ، وفوق عمامته طَرْحـة سوداء مرقومة بالذهب ، وجلس السلطان دونه ، فقـام الخليفة وخطب خطبة افتتحها بقوله :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظـكم لعلكم تذكرون[(١)] ، وبقوله : ﴿ وأوْفوا بعهد الله إذا عاهدتم وَلَا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جَعَلْتمُ الله عليـكمْ كفيلاً إنّ الله يعـلم ماتفعلون ﴾ [(٢)] ثم أوصى الأمراء بالرفق بالرعيـة وإقامة الحق ، وتعظيم شعائر الإسـلام ونصرة الدين ، ثم قال : فوضّت إليك جميع أحـكام المسلمين ، وقلّدتك جميـع ماتقلّدته من أمور الدين ﴿ فَمَنْ نَـكَثَ فإنما ينـكث على نفسه ﴾ [(٣)] وقرأ الآية ، وجلس. ثم جىء بخلعة سوداء ألبسها الخليفة السلطان بيده ، ثم قلده سيفا عربيًّا ، ثم أخذ علاء الدين بن فضل الله كاتب السرّ فى قراءة عهد الخليفة للسلطان ، حتى فرغ منه ، ثم قدّمه إلى الخليفة ، فـكتب عليـه ثم

(١) النحل ٩٠ (٢) النحل ٩١ . (٣) الفتح ١٠ .

كتب بعده القضاة الأربعة بالشهادة عليه، واستمرّ الخليفة فى منصبه الشريف إلى أن مات بالطاعون شهيدا فى منتصف سنة ثلاث وخمسين، ولم يعهد بالخلافة لأحد .

* * *

فجمع الأمراء شيخو ورفقته القضاة ، وطلب جماعة من بنى العباس ، فوقع الاختيار على أخيه أبى بكر بن المستكفى [1] ، فبايعوه ولقّب المعتضد بالله ، وكُنِّى أبا الفتح ، وضُمّ إليه نظر المشهد النفيسىّ ، فأقام إلى أن مات ليلة الأربعاء ثامن عشر جمادى الأولى سنة ثلاث وستين .

قال بدر الدين بن حبيب فى ترجمته : أمير المؤمنين ، وقائد المذعنين ، وإمام الأئمة ، وقدوة المتكلّمين فى براءة الذّمة ، علتْ أركانه ، وبَسقت أغصانه ، وتجمّلت به ديار مضره ، وصغت إلى رأيه ملوك عصره ، رأس وسادَ ، ومنح وأفاد ، ورفَلَ فى حُلَلِ النعيم ، وهدى إلى سلوك الطريق المستقيم ، واعتضد بالله فى أموره ، ولم يختف عن الناس بحجبه ولا ستوره ، واستمرّ سائراً فى منهاج عزّه وبقائه ، إلى أن لحق بعد عشرة أعوام بالخلفاء الكرام من آبائه .

* * *

وعهد بالخلافة لولده أبى عبد الله محمد ، فقام بعده ولقّب المتوكل على الله ؛ هذه صورة العهد :

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمدُ لله الذى ميّز أبناء الخلفاء برُتَب العدالة ، وألبس مَنْ نشأ منهم على ستر العفاف خلَعها المذَالة ، ورفع قدره على أقرانه حين سلك سُبُلَ الرشاد التى أوضحها له .

---

(١) فى تاريخ الخلفاء ٥٠٠ : « بويع بالخلافة بعد موت أخيه فى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة بعهد منه ، وكان خيرا متواضعا محبا لأهل العلم ، مات فى جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وسبعمائة » .

(حسن المحاضره ٢/٦)

أحمده على نعمه التى هى على عبده منها له ، وأشكره شكراً أستزيدُ به نعمَه وإفضالَه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادة امرئ أخلَص بها نيّته ومقالَه ، وأشهد أنّ محمدا عبده ورسولُه المخصوص بعموم الرسالة ، والمبعوث بأوضح حجّة ودلالَة ، والصّادق الأمين الذى أخلص لله أقوالَه وأفعاله ؛ صلّى الله عليه وعلى آلِه وأصحابه أولى الصّدْر والأصالة ، والمفاخر الباهرة والجلالة ، وسلّم تسليما كثيرا . ورضى الله عن أوّل الخلفاء بعد نبينّا محمد المصطفى الذى صحبه بوفاء شيخ الوقار ، ومعدن الجود والافتخار ، وأنيس سيّد المرسلين فى الغار ، ذى الكرم العريق ، والرأى الوثيق ، والإخلاص والتّصديق . السابق للنبوّة والرّسالة بالتّصديق ، المكنىّ بعتيق ؛ هو الإمام أبو بكر الصديق . وعن عمّىْ نبيّه حمزة والعباس ، المطهّريْن من الدّنَس والأرجاس .

وبعد ، فالخلافة أشرف ملابس أهل الديانة ، وأزهى حُلَل الصِّيانة ، وهى أصل كلّ سيادة يُتوصّل إليها ، ورياسة جلّ الاعتماد عليها ؛ إذ هى أجلّ المناصب وأنماها ، وأشرفها وأرفعها وأسناها ، وأنفَسُها وأعلاها وأغلاها ، ومن لوازمها ألاّ يؤتى تقليدَها إلا من اتّصف بصفاتها المرضيّه ، وتحلّى بحلاها المرعيّة ، ورقى بجميل سيرته إلى مراتبها العليّة . ولمّا كان من يأتى اسمه فى هذا المكتوب ممن هو حقيق بها لامحالة ، وجدير بأن يبلغه حسن الظنّ منها آماله ؛ إذْ كان متصفا بصفاتها الحميدة ، متقيداً بآرائها السديدة ؛ وقد لاحت عليه أثارُ الخلافة وظهرت ، وذاعت محامده واشتهرت ، وقامت الأدلّة بأهليّته لتقليدها ، وأنه كفء لتناول طريفها وتليدها ؛ استخار الله سيّدُنا ومولانا الإمام المعتضد بالله ، المستمسك بتقواه ، المراقب له فى سرّه ونجواه ، أمير المؤمنين ، خليفة ربّ العالمين ، ابن عمّ سيد المرسلين أبو الفتح أبو بكر بن سيدّنا ومولانا المستكفى بالله أبى الرّبيع سليمان أمير المؤمنين ، أعزّ الله به الدين ، وأمتع ببقائه الإسلام والمسلمين ، وأشهد على نفسه الكريمة ، أسبغ الله عليه نعمه العميمة ، إنه عهد إلى ولده لصُلبه الإمام

المتوكلّ على الله أبى عبد الله محمد نصر الله به الإسلام وأيّده، ونفع به نفعا مستمرا مؤبّده وجعله ولىّ عهـدِه، ورضيّه خليفة على الرعيـة من بعده؛ لِمَا علم من ديانته وعدالته وكفالته وكفايته ومروءته وحسن قصده، عهـدا صحيحا شرعيًّا، تامًّا معتبرا مرضيًّا، وفوّض إليه أمرَ الخلافة تفويضاً صريحا، وعقَد له ولاية العهد على الرعيّة عقداً صحيحـا وقبِل ذلك قبولا شرعيًّا، جعـله الله لشريعة نبيّه محمـد ناصراً مؤيّدا، وجمع به كلمة الإسلام.

وصدَر الإشهادُ بذلك فى اليوم المبارك يوم الثلاثاء الثالث عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وستين وسبعمائة.

فاستمرّ إلى أن قُتِل الأشرف شعبان وأقيم ولد المنصور علىّ، وكان أينْبَك البدرىّ مدبّر دولته، وقد حقد على المتوكّل أموراً، فطلب نجم الدين زكريا بن إبراهيم بن ولىّ العهد المستمسك بن الخليفة الحاكم يوم الاثنين رابع ربيع الأوّل سنة تسع وسبعين، فخلَع عليه، واستقرّ خليفة بغير مبايعة ولا إجماع، ولقّب المعتصم بالله. ثم فى العشرين من الشهر كلّم الأمراء أينَبك فيما فعله مع المتوكّل، ورغّبوه فى إعادته إلى الخلافة. فأعاده وخلع زكريا، فكانت خلافته خمسة عشر يوما. ثم لم يتمّ الشهر على أينبَك حتى اتفق العساكر على خلافه والخروج عليـه، فهرب ثم ظُفِر به فى تاسع ربيعَ الآخر، فقيّد وسُجن بالإسكندريّة وكان آخر العهد به.

وقال فيه الأديب شهاب الدين بن العطار:

من بعـــد عزّ أذلّ أينبَكَا وانحطّ بعدَ السموّ مَنْ فتَكا[1]
وراحَ يبكى الدّماءَ منفرداً والنّاس لا يعرفُون أين بكَى

***

واستمرّ المتوكل فى الخلافة إلى رجب سنة خمس وثمانين. فبلغ الظاهرَ برقوقاً أنه

(١) النجوم الزاهرة ١١ : ١٥٨

واطأ جماعةً أن يقتلوه إذا لعب الأكرة ، ويقوموا بنصرة الخليفة واستبداده بالأمر، وإن الخليفة ذكر أنّه مافوّض إليه السلطنة إلا كُرهاً ، وأنه لم يسِرْ فى مُلْكِه بالعدل . فاستدعى برقوق بالقضاة ليُفتوه فى الخليفة بشىء فامتنعوا ، وقاموا عنه ، فخلع هو الخليفة بقوّته وسجَنه بالقلعة . ثم طلب عمر بن إبراهيم بن المستمسك بن الحاكم ، وبايعه بالخلافة ولقب الواثق بالله. ثم فى ذى القعدة من السّنة ، أخرج المتوكل من السجن، وأقام بداره مكرّماً ، واستمر الواثق فى الخلافة إلى أن مات يوم الأربعاء تاسع عشرى شوال سنة ثمان وثمانين .

فكلّم الناسُ برقوقاً فى إعادة المتوكّل ، فأبى وأحضر أخا عمر زكريا الذى كان أينبَك ولّاه تلك الأيام اليسيرة ، فبايعه ولقّب المعتصم بالله ، فاستمرّ إلى يوم الخميس ثانى جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين . فندم برقوق على ماصنع بالمتوكّل ، فخلع زكريا وأعاد المتوكّل إلى الخلافة ،وحلّف القضاة كلًّا من الخليفة والسلطان للآخر على الموالاة والمناصحة . وأقام زكريّا بداره إلى أن مات مخلوعا فى جمادى الأولى سنة إحدى وثمانمائة. وقرئ تقليدُ المتوكل بالمشهد النفيسىّ فى ثامن عشر الشهر بحضرة القضاة والأمراء ، وقرّر له السلطان داراً بالقلعة يسكنها ، ويركب إلى داره بالمدينة متى شاء .

واستمرّ المتوكّل فى خلافته هذه إلى أن مات ليلة الثلاثاء ثامن عشرى رجب سنة ثمان وثمانمائة .

قال المقريزى : وهو أوّل من أثرى من خُلَفاء مصر ، وكَثُر ماله ، ورزِق أولادا كثيرة ، يقال إنه جاء له مائة ولد ، مابين مولود وسَقط ، ومات عن عدّة أولاد ذكور وإناث ، ولىَ الخلافة منهم خمسة ، ولا نظير لذلك ؛ وأكثرُ إخوته ولُوا الخلافة فيما تقدّم ، أربعة . واتّفق للمتوكّل هذا أنّه عاد إلى الخلافة بعد خلعه مرتين ، ولم يقع ذلك لأحد فيما تقدّم إلا للمقتدِر فقط .

ورأيت فى تاريخ عالم حلب المحبّ أبى الوليد بن الشِّحنة أنّه فى سنة سبع وتسعين وسبعمائة ، أرسل أبو يزيد بن عثمان إلى الخليفة المتوكّل بهدايا وتُحف فى طلبِ تشريف منه بأن يكون سلطان الروم ؛ فجهز له ذلك .

وذكر الحافظ ابن حجر فى إنباء الغُمْر ، أن مولد المتوكل هذا فى سنة نيِّف وأربعين وسبعمائة ، وأنّه لما تسلطن برقوق المرّة الأولى حَسَّن له جماعةٌ من أهل الدولة وغيرهم طلبَ المُلْك ؛ فكاتب الأمراء والعربان مصرا وشاما وعراقا ، وبثّ الدعاة فى الآفاق . فبلغ ذلك برقوقاً ، فخلعه وسجنه ، فخرج يلبغا الناصرىّ على برقوق بسبب ذلك ، فأفرج عنه برقوق ، وأعاده إلى الخلافة ، وفرح الناس به فرحا كثيرا . فلما انتصر الناصرىّ ، وزالت دولة برقوق قال الناصرىّ للخليفة بمحضر من الأمراء : يامولانا أمير المؤمنين ، ماضربتُ بسيفى هذا إلّا فى نصرتك ؛ وبالغَ فى تعظيمه وتبجيله ، فتبرّم المتوكل من الدخول فى المُلْك ، وأشار بإعادة حاجى بن شعبان .

وكان المتوكّل عهد بالخلافة لولده أحمد ، ولقّبه المعتمد على الله ، ثم خلعه وعهد إلى ابنه أبى الفضل العباسى ؛ فاستقرّ فى الخلافة بعده ، ولقِّب المستعين بالله ، فأقام إلى أن خرج شيخ على الناصر فرج ، وظفِر به ، وذلك فى المحرّم سنة خمس عشرة وثمانمائة ، فأشهد على الخليفة بخلْع الناصر من الملك ، لِما ثبت عليه من الكفريّات والانحلال والزندقة ، وحكم ناصر الدين بن العديم بسفك دمه .

واتفق رأىُ الأمراء على سلطنة الخليفة واستقلاله بالأمر ، فلم يوافقهم الخليفة إلا بعد شدّة وتوثّق منهم بالأيمان ، فبايعه الأمراء كلُّهم ، وحلفوا له على الوفاء ، ولم يغيِّر لقبَه ، وجلس على كرسىّ المُلْك ، وقام الكلّ بين يديه ؛ وذلك بالشام ، وقرر بُكْتُمر جِلّق فى نيابة الشام وقُرْقُمَاس فى نيابة حلب وسودون الجلب فى نيابة طرابلس ، وشيخ ونوروز فى ركابه ، يدبّران الأمر ، ونادى منادى الخليفة : ألا إن فرج بن برقوق

قد خُلِع من السلطنة ، ومن حضر إلى أمير المؤمنين وابن عم سيد المرسلين فهو آمن . فتسلّل الناس من الناصر . وكتب المستعين إلى القاهرة باجتماع الكلمة له. وعزل الجلال البُلقينيّ عن قضاة الشافعيّة ، وولّى بدله شهاب الدين الباعونىّ ، فحقدها عليه البُلقينىّ ، حتى فعل معه بعد ذلك مافعل .

ثم أرسل المستعين كتابا ثانياً إلى من بالقاهرة من الأعيان، فأرسل إلى الجامع الطولونىّ، فقرأه خطيبه ابن النّقاش على المنبر ، ثم أرسل إلى الجامع الأزهر ، فقرأه خطيبه الحافظ ابن حجر على المِنبر ، ثم فرّ الناصر إلى حلب ، فقام ناسٌ على الأسواق، فنادوْا : نصَر الله أمير المؤمنين ، فلما سمع الرّماة ذلك تخوّفوا على أنفسهم ولم يغيثوه ، ثم قبض على الناصر وقتِل بحكم ابن العديم .

ثم إن المستعين صرف بُكْتُمر جِلّق عن نيابة الشام وقرّر فيها نوروز ، وقرّر بُكْتُمر أميرا كبيرا بالقاهرة، وصدرت الكتب من المستعين إلى أمراء التركمان والعُربان والعشير . ومفتتحها : من عبد الله ووليّه الإمام المستعين بالله أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين وابن عمّ سيد المرسلين المفترَضة طاعته على الخلق أجمعين ، أعزّ الله ببقائه الدين، إلى فلان . ثم توجّه هو والعسكر إلى القاهرة ، فدخلوا فى يوم الثلاثاء ثانى ربيع الآخر بعد أن تلقّاهم النّاس إلى قَطْيَا وإلى الصالحيّة وإلى بلبيس ، وحصل للناس من الفرح بذلك مالا مزيد عليه ، ونادى فى الناس برفع المظالم والمكوس .

وعمل الحافظ أبو الفضل بن حجر فى المستعين قصيدته المشهورة وهى :

الْمُلْكُ أصبح ثابتَ الآساسِ ... بالمستعينِ العادل العبّاسى[1]

رجعت مكانةُ آل عمّ المصطفى ... لمحلها من بعد طول تناسِ

---

(١) نقلها السيوطى فى تاريخ الخلفاء ٥٠٦ — ٥٠٨ ، وفيه : « الملك فينا ثابت الآساس » .

ثانى ربيــــع الآخر الميمون فى ... يوم الثــــلاثا حُفَّ بالأعراس
بقـــــدوم مهدىّ الأنام أمينِهم ... مأمونِ غيبٍ طاهر الأنفــاسِ
ذو البيت طاف به الرجاء فهل يرىَ ... من قاصــــدٍ متردّد فى الياس
فرع نمـــــا من هاشمٍ فى روضة ... زاكى المنـــابتِ طيّب الأغراس
بالمرتضى والمجتبى ، والمشـــترى ... للحمد للحـــالى به والــكاسى[(١)]
من أسرة أسروا الخطوب وَطَهّروا ... ممّا بغــــــيرهم من الأدناس
أُسْدٌ إذا حضروا الوغى وإذا خَلَوْا[(٢)] ... كانوا بمجلسهم ظبـــاءَ كِناس
مثـــل الــكواكب نورهم مابينهم ... كالبدر أشرق فى دجى الأغـــلاس
وبكفّه عنـــــد العلامة آيةٌ ... قلمٌ يضىء إضـــاءة المِقبَاسِ
فلبِشْره للوافدين مبـــــاسمٌ ... تُدْعى وللإجــــلال بالعباسى
فالحمـــد لله المعزّ لدينــــه ... من بعد ماقد كان فى إبلاسِ
بالســـادة الأبرار أركانِ العلا ... من بينِ مــدركِ ثاره ومواسِ
نهضوا بأعباء المناقبِ وارتَقَوْا ... فى منصب العليــا الأشمّ الراسى
تركوا العِدى صرعَى بمعتركِ الردى ... فالله يحرسهم من الوسواسِ
وإمامهم بجــــلالِه متقدّمٌ ... تقـــديمَ « بسم الله » فى القرطاسِ
لولا نظـــــامُ الملك فى تدبيرِه ... لم يستقم فى الملك حال الناس
كم من أميرٍ قبــــله خطب العُلا ... وبجهــده رجعتــه بالإفــلاس
حتى إذا جاء المعالىَ كفوُها ... خضعتْ له من بعــد فرط شِمَاسِ

---

(١) تاريخ الخلفاء : « والحالى » .   (٢) فى الأصول : « خافوا » والصواب ما أثبتــه من تاريخ الخلفاء .

طاعت له أيدى الملوك وأذعنَتْ من نيلِ مصر أصابعُ المِقْياسِ
فهو الذى قد ردّ عنا البؤس فى دهر به لولاه كل الباس
وأزال ظلماً عمّ كل معمّم من سائر الأنواع والأجناس
بالخاذلِ المدعوّ ضد فعاله بالنّاصر المتناقضِ الآساس
كم نعمةٍ لله كانت عنده فكأنها فى غربة وتناس
مازال سرّ الشر بين ضلوعِه كالنار أوْ صحبَتْه للأرماس
كم سنّ سيئةً عليه أثامُها حتّى القيامة ماله من آس
مكراً بنىَ أركانَه ، لكنّها للغدر قد بنيتْ بغير أساسِ
كلّ امرئٍ ينسى ويذكر تارةً لكنّه للشرّ ليس بناسِ
أمْلَى له ربّ الورى حتى إذا أخذوه لم يفلتهُ مرّ الكاسِ
وأدالنا منه المليك بمالك أيّامه صدرت بغير قياس
فاستبشرت أمّ القرى والأرض من شرق وغرب كالعُذَيْبِ وفاسِ
آيات مجد لا يحاول جَحْدَها فى النّاس غيرُ الجاهل الخنّاس
ومناقب العباس لم تَجْمَع سوى لحفيده مَلِك الورى العباسِ
لا تنكرُوا للمستعين رياسةً فى المُلْكِ من بعد الجحود النّاسى
فبنُو أمية قد أتى من بعدِهمْ فى سالفِ الدّنيا بنُو العبّاسِ
وأتى أشجُّ بنى أميّة ناشراً للعدْلِ من بعد المبير الخاسِى
مولاى عبدك قد أتى لك راجياً منك القبولَ فلا ترى من باسِ
لولا المهابةُ طَوّلَتْ أمداحَهُ لكنّها جاءتْهُ بالقسْطاسِ
فأدام ربّ النّاس عزّك دائماً بالحقّ محروسا بربٍّ الناس
وبقيتَ تستمع المديح لخادمٍ لولاك كان من الهموم يُقاسِى

عبْـــدٌ صفا ودًّا وزمزم حاديًا   وسعَى على العينين قبل الرّاسِ
أمداحُـــــهُ فى آل بيت محمّـدٍ   بين الورى مسكيّـة الأنفـاسِ

ولما دخل الخليفةُ القاهرة شقّها والأمراء بين يديه ، فاستمرّ إلى القلعة ، فنزل بها ونزل شيخ الإصطبل بباب السّلسلة [1] .

ثم فى ثامن ربيع الآخر صعد شيخ والأمراء إلى القصر ، وجلس الخليفة على تخت الملك ، فخلع على شيخٍ خلعة عظيمة بطراز لم يُعْهَد مثلها ، وفوَّض إليـه أمر المملـكة بالديار المصرية فى جميع الأمور ، وكتب له أنْ يولّىَ ويعزل من غير مراجعة ، وأشهد عليه بذلك ؛ ولقِّب نظام الملك ؛ فـكانت الأمراء إذا فرغوا من الخدمة بالقصر ، نزلوا فى خدمة شيخ إلى الإصطبل ؛ فأعيدت الخدمة عنـده ، ويقع عنـده الإبرام والنقض ، ثم يتوجّـه دواداره إلى المستعين ، فيعلِم على المنـاشير والتواقيع . ثم إنه تقـدّم إليه بألّا يمـكّن الخليفةَ من كتابة العلامة إلا بعد عرضها عليه ، فاستوحش الخليفة عليـه ، وضاق صدره ، وكثر قلقه . فلمّا كان فى شعبان سأل شيخ الخليفةَ أن يفوّض إليـه السلطنة على العادة،فأجاب بشرط أن ينزلَ من القلعة إلى بيته ، فلم يوافقه شيخ على النزول، بل استنظره أياما .

ثم إنه نقل المستعين من القصر إلى دار من دور القلعة ، ومنعه أهله ، ووكّل به مَنْ يمنعه الاجتماع بالنّاس ، فبلغ ذلك نوروز ، فجمع القضاة والعلمـاء فى سابع ذى القعدة ، واستفتاهم عمّا صنعه شيخ بالخليفة ، فأفتَوْه بعـدم جواز ذلك ؛ فأجمع على قتال شيخ ، واستمرّ المستعين فى القلعة إلى ذى الحجة سنة ست عشرة ، وهو باقٍ على الخلافة ، فلمّا عزم شيخ إلى الشام خشىَ من غائلته ، وأراد خلعه فراجع البُلقينىّ فى ذلك . وكان فى نفسه من المستعين شىء لـكونه عزله ، فرتّب له دعوى شرعيّة ، وحكم بخلعه من الخلافة،

(١) تاريخ الخلفاء : « وفوض إليه المستعين تدبير المملـكة الإسلامية ولقبه نظام الملك » .

وبايع بالخلافة أخاه أبا الفتح داود ، ولقّب المعتضد بالله ، وسيّر المستعين إلى الإسكندرية ، فأقام بها إلى أن مات شهيدا بالطاعون ، فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين .

* * *

واستقرّت الخلافة باسم المعتضد ، وكان من سَرَوات الخلفاء ، نبيلاً ذكيا فاضلا ، يجالسه العلماء والفضلاء ، ويستفيد منهم ويشاركهم فيما هم فيه ، جواداً سمحاً ، وطالت مدّته فى الخلافة نحو ثلاثين سنة ، فلمّا حضرته الوفاة عهد بالخلافة إلى شقيقه أبى الربيع سليمان ، ولقّب المستكفى بالله ؛ وكان والدى خصيصا به ، فكتب له العهد بيده وهذه صورته :

بسم الله الرحمن الرحيم ؛ هذا ما أشهد على نفسه الشّريفة حرسها الله وحماها ، وصانها من الأكدار ورعاها ، سيّدنا ومولانا ذو المواقف الشريفة الطاهرة الزكيّة الإماميّة الأعظميّة العباسية النبويّة المعتضديّة ، أمير المؤمنين وابن عمّ سيد المرسلين ، ووارث الخلفاء الراشدين ، المعتضد بالله تعالى أبو الفتح داود ، أعزّ الله به الدينَ ، وأمتع ببقائه الإسلام والمسلمين ؛ أنّه عهد إلى شقيقه المقرّ العالى المولوىّ الأصيلىّ العريقىّ الحسيبىّ النسيبىّ السليلىّ سيدى أبى الربيع سليمان المستكفى بالله ، عظّم الله شأنَه ، بالخلافة المعظّمة ، وجعله خليفةً بعده ، ونصبه إماما على المسلمين ، عهدا شرعيًّا ، معتبراً مرضيًّا ، نصيحة للمسلمين ، ووفاء بما يجب عليه من مراعاة مصالح الموحِّدين ، واقتداء بسنّة الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهديّين .

وذلك لَمّا علم من دينه وخيره ، وعدالته وكفالته وأهليّته ، واستحقاقه بحكم أنه اختبر حاله ، وعلم طويّته ، وأنه الذى يدين الله به أنه أتْقَى لله ممّن رآه ، وأنه لا يعلم صدر منه ماينافى استحقاقه لذلك ، وإنه إن ترك الأمر هَمَلاً من غير تفويض للمشار إليه أدخل إذ ذاك المشقة على أهل الحلّ والعقد فى اختيار مَنْ ينصبونه للإمامة ، ويرتضونه لهذا الشأن ، فبادر إلى هذا الشأن ، شفقةً عليهم ، وقصداً لبراءة ذمّتهم ووصول الأمر

إلى مَنْ هو أهله ، لعلمه أنّ العهد كان غير محوج إلى رضا سائر أهله ، ووجب على مَنْ سمعه وتحمّل ذلك منه أن يعلم به ، ويأمر بطاعته عنـد الحاجة إليه ، ويدعو النّاس إلى الانقياد له ، فسجّل ذلك على مَنْ حضره حسب إذنه الشريف ، وسطّر عن أمره قبل ذلك سيّدى المستـكفى أبو الربيع سليمان ، المسمّى فيه ، عظّم الله شأنه قبولا شرعيًّا .

ومات المعتضِد يوم الأحد رابع ربيع الأول سنة خمس وأربعين واستقرّ المستـكفى ، وكان من صلحاء الخلفاء وعبّادهم ، صالحاً ديّناً عابدا ، كثير التعبّد والصلاة والتلاوة ، كثير الصمت ، حسن السيرة . وكان الظاهر جُقْمُق يعتقِدهُ ، ويعرف له حقه ، فأقام إلى أن مات ليلة الجمعة ، سَلْخ ذِى الحجّة سنة أربع وخمسين ، ولم يعهد بالخلافة لأحد .

وكان والدى خصيصا به جدًّا ، فلم يعش بعده إلا أربعين يوما ، ومشى السلطان فى جنازة المستـكفِى إلى تربته ، وحمل نعشه بنفسه .

* * *

وبايع بعده بالخلافة أخاه أبا البقاء حمزة ، ولقّب القائم بأمر الله ، وكان سهماً صارما ، أقام أبّهـة الخلافة قليلاً . ثم إنّ الجند خرجوا على الأشرف إينال ، فقام معهم ، وحدّثته نفسه بطلب الملك ، فانهزم الجند ، فلم يحصل من يدهم شىء . فغضب عليه الأشرفُ ، وطلبه إلى القلعة ، وعاتبه فى ذلك ؛ فحُـكِىَ أن الخليفة قال : خلعتُ نفسى وعزلْتك ، وكان غلطة منه ؛ فقال شيخُنا قاضى القضاة عَلَم الدين البُلقينىّ — وكان حريصاً على جرّ الخلافة إلى أخى الخليفة يوسف ، لـكونه زوج ابنته ؛ فقال : قد بدأ بخلْع نفسه فانخلع ، وثنّى بخلع السلطان وهو غير خليفة ؛ فلم ينفذْ عزلُه . وحكَم بصحّة خلعه ؛ وذلك فى جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين ، وبايع أخاه أبا المحاسن يوسف ولقّب المستنجد بالله ، وسيّر القائم إلى الإسكندرية إلى أن مات بهـا سنة ثلاث وستين ودفن عند شقيقة المستعين .

ومن الاتّفاق الغريب أنهما شقيقان ، كلٌّ منهما رامَ السلطنة ، وكلٌّ منهما خلِـع ،

وسكن الإسكندرية ، ودفنا معا ؛ وحكم بخلعهما قاضيان أخوان ؛ ذلك خامسه الجلال البُلقينىّ ؛ وهذا أخوه العَلَم البُلقينىّ .

واستمرّ المستنجدفى الخلافة ساكنا بمنزل إخوته، إلىأن تُوُفِّىَ الظاهرخشقدم ، فدعاه إلى أن يسكن عنده فى القلعة ، واستمرّ ساكنا بها إلى أن مات يوم السبت رابع عشرى المحرّم سنة أربع وثمانين وثمانمائة .

* * *

وعهد بالخلافة إلى ابن أخيه سيّدى عبد العزيز أبى العزّ يعقوب بن المتوكّل على الله فلمّا كان يوم الاثنين سادس عشرِى المحرّم طلع إلى القلعة ، وحضر القضاة والأعيان ، فأمضوْا عهد عمِّه ، ولبس تشريف الخلافة ، ونزل إلى داره، والقضاة والأعيان بين يديه، وكان يوما مشهودا . وكان أرَاد أن يتلقّب بالمستعزّ بالله ، ثم وقع التردّد بينه وبين المستعين أو المتوكل ، واستقرّ الحال على أن لقب : « المتوكل على الله »، وهو الآن عين بنى العباس وشامتُهم ؛ لم يزل مشارا إليه، محبوبًا فى صدور الناس،وله اشتغال على والدى وغيره من المشايخ ، وأجاز له باستدعائى جماعةٌ من المسندين ، وقد خرّجتُ لهم عنه جزءاً حدّث به . وألّفت برسمه كتاب « الأساس فى فضل بنى العباس » ، وكتاب « رفع الباس عن بنى العباس » . أبقاه الله بقاء جميلا ، وأدامه على رباع المسلمين ظلا ظليلاً !

وتعفف عن أخذ مايتحصّل من مشهد السيدة نفيسة من النّذور من شمع وزيت وغيرهما، وصرفه إلى مصالح المكان من عمارة وغيرها . وكان الخلفاء قبله يأخذون لأنفسهم غالبه، والباقى يفرّقونه على من شاءوا من ألزامهم ، فرفع ذلك من أصله .

* * *

فصـــــل

قال ابن فضل الله فى المسالك : إنّ قاعدة الخلافة أوّل ما كانت المدينة شرفها الله مدّة أبى بكر وعمر وعثمان ، فلمّا انتهت الخلافة إلى علىّ انتقل من المدينة إلى الكوفة ، واتخذها قاعدة خلافته ، وربّما استوطن البصرة . وجاء ابنه الحسن والكوفة قاعدة خلافته على ما كان عليه أبوه ، فلمّا ولِىَ معاويةُ انتقلت قاعدة الخلافة إلى دمشق ، واستقرّت قاعدة لبنى أميّة ؛ وإن كان هشام قد سكن الرّصافة ، وعمر بن عبد العزيز خُناصرة ، فإنّهما لم يكونا قاعدتىْ خلافة ، لأنّهما سكناها غير مفارقيْن لدمشق ، بل هى القاعدة والمعتمدة بأنها مستقر الخلافة ، ولم تزل كذلك إلى آخر الدوله الأمويّة . فلما مَلَكَ السّفاح سكن الأنبار ، فلما ولِىَ المنصور بنى الهاشميّة وسكنها ، ثم بغداد ، فصارت قاعدة الخلافة له ولبنيه إلى المعتصم ؛ فبنى سُرّ مَنْ رأى ، فانتقلت قاعدة الخلافة إليها . ثم بنى ابنه هارون الواثق إلى جانبها الهارونيّة ، فانتقلت قاعدة الخلافة إليها . ثم بنى أخوه جعفر المتوكل إلى جانبها الجعفريّة ، فانتقلت قاعدة الخلافة إليها ، ثم عادت قاعدة الخلافة إلى بغداد فى زمن المعتمد إلى المستعصم الّذى قتلْته التتار ، فانتقلت قاعدة الخلافة إلى مصر .

قال : فانظر كيف تنقلتْ قواعد الخلافة من بلدٍ إلى بلد بتنقّل الزمان ، وقد كانت بُخارى قاعدة السلطنة زمن بنى ساسان ، ثم صارت غَزْنة مكان محمود بنُ سُبُكْتُكِين وبنِيه ، ثم هَمدان زمان الدولة السلجوقيّة ، ثم خُوارزم مكان الملوك الخوارزْميّة ، ثم دمشق زمان الملك العادل نور الدين محمود بن زِنكى ، ثم مصر من زمن السلطان صلاح الدين

يوسف بن أيوب وإلى اليوم .

* * *

وإذا اعتبرت أحوال البلاد تجد السعادة قد نظرت هذه مرة ، ثم تلك أخرى كما قال الشاعر :

وإذا نظرت إلى البقاع رأيتها   تشقى كما تشقى الرجال وتسعدُ

واعلم أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظُم أمرها ، وكثرت شعائر الإسلام فيها ، وعلتْ فيها السنّة ، وعفَتْ منها البدعة ، وصارت محلّ سكن العلماء ، ومحطّ رحال الفضلاء ، وهذا سرٌّ من أسرار الله أودعه فى الخلافة النبويّة حيث ما كانت يكون معها الإيمان والكتاب، كما أخرج . . . .
. . . . (١)

دلّ هذا الحديث على أنّ الإيمان والعلم يكونان مع الخلافة أينما كانت ،فكانا أوّلاً بالمدينة زمَن الخلفاء الراشدين ، ثم انتقلا إلى الشام زمن خلفاء بنى أميـة ، ثم انتقلا إلى بغداد زمن خلفاء بنى العباس ، ثم انتقلا إلى مصر حين سكنها خلفـاء بنى العباس ؛ ولا يظنّ أن ذلك بسبب الملوك ، فقد كانت ملوك بنى أيوب أجلّ قدرا ، وأعظم خطرا من ملوك جاءتْ بعدهم بكثير ، ولم تكن مصر فى زمنهم كبغداد ، وفى أقطـار الأرض الآن من الملوك مَنْ هو أشدّ بأسا ، وأكثر جندا من ملوك مصر ، كالعجم والعراق والروم والهند والمغرب، وليس الدّين قائمـا ببلادهم كقيامه بمصر ، ولاشعائر للأسلام فىأقطارهم ظـاهرة كظهورها فى مصر ، ولا نُشرَت السنّة والحديث والعلم فيها كما فى مصر ، بل البـدَعُ عندهم فاشية ، والفلسفة بينهم مشهورة ، والسنّة والأحاديث دائرة ، والمعـاصى والخمور واللّواط متـكاثرة .

---

(١) بياض بالأصول .

ذكر سلاطين مصر الذين فوض إليهم خلفاء مصر العباسيون فاستبدوا بالأمر دونهم

أولهم الملك الظاهر ركن الدين، أبو الفتح بيبرس البُنْدُقدارىّ. ولما فوّض إليه خليفة مصر لقّبه قسيم أمير المؤمنين وهو أول من لقب بها، وكان الملوك قديماً يكتب أحدهم من جهة الخليفة: «مولى أمير المؤمنين» أى عتيقه، ويكتب هو إلى الخليفة «خادم أمير المؤمنين» فإن زيد فى تعظيمه لقّب «ولىّ أمير المؤمنين»، ثم «صاحب أمير المؤمنين»، ثم «خليل أمير المؤمنين»، وهو أعلى مالقّب به ملوك بنى أيّوب، فلقب الظّاهر هذا قسيم أمير المؤمنين؛ وهو أجلّ من تلك الألقاب، وكان فى الظاهر محاسن وغيرها، وظلم أهل الشام غير مرة، وأفتاه جماعة بموافقة هواه، فقام الشيخ محيي الدين النّووىّ فى وجهه، وأنكر عليه، وقال: أفتوك بالباطل! وكان بمصر منقمعاً تحت كلمة الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام، لا يستطيع أن يخرج عن أمره، حتى إنه قال لما مات الشيخ: ما استقرّ ملكى إلّا الآن.

ومن محاسنه ما حكاه ابن كثير فى تاريخه أنّه حضر فى يوم الثلاثاء تاسع رجب سنة ستين إلى دار العدل فى محاكمة فى بئر بين يدى القاضى تاج الدين ابن بنت الأعزّ، فقام الناس سوى القاضى، فإنه أشار إليه ألاّ يقوم، فقام هو وغريمه بين يدى القاضى وتداعيا، وكان الحقّ بيد السلطان، وله بيّنة عادلة به، فانتُزعت البئر من يد الغَريم وهو أحد الأمراء.

والظاهر هو الذى أكمل عمارة المسجد النبوىّ من الحريق، وكان الخليفة المستعصم شرع فيه بعد أن احترق، فقتِل قبل أن يتمّ، فجهز الظاهر فى رمضان سنة

إحدى وستين صُنّاعاً وأخشابا وآلات ، وطِيف بها بالديار المصرية فرحة بها ، وتعظيما لشأنها ، ثم ساروا بها إلى المدينة الشريفة ، وأرسل منبراً فنُصِب هنالك ، وحجّ فى سنة سبع وستين ، فغسّل الكعبة بيده بماء الورد ، وزار المدينة الشريفة ، فرأى النّاس يلتصقون بالقبر النبوىّ ، فقاس ماحوله بيده ، وأرسل فى العام الذى يليه دارابزينا من خشب ، فأدير حول القبر الشريف .

وللظاهر فتوحات كثيرة ، وملك الرّوم ، وجلس بقيساريّة على تخت آل سلجوق ، ولبس التاج ، وضرب باسمه الدينار والدرهم ، وهو الذى جعل القضاة أربعة من كلّ مذهب قاضٍ ، ولم يعهد ذلك قبله فى ملّة الإسلام ، وهو الذى جدّد صلاة الجمعة بالجامع الأزهر وبجامع الحاكم ، وكانا مهجورين من زمن العُبيديين ، فأساء فى ذلك كلّ الإساءة كما سنبينه بعد هذا .

وأمر فى أيامه بإراقة الخمور ، وإبطال المفسدات والخواطىء وإسقاط المكوس المرتّبة عليها ، فأحسن فى ذلك كل الإحسان .

وفى أيامه طِيف بالمحمل وبكسوة الكعبة المشرّفة بالقاهرة وذلك فى سنة خمس وسبعين ، وكان يوما مشهودا ، وهو أوّل مَنْ فعل ذلك بالديار المصرية . وكان له صدقات كثيرة ؛ من ذلك كلّ سنة عشرة آلاف إردبّ قمح للفقراء والمساكين وأرباب الزوايا ، وكان يخرِج كل سنة جملة مستكثرة يستفكّ بها مَنْ حَبس القاضى من المفلسين ، وكان يرتب فى أول رمضان مطابخ لأنواع الأطعمة برسم الفقراء والمساكين ، ووقف وقفا على تكفين أموات الغرباء ، وأجرى على أهل الحرمين وطرق الحجاز ما كان انقطع فى أيام غيره من الملوك ، وله أنواع من المعروف وأوقاف البرّ .

نقلت من خط شيخنا الإمام تقى الدين الشُّمنىّ ؛ قال : نقلت من خط الشيخ كمال الدين الدّميرىّ ، نقل من خط الشيخ جمال الدين بن هشام ، قال : من غريب ما رأيت على

كراريس من تسهيل الفوائد بخط الشيخ جمال الدين بن مالك ، فى أواخرها صورة قصة رفعها الفقير إلى رحمة ربه محمد بن مالك: يقبّل الأرض، ويُنهى إلى السلطان أيّد الله جنوده وأبّد سعوده ، أنه أعرف أهل زمانه بعلوم القرا آت والنحو واللغة وفنون الأدب ، وأمله أن يُعينَه نفوذاً من سيّد السلاطين ، ومبيد الشياطين ، خلّد الله ملكه ، وجعل المشارق والمغارب مِلكه ، على ماهو بصددِه من إفادة المستفيدين ، وإفادة المسترشدين : بصدقةٍ تكفيه همّ عياله ، وتغنيه عن التسبّب فى صلاح حاله ؛ فقد كان فى الدّولة الناصرية عناية تتيسّر بها الكفاية ؛ مع أنّ الدولة ، من الدولة الظاهريّة كجدول من البحر المحيط ، والخُلاصة من الوسيط والبسيط ؛ وقد نفع الله بهذه الدولة الظاهريّة الناصرية خصوصاً وعموما ، وكشف بها عن الناس أجمعين غموما ؛ ولم يّها من شعث الدين مالم يكن ملوماً ، فمن العجائب كون المملوك من مزيد خيراتها وعن يمين عنايتها غائبا محروماً ؛ مع أنه من ألزم المخلصين للدعاء بدوامها ، وأقوم الموالين بمراعاة زِمامها ؛ لابرحت أنوارها زاهرة ، وسيوف أنصارها قاهرة ظاهرة ، وأياديها مبذولة موفورة ، وأعاديها مخذولة مقهورة ، بمحمد وآله !

وكان الشيخ محيي الدين النووىّ يكثر المكاتبات إليه ، ويعظه فى أمور المسلمين . قال الشيخ علاء الدين بن العطار : كتب الشيخ محيي الدين ورقةً إلى الظاهر بيبرس ، تتضمّن العدْل فى الرعيّة ، وإزالةَ المكوس . وكتب فيها معه جماعة ، ووضعها فى ورقة كتبها إلى الأمير بدر الدين بيليك الخازندار (١) بإيصال ورقة العلماء إلى السّلطان ، وصورتها :

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله يحيى النووىّ ، سلام الله تعالى ورحمته وبركاته

(١) كذا فى الأصل والنجوم الزاهرة ٧ : ٩٨، والسلوك ٤٣٦ ، وفى ح ، ط : « بليلبك » بالباء الموحدة قبل الكاف ، وهو أحد الخازندارية ، وموضوعها التحدث فى خزائن الأموال السلطانية من نقش وقماش وغير ذلك . وانظر صبح الأعشى ٤ : ٢١ .

على المولى المحسن ، ملك الأمراء بدر الدين . أدام الله الكريم له الخيرات ، وتولاه بالحسنات، وبلّغه من أقصى الآخرة والأولى كلَّ آماله ، وبارك له فى جميع أحواله ؛ آمين.
وينهى إلى العلوم الشريفة، أن أهل الشام فى هـذه السنة فى ضيق عيش وضعف حال ، بسبب قلّة الأمطار وغلاء الأسعار ، وقلة الغلّات والنبات ، وهلاك المواشى وغير ذلك ؛ وأنتم تعلمون أنه تجب الشفقة على الرعيّة ونصيحته فى مصلحته ومصلحتهم ؛ فإنّ الدين النصيحة . وقد كتب خَدمة الشرع الناصحون للسلطان المحبوبون له كتابا يذّكره النّظر فى أحوال رعيّته ، والرّفقَ بهم؛ وليس فيه ضرر، بل هو نصيحة محضة، وشفقة وذكرى لأولى الألباب.والمسئول من الأمير أيّده الله تعالى تقديمه إلى السلطان،أدام الله له الخيرات. ويتكلّم عنده من الإشارة بالرّفق بالرعيّة بما يجده مدّخراً له عند الله تعالى﴿ يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضَراً وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيدا ويحذّركم الله نفسه ﴾[1] .

وهذا الكتابُ أرسله العلماء أمانةً ونصيحةً للسلطان أعزّ الله أنصاره ، فيجب عليكم إيصاله للسلطان[2] أعزّ الله أنصارَه ، وأنتم مسئولون عن هذه الأمانة، ولا عذر لكم فى التأخر عنها ، ولا حجة لكم فى التقصير عنها عند الله تعالى وتُسألون عنها يوم القيامة ، ﴿يوم لاينفع فيه مال ولا بنون﴾[3]، ﴿ يوم يفرّ المرء من أخيه. وأمّه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾[4] .

وأنتم بحمدالله تحبّون الخير وتحرصون عليه ، وتسارعون إليه، وهذا من أهم الخيرات وأفضل الطاعات ، وقد أُهّلتم له ، وساقه الله إليكم ، وهو فضل من الله ونحن خائفون أن يزداد الأمر شِدّةً، إن لم يحصل النظر فى الرفق بهم ، قال الله تعالى:﴿ إنّ الّذين اتّقَوْا

---

(١) سورة آل عمران ٣٠ .
(٢) ح ، ط : « إلى السلطان » .
(٣) الشعراء ٨٨ .
(٤) عبس ٣٤ ـ ٣٧

إذا مَسَّهم طائفٌ من الشيطان تذكَّروا فإذا هُمْ مُبْصِرُون ﴾[١] ، وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا تفعلوا من خير فإن الله به عليم ﴾[٢] .

والجماعة الكاتبون منتظرون ثمرة هذا، فإذا فعلتم هذا فأجركم على الله ﴿ إنّ الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾[٣]؛ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فلما وصلت الورقتان إليه ، أوقفَ عليهما السلطان ، فردّ جوابهما ردًّا عنيفا مؤلمًا ، فتكدّرت خواطر الجماعة الكاتبين ، فكتب رضى الله عنه جوابا لذلك الجواب وهذه صورته :

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله ربّ العالمين ، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آل محمد . من عبد الله يحيي النووى، ينهى أنّ خَدَمة الشرع كانوا كتبوا مابلغ السلطان أعزّ الله أنصاره ، فجاء الجواب بالإنكار والتوبيخ والتهديد ، وفهمْنا منه أنّ الجهاد ذُكِر فى الجواب على خلاف حكم الشرع ، وقد أوجب الله إيضاح الكلام عند الحكام عند الحاجة إليه ، فقال تعالى : ﴿ وإذْ أَخَذَ اللهُ ميثاقَ الَّذِين أوتُوا الكتاب لَتُبَيِّنُنّه للناس ولا تَكْتُمونَه ﴾[٤] ، فوجب علينا حينئذ بيانُه ، وحرم علينا السكوت . وقال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعفَاء وَلاَ عَلَى المرْضَى ولا عَلَى الَّذِين لاَيجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَــرَجٌ إذا نصحُوا لله ورسُولِهِ ماعَلَى المحسنين من سبيلٍ واللهُ غفورٌ رحيم ﴾[٥] .

وذكر فى الجواب أنّ الجهاد ليس مختصًّا بالأجناد ؛ وهذا أمر لم ندّعه ، وكان الجهاد فرض كفاية ، فإذا قرّر السلطان له أجناداً مخصوصين ، ولهم أخباز معلومة من بيت المال كما هو الواقع ، تفرّغ باقى الرعيّة لمصالحهم ومصالح السلطان والأجناد وغيرهم من الزراعة والصنائع وغيرها ، ممّا يحتاج النّاس كلهم إليه ، فجهاد الأجناد مقابلٌ بالأخباز المقررة لهم ، ولا يحلّ أن يؤخذ من الرعيّة شىء مادام فى بيت المال شىء من نقد أو متاع أو أرض

(١) الأعراف ٢٠١

(٢) البقرة ٢١٥ .

(٣) النحل ١٢٨ .

(٤) آل عمران ١٨٧ .

(٥) التوبة ٩٠ .

أو ضياع تباع أو غير ذلك ؛ وهؤلاء علماء المسلمين فى بلاد السلطان أعز الله أنصاره ، متّفقون على هذا ، وبيت المال بحمد الله معمور ، زاده الله عمارةً وسعةً وخيراً وبركة فى حياة السلطان ، المقرونة بكمال السعادة والتوفيق والتسديد ، والظهور على أعداء الدين ، وما النصر إلا من عند الله .

وإنما يُستعان فى الجهاد وغيره بالافتقار إلى الله تعالى ، واتباع آثار النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وما لزمه أحكام الشّرع . وجميع ما كتبناه أولا وثانيا ، هو النصيحة التى نعتقدها ، وندين الله بها ، ونسأل الله الدّوام عليها حتى نلقاه . والسلطان يعلم أنّها نصيحة له وللرعيّة ، وليس فيها مايلام عليه . ولم نكتب هذا للسلطان إلا لعلمنا أنه يحبّ الشرع ومتابعة أخلاقِ النبىّ صلى الله عليه وسلم فى الرّفق بالرعيّة ، والشفقة عليهم وإكرامه لآثار النبىّ صلّى الله عليه وسلم ، وكلّ ناصح للسلطان موافق على هذا الذى كتبناه .

وأما ماذُكر فى الجواب من كوننا لم ننكر على الكفار كيف كانوا فى البلاد ؛ فكيف يقاس ملوك الإسلام وأهلُ الإيمان والقرآن بطغاة الكُفّار ! وبأىّ شىء كنّا نذكر طغاة الكفّار وهُمْ لا يعتقدون شيئاً من ديننا !

وأمّا تهديد الرعيّة بسبب نصيحتنا وتهديد طائفة العلماء ؛ فليس هذا المرجوّ من عدل السلطان وحلمه ؛ وأىّ حيلةٍ لضعفاء المسلمين الناصحين نصيحة للسلطان ولهم ، ولا علم لهم به ! وكيف يؤاخذون به لوكان فيه مايلام عليه !

وأما أنا فى نفسى فلا يضرّنى التهديد ، ولا أكثر منه ، ولا يمنعنى ذلك من نصيحة السلطان ؛ فإنّى أعتقد أن هذا واجب علىّ وعلى غيرى ، وما ترتّب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله تعالى ، ﴿ إنّما هـذهِ الحياةُ الدّنيا متاعٌ وإنّ الآخرة هى دار القرار ﴾[1] ، ﴿ وأفوّض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد ﴾[2] ، وقد أمرنا رسول الله

(١) غافر ٣٩ (٢) غافر ٤٤ .

صلى الله عليه وسلم أن نقول الحقّ حيث ما كنّا ، وألا نخاف فى الله لومة لائم . ونحن نحبّ السلطان فى كلّ الأحوال،ومايَنفعه فى آخرته ودنياه ، ويكون سبباً لدوام الخيرات له ، ويبقى ذكره على ممرّ الأيام ، ويخلّد به فى الجنة ، ويجد نفسه ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نفسٍ ماعملتْ من خيرٍ محضراً ﴾[(١)] .

وأما ماذكر من تمهيد السلطان البلاد ، وإدامته الجهاد ، وفتوح الحصون ، وقهر الأعداء ؛ فهذا بحمد الله من الأمور الشائعة التى اشترك فى العلم بها الخاصّة والعامّة ، وطارت فى أقطار الأرض ، فلله الحمد ، وثواب ذلك مدّخرٌ للسلطان إلى يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرًا ، ولا حجة لنا عندالله تعالى إذا تركنا هذه النصيحة الواجبة علينا ، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

وكتب إلى الملك الظاهر لمّا احتيط على أملاك دِمشق :

بسم الله الرحمن الرحيم . قال الله تعالى :﴿ وَذَكِّرْ فإنَّ الذِّكْرَى تنفعُ المؤمنينَ ﴾[(٢)] . وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ الّذين أوتوا الكتابَ لَتُبَيِّنُنَّه للنّاسِ وَلَا تَكْتُمونَهُ ﴾[(٣)] ، وقال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ والتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ والعُدْوان ﴾[(٤)]؛ وقد أوجب الله على المكلّفين نصيحة السلطان أعزّالله أنصاره ونصيحة عامة المسلمين ، ففى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الدّين النّصيحة للهِ وكتابه وأئمةالمسلمين وعامّتهم »؛ ومن نصيحة السّلطان وفّقه اللهتعالى لطاعته، وأولاه كرامتَه ، أن نُنهِيَ إليه الأحكام إذا جرت على خلاف قواعد الإسلام، وأوجب الله تعالى الشفقة على الرعيّة ، والاهتمام بالضعَفة وإزالة الضّرر عنهم ، قال الله تعالى :

---

(١) آل عمران ٣٠

(٢) الذاريات ٥٥ .

(٣) آل عمران ١٨٧

(٤) المائدة ٢ .

﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لمن اتبعك من المؤمنين ﴾[1]. وفى الحديث الصحيح : « إنما تُنصرون وترزقون بضعفائكم » وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ كشف عن مسلم كربةً من كُرَب الدنيا كشف الله عنه كربةً من كُرَب يوم القيامة ، والله فى عَوْن العبدِ ما كان العبد فى عون أخيه » . وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ وَلِيَ من أمر أمتى شيئاً فرفق بهم ، فارفق اللّهم به، ومن شقّ عليهم، فأشقق اللهمّ عليه » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « كلّكم راعٍ وكلّكم مسئولٌ عن رعيّته » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « إنّ المقسطين على منابرَ من نورٍ عن يمين الرحمن؛ الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وماولوا » .

وقد أنعم الله علينا وعلى سائر المسلمين بالسّلطان أعزّ الله أنصاره ، فقد أقامه لنصرة الدّين، والذبّ عن المسلمين ، وأذلّ له الأعداء من جميع الطوائف ، وفتح عليه الفتوحات المشهورة فى المدّة اليسيرة ، وأوقع الرّعبَ منه فى قلوب أعداء الدّين وسائر الماردين ، ومهّد له البلاد والعباد ، وقمع بسيفه أهلَ الزيغ والفساد ، وأمدّه بالإعانة واللطف والسداد ، فلله الحمد على هذه النّعم المتظاهرة ، والخيرات المتكاثرة ، ونسأل الله الكريم دوامَها لنا وللمسلمين ، وزيادتها فى خير وعافية . آمين . وقد أوجب الله شكرَ نعمه ، ووعد الزّيادة للشاكرين ، فقال تعالى : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأزيدنّكم ﴾[2] . وقد لحق المسلمين بسبب هذه الحوْطَة على أملاكهم أنواع من الضرر لايمكن التعبير عنها ، وطلب منهم إثبات مالا يلزمهم ، فهذه الحوطة لاتحلّ عند أحد من علماء المسلمين ، بل مَنْ فى يده شىء فهو مِلْكه ، لايحلّ الاعتراض عليه ، ولا يكلّف بإثبات ، وقد اشتهر من سيرة السلطان أنّه يحبّ العمل بالشرع فيوصى نوّابَه ، فهو أولّ[3] من عمل به ، والمسئول إطلاق الناس من هذه الحوطة ، والإفراج عن جميعهم .

---

(١) الشعراء ٢١٥ . (٢) إبراهيم ٧
(٣) ح : « أول » .

فأطلقهم أطلقك الله من كلّ مكروه ، فهم ضَعَفة وفيهم الأيتام والأرامل والمساكين والضَّعَفة والصالحون ، وبهم تُنصر وتُغاث وتُرزق ، وهم سكان الشام المبارك ، جيران الأنبياء صلاة الله وسلامه عليهم ، وسكّان ديارهم ، فلهم حرمات من جهات . ولو رأى السلطان مايلحقُ النّاسَ من الشدائد لاشتدّ حزنه عليهم ، وأطلقهم فى الحال ، ولم يؤخرّهم ؛ ولكن لا تُنهى إليه الأمور على جهتها .

فبالله أغِث المسلمين يغثْكَ الله ، وارفُقْ بهم يرفق الله بك ، وعجّل لهم الإفراج قبل وقوع الأمطار وتلف غلاّتهم ، فإن غالبهم[1] ورثوا هذه الأملاك عن أسلافهم ، ولا يمكنهم تحصيل كتب شراء وقد نهبت كتبهم . وإذا رفق السلطان بهم حصل له دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن رَفق بأمّته ، ونصره على أعدائه ، فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنْ تنصرُوا الله ينصرْكم ﴾[2] ، ويتوفّر له من رعيّته الدعوات ، وتظهر فى مملكته البركات ، ويبارك له فى جميع مايقصده من الخيرات ، وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ سنّ سنّةً حسنةً ، فله أجرها وأجْرُ من عمِل بها إلى يوم القيامة ، ومَنْ سنّ سنة سيّئة ، فعليه وزرُها ووِزْر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة » . ونسأل الله الكريم ، أن يوفّق السلطان للسُّنَن الحسَنة التى يُذكر بها إلى يوم القيامة ، ويحميه من السُّنَن السّيئة .

فهذه نصيحتنا الواجبة علينا للسلطان ، ونرجو من فضل الله تعالى أن يلهمَه فيها القبولَ . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وكتب إليه لمّا رسم بأن الفقيه لايكون منزلا فى أكثر من مدرسة واحدة :

بسم الله الرحمن الرحيم . خدمة الشرع يُنهُون أنّ الله تعالى أمر بالتعاون على البرّ والتقوى ، ونصيحة ولاة الأمور وعامة العلماء[3] ، وأخذ على العلماء العهد ، وتبليغ أحكام الدّين ومناصحة المسلمين ، وحثّ على تعظيم حرماته ، وإعظام شعائر الدّين ، وإكرام

---

(١) ح : « أكثرهم » . (٢) محمد ٧ (٣) ط : « المسلمين » .

العلماء وأتْباعهم . وقد بلغ الفقهاء أنه رسم فى حقهم بأنّ يُغيّروا عن وظائفهم ، ويُقَطعوا عن بعض مدارسهم ، فتنكّدَتْ بذلك أحوالهم ، وتضرّروا بهذا التضييق عليهم ، وهم محتاجون ، ولهم عيال ، وفيهم الصّالحون [والمشتغلون بالعلوم ، وإن كان فيهم طائفة لايلحقون مراتب غيرهم ؛ فهم منتسبون إلى العلم][1] ويشاركون فيه . ولايخفَى مراتب أهل العلم وثناء الله تعالى عليهم وبيانه مزيّتهم على غيرهم ، وأنّهم ورثة الأنبياء صلوات الله عليهم ؛ فإن الملائكة عليهم السلام تضع أجنحتَها لهم ، ويَسْتغفر لهم كلّ شىء حتى الحوت فى الماء .

واللائق بالجناب العالى إكرام هذه الطائفة والإحسان إليهم ومعاضدتهم ، ورفع المكروهات عنهم ، والنظر بما فيه من الرّفق بهم ، فقد ثبت فى صحيح مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « اللّهمّ مَنْ ولِىَ من أمور أمّتى شيئاً فرَفق بهم فارفُقْ به » . وروى أبو عيسى التِّرمذىّ بإسناده عن أبى سعيد الْخدرىّ رضى الله عنه ، أنه كان يقول لطلبة العلم : مرحباً بوصيّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن رجالاً يأتونكم يتفقّهون ، فاستوصوا بهم خيراً » .

والمسئول ألّا يغيَّر على هذه الطائفة شىء ، وتُستجاب دعوتهم لهذه الدولة القاهرة ، وقد ثبت فى صحيح البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « هلْ تُنصرون وترزقون إلا بضعفائكم ! » . وقد أحاطت العلوم بما أجاب به الوزير نظام الملك حين أنكر عليه السلطان صرفه الأموال الكثيرة فى جهة طلب العلم ، فقال : أقمْتُ لك جندا لاتردّ سهامهم بالأسحار ؛ فاستصوبَ فعله ، وساعده عليه . والله الكريم يوفق الجناب دائما لمرضاته ، والمسارعة إلى طاعته والحمد لله رب العالمين ،وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

***

---

(١) تكملة من ط .

وقال بعضُهم: لمّا خرج السلطان الظاهر بيبرس إلى قتال التّتار بالشام أخذ فتاوى العلماء بأنه يجوز له أخذ مالٍ من الرعيّة ليستنصر به على قتال العدوّ ، فكتب له فقهاء الشام بذلك ، فقال : هل بقيَ أحد ؟ فقيل : نعم ، بقيَ الشيخ محيي الدين النوويّ ، فطلبه فحضر ، فقال : اكتب خطك مع الفقهاء ، فامتنع فقال : ما سببُ امتناعك ؟ فقال : أنا أعرف أنّك كنت في الرّقّ للأمير بنْدُقْدار[1] ، وليس لك مال . ثم منّ الله عليك ، وجعلك ملكاً . وسمعت أنّ عندك ألف مملوك ، كلّ مملوك له حياصة من ذهب ، وعندك مائتا جارية ، لكلّ جارية حُقٌّ من الحُلِيّ ، فإذا أنفقت ذلك كلّه ، وبقيت مماليكك بالبنود الصوف بدلاً عن الخوائص ، وبقيت الجوارى بثيابهنّ دون الحُلِيّ ، أفتيتك بأخذ المال من الرعيّة . فغضب الظاهر من كلامه ، وقال : اخرج من بلدى – يعنى دمشق – فقال : السمع والطاعة ! وخرج إلى نَوَى ، فقال الفقهاء : إنّ هذا من كبار علمائنا وصلحائنا ، وممّن يُقتدى به ، فأعِدْه إلى دمشق ، فرسم برجوعه . فامتنع الشيخ ، وقال : لا أدخلها والظاهر بها . فمات الظاهر بعد شهر .

قال الذهبيّ : كان الظاهر خليقاً بالملك[2] ، لولا ما كان فيه من الظلم . قال : والله يرحمه ويغفر له ؛ فإن له أيّاماً بيضاء فى الإسلام ، ومواقف مشهودة وفتوحاتٍ معدودة .

واستمرّ الملك الظاهر إلى أن مات يوم الخميس سابع عشرى المحرّم سنة ست وسبعين وستمائة بدمشق .

***

وقام بعده فى الملك ولده الملك السعيد ناصر الدين أبو المعالى محمد ، وسنه ثمانى عشرة سنة ، وكان أبوه عقد له فى حياته ، ولقّبه هذا اللقب ، واستنابه على مصر أيام سفره ،

---

(١) فى النجوم الزاهرة ٨ : ٢ ٤ : « البُنْـدقدارى » ، وفى حواشيه : « هو علم الدين سنجر بن عبد الله التركى البندقدارى أحد الأمراء الأكابر بالديار المصرية » .

(٢) ط : « للملك » .

فاستقلّ بالسلطنة من يوم موته ، واستمرّ إلى سنة ثمان وسبعين ، فاختلف عليه الأمراء، وقاتلوه ، فخلع نفسه من السَّلطَنة ، وأشهد على نفسه بذلك ، وذلك فى يوم سابع عشر ربيع الآخر .

وأُقيم مقامه[1] أخوه بدر الدين سلامُش ؛ ولُقّب الملك العادل ، وعمره سبع سنين ، وجعل أتابكه الأمير سيف الدين قلاوون الصالحىّ الألفىّ — سمّى بذلك لأنه اشتُرِى بألف دينار — وضربت السكّة باسمه على وجه ، وباسم أتابكه على وجه . ودعِىَ لهما معا فى الخطبة ، فأقام إلى يوم الثلاثاء حادى عشر رجب من هذه السنة ، فاجتمع الأمراء بالقلعة ، وخلعوا العادل . قال صاحب السكردان : وهو السادس من دولة الأتراك ؛ فإن أوّلهم المعز أيبك ، وكلّ سادس من الخلفاء والملوك لابدّ أنّه يخلع . وأقاموا بعده قلاوون الصالحىّ ، ففوّض إليه الخليفة ، ولقّب الملك المنصور ، وكُتب له تقليدٌ هذه صورته ، من إنشاء القاضى محيى الدين عبدالظاهر :

الحمدُ لله الّذى جعل آية السّيف ناسخة لكثير من الآيات ، وناسخة لعقود أُولِى الشّكّ والشّبهات ، الذى رفع بعض الخلق على بعضٍ درجات ، وأهّل لأمور البلاد والعباد مَنْ جاءت خوارق تملكه بالّذى إن لم يكن من المعجزات فمن الكرامات .

ثم الحمد لله الذى جعل الخلافة العباسيّة بعد القطوب حسنة الابتسام ، وبعد الشّحوب جميلة الاتّسام ، وبعد التشريد لها دار سلامٍ أعظم من دار السلام . والحمد لله على أن أشهدَها مصارع أعدائها ، وأحمَد لها عواقب إعادة نصرتها وإبدائها ، وردّ شبيبتها بعد أن ظنّ كل أحدٍ أن شعارها الأسود مابقى منه إلا ماأصابته العيون فى جفونها والقلوب فى سويدائها .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة يتلذّذ بذكرها اللسان، وتتعطّر بنفحاتها الأفواه والآذان ، وتتلقّاها ملائكة القبول فترفعها إلى أعلى مكان .

---

(١) ط : « مكانه » .

ونشهد أنّ محمدا عبده ورسوله الذى أكرمَنا به وشرّف لنا الأنساب ، وأعزّنا به حتى نزل فينا محكم الكتاب ؛ صلّى الله عليه وآله الذين انجاب الدّين منهم عن أنجاب ، ورضى الله عن صحابته الذين هم أعزّ صحاب ؛ صلاة توفِى قائلَها أجره بغير حساب يوم الحساب .

وبعد حمد الله على أن أحمَد عواقب الأمور ، وأظهر الإسلام سلطانا اشتدّت به من الأمة الظهور ، وشفيت الصدور ، وأقام الخلافة العباسيّة فى هذا الزمن المنصور ، كما أقامها فيما مضى بالمنصور ، واختار لإعلان دعوتها مَنْ يُحيى معالمها بعد العفاء ورسومَها بعد الدثور ، وجمع لها الآن ما كان جمح عليها فيما قبلُ من خلافِ كلّ ناجم ، ومنحها ما كانت تبشّرها به الملاحم ، وأنفذ كلمتها فى ممالك الدولة العلويّة بخير سيف مشحوذ ماضى العزائم ، ومازج بين طاعتهما فى القلوب وذكرها فى اللسان ؛ وكيف لا والمنصور هو الحاكم . وأخرج لحياطة الأمّة المحمّدية ملكا تنقسم البركات من يمينه ، وتقسم السعادات بنور جبينه ، ويقهر الأعداء بفتكاته ، وتبهر عقائل العقائل بصُفر راياته : ذى السّعْد الّذى مازال سعده يشفّ حتى ظهر ، ومفخره يرفّ إلى أن بهر ، وجوهره ينتقل من جِيد إلى جيد حتى يملأ الجبين ، وسرّه يكمن فى كلّ قلب حتى علم العلم اليقين .

والحمد لله الّذى جعل بنا تمكينَه فى الأرض بعد حين ، فاختاره الله على علم ، واصطفاه من بين عباده بما جبله الله عليه من كرم وشجاعة وحلم ، وأتى الله به الأمّة المحمدية فى وقت الاحتياج غَوْثاً ، وفى إبّان الاستمطار غيثا (١) ، وفى حين عبث الأشبال فى غير وقت الافتراش لَيْثاً ، فوجب على كلّ مَنْ له فى أعناق الأمّة المحمديّة بيعة الرضوان ، وعند إيمانهم مصالحة الأيمان ، ومن حيث وَجَبت البيعة باستحقاقه لميراث

---

(١) ح : « عيث » .

منصب النبوّة ، ومَنْ تصحّ به كلّ رسمية شرعية يؤخذ كتابها قوّة ، ومن هو خليفة الزمان والعصر ، ومَنْ بدعواته تنزل عليكم معاشر كماةِ المسلمين ملائكة النصر ، ومن نسبُه بنسبِ (١) نبيكم صلى الله عليه وسلم مُنْتسِج ، وحَسَبُه بحَسَبِه ممتزج — أن يفوّض له مافوّض الله إليه من أمر الخلق ، ليقوم عنه بفرض الجهاد والعمل بالحقّ ، وأن يولّيه ولاية شرعيّة تصحّ بها الأحكام ، وتنضبط أمور الإسلام ، وتأتى هذه العصبة الإسلاميّة يوم تأتى كل أمة بإمامها من طاعة خليفتها بخير إمام . وخرج أمر مولانا أمير المؤمنين شرّفه الله أن يكون المقرّ العالى المولوىّ الساطانىّ الملكىّ المنصورىّ أجلّه الله ونصرّه ، وأظفره وأقدره وأيده وأبّده ، كلّما فوّضه مولانا أمير المؤمنين من حكم فى الوجود ، وفى التّهائم (٢) والنجود ، وفى الجيوش والجنود ، وفى الخزائن والمدائن ، وفى الظّواهر والبواطن ، وفيما فتحه الله تعالى وفيما سيفتحه ، وفيما فسد بالكفر والرّجا من الله أن سيصلحه ، وفى كل جود ومنّ وكل عطاء ، وفى كلّ هبة وتمليك ، وفى كلّ تفرّد بالنظر فى أمور المسلمين بغير شريك ، وفى كل تعاهد ونَبْذ ، وفى كلّ عطاء وأخذ ، وفى كلّ عزل وتولية ، وفى كل تسليمٍ وتخلية ، وفى كلّ إرفاق وإنفاق ، وفى كلّ إنعام وإطلاق ، وفى كلّ استرقاق وإعتاق ، وفى كلّ تقليل وتكثير ، وفى كلّ تأثيل وتأثير ، وفى كلّ تقليد وتفويض ، وفى كلّ تجديد وتعويض ، وفى كلّ حمد وتقريض ، ولايةً تامّة محكمة ، منضّدة منظمة ، لا يعقبها نسخ من بين يديها ولا من خَلْفِها ، ولا يعتريها فسخ يطرأ عليها ، يزيدها مرّ الليالى جِدّة يعقبها حسن شباب ، ولا ينتهى عن الأعوام والأحقاب ، ونَعمٌ تنتهى إلى مانصبه الله تعالى للإرشاد ، ومن سنّة وكتاب ؛ وذلك من شرع الله ، أقامه للهداية عَلَماً ، وجعله إلى اختيار الثواب سُلّماً .

---

(١) ط : « بيبت » .

(٢) ط : « البهائم » تحريف .

فالواجب أن يُعمَل بجزئيات أمره وكليّاته ، وألّا يخرج أحد عن مقدّماته .

والعدل ، فهو الغرس المثمر ، والسحاب الممطر ، والروض المزهر ، وبه تنزل البركات ، وتخلف الهبات ، وتربُو الصدقات ، وبه عمارة الأرض ، وبه تؤدّى السنّة والفرض ؛ فمن زرع العدل اجتنى الخير ، ومن أحسن كُفِى الضّرَر والضّير .

والظلم ، فعاقبته وخيمة ، وما يطول عمر الملك إلا بالمعدلة الرحيمة .

والرعيّة ، هم الوديعة عند أولى الأمر ، فلا يختصّ منهم زيد دون عمرو .

والأموال ، فهى ذخائر العاقبة والمآل ، فالواجب أن تؤخذ بحقّها ، وتنفق فى مستحقّها .

والجهاد براً وبحراً ، فمن كنانة الله يفوّق سهامه ، وتؤرّخ أيامه ، ويُنتضى حُسامه ، وتجرى منشآته فى البحر كالأعلام وتنشر أعلامه ، وفى عقر دار الحرب يحطّ ركابه ، ويخطّ كتابه ، وترسل أرسانه ، وتجوس خلالها فرسانه ، فيلزم منه دنياديدنا ، ويستصحب منه فعلا حسنا .

وجيوش الإسلام وكماته ، وأمراؤه وحماته ، فمنهم من قد علمتْ قدَم هجرته ، وعظم نصرته ، وشدة باسِه ، وقوّة مراسه . ومامنهم إلا من شهد الفتوحات والحروب ، وأحسن فى المحاماة عن الدين الدءوب ، وهم بقايا الدّول ، وسجايا الملوك الأوَل ، ولا سيّما أولى السعى الناجح ، والرأى الراجح ، ومن له نسبة صالحية ؛ فإذا فخروا بها قيل لهم : نعم السلف الصالح ! فأوسعهم بِرًّا ، وكنْ بهم برًّا ، فهم مما يجب من خدمتك أعلم ، وأنت بما يجب من حقهم أدرى .

والحصون والثغور ، فهى ذخائر الشدة ، وخزائن العديد والعُدّة ، ومقاعد القتال ، وكنائن الرّجا والرجال ؛ فأحسِنْ لها التحصين ، وفوّض أمرها إلى كلّ قوى أمين ، وإلى كل ذى دين متين ، وإلى كل ذى عقل رصين .

ونوّاب الممالك ونواب الأمصار ، فأحسنْ لهم الاختيار ،وأجمل لهم الاختيار ،وتفقّد لهم الأخبار .

وأما ماسوى ذلك فهو داخل فى حدود هذه الوصايا ، ولولا أنّ الله تعالى أمر بالتذكير لكان ذلك سجايا المقرّ الأشرف السلطانىّ الملكىّ المنصور مكتفية بأنواره المضيئة الساطعة .

وزمام كلّ صلاح يجب أن يشغل به جميع أوقاته ، هو تقوى الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ يأيّها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ﴾[١] ، فليكن ذلك نصب العيْن ، وشغل القلب والشفتين .

وأعداء الدّين من أرمن وتتار ، فأذقْهم وبال أمرهم فى كلّ إيراد وإصدار ، وخذ للخلفاء العباسيين ولجميع المسلمين منهم الثار . واعلم أنّ الله ينصرك على ظلمهم ومالظالمين من أنصار .

وأمّا غيرهُم من مجاوريهم من المسلمين ، فأحسِنْ لهم باستنقاذك من العِلاج ، وطبّهم باستصلاحك فبالطّبّ المنصورىّ والملكى مازال يُصلح المزاج ، والله الموفّق بمنّه وكرمه إن شاء الله تعالى .

واستمرّ قلاوون فى السلطنة ، فكان له مشاهد حسنة ، وفتوحات ، فمنها طَرَابُلس وقد كانت فى أيدى الفرنج من سنة ثلاث وخمسمائة وإلى الآن . وهو الذى أحدث وظيفة كتابة السرّ ، وأحدث اللعب بالرّمح أيام إدارة المحمل وكسوة الكعبة ، وغيّر ملابس الدولة عمّا كانوا عليه فى دولة بنى أيّوب .

قال الصلاح الصفدى : كان الجند يلبسون فيما تقدّم كَلَوتات[٢] صفر مضرّبة

---

(١) سورة آل عمران ١٠٢ . (٢) الكلوتة : غطاء الرأس تلبس وحدها أو بعمامة ، وهو مما استحدثه سلاطين الأيوبيين بمصر ، وانظر حواشى السلوك ٩٣ ٤ .

بكلبندات (١) بغير شاشات ، وشعورهم مضفورة دبابيق فى أكياس حرير ملوّنة ، وفى خواصرهم موضع الحوائص بنود ملوّنة ، وأكمام أقبيتهم ضيّقة وأخفافهم برغالى ، ومن فوق قماشهم بحلق وإبزيم (٢) وجلواز كبير، يسع نصف ويبة أو كثر ؛ فأبطل المنصور ذلك كله بأحسن منه ؛ وأقام فى السّلطَنة إلى أن تُوفى يوم السبت سادس ذى القعدة سنة تسع وثمانين .

***

وأقيم بعده ولده الملك الأشرف صلاح الدين خليل ، فلمّا كان يوم الجمعة رابع عشر شوّال سنة تسعين ، سأل الأشرف الخليفةَ الحاكم بأمر الله ، أن يخطب بنفسه النّاس ، وأن يذكر فى خطبته أنّه قد ولّى السلطنَة الأشرف خليل بن المنصور ، فلبس الخليفة خِلعةً سوداء ، وخطب الناس بجامع القلعة ، ورسم لقاضى القضاة بدر الدين بن جماعة من ثَمّ أن يخطب بالقلعة عند السلطان ، فخطب يوم الجمعة التى خطب فيها الخليفة ، واستمرّ يخطب ويستنيب فى الجامع الأزهر . ثم أمر الأشرف بقراءة ختمة عند قبر الملك المنصور فى ليلة الاثنين رابع ذى القعدة ، فحضرها القضاة والأمراء والأعيان ، ونزل السلطان ومعه الخليفة إليهم وقت السَّحَر ، وخطب الخليفة بعد الختمة خطبة بليغة، حرّض الناس فيها على غزو بلاد العراق ، واستنقاذها من أيدى التتار ، واستمرّ الأشرف فى السلطنة إلى أن قتل بتَرُوجة (٣) فى ثالث المحرم سنة ثلاث وتسعين ، ونقل فدفن فى مدرسته التى أنشأها بالقرب من السيدة نَفِيسة ، وقال ابن حبيب يرثيه :

تبًّا لأقوامٍ لمالك رقِّهِمْ ... قتلوا ومارقُوا لحالة مُتْرَفِ
وافوهُ غدرا ثم صالوا جملةً ... بالمشرفىّ على المليك الأشرفِ

---

(١) الكلبند : جزء من غطاء الرأس ؛ وانظر حواشى السلوك ٤٩٤ . (٢) الإبزيم : ما يكون فى رأس المنطقة وما أشبهه ، وهو ذو لسان يدخل فيه الطرف الآخر .

(٣) تروجة : قرية بمصر ؛ من كورة البحيرة من أعمال الإسكندرية ؛ ذكرها ياقوت .

وأقيم أخوه ناصر الدين أبو الفتوح محمد ، ولقبُ الملك الناصر ، وعمره يومئـذ تسع سنين ، واستمرّ إلى حادى عشر المحرّم سنة أربع وتسعين ، فخلع .

وتسلطن زين الدين كتبغا المنصورى من سَبْى التتار ولقّب الملك العادل ، فأقام إلى صفر سنة ست وتسعين ، بخليع وتسلطن حسام الدّين لاجين المنصوريّ ، وشقّ القاهرة ، وعليه الخلعة الخليفيّة ، والأمراء بين يديه مشاة ، وجاء فى تلك السنة غيثٌ عظيم ، بعد ما كان تأخّر ، فقال الوادعى فى ذلك :

يأيّهـــا العالَمَ بشرا كمُ بدولةِ المنصور ربّ الفخارْ
فالله قد بارك فيهـا لـكمْ فأمطر اللّيل وأضحى النّهارْ

إلى أن قتل ليلة الجمعـة حادى عشر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين ، وأعيـد الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وكان منفيًّا بالـكرك ، فأحضر ، وقلّده الخليفة يوم السبت رابع جمادى الأولى ، وشقّ القاهرة وعليه خلعة الخليفة ، والجيش مشاة بين يديه ، فأقام إلى سنة ثمان وسبعمائة ، فخرج فى رمضـان قاصداً للحجّ ، فاجتاز بالـكرَك ، فأقام بهـا ، ثم كتب كتـابا إلى الدّيار المصرية ، يتضمّن عزل نفسه عن المملـكة ، فأثبت ذلك على القضاة بمصر ، ثم نفّذ على قضـاة الشام .

وأقيم فى السلطنة الأمـير ركن الدين بيبرس الجاشنـكير المنصوريّ ، وذلك يوم السبت الثالث والعشرين من شوال ، ورقّب الملك المظفّر ، وقـلّده الخليفـة ، وألبسه الخلعـة السوداء والعمامة المدوّرة ، وركب بذلك وشقّ القـاهرة ، والدّولة بين يديه والصاحب ضياء الدين النّشائىّ حامل التقليد من جهـة الخليفة فى كيس أطلس أسود وأوله : إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم .

ثم نفذ التقليد إلى الشام ، فقرِئ هناك ، ثم عاد الملك الناصر من الـكرَك طالبـاً عَوْده إلى ملـكه ، وبايعه على ذلك جماعة من الأمراء ، فبلغ ذلك المظفّر بيبرس ، فاستدعى بالشيخ زين الدين بن المرحّل وبالشيخ شمس الدين بن عدلان ، واستشارهما ، فأشارا عليه

بتجديد العهد من الخليفة وتحليف الأمراء ففعل ذلك ، وكتب له عهد من الخليفة ، صورته :

إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي الرّبيع سليمان العباسيّ لأمراء المسلمين وجيوشها ، ﴿ يأيّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾[1] ، وإني رضيت لكم بعبدالله تعالى الملك المظفّر ركن الدّين بيبرس نائبا عنّي لملك الديار المصرية والبلاد الشاميّة ، وأقمته مقام نفسى لدينه وكفايته وأهليّته ، ورضيتُه للمؤمنين ، وعزلت مَنْ كان قبله ، بعد علمى بنزوله عن الملك ، ورأيت ذلك متعيّناً علىّ ، وحكمتْ بذلك الحكّام الأربع . واعلموا رحمكم الله أنّ الملك عقيم ليس بالوراثة لأحد خالفٍ عن سالف ، ولا كابرٍ عن كابر ، وقد استخرتُ الله تعالى وولّيت عليكم الملك المظفّر ، فمن أطاعه فقد أطاعنى ، ومَنْ عصاه فقد عصانى ، ومَنْ عصانى فقد عصى أبا القاسم ابن عمّى صلى الله عليه وسلم . وبلغنى أنّ الملك الناصر ابن السلطان الملك المنصور شقّ العصا على المسلمين ، وفرّق كلمتهم ، وأطمع عدوّهم فيهم ، وعرّض البلاد الشامية والمصريّة إلى سبى الحريم والأولاد ، وسفْك الدماء ، فتلك دماء قد صانها الله تعالى من ذلك ، وأنا خارج إليه ومحاربه إن استمرّ على ذلك ، وأدافع عن حريم المسلمين وأنفسهم وأولادهم بهؤلاء الأمراء والجيش العظيم ، وأقاتله حتى يفيء إلى أمرالله . وقد أوجبتُ عليكم يامعاشرَ المسلمين كافة الخروج تحتْ لوائى ، اللواء الشريف ، فقد أجمعت الحكام على وجوب دفعه وقتاله إن استمرّ على ذلك ، وأنا أستصحب معى الملك المظفّر ، فجهزوا أرواحكم . والسلام .

وقرِئ هذا العهد على منابر الجوامع بالقاهرة ، وأمّا النّاصر فإنه سار من الكَرَك بمن معه فى أوّل شعبان سنة ثمان وسبعمائة ، فأتى دمشق فانتظم أمرُه ، ثم توجّه إلى مصر ، فلما بلغ ذلك المظفّرَ بيبرس ، أخذ جميع مافى الخزائن من الأموال ، وتوجّه إلى جهة أسوان ،

(١) النساء ٥٩

فدخل النّاصر إلى مصر يوم عيد الفطر ، وصعد القلعة ، وجلس على سرير الملك، وحلفت له العساكر ، ثم وجّه إلى المظفّر من أحضره واعتقله ، ثم خَنقَه فى خامس عشر شوال .

وقال العلاء الوداعى فى عَوْد الناصر إلى ملكه :

الملك النـاصرُ قد أقبلتْ دولتُه مشرِقَةَ الشّمسِ
عادَ إلى كرسيّه مثل ما عادَ سليمانُ إلى الكرسِى

وقال الصلاح الصفدىّ :

تثنّى عِطف مصر حين وافَى قدومُ النّاصر الملك الخبيرِ
فذلّ الجَشْنَكيرُ بلا لقاء وأمسى وهو ذو جأش نكيرِ
إذا لم تعضِد الأقدار شخصاً فأوّل ما يُراع من النّصيرِ

وشرع يعاتب الناس فى أمره ، فقال للخليفة : هل أنا خارجىّ وبيبرس من سلالة بنى العباس !

وقال للقاضى علاء الدين بن عبد الظاهر : وكان هو الذى كتب عهد المظفّر عن الخليفة : ياأسودَ الوجه . وقال للقاضى بدر الدين بن جماعة : كيف تفتِى المسلمين بقتالى ! فقال : معاذ الله ، أن تكون الفتوى كذلك ! وإنّما الفتوى على مقتضى كلام المستفتِى . ثم عزله عن القضاء ، وعزل القاضيين : شمس الدين السّروجىّ الحنفىّ والحنبلىّ ، وأبقى المالكىّ ، لكونه كان وصيًّا عليه من جهة أبيه قلاوون .

وقال للشيخ صدر الدين بن المرحّل : كيف تقول فى قصيدتك :

ما للصّبىّ وما للملك يكفلُه شأن الصبىّ بغير الملك مألوف !

فحلف ابن المرحّل ماقال هذا ، وإنّما الأعداء زادوا هذا البيت فى القصيدة ، والعفو من شيم الملوك ؛ فعفا عنه .

وجاء الشيخ شمس الدين بن عَدْلان يستأذن ، فقال الناصر للدوادار [١] : قل له : أنت أفتيت أنه خارجىّ ، وقتاله جائز ، مالك عندى دخول ! ولكن عرّفه أنه وابن المرحّل يكفيهما ماقال الشارمساحىّ فى حقهما ، وكان الأديب شهاب الدين أحمد بن عبد الدائم الشار مساحىّ الماجن قال :

ولّى المظفّرُ لمّا فاتَهُ الظَّفَرُ	وناصرُ الحقّ وافىَ وهو منتصرُ
وقد طوَى الله من بين الورى فِتَنًا	كادت على عُصْبة الإسلام تنتشرُ
فقل لبيبرسَ إنّ الدهر ألبسَهُ	أثواب عاريةٍ فى طولها قِصرُ
لمّا تولّى تولّى الخير عن أُمَمٍ	لم يحمدوا أمرَه فيها ولا شكروا
وكيف تمشى به الأحوال فى زمنٍ	لاالنيلُ أوفى ، ولا وافاهمُ مَطَرُ
ومن يقوم ابن عدلانٍ بنصرتِهِ	وابنالمرحّلقال لى: كيف ينتصرُ !

وكان النيل لم يوفٍّ سنة تولى المظفر ، وارتفع السعر .

قلت : الكلّ مظلومون مع النّاصر ، فإنهم أفتَوْا بالحقّ ، ولكن جبروت وظلم وعسف ، وشوكة وصِبًا وجهل ، فمن يخاطب الإنسان !

واستمرّ الناصر فى السلطنة بلا منازع ، فحجّ خفيفا فى سنة اثنتى عشرة من طريق الكَرَك ، وعاد إلى دمشق ، ثم حجّ من القاهرة سنة تسع عشرة ، ومعه قاضى القضاة البدر ابن جماعة ، والأمراء وغالب أرباب الدولة ، وكان خروجه فى سادس ذى القعدة ، وأبطل فى هذه السنة مكوسَ الحرمَيْن ، وعوّض أميرىْ مكة والمدينة عنها إقطاعاتٍ بمصر والشام ، ومهّد ما كان فى عقبة إيلياء من الصخور ، ووسّع طريقها .

واتّفق فى هذه السنة أنّ كريم الدين ناظر الخاصّ حضر إلباسَ الكعبة الكسوة ، فصعد الكعبة ، وجلس على العتبة يشرف على الخيّاطين ، فأنكر الناس استعلاءه على

---

(١) الدوادار دار : وظيفة تعادل السكرتيرالخاص للسلطان ، وهو الذى يحمل دواته وغيرها ؛ مع ما يلحق ذلك من المهمات . حواشى السلوك ١ : ١٤١ .

الطائفين ، فسقط لوقته على رأسه ، وصرخ الناس صرخة عظيمة تعجُّبا من ظهور قدرة الله ، وانقطع ظهره ، ولولا تداركه مَنْ تحته لهلك ؛ وعلم بذنبه، فتصدّق بمال جزيل.

ثم حجّ الناصر حجة ثالثة فيسنة اثنتين وثلاثين ، وهو الذى حفر الخليج النّاصرىّ الداخل من قنطرة قُدَيدَار[١] ، وعزم على أن يجرى النيل تحت القلعة ، ويشقّ له من ناحية حُلوان ، فثبّطه عن ذلك فخر الدين ناظر الجيش ، وقال إنه يحتاج إلى ثلاث خزائن من المال ، ولا يدرى : هل يصح أولا ! فرجع عنه .

واستمرّ الناصر إلى أن مات يوم الأربعاء عاشر ذى الحجة سنة إحدى وأربعين ، وهو أطول ملوك الترك مدّة .

وأقيم بعده ولده سيف الدين أبو بكر ، ولقّب الملك المنصور ، فأقام دون الشهرين ، ثم خلع فى يوم الأحد العشرين من صفر سنة اثنتين وأربعين ، ونفى هو وإخوته إلى قُوص ، وتهتّكت حريم أبيه الناصر ، وكثر البكاء والعويل بالقاهرة . وكان يوماً من أشنع الأيّام ، ثم قُتِل بقوص ؛ وأقيم بعده أخوه علاء الدين كجك ولقّب الملك الأشرف ، وعمره دون ست سنين ، فقال بعض الشعراء فى ذلك .

سُلطاننا اليومَ طفْلٌ والأكابر فى ... خُلْف وبينهمُ الشّيطان قد نَزَغا

فكيف يطمع مَنْ تغشاه مظلمةٌ ... أن يبلغ السؤل والسلطان مابَلَغَا

فأقام خمسة أشهر ، ثم خلع فى أوّل شعبان ، واعتقل بالقلعة إلى أن مات سنة ست وأربعين . قال صاحب السكردان : والله أعلم كيف موته[٢] .

وأقيم أخوه شهاب الدين أحمد ولقّب الملك الناصر ، وكان قدم من الكرك ، وكان

---

(١) قنطرة قديدار ، كانت على الخليج الناصرى . وانظر حواشى النجوم الزاهرة ٩ : ٨٢ .
(٢) السكردان ٥٨ .

الذى عقد المبايعة بينه وبين الخليفة الشيخ تقى الدين السبكىّ ، وقد حضر من الشام إلى مصر ، قال فى السّكردان :

فأقام فى الملك بمصر أربعين يوما ، ثم رجع إلى الكَرَك ، ولم يزل هناك حتى خلع يوم الخميس ثانى عشر المحرم سنة ثلاث وأربعين، ثم قتِل فى أول[1] سنة خمس وأربعين، وأقيم بعده أخوه عمادالدين إسماعيل ولقب الملك الصالح ، فأقام إلى أن مات فى رابع ربيع الآخر سنة ست وأربعين وعمره نحو عشرين سنة [2].

وقال الصلاح الصفدى يرثيه :

مضى الصالح المرجوّ للبأس والنّدَى ... ومن لم يزل يلقى المنى بالمنائح

فيا ملك مصر كيف حالُك بعدَه ... إذا نحن أثنينا عليك بصالح

وأقيم بعده أخوه زين الدين شعبان ، ولقب الملك الكامل . وقال الجمال بن نباته فى ذلك :

طلعة سلطاننا تبدّتْ ... بكامل السّعد فى الطلوعِ[3]

فاعجب لهَا منه كيف أبدَتْ ... هلال شعبان فى ربيعِ

وقال أيضا :

شعبان سلطاننا المرجَّى ... مبارك الطّالع البديعِ

يابهجةَ البدرِ إذ تبدّى ... هلال شعبان فى ربيع

فأقام سنة وأياما ، ثم خلع فى جمادى الأولى سنة سبع وأربعين ، وسجن وقتل . وكان من شِرار الملوك ظلماً وعسفا وفسقا ، فقال فيه الصلاح الصفدىّ :

بَيْت قلاوونٍ سعاداتُهُ ... فى عاجلٍ كانت وفى آجلِ

حلّ على أملاكه للرّدَى ... دَيْنٌ قد استوفاه بالكامل

---

(١) السكردان : « فى صفر » . (٢) السكردان ٥٨ . (٣) السكردان ٥٩ .

وأقيم بعده أخوه زين الدين حاجى ، ولقب الملك المظفر ؛ فأقام سنة وثلاثة أشهر ، ثم خلع فى يوم الأحد ثانى عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وذبح من ساعته ، وقال فيه الصلاح الصفدىّ :

أيها العاقلُ اللبيبُ تفكَّرْ فى المليكِ المظفّرِ الضِّرغامِ
كم تمادَى فى البَغْيِ والغيِّ حتى كان بعث الحمام حدّ الحِمامِ

وقال أيضا :

حان الردى للمظفَّرْ وفى التراب تعفَّرْ
كم قد أباد أميراً على المعالِي توفَّرْ
وقاتل النفس ظلماً ذنوبه ما تكفَّرْ

وأقيم بعده أخوه ناصر الدين أبو المحاسن حسن ؛ ولقب الملك الناصر ، وعمره يومئذ إحدى عشرة سنة ؛ فأقام إلى أن خلع فى جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين ، وسجن بالقلعة ، وأقيم بعده أخوه صالح ، ولقب الملك الناصح ، وجعل شيخو أتابكه (١) فأقام إلى أن خلع فى شوال سنة خمس وخمسين ، وحبس بالقلعة ، وأعيد الناصر حسن ، فأقام إلى أن قُتِل ليلة الأربعاء تاسع جمادى الأولى سنة اثنتين وستين ، وأقيم بعده ابن أخيه ناصر الدين أبو المعالى محمد بن المظفر حاجى ، ولقِّب الملك المنصور ، فأقام إلى أن خلع فى شعبان سنة أربع وستين وسجن بالقلعة إلى أن مات سنة إحدي وثمانين ، وأقيم بعده ابن عمّه أبو المفاخر شعبان بن الأمير حسين بن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ولقّب الملك الأشرف وعمره يومئذ عشر سنين واستقرّ أتابكهُ يلبُغا العمرىّ . ثم إنّ يلبغا قتِل بأيدى مماليكه فى سنة ثمان وستين ، وكان ساكنا بالكبش ، فقال فيه بعض الشعراء :

---

(١) الأتابك : فى أيام المماليك مقدم العساكر أو القائد العام .

بَدَا شقا يلبُغَا وعَدّتْ عِــداه فى سفنه إليه
والكبش لم يَفْدِهِ وأضحتْ تنــوحُ غربانُه عليْهِ

وأقيم أسَنْدَمُر الناصر أتابكا ، فاتفقت معه مماليك يلبُغا ، فركبوا على الأشرف فهزموا ، ونصر الأشرف ، وقال بعض الشعراء فى ذلك :

هـــلال شعبانَ جهراً لاحَ فى صَفَرِ بالنّصر حتى أرى عيـــدا بشعبانِ
وأهلُ كبش كأهل الفيل قد أخذوا رَغماً وما انتطحتْ فى الكبش شاتانِ

ثم أقيم الجائى اليوسفىّ أتابكا وهو زوج أم الأشرف ، فاتفق موت أمّ الأشرف ، فقال شهاب الدين السعدىّ متفائلاً بالجائى :

فى مستهـــلّ العشر من ذى حجّةٍ كانت صبيحـــةُ موتِ أمّ الأشرفِ
فاللهُ يرحَمُهـــا ويعظِم أجْره ويكون فى عاشور موت اليُوسفِى

فاتّفق أن وقع الأمر كذلك ، ركب الجائى على الأشرف فى سابع المحرّم ، فكسر وطلب يوم الثامن ، فساق حتى أرمى نفسه فى البحر ، فغرق ، ثم أخرجه الغوّاصُون ودفن فى تاسع المحرّم .

ثم إن الأشرف تأهّب للحجّ ، وسافر فى شوال سنة ثمان وسبعين ، وصحبه الخليفة والقضاة والأمراء ، فلما وصل إلى العقبة ، ركب عليه مَنْ تَبِعَه من الأمراء والجند ، فانكسر السلطان ، ورجع هاربا إلى مصر ، فاختفى بها .

قال الحافظ ابن حجر : أخبر الشيخ بدر الدين السلسولىّ أحد علماء المالكيّة وصلحائهم ، أنّه رأى النبىّ صلى الله عليه وسلم لمّا تجهز الأشرف للحجّ ، وعمر يقول له : شعبان بن حسين يريد أن يجىء إلينا ، فقال : لا ما يأتينا أبدا ! فلم يلبث الأشرف أن رجع من العقبة .

قال ابن حجر : وعرض طشْتَمُر على الخليفة أن يتسلطن ، فامتنع وقال : بل اختاروا

من شئتم ، وأنا أولّيه ، ورجع هو والقضاة إلى مصر . ثم إنهم ظفروا بالأشرف، فخنقوه وأقيم بعده ولده علاء الدين علىّ وهو صبىّ ؛ ولقّب الملك المنصور ، فأقام إلى أن مات فى صفر سنة ثلاث وثمانين ، وعمره يوم مات اثنتا عشرة سنة . وكان التدبيرُ فى أيّامه لأينبَك البدرىّ، ثم لَقَرطاى، ثم لبرقوق .

وأقيم بعده أخوه صلاح الدين حاجى بن الأشرف شعبان ، ولقّب الملك الصالح ، وسنّة حينئذ تسع سنين ، ثم خلِع فى رمضان سنة أربع وثمانين ، وأقيم فى السلطنة سيف الدين أبو سعيد برقوق بن أَنَص ؛ ولقِّب الملك الظاهر ؛ وهو أوّل السلاطين من الجراكسة ، وليس فيهم من تَسَلْطَن وأبوه مسلم غيره ؛ فإنّ أباه قدم إلى الديار المصرية ، فأسلم ومات قبل سلطنة ولده بشهر . وكان الذى أشار بتلقيب برقوق بالظاهر شيخ الإسلام سراج الدين البُلقينىّ ؛ فإنّ ولايته كانت وقت الظهر ، وخطب الخليفة قبل أن يفوّض إليه خطبة بليغة ، ثم قلّده بحضرة البُلقينىّ والقضاة ، واستمرّ فى السلطنة إلى ثالث جمادى الآخرة سنة إحدى وتسعين ، فخلع وسجن بالكَرَك ، وأعيد حاجى إلى السلطنة . ولقِّب الملك المنصور ، فأقام إلى صفر سنة اثنتين وتسعين وخلع . وعاد برقوق إلى السّلطنة ، فاستمرّ إلى أن مات فى شوال سنة إحدى وثمانمائة ، وأقيم بعده ولده زين الدين أبو السعادات فرج ، ولقِّب الملك الناصر ، وقال بعضُ الشعراء فى ولايته :

مضَى الظّاهر السّلطان أكرم مالكٍ ... إلى ربّه يرقَى إلى الخُلْدِ فى الدَّرَجْ
وقالوا ستأتى شدّة بعد موتِه ... فأكذبهم ربّى وماجا سوى فرجْ

فأقام إلى سادس ربيع الأول سنة ثمان وثمانمائة ، فخلع وأقيم أخوه عبد العزيز ، ولقّب الملك المنصور ، ثم خُلع فى رابع جمادى الآخرة من السنة ، وأعيد النّاصر فرج ، فأقام إلى أن خرج عليه شيخ المحمودىّ ، وقاتله وحصره ، وظفر به وحكم ابن العديم

بسفك دمه وقُتِل بسيف الشرع ؛ وذلك فى المحرّم سنة خمس عشرة وثمانمائة ، وأقيم الخليفة المستعين بالله أبو النصر العباسىّ سلطاناً مستقلاًّ بالأمر ، وحلف له الأمراء على الوفاء ، ولم يغيّر لقبه ، فأقام يتصرّف بالولاية والعزل وغيرهما ، ثم سأله شيخ أن يفوّض إليه السلطنة على العادة ، فأجابه إلى ذلك فى شعبان من السنة ، وبقيت الخلافة باسمه ، واستقرّ شيخ فى السلطنة ، ولقِّب الملك المؤيّد وكان من خيار الملوك .

ترجمهُ الحافظ ابن حجر فى معجمه وأثنَى عليه ، وقال : أين مثله ؟ بل أين أين مثله ! وكان معه إجازة بصحيح البخارى من شيخ الإسلام سراج الدين البُلقينىّ ، فكانت لا تفارقه سفَراً ولا حضرا ، وأقام إلى أن تُوُفِّىَ فى ثامن محرم سنة أربع وعشرين ، وأقيم بعده ولده أحمد ، ولقِّب الملك المظفّر ، وعمره يومئذ سنتان . وجعل طَطَر مدبّر المملكة ، ولقِّب نظام الملك ، فلما كان سَلْخ شعبان من السنة خلع من الملك لصغره ، وأقيم طَطَر ، ولقِّب الملك الظاهر ، فأقام إلى أن مات فى سادس ذى الحجّة من السنة .

وأقيم بعد طَطَر ولده محمد ولقّب الملك الصالح ، وجعل برسباى نظام الملك ، فلمّا كان فى ثامن ربيع الآخر خلع سنة خمس وعشرين وأقيم برسباى ، ولقِّب الملك الأشرف ، فأقام إلى أن مات فى ذى الحجة سنة إحدى وأربعين .

وأقيم ولده يوسف ، ولقِّب الملك العزيز ، وجعل جُقْمق نظام الملك ، فلما كان فى سنة اثنتين وأربعين خلِع وأقيم جُقْمق ، ولقب الملك الظّاهر ، فأقام إلى أن مات سنة سبع وخمسين .

وأقيم ولده عثمان ، ولقّب الملك المنصور ، فمكث شهرا ونصفا ، ثم خُلِع فى ربيع الأول ، وأقيم إينال العلائىّ ؛ ولقِّب الملك الأشرف ، فأقام إلى أن مات فى جمادى الأولى سنة خمس وستين .

وأقيم ولده أحمد ولقب الملك المؤيّد ثم خلع فى رمضان من السنة ، وأقيم خشقدم الناصرىّ ، ولقِّب الملك الظاهر ، فأقام إلى أن مات فى ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين .

وأقيم قايتباى العلائىّ ، ولقِّب الملك الظاهر ، فأقام نحو شهرين وخلع ، وأقيم تمربغا ، ولقِّب الملك الظاهر ، فأقيم أيضا نحو شهرين ، وخلع فى رجب . وأقيم سلطان العصر الملك الأشرف قايتباى المحمودىّ ، فأقام إلى أن مات ليلة الاثنين ثانى عشر ذى القعدة سنة إحدى وتسعمائة .

وأقيم ولده محمد ، ولقب الملك الناصر أبو السعادات محمد [1] .

وقد نظم بعضهم أسماء بعض السلاطين فى أرجوزة وهو حمزة بن علىّ الحسنىّ مذيلا على أرجوزة الجزّار عقب ذكر الملك الظاهر ، فقال :

ثم تولّى الملكُ السعيدُ ... وكلّ يوم فى ذراه عيدُ
ثم أخوه العادلُ استقلاّ ... بالملك أياما بها وولّى

---

(١) ورد فى هامش الأصل ما يأتى : « وقتل فى يوم الأربعاء منتصف ربيع الأول سنة أربع ، فولى بعده خاله قانصوه الغورى يوم الجمعة سابع عشرة ، ثم خلع أول ذى الحجة سنة خمس ، وولى بعده خاله جان بلاط ، ولقب الأشرف ، ثم أقام فى الملك إلى أن خرج من مصر فى منتصف ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة فى جيش كبير إلى البلاد الحلبية لملاقاة السلطان سليم عثمان فوقع المصاف بينهما بمرج دابق فى خامس عشرى رجب من السنة المذكورة ، فمات فى ذلك حتف أنفه ، ولم توجد جثته . ثم فى يوم الجمعة رابع عشر شهر رمضان من السنة المذكورة تولى طومان باى الداودار ابن أخى الغورى ولقب الأشرف ، ثم إن السلطان سليم بن عثمان دخل مصر فى يوم الخميس سلخ الحجة ، وقتل طومان باى يوم الاثنين حادى عشرى ربيع الأول سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة . وأقام بمصر إلى أن رحل عنها فى رابع عشرى شعبان من السنة المذكورة وخلف عليها خايربك المحمدى . ثم إن ابن عثمان مات ببلاد الروم فى ليلة السبت تاسع شوال سنة ست وعشرين ، وقام بعده فى الملك ولده سلطان العصر سليمان نصره الله تعالى . ثم مات خاير بك فى ثالث عشرى ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وتسعمائة ، ثم ولى بعده خاير بك مصطفى أحد وزراء السلطان سليمان . ثم فى شهر رمضان قدم من الروم أمير لنيابة مصر يسمى قاسم ، ثم جاء من بعده أحمد باشا ، ثم من بعده سليمان باشاه ، ثم من بعده سليمان باشاه خسرو ، ثم من بعد خسرو أعيد سليمان باشاه ، ثم من بعده الزينى داود باشاه متوليها الآن أدامه الله تعالى » .

وقد وضع هذا النص خطأ داخل نسختى ح ، ط .

ثم تولّى الملك المنصورُ ومَنْ جرى بنصره المقدور
ثم تولّاها المليك الأشرفُ ومن غدا بكلّ جود يعرَفُ
ثم تولّاها المليك الناصرُ وماله فى نصره موازِرْ
ثم الأمير كتبغاء العادلُ وماجرى فى وقته فسائلُ
وبعده لاجينٌ المنصورْ ودولة بلاؤهـا مشهورْ
ثم بها الناصِرُ عاد ثانيهْ ولم ينل فى ملكه أمانيهْ
ثم حوى الأمرَ بها المظفّرُ ليقضَ أمرُ ربّنا المقدّرُ
ثم بها الناصر عاد ثالثهْ ونجله المنصور كان وارثهْ
وبعده الأشرف وهو يافعُ فلا ممانع ولا مدافعُ
ثم تولّى الناصرُ بن الناصرِ وبعده الصالح ذو المآثِرِ
أعنى أبا الفداء إسماعيلاَ طائره أضحى به جميلاَ

هذا آخر ما نظمه ، وقد ذيلت عليه فقلت :

وبعده شعبان وهو الكاملُ وبعده المظفّر الماحلُ
وبعده الناصر واسمه حسنْ وبعده الصالح فى البرج سجنْ
ثم أعيد حسن وبعدَهُ محمد المنصور أوهى عهدهُ
وبعده شعبان وهو الأشرفُ وهو ابن عشر أمره مستضعفُ
وبعده المنصور واسمه على وبعده الصالح حاجى قد ولِى
وبعده برقوقُ وهو الظاهرُ ثم أعيد الصالح المنافرُ
ولقّبوه الملك المنصورَا ثم أعادوا الظاهرَ المذكورا
وبعده الناصر واسمه فرجْ وبعده عبد العزيز قد خرجْ
ولقّب المنصور ثم أمسكا وأحضر الناصر حتى مَلَكا

وبعد هــذا بويع الخليفهْ ذو الرتبة العاليــة المنيفهْ
المستعين الأعظم العبــاسُ فاستوثق الأمر وُسّر الناسُ
وبعد هــذا ملك المؤيدْ شيخ وبعــده المظفرُ احمَدْ
وبعده الظاهر واسمه طَطَرْ ثم ابنه الصالح لما أن غبرْ
ثم برسباى وذاك الأشرفُ ثم ابنه الملْك العزيز يوسف
وبعده الظاهر وهو جَقْمَقُ ثم ابنه المنصور ثم أطلقوا
وبعده إينالُ وهو الأشرفُ ثم ابنــه المؤيد المنصرفُ
وبعده خَشَقَدَمْ ليث الوغى وبَعْــد يلباى أَتَى تمربغا
والـكلّ بالظاهر رسما يوصفُ وبعدهم جاء المليك الأشرفُ
أقام فى الملك ثلاثين سوى سبع شهور وحوى ما قد حَوى
وسلطنوا ولده محمــدا ولقب الناصر رغماً للعــدا

ذكر الفرق بين الخلافة والملك والسلطنة

من حيث الشرع

قال ابن سعد فى الطبقات : أخبرنا محمد بن عمر ، حدثنى قيس بن الربيع، عن عطاء ابن السائب ، عن زاذان ، عن سلمان أن عمر بن الخطاب ، قال له : أملِكٌ أنا أم خليفة ؟ فقال : له سلمان إن أنت جبيتَ من أرض المسلمين درهماً أو أقل أو أكثر ، ثم وضعته فى غير حقّه فأنت ملك غير خليفة ، فاستعبَر عمر .

وقال : أخبرنا محمد بن عمر ، حدثنى عبد العزيز بن الحارث ، عن أبيه سفيان بن أبى العوجاء ، قال : قال عمر بن الخطاب : والله ما أدرى أخليفة أنا أم ملك ؟ فإن كنت ملكا ، فهذا أمر عظيم ، قال قائل : يا أمير المؤمنين إن بينهما فرقاً ، قال : ما هو ؟ قال : الخليفة لا يأخذ إلا حقًّا ولا يضعه إلا فى حقّ، وأنت بحمد الله كذلك ، والملك يعسف الناس ، فيأخذ من هذا ، ولا يعطى هذا. فسكت عمر.

* * *

ذكر من يطلق عليه السلطنة من حيث المصطلح

قال ابن فضل الله فى المسالك : ذكر علىّ بن سعيد أنّ الاصطلاح ألّا تطلق هذه التسمية إلا على من يكون فى ولايته ملوك ، فيكون ملك الملوك فيملك ، مثل مصر ، أو مثل الشام ، أو مثل إفريقيّة ، أو مثل الأندلس ، ويكون عسكره عشرة آلاف فارس أو نحوها ، فإن زاد بلادا أو عددا فى الجيش ، كان أعظم فى السلطنة . وجاز أن يطلق عليه السلطان الأعظم ، فإنْ خُطب له فى مثل مصر والشام والجزيرة ومثل خراسان

وعراق العجم وفارس ومثل إفريقيّة والمغرب الأوسط والأندلس ، كان سمّته سلطان السّلاطين كالسلجوقيّة .

* * *

ذكر ما يلقّب به ملك مصر

قال الكندى : قال تعالى حكاية عن إخوة يوسف : ﴿ يا أيّها العَزِيزُ مَسَّنَا وأَهلَنا الضُّرُّ ﴾[١] فحكى أن اسم ملكها العزيز ، وذكر جماعة من المفسرين أن فرعون لقبٌ لكل من ولىَ مصر ، ولعلّ هذا خاص بملوك الكفر .

(١) سورة يوسف ٨٨ .

ذكر جلوس السلطان فى دار العدل للمظالم

قال ابن فضل الله : إذا جلس السلطان للمظالم ، جلس عن يمينه قضاة القضاة من المذاهب الأربعة ، الوكيل عن بيت المال ، ثم الناظر فى الحِسْبة ، ويجلس عن يساره كاتب السرّ ، وقدّامه ناظر الجيش وجماعة الموقّعين تكملة حلقة دائرة ، وإن كان ثم وزير من أرباب الأقلام كان بينه وبين كاتب السرّ ، وإن كان الوزير من أرباب السيوف كان واقفاً على بعْد ، مع بقية أرباب الوظائف ، ويقف من وراء السلطان صفَّانِ عن يمينه ويساره من السلاح دائرة والجمدارية[١] والخاصكية[٢] ، ويجلس على بعد تقديره خمسة عشر ذراعا من يمنة ويسرة ، ذوو السنّ من أكابر أمراء المؤمنين ، وهم أمراء المشورة ، ويليهم مَنْ دونهم من أكابر الأمراء وأرباب الوظائف وقوفا وبقية الأمراء وقوف من وراء أمراء المشورة ، ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان الحجّاب والدواداريّة[٣] ، لإحضار قصص الناس وإحضار الشاكين ، وتقرأ عليه فما احتاج إلى مراجعة القضاة راجعهم فيه ، وما كان متعلّقا بالعسكر تحدّث مع الخاص وكاتب السرّ فيه .

قال : وهذا الجلوس يكون يوم الاثنين ويوم الخميس ، إلا أن القضاة وكاتب السرّ لا يحضرون يوم الخميس .

قال : ومن عادته إذا ركب يوم العيدين ويوم دخول المدينة يركب ، وعلى

---

(١) الجمدار هو الذى يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه ، وأصله : « جاما دار ، لفظان فارسيان » . وانظر صبح الأعشى ٥ : ٤٥٩ (٢) الخاصكية : فرقة من المماليك السلطانية ، خاصة بالسلطان وحاشيته .

(٣) الداودارية : وظيفة تعادل وظائف السكرتارية الخاصة .

رأسه العصائب السلطانية وهى صُفر مطرّزة بذهب بألقابه واسمه ، وترفع المظلّة على رأسه ، وهى قبّة مغشاة بأطلس أصفر مزركش ، عليها طائرة من فضة مذهّبة ، يحملها بعض أمراء المئين الأكابر ، وهو راكب فرسه إلى جانبه ، وأمامه الطّبردارية [1] مشاة ، وبأيديهم الأطبار .

قلت : العصائب المذكورة حرام ، وقد بطلت الآن ولله الحمد .

---

(١) الطبردار : هو الذى يحمل الطبر ، أى الفأس ، وهى فأس السلطان عند ركوبه فى المراكب وغيرها . وانظر حواشى السلوك ١ : ٤٢٧ .

ذكر عساكر مملكة مصر

قال ابن فضل الله فى المسالك : وأمّا عساكر هذه المملكة ، فمنهم مَنْ هو بحضرة السلطان ، ومنهم من فرّق فى أقطار المملكة وبلادها ، ومنهم سكّان بادية كالعرب والتركمان وجندها مختلط من أتراك وجركس وروم وأكراد وتركمان ، وغالبهم من المماليك المبتاعين ، وهم طبقات أكابرهم من له إمرة مائة فارس ، وتقدمة ألف فارس ، ومن هذا القبيل يكون أكابر النواب ، وربما زاد بعضهم بالعشرة فوارس والعشرين . ثم أمراء الطبلخاناه ، ومعظمهم من تكون له إمْرة أربعينَ فارسا وقد يزيد إلى السبعين ولا تكون الطبلخاناه لأقلّ من أربعين ، ثم أمراء العشرات ومنهم من يكون له عشرون فارسا ، ولا يعدّ إلا فى أمراء العشرات، ثم جند الحلقة، وهؤلاء لكل أربعين نفرا ، منهم مقدّم ليس له حكم عليهم إلا إذا خرج العسكر ، كانت مرافقتهم معه، وترتيبهم فى موقفهم إليه ، ويبلغ بمصر إقطاع بعض أكابر الأمراء المثين المقرّبين من السلطان مائتىْ ألف دينار جيشية ، وأما غيرهم فدون ذلك ، ودون دونه إلى ثمانين ألف دينار وما حولها ، وأما العشرات فنهايتها سبعة آلاف دينار إلى مادون ذلك.

وأما إقطاعات جند الخليفة ، فمنه مايبلغ ألفا وخمسمائة دينار ، ومادون ذلك إلى مائتين وخمسين دينارا .

وأما إقطاعات أمراء الشام فعلى الثلاثين من مصر .

(حسن المحاضرة ٢/٩)

ذكر أرباب الوظائف فى هذه المملكة

قال ابن فضل الله : الوظائف الكبار من ذوى السيوف : إمرة سلاح الدّوادارية، الحجوبية ، إمرة جاندار [(١)] الأستاذ دارية [(٢)] ، المهمندارية [(٣)] ، نقابة الجيوش .

ومن ذوى الأقلام : الوزارة ، كتابة السّر ، نظر الجيش ، نظر الأموال ، نظر الخزانة ، نظر البيوت ، نظر بيت المال ، نظر الإسطبلات .

ومن ذوى العلم : القضاة ، الخطباء ، وكالة بيت المال، الحسبة .

قال : وكانت وظيفة تسمّى نيابة السلطان ، أبطلها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وكان النائب أولا سلطانا مختصرا ، وكان هو الذى يفرّق الإقطاعات ويعيّن الإمرة والوظائف ، ويتصرّف التصرّف المطلق فى كلّ أمر، إلا فى ولاية المناصب الجليلة ، كالقضاء والوزارة وكتابة السّر ، لكن يعرض هو على السلطان مَنْ يصلح ، وقلّ ألا يجاب ، وكان يسمّى كافل الممالك والسلطان الثانى .

وأما الوزارة ، فكان يليها من أرباب السيوف والأقلام على قدر مايتفق ، وكان الوزير ثانى النائب فى المكانة .

قال : وقد أبطل الناصر الوزارة أيضا ، واستقلّ هو بما كان يفعله النائب والوزير، واستجدّ وظيفة يسمىّ مباشرها ناظر الخاص ، أصل موضوعها أن يكون مباشرها متحدّثا فيما هو خاص بمال السلطان يتحدث فى مجموع الأمر فى الخاصّ بنفسه ، وفى العام

---

(١) الجاندارية : مثل الخاصكية ، مركبة من لفظين أحدهما جان ، ومعناه سلاح ، والثانى دار، ومعناه ممسك ، ومعنى جاندار السلطان؛ أن صاحبها يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ، ويدخل أمامهم إلى الديوان. انظر حواشى السلوك ١ : ١٣٣

(٢) الأستادار هو الذى يتولى شئون مسكن السلطان أو الأمير وصرفه ، وتنفذ فيه أوامره . وانظر صبح الأعشى ٤ : ٢٠

(٣) المهمندار : هو الذى يتلقى الرسل والعربان الواردين على السلطان ، وينزلهم دار الضيافة ويتحدث فى القيام بأمورهم . انظر صبح الأعشى ٤ : ٢٢

بأخذ رأيه فيه ، فيبقى بسبب ذلك كأنه الوزير لقربه من السلطان .

وأوّل مَنْ ولى هذه الوظيفة كريم الدين عبد الكريم بن هبة الله بن السديد .

وأما إمْرة سلاح فموضوعها أنّ صاحبها مقدّم السلاح داريه، والمتولّى بحمل سلاح السلطان فى المجامع الجامعة ، وهو المتحدّث فى السلاح خاناه وتعلقاتها ، وهو من أمراء المئين .

والدواداريّة موضوعها أن صاحبها يبلّغ الرسائل عن السلطان ، ويقدّم القصص إليه، ويشاور على مَنْ يحضر إلى الباب ، ويقدّم البريد إذا حضر ، ويأخذ خطّ السلطان على عموم المناشير والتواقيع والكتب .

والحجوبيّة موضوعها أنّ صاحبها يقف بين الأمراء والجند وهو المشار إليه فى الباب بالقائم مقام البواب فى كثير من الأمور .

وإمرة جاَندار صاحبها كالمتسلّم للباب ، وهو المتسلّم للزردخاناه [1] ، ومَنْ أراد السلطان قتلَه ، كان على يد صاحب هذه الوظيفة .

والأستاذداريّة صاحبها إليه أمر بيوت السلطان كلّها من المصالح والنفقات والكساوى، وما يجرى مجرى ذلك ، وهو من أمراء المئين .

ونقابة الجيش صاحبها كأحد الحجّاب الصغار ، وله تحْلية الجند فى عَرْضهم ، وإذا أمر السلطان بإحضار أحد أو التّرْسيم عليه فهو صاحب ذلك .

والولاية صاحبها هو صاحب الشّرطة .

وأما الوزارة فصاحبها ثانى السلطان إذا أنصف ، وعرف حقه ، ولكن فى هذه المدد تقدّمت عليها النيابة وتأخّرت الوزارة وتقهقرت ، فصار المتحدّث فيها كناظر المال لا يتعدّى الحديث فى المال ، ولا يتسع له فى التصرّف بحال ، ولا يمدّ يده فى الولاية والعزل كتطلّع السلطان إلى الإحاطة بجزئيات الأحوال .

ثم إن السلطان أبطل هذه الوظيفة ، وعطّل جيد الدولة من عقودها ، وصار ما كان

(١) الزردخاناه : دار السلاح ، كلمة فارسية مركبة ، وقد أطلقها المقريزى على السلاح نفسه . حواشى السلوك ١ : ٣٠٦

إلى الوزير منقسما إلى ثلاثة : إلى ناظر المال أوشادّ الدواوين ، أمر تحصيل المال ، وصرف النفقات والكشف ، وإلى ناظر الخاصّ تدبير جملة الأمور وتعين المباشرين، وإلى كاتب السّر التوقيع فى دار العدل مما كان يوقّع فيه الوزير مشاورة واستقلالا ، ثم إن كلاًّ من المتحدّثين الثلاثة لا يقدر على الاستقلال بأمر إلا بمراجعة السلطان .

ومن وظيفة كتابة السّر قراءة الكتب الواردة على السّلطان وكتابة أجوبتها والجلوس لقراءة القصص بدار العدل ، والتوقيع عليها وتصريف المراسيم ورودا أو صدورا .

وأمّا نظر الجيش فلصاحبه النّظر فى الإقطاعات ومعه من المستوفين مايحرّر كليات المملكة وجزئياتها .

وأما نظر الخزانة فكانت وظيفة كبيرة الوضع لأنها مستودع أموال المملكة ، فلما استحدثت وظيفة الخاص ضعف أمرها ، وغالب مايكون ناظرها من القضاة أو نحوهم .

وأما نظر البيوت فمنوط بالأستاذ داريّة فكل مايتحدّث فيه الأستاذ دارية يشارك فيه .

وأمّا نظر بيت المال فوظيفة جليلة موضوعها حمل حمول المملكة إلى بيت المال والتصرّف فيه تارة بالميزان وتارة بالتسبيب بالأقلام ، ولا يلى هذه الوظيفة إلا مَنْ هو من ذوى العدالة المبرّزة .

وأمّا نظر الإصطبلات، فلصاحبه الحديث فى أنواع الإصطبل والمناخات وعلفها وأرزاق خدمها وما يبتاع لها .

وأمّا وظائف أهل العلم فمعروفة مشهورة لاتخلو مملكة من ممالك الإسلام منها .

هذا كله كلام ابن فضل الله .

ذكر فى التاريخ أن الخليفة المقتفى بالله نقل المظفّر بن جهير من الأستاذ داريّة إلى

الوزيرية فى سنة خمس وثلاثين وخمسمائة ، قال بعضهم : وذلك أول ماسمع بوظيفة الأستاذدارية فى الدول .

وقال بعض المؤرخين : لما تولى الظاهر بيبرس أحب أن يسلك فى ملكه بالديار المصرية طريقة جنكزخان ملك التتار وأموره ، ففعل ماأمكنه ، ورتب فى سلطنته أشياء كثيرة لم تكن قبله بديار مصر ، مثل ضرب البوقات وتجديد الوظائف ، فأحدث أميرَ سلاح وأميرَ مجلس ورأس نوبة الأمراء وأمير آخور ، وحاجب الحجاب والدوادار والجمدار وأمير شكار . وموضوع أمير سلاح أنه يتحدث على السلاح درايه ، ويناول السلطان آلة الحرب والسلاح يوم القتال ويوم الأضحى ، ولم تكن رتبته فى زمن الظاهر أن يجلس فى ميسرة السلطان ، إنما كان يجلس فى هذا الموضع أتابك ، ثم فى زمن الناصر ابن قلاوون كان يجلس فيه رأس نوبة الأمراء .

وموضوع أمير مجلس ، أنه يحرس مجلس السلطان وفرشه ، ويتحدث على الأطباء والكحالين ونحوهم ، وكانت وظيفة جليلة أكبر قدرا من أمير سلاح .

ورأس نوبة ، وظيفة عظيمة عند التتار ويفخمون فيها السين ، ولما أحدثها الظاهر بمملكة مصر كان صاحبها يسمى رأس نوبة الأمراء؛ ومعناه أكبر طائفة الأمراء ، وهو أكبر من أمير مجلس وأمير سلاح ، وهو فى مرتبة الأمير الكبير الآن ، ولم يكن أحد يسمى بالأمير الكبير إذ ذاك ؛ إلى أن ولى هذه الوظيفة شيخو العمرى فى زمن السلطان حسن ، فلقب بالأمير الكبير زيادة على التلقيب برأس نوبة الأمراء ، وهو أول من لقب بالأمير الكبير كما ذكر .

وموضوع أمير أخور النظر فى علف الخيل ، وأخور بالمعجمة المذود الذى يأكل فيه الفرس .

والحاجب كان فى الزمن الأول من أيام الخلفاء للذى يحجب الناس عن الدخول على

الخليفة ، وكان يرفأ حاجب عمر بن الخطاب ، ثم عظمت الحجوبيّة فى أيام الناصر ابن قلاوون .

والدوادار كان فى زمن الخلفاء أيضا ، وهو الذى يحمل الدّواة ويحفظها ، ومعناه ماسك الدواة ، وأول من أحدث هذه الوظيفة الملوك السلجوقيّة ، وكانت فى زمنهم وزمن الخلفاء لرجل متعمّم ثم صارت فى زمن الظاهر لأمير عشرة .

والجدار : ماسك البقجة التى للقماش .

ذكر قضاة مصر

قال ابن عبد الحكم : أوّل قاضٍ استُقضى بمصر فى الإسلام ـ كما ذكر سعيد بن عُفير ـ قيس بن أبى العاصى ، [فمات] (١) سنة أربع وعشرين،فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص أن يستقضِىَ كعب بن يسار بن ضِنّة [العبسىّ] (١) . قال ابن أبى مريم:وهو ابن بنت خالد بن سنان العبسىّ الذى [تزعم عبس فيه] أنّه(٢)تنبأ فى الفترة بين عيسى بن مريم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) ، فأبَى كعب أن يقبل القضاء ، وقال : قضيت فى الجاهليّة ولا أعود إليه فى الإسلام (٤) .

حدثنا سعيد بن عُفير ، حدّثنا ابنُ لَهيعة ، قال : كان قيس بن أبى العاصى بمصر ، ولّاه عمرو بن العاص القضاء . وقد قيل إن أوّل من استُقضى بمصر كعب بن ضِنّة بكتاب عمر بن الخطاب فلم يَقبَل (٥) .

حدثنا المقرئ عبد الله بن يزيد ، أنبأنا حَيْوة بن شُريح ، أنبأنا الضّحاك بن شُرَحبيل الغافقىّ، أنّ عمّار (٦) بن سعيد التُّجِيبىّ أخبرهم أن عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص ، أن يجعل كعب بن ضِنَّــة على القضاء ، فأرسل إليــه عمرو ، فأقرأه كتاب أمير المؤمنين ، فقال كعب:والله لا ينجيه الله من أمر الجاهلية وما كان فيها من الهلكة، ثم يعود فيها أبدا إذ أنجاه الله منها ، فأبى أن يقبل القضاء ، فتركه عمرو . قال ابنُ عفير وكان حكَماً فى الجاهليّة (٧) . فلما امتنع كعب أن يقبل القضاء ولّى عمرو بن العاص عثمانَ

---

(١) من فتوح مصر .
(٢) من ابن عبد الحكم. (٣) بعدها فى ابن عبدالحكم : « ولخالد بن سنان حديث فيه طول » .
(٤) فتوح مصر لابن عبد الحكم ٢٢٩ (٥) فتوح مصر : ٢٣٠ ، وفى آخر الخبر هناك : « والله أعلم » . (٦) ح ، ط : « عماد » تحريف . (٧) فى ابن عبد الحكم : « وخطة كعب بن ضنة بمصر ، بسوق بربر فى الدار التى تعرف بدار النخلة » .

ابن قيس بن أبى العاص القضاء ، وقد كان عمر بن الخطاب قد كتب إلى عمرو بن العاص أن يفرض له فى الشّرَف (١) .

قال : ودعا عمرو خالد بن ثابت الفهمىّ ليجعله على المكس ، فاستعفاه منه ، فكان شُرَحبيل بن حَسَنة على المكْس ، وكان مسلمة بن مخلّد على الطّواحين ؛ طواحين (٢) البَاَقْس .

وأقام عثمان على القضاء إلى أن صُرف سنة اثنتين وأربعين ، ثم وَلِىَ سليم بن عِتْر التُّجِيبىّ على القضاء فى أيام معاوية بن أبى سفيان ، وجعل إليه القصص والقضاء جميعا (٣) .

حدثنا عبد الله بن يزيد المقرئ ، حدثنا حَيْوَة بن شريح ، حدثنا الحجاج بن شدّاد الصنعانىّ ، أن أبا صالح سعيد بن عبد الرحمن الغفارىّ أخبره ، أن سليم بن عِتْر كان يقصّ على الناس وهو قائم ، فقال له صلة بن الحارث الغفارىّ - وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله ماتركْنا عهد نبيّنا ، ولا قطعنا أرحامنا ، حتى قمت أنت وأصحابك بين أظهرنا ! وكان سليم بن عِتْر أحد العبّاد المجتهدين ، وكان يقوم فى ليله فيبتدئ القرآن حتى يختمه ، ثم يأتى أهله ، ثم يقوم فيغتسل ثم يقرأ فيختم ، ثم يأتى أهله [فيقضى منهم حاجته] (٤) ، وربّما فعل ذلك فى الليلة مرات ، فلما مات قالت امرأته : رحمك الله ! فوالله لقد كنت ترضى ربّك وتسُرّ أهلك (٥) .

ثم لمّا ولى مسلمة بن مخلّد البلد ، ولّى السائب بن هشام بن عمرو أحدَ بنى مالك بن

---

(١) فى ابن عبد الحكم : « كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص أن افرض لكل من قبلك ممن بايع تحت الشجرة فى مائتين من العطاء وأبلغ ذلك لنفسك بإمارتك ، وافرض لخارجة بن حذافة فى الشرف لشجاعته ، وافرض لعثمان بن قيس بن أبى العاص فى الشرف لضيافته » . (٢) ابن عبد الحكم : « قال عبد الرحمن : طواحين الباقس » . (٣) ابن عبد الحكم ٢٣١ ، وفيه : « وقد أدرك عمر ابن الخطاب ، وحضر خطبته بالجابية ، وجعل إليه القصص والقضاء جميعا » .
(٤) من ابن عبد الحكم . (٥) ابن عبد الحكم ٢٣٢

حبْل شُرَطه ، وكان هشام بن عمرو أحدَ النفر الذين قاموا فى نَقْض الصحيفة التى كانت فى قريش كتبت . وكان عمرو بن العاص ولّى السائب بن هشام شُرَطهُ بعد خارجة بن حُذافة ، وكان أيضا على شرطِهِ عبد الله بن سعد بن أبى سرْح ، ثم عزل مسلمة السائب وولى عابس بن ربيعة المرادىّ الشرْطة ، ثم جمع له القضاء مع الشُّرْطة (١) .

وسبب ذلك أنّ معاوية كتب إلى مسلمة يأمره بالبيعة ليزيد ، فأتى مسلَمةالكتابُ وهو بالإسكندرية ، فكتب إلى السائب بذلك ، فبايع النّاس إلا عبد الله بن عمرو ابن العاصى ، فأعاد عليه مسلمة الكتاب فلم يفعل ، فقال مسلمة : مَنْ لعبد الله بن عمرو ؟ فقال عابس بن سعيد : أنا ، فقدم الفُسطاط ، فبعث إلى عبد الله بن عمرو فلم يأته ، فدعا بالنّار والحطب ليحرق عليه قصره ، فأتى فبايع ، واستمرّ عابس على القضاء حتى دخل مَرْوان بن الحكم مصرفى سنة خمس وستين ، فقال : أين قاضيكم ؟فدُعِى لهعابس –وكان أميًّا لا يكتب–فقال له مروان: أجمَعت كتابالله ؟ قال : لا، قال : فأحكَمت الفرائض ؟ قال : لا ، قال : فبم تقضى ! قال : أقضى بما علمتُ ، وأسأل عمّا جهلت ، قال : أنت القاضى . فلم يزل عابسٌ على القضاء إن أن تُوُفِّىَ سنة ثمان وثمانين .

فولِىَ عبدُ العزيز بن مروان بُشَيْر بن النّضر المُزنىّ القضاء (٣) .

ثم وَلِىَ عبد الرحمن بن حُجَيرة الخولانّى وجُمع له القضاء والقَصص وبيت المال ، فكان يأخذ رزقه فى السّنةألف دينارعلى القضاء ؛ فلم يكن يحول عليه الحوْل وعنده ماتجب فيه الزكاة ، فلم يزل على القضاء حتى مات سنة ثلاث وثمانين . ويقال: بل وَلِىَ فى سنة ثلاث وثمانين، ومات فى سنة خمس وثمانين.

ثم وَلِىَ القضاء مالك بن شَراحيل الخولانّى ، فلم يزل على القضاء حتى مات (٤).

---

(١) فتوح مصر ٢٣٤ ، ٢٤٥ . (٢) فتوح مصر ٢٣٤ ، قضاة مصر للكندى ٣١٢ .

(٣) قضاة مصر : « وكان أبوه النضر ممن حضر فتح مصر واختط بها » .

(٤) فى كتاب قضاة مصر : « ولى القضاء مالك بن شراحيل من قبل عبدالعزيز بن مروان فى المحرم سنة ثلاث وثمانين » .

فوَلِي من بعده يونس بن عطية الحضرميّ ، وجُمع له القضاء والشرطة ، فلم يزل حتى مات سنة ست وثمانين [١] .

فولِيَ بعده ابنُ أخيه أوس ، ثم وَلِيَ عبد الرحمن بن معاوية بن حُديج الكنديّ وجُمع له القضاء والشرطة ، فتوفّيَ عبد العزيز بن مروان ، وولِيَ بعده عبدُ الله بن عبد الملك فأراد عزلَ ابن حُديج فاستحيا من عزله عن غير شيء ، ولم يجد عليه مقالا ولا متعلَّقا فولّاه مرابطة الإسكندريّة .

ووليَ عمران بن عبد الرحمن بن شُرحبيل بن حَسنة القضاء والشُّرطة فلم يزل إلى سنَة تسع وثمانين ، فغضب عليه عبد الله بن عبد الملك ، فعزله وولّى عبد الأعلى بن خالد ابن ثابت الفَهْميّ مكانه [٢] . ثم أتى عبد الله بن عبد الملك فعزله .

ووَلِيَ قرة بن شريك العبسيّ الإمرة، فعزل عبد الأعلى، وولّى عبد الله بن عبد الرحمن ابن حُجيرة ، وهو ابن حُجَيرة الأصغر ، ثم عزل فى سنة ثلاث وتسعين .

ووليَ عياضُ بن عبد الله الأزديّ ثم السَّلاميّ ، ثم صرف فى سنة ثمان وتسعين ، وأعيد ابنُ حجيرة ثم صرف وأعيد ، فلم يزل إلى سنة مائة . ثم صرف [٣] وولِيَ عبد الله بن خُذامر ثم صرف سنة اثنتين ومائة [٤] .

ووَلِيَ يحيى بن ميمون الحَضْرميّ فأقام إلى سنة أربع عشرة ومائة ، ثم صُرِف ولم يكن بالمحمود فى ولايته [٥] .

ثم وَلِيَ يزيد بن عبد الله بن خُذامر ثم صُرِف .

ووَلِيَ الخيار بن خالد المُدْلجيّ ، فأقام نحو سنة ، ومات سنة خمس عشرة ومائة ، وكان محموداً جميل المذهب .

---

(١) قضاة مصر ٣٣٣ « كان يونس أول قاض بمصر من حضرموت » .
(٢) فتوح مصر ٢٣٨ .
(٣) فتوح مصر ٢٣٩ .
(٤) فتوح مصر ٢٤٠ .
(٥) فتوح مصر ٢٤٤ .

ثم ولِيَ توبة بن نَمِر الحضرمىّ، فأقام ماشاء الله ، ثم استعفى ، فقيل له : فأشر علينا برجل نولّيه ، فقال : كاتبى خَيْر بن نُعيم الحضرمىّ ، فوُلِّيَ خَيْر سنة إحدى وعشرين ومائة ، فلم يزل حتى صرف سنة ثمان وعشرين ومائة .

ووَلِيَ عبد الرحمن بن سالم بن أبى سالم الجَيْشانىّ ، فلم يزل إلى ولاية بنى العباس سنة ثلاث وثلاثين ومائة ، فصُرف عن القضاء واستعمل على الخراج،ورُدّ خير بن نعيم؛ فلم يزل حتى عزل نفسه فى سنة خمس وثلاثين ؛ وذلك أن رجلا من الجند قذف رجلاً ، فخاصمه إليه وثبّت عليه بشاهد [١] واحد ، فأمر بحبس الجندىّ إلى أن يثبّت الرجلُ شاهدا آخر ، فأرسل أبو عون عبد الملك بن يزيد ، فأخرج الجندىّ من الحبس ، فاعتزل خير وجلس فى بيته ، وترك الحكم ، فأرسل إليه أبو عون ، فقال : لا ، حتى يُرَدّ الجندىّ إلى مكانه ! فلم يردّ ، وتمّ على عزمه ، فقالوا له : فأشرْ علينا برجل نولِّيه ، فقال : كاتبى غَوْث بن سليمان .

فولىَ غوث بن سليمان الحضرمىّ ، فلم يزل حتى خرج مع صالح بن علىّ إلى الصّائفة .

ثم وَلِيَ أبو خُزيمة إبراهيم بن يزيد الحِمْيَرىّ [٢] وذلك أنّ أبا عون ـ ويقال صالح ابن علىّ شاور فى رجل يولّيه القضاء ، فأشير عليه بثلاثة نفر. حَيْوة بن شريح ، وأبو خزيمة ، وعبد الله بن عياش القِتْبانىّ [٣] ، وكان أبو خزيمة يومئذ بالإسكندرية ، فأشخِص، ثم أتى بهم إليه ، فكان أوّل مَنْ نوظر حيوة بن شريح ، فامتنع ، فدعى له بالسَّيف والنِّطَع ، فلما رأى ذلك حيوة أخرج مفتاحا كان معه ، فقال : هذا مفتاح بيتى، ولقد اشتقت إلى لقاء ربى . فلما رأوا عزمه تركوه ، فقال لهم حيوة : لاتظهروا ما كان من آبائى لأصحابى فيفعلوا مثل مافعلت ، فنجا حيوة. ثم دُعِيَ بأبى خزيمة فعرض عليه القضاء

(١) ابن عبد الحكم : « وثبت عليه شاهداً واحداً » . (٢) ابن عبد الحكم : « الثانى » ، وقال : « بطن من حمير » . (٣) ح ، ط : « القسانى » ، وصوابه من الأصل وابن عبد الحكم .

فامتنع ، فدُعِي له بالسيف والنّطَع فضعف قلبه [١] ، ولم يحتمل ذلك ، فأجاب إلى القبول فاستُقضى [٢] . وكان أبو خزيمة يعمل الأرسان ويبيعها قبل أن يَلِيَ القضاء ، فمرّ به رجل من أهل الإسكندرية ، وهو فى مجلس الحكم ، فقال : لأختبرنّ أبا خزيمة ، فوقف عليه فقال له: ياأبا خزيمة ، احتجتُ إلى رَسَنٍ لفرسى ، فقام أبو خُزيمة إلى منزله ، فأخرج رَسَنًا فباعه منه ، ثم جلس . وكان أبو خَرَشة المرادىّ صديقا لأبى خُزيمة ، فمرّ به يوما ، فسلّم عليه ، فلم يَرَ منه ما كان يعرف ، وكان [أبو خرشة] [٣] قد خوصم إليه فى جِدار ، فاشتدّ ذلك على أبى خَرَشة ، [٤]فشكاه إلى بعض قرابته ، فسأل أبا خزيمة ، فقال[٤] : ما كان ذلك إلا أن خَصْمك خفتُ أن يرى سَلامى عليك ، فيكسِرَه ذلك عن بعض حُجّته ، فقال أبو خرشة : فإنّى أشهدك أن الجدار له . ثم استعفى أبو خزيمة فأعفِيَ .

ووَلِيَ مكانه عبد الله بن بلال الحضرمىّ ، ويقال إنما هو غوْث الذى كان استخلفه حين شخص غوْث إلى أمير المؤمنين أبى جعفر وذلك فى سنة أربع وأربعين [٥] . ثم قدم غوث ، فأقرّه خليفة له يحكم بين النّاس حتى مات عبد الله بن بلال . قال يحيى بن بكير : لم يزل أبو خزيمة على القضاء ، حتى قدم غَوْث من الصائفة فعزل أبو خزيمة ، ورُدّ غوثٌ [على القضاء] [٦] . ثم إن غوثا شخص إلى العراق ، فأعيد أبو خزيمة إلى القضاء ، فلم يزل حتى توفِّيَ سنة أربع وخمسين . وكان ابن حُديج إذ ذاك بالعراق ، قال : فدخلت على

---

(١) ابن عبد الحكم : « قلب الشيخ » . (٢) بعدها فى ابن عبد الحكم : « وأجرى عليه فى كلّ شهر عشرة دنانير ، وكان لا يأخذ ليوم الجمعة رزقاً ، ويقول : « إنما أنا أجيرُ المسلمين ، فإذا لم أعمل لهم لم آخذ متاعهم . فكان يقال لحيوة بن شريح : ولى أبو خزيمة القضاء ، فيقول حيوةُ : أبو خزيمة خير منى ، اختبر ففتح » . (٣) من ابن عبد الحكم .

(٤-٤) ابن عبد الحكم : « فشكا ذلك إلى بعض قرابته ، فقال له : إن اليوم يوم الخميس — أو قال الاثنين — وهو صائم ، فإذا صلى المغرب ودخل ، فاستأذِن عليه ، ففعل أبو خرشة ، قال : فدخلت عليه وبين يديه ثريد عدس ، فسلمت عليه ، فردّ علىّ كما كان يعرف ، وقال : ما جاء بك ؟ فأخبره أبو خرشة فقال . . . » (٥) بعدها فى ابن عبد الحكم : « وكان يجلس للناس فى المجلس الأبيض » .

(٦) من ابن عبد الحكم .

أمير المؤمنين أبى جعفر ، فقال لى : يابن حُدَيْج ، لقد تُوُفِّىَ ببلدك رجل أصيبت به العامّة!
قلت : ياأمير المؤمنين ، ذاك إذا أبو خزيمة ، قال : نعم [١] .

ثم ولِىَ مكانه ابن لَهِيعة ، وأجرى عليه فى كل شهر ثلاثين دينارا ؛ وهو أوّل قاضٍ بمصر أجرِى عليه ذلك ، وأول قاضٍ استقضاه بها خليفة ، وإنما كان ولاة البلد هم الذين يولّون القضاة ، فلم يزل قاضيًا حتى صرِف سنة أربع وستين .

وولِىَ إسمعيل بن اليسع [٢] الكوفىّ ،وعزل سنة سبع وستين. وكان محمودا عند أهل البلد ،إلّا أنه كان يذهب إلى قول أبى حنيفة ، ولم يكن أهل البلد يومئذ يعرفونه . قال ابن عبد الحكم : حدثنا أبى [عبد الله] قال : كتب فيه الليث بن سعد إلى أمير المؤمنين: ياأمير المؤمنين : إنك ولّيتنا رجلا يكيد سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ، مع أنّا ماعاملنا فى الدينار والدرهم إلا خيرا ، فكتب بعزله .

ورُدّ غوث بن سليمان على القضاء ، فأقام حتى توفّىَ فى جمادى الآخرة سنة ثمان وستين . حدثنا أبو رجاء حمّاد بن مسور ، قال : قدمت امرأة من الرّيف ، فرأتْ غوثا رائحًا إلى المسجد ، فشكت إليه أمرها ، فنزل عن دابّته ، وكتب لها بحاجتها ، ثم ركب إلى المسجد فانصرفت المرأة وهى تقول : أصابت والله أمّك حتى سمّتْك غوثا ، أنت غوث عند اسمك [٣] .

وقيل : إنه أول قاضٍ ركب للهلال مع الشهود . وقيل : بل ابن لَهيعة .

فلما مات غوث وَلِىَ المفضّل بن فضالة بن عُبيد القِتْبانىّ ، ثم عزِل سنة تسع وستين ،

---

(١) بعدها فى ابن عبد الحكم : « فمن ترى أن نولىّ القضاء بعده ؟ قلت : أبو معدان اليحصبى ، قال : ذاك رجل أصم ، ولايصلح للقاضى أن يكون أصم، قال: قلت : فابن لهيعة يا أمير المؤمنين ، قال : ابن لهيعة على ضعف فيه، فأمر بتوليه. . .» (٢) فى الأصول : «سمير» ، وصوابه من ابن عبد الحكم .

(٣) ابن عبد الحكم ٢٤٤ ، والخبر هناك : « قدمت امرأة من الريف ، وغوث قاض فى محفة ، فوافت غوث بن سليمان عند السراجين رائحاً إلى المسجد ، فشكت إليه أمرها ، وأخبرته بحاجتها ، فنزل عن دابته فى حوانيت السراجين ، ولم يبلغ المسجد ، وكتب لها بحاجتها ، وركب إلى المسجد ، فانصرفت المرأة وهى تقول : أصابت أمك . . . . » .

وهو أول القضاة بمصر طوّل الكتب ، وكان أحد فضلاء الناس وخيارهم .

ثم وَلِيَ أبو طاهر الأعرج عبدالملك بن محمد بن أبي بكر بن حَزْم الأنصاريّ ، وكان محمودا فى ولايته [١] ، ثم استعفى فأُعفِي فى سنة أربع وسبعين . قالوا : فأشِرْ علينا برجل ، فأشار بالمفضّل بن فضالة ، فولّى المفضّل ،فأقام إلى صفر سنة سبع وسبعين وعزِل .

ووَلِيَ محمد بن مسروق الكنديّ من أهل الكوفة ، ولم يكن بالمحمود فى ولايته ، وكان فيه عتوّ وتجبّر ، فلم يزل إلى سنة أربع وثمانين ، فخرج إلى العراق .

واستخلف إسحاق بن الفرات التُّجِيبيّ ، فعزل فى صفر سنة خمس وثمانين [٢] .

ووَلِيَ عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسين بن عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب ؛ وهو أول مَن دَوّن أسماء الشّهود ، فأقام إلى أن عُزل فى جمادى الأولى سنة أربع وتسعين [٣] .

ووَلِيَ هاشم بن أبي بكر البكريّ من ولد أبي بكر الصديق ، وكان يذهب مذهب أبي حنيفة ، فأقام حتى توفّيَ فى أول يوم من المحرّم سنة ست وتسعين .

ثم وَلِيَ إبراهيم بن البكّاء ؛ ولّاه جابر بن الأشعث ، وجابر يومئذ والِي البلد ، فأقام إلى أن صرِف جابر سنة ست وتسعين ، ووُلِّيَ مكانه عبّاد بن محمد ، فعزل ابنَ البكّاء .

ووَلِيَ لَهيعة بن عيسى الحضرميّ ، فأقام حتى قدم المطلب بن عبد الله بن مالك سنة ثمان وتسعين فعزل لَهيعة .

---

(١) وذكر ابن عبد الحكم قال : « كتب إليه صاحب البريد ؛ إنك تبطىء بالجلوس للناس ،فكتب إليه أبو الطاهر: إن كان أمير المؤمنين أمرك بشىء وإلا فإن فى أكفك وبراذعك ودبر دوابك ما يشغلك عن أمر العامة » .

(٢) ابن عبد الحكم : « فلم يزل على القضاء إلى صفر سنة خمس وثمانين ومائة فعزل » .

(٣) فى ابن عبد الحكم : « وقد كان قوم تظلموا منه ، ورفعوا فيه إلى أمير المؤمنين هارون ، فقال : انظروا فى الديوان : كم لى من والٍ من آل عمر بن الخطاب ؟ فنظروا فلم يجدوا غيره ، فقال : والله لا أعزله أبداً » .

ووَلِيَ الفضل بن غانم ، وكان قدم مع المطّلب من العراق فأقام نحو سنة ، ثم غضب عليه المطّلب فعزله .

ووليَ لهيعةَ بن عيسى ، فأقام حتى تُوُفِّيَ فى ذى القعدة سنة أربع ومائتين .

فوليَ السرىّ بن الحكم بعد مشاورة أهل البلد إبراهيمَ بن إسحاق القارىّ حليف بنى زهرة ، وجَمَع له القضاء والقَصص ؛ وكان رجلَ صدق ، ثم استعفى لشىء أنكره فأعفِيَ .

ووَلِيَ مكانه إبراهيم بن الجرّاح ؛ وكان يذهب إلى قول أبى حنيفة ، ولم يكن بالمذموم فى ولايته ، حتى قدم عليه ابنُه من العراق ، فتغيّرت حالته ، وفسدت أحكامه ؛ فلم يزل [قاضيا] (١) إلى سنة اثنتى عشرة ومائتين ، فدخل عليه عبدُ الله ابن طاهر البلد فعزلَه .

ووليَ عيسى بن المُنكَدِر بن محمد بن المنكَدِر ، وخرج إبراهيم بن الجرّاح إلى العراق ومات هناك . وأجرى (٢) عبد الله بن طاهر على عيسى بن المنكدر أربعة آلاف درهم فى الشهر ؛ وهو أول قاضٍ أجرِىَ عليه ذلك ، وأجازه بألف دينار ، فلما قدم المعتصم مصر فى سنة أربع عشرة ومائتين كلّمه فيه ابن أبى دواد ، فأمره فوقف عن الحكْم ، ثم أشخص بعد ذلك إلى العراق ، فمات هناك .

وبقيت مصر بلا قاضٍ حتّى قدم المأمون الخليفة مصر فى محرم سنة سبع عشرة وولّى القضاء يحيى بن أكثم فحكم بها ثلاثة أيام ، وخرج المأمون إلى سخا ، وأصلح أحوالها وتوجّه إلى الإسكندرية وعاد إلى مصر ، وخرج عنها فى الخامس من صفر (٣) .

(١) من ابن عبد الحكم .   (٢) ح ، ط : « فأحرز » وما أثبته من الأصل وابن عبد الحكم .

(٣) ابن عبد الحكم : « وبقيت مصر بلا قاض حتى ولى المأمون هارون بن عبدالله الزهرى القضاء فقدم البلد لعشر ليال بقين من شهر رمضان سنة سبع عشرة ومائتين ، وكان محموداً عفيفا محببا فى أهل البلد فلم يزل قاضيا إلى شهر ربيع الأولى من سنة ست وعشرين ومائتين ، فكتب إليه أن يمسك عن الحكم ، وقد كان ثقل مكانه على ابن أبى دواد » .

وجعل القضاء بمصر إلى هارون بن عبد الله الزهرى المالكىّ ، قلّده ذلك وهو بالشّام، فقدم فى رمضان سنة تسع عشرة ومائتين ، وكان محموداً عفيفاً محبّباً فى أهل البلد ، فأقام إلى ربيع الأول سنة ستوعشرين ، فكتب إليه أن يمسك عن الحكم ، وقد كان ثقل مكانه على ا ن أبى دواد .

وقدم أبو الوزير والياً على خراج مصر ، وقدم معه بكتاب ولاية محمد بن أبى الليث الأصمّ [على القضاء] (١) ، فلم يزل قاضياً إلى شعبان سنة خمس وثلاثين ومائتين ، فعزل وحبس.

وبقيت مصر بلا قاضٍ حتى وَلِىَ الحارث بن مسكين فى جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين(٢) ، ثم صُرِف فى ربيع الآخر سنة خمس وأربعين .

ووَلِىَ دُحَيم بن اليتيم عبد الرحمن بن إبراهيم بن اليتيم الدِّمَشْقى جاءته ولايته بالرَّمْلة ، فتوفِّىَ قبل أن يصل إلى مصر فى العام(٣) المذكور .

ووَلِى بعده بكّار بن قتيبة [أبو بكْرة الثقفىّ](٤) من أهل البصرة من ولد أبى بكْرة صاحب رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، ودخل البلد فى جمادى الآخرة فأقام قاضياً ، (٤ وأحمد بن طولون يصِلُه فى كلّ سنة بألف دينار . ثم إنّ ابن طولون بلغه أن الموفّق خرج عن طاعة أخيه المعتمد ، وكان المعتمد ولىّ عهد أخيه ، فأراد ابن طولون خَلْع الموفّق من ولاية العهد ، فوافقه فقهاء مصر ، وخالف القاضى بكّار فحبسه أحمدُ بنُ طولون ، وذلك فى سنة سبع وخمسين ومائتين ، ورتّب فى الحكم عوضا عنه وهو كالخليفة عنه محمد بن شاذان الجوهرى ، ومات بكّار فى ذى الحجة سنة خمس وسبعين ومائتين ٤) .

---

(١) من ابن عبد الحكم . (٢) ابن عبد الحكم : « جاءته ولاية القضاء وهو بالإسكندرية » .
(٣) ابن عبد الحكم : « وكانت وفاته سنة خمس وأربعين ومائتين » .
(٤ـ٤) ساقط من المطبوعة التى رجعت إليها من كتاب فتوح مصر .

وأقامت مصر بعد بكار بلا قاض، حتى ولّى خُمارويه بن أحمد بن طولون أبا عبد الله محمد بن عبدة بن حرب القضاء سنة سبع وسبعين ومائتين ، فأقام إلى سنة ثلاث وثمانين ، فألزم منزله فى جمادى الآخرة .

(١ وبقيت مصر بلا قاض حتى وَلِىَ أبو زُرْعة محمد بن عثمان الدمشقى ، فأقام ثمانى سنين ، وعُزل فى صفر سنة اثنتين وتسعين .

وأعيد ابن عبدة ، ثم صرف فى رجب من السنة .

وولى أبو مالك بن أبى الحسن الصغير .

ثم وَلِىَ بعده أبو عبيد علىّ بن الحسين بن حرب المعروف بابن حربوية ، فى شعبان سنة ثلاث وتسعين ، ثم عزل فى سنة إحدى وثلاثمائة .

قال ابن يونس فى تاريخ مصر : كان أبو عبيد بن حربوية شيئاً عجبا ، ما رأينا قبله ولا بعده مثله . وكان آخر قاض يركب إليه أمراء مصر ، وكان لا يقوم للأمير إذا أتاه ، ثم أرسل موقّعه الإمام أبا بكر بن الحدّاد إلى بغداد سنة إحدى وثلاثمائة فى طلب إعفائه عن القضاء فأعفى ١) . انتهى . هذا ما ذكره ابن عبد الحكم[٢] .

وولى مكانه أبو الذِّكْر محمد بن يحيى[٣] الأسوانىّ خلافة لأبى يحيى عبد الله بن إبراهيم بن مكرّم ، إلى أن صرف فى صفر سنة اثنتين وثلاثمائة .

ووَلِىَ أبو علىّ عبد الرحمن بن إسحاق بن محمد بن معتمر السَّدوسىّ ، وصرف فى ربيع الآخر سنة أربع عشرة[٤] .

ووَلِىَ أبو عثمان أحمد بن إبراهيم بن حماد ، وصرف فى ذى الحجة سنة ست عشرة .

(١ــ١) ساقط من النسخة المطبوعة لابن أبى الحكم.
(٢) أخبار القضاة فى ابن عبد الحكم من ص ٢٢٦ ــ ٢٤٧ .
(٣) انظر الولاة والقضاة للكندى ٤٨١ .
(٤) فى الولاة والقضاة ، أن الذى تولى بعد أبى الذكر هو إبراهيم بن محمد الكريزى ، ثم هارون بن إبراهيم بن حماد ، ثم أحمد بن إبراهيم بن حماد .

ووَلِيَ أبو محمد عبد الله بن أحمد بن ربيعة بن سليمان الرَّبعيّ الدّمشقي ، وصُرِف في جمادى الآخرة سنة سبع عشرة .

وأعيد أبو عثمان بن حمّاد ، وصُرِف في ربيع الآخر سنة عشرين .

وأعيد الرَّبعيّ ، وصُرِف في صفر سنة إحدى وعشرين .

ووَلِي أبو هاشم إسماعيل بن عبد الواحد الرَّبعيّ المقدسيّ الشافعيّ ، وصرِف في ربيع الآخر من السنة[1] .

ووَلِيَ أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قُتيبة الدّينوريّ ، وصرِف في رمضان سنة اثنتين وعشرين[2] .

ووَلِي أبو عبد الله محمد بن موسى بن إسحاق السرخسيّ[3] .

ثمّ وَلِيَ أبو بكر بن الحداد الإمام المشهور صاحب المولدات، بأمر أمير مصر في ربيع الأول سنة أربع وعشرين ، فباشر مدّة لطيفة[4] .

ثم ولِيَ محمد بن بدر مولى أبي خَيْثَمة خلافة لمحمد بن الحسن بن أبي الشوارب إلى أن مات سنة خمس وثلاثين .

ووَلِيَ أبو محمد عبد الله بن أحمد بن شُعيب بن الفضل بن مالك بن دينار ، يعرف بابن أخت وليد ، وصرِف سنة ثلاث وثلاثين .

---

(١) في الولاة والقضاة أن الذي تولى بعد أحمد بن إبراهيم بن حماد ، عبد الله بن أحمد بن زبر، ثم أعيد أحمد بن إبراهيم بن حماد، ثم أعيد عبد الله بن أحمد بن زبر، ثم تولى إسماعيل بن عبد الواحدي المقدسي ، ثم أحمد بن عبد الله قتيبة .

(٢) في الولاة والقضاة أن الذي تولى بعد ابن قتيبة هو أحمد بن إبراهيم ابن حماد ، الثالثة .

(٣) في الولاة والقضاة أن الذي تولى بعد السرخسي، هو محمد بن بدر الصيرفي ، ثم عبد الله بن أحمد بن زبر الثالثة ، ثم محمد بن أحمد بن الحداد .

(٤) في الولاة والقضاة أن الذي تولى بعده الحسين بن زرعة ، ثم محمد بن بدر الصيرفي الثالثة ، ثم عبد الله ابن زبر الرابعة ، ثم عبدالله بن أحمد بن شعيب ، ثم محمد بدر الصيرفي الثالثة ثم أبو الذكر محمد بن يحيي الثانية ، ثم الحسن بن عبد الرحمن الجوهري ، ثم أحمد بن عبد الله الكشي ، ثم عبدالله بن شعيب الثانية ، ثم الحسن بن عبد الرحمن الجوهري الثالثة ، ثم محمد بن أحمد بن الحداد الثانية ، ثم عبد الله بن أحمد بن شعيب الثالثة ، ثم عمر بن الحسن الهاشمي ، ثم عبدالله بن محمد بن الخصيب ، ثم محمد بن عبدالله بن محمد بن الخصيب ، ثم أبو طاهر الذهلي » .

وأعيدابن الحداد ووَلِىَ بعده عبد العزيز بن الحسن بن العزيز العباسىّ الهاشمىّ خليفة لأخيه ، ثمّ صرِف فى ذى الحجة سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة .

ووَلِىَ أبو بكر عبد الله بن محمد الخصِيبىّ الشافعىّ سنة خمس وأربعين ؛ فأقام إلى أن مات فى المحرّم سنة ثمان وأربعين .

ووَلِىَ بعده ابنه محمد ، فأقام شهرا واحدا ، ثم اعتلّ ومات فى سادس ربيع الأول من عامه .

فولّى كافور بعده أبا الطّاهر محمد بن أحمد بن عبد الله البغدادىّ الذّهلِىّ المالكىّ فأقام ست عشرة سنة — وقيل ثمانى عشرة سنة — إلى أن قامت الدولة العُبيدية بالقاهرة ، وقدم المعزّ ومعه قاضيه أبو حنيفة النّعمان بن محمد بن منصور القيروانىّ ، فاجتمع أبو الطاهر بالمعزّ ، فأعجب به ، وأقرّه على ولايته . وأقام النعمان بمصر لا ينظر فى شىء ، ثم إن أبا الطاهر استعفى قبل موته بيسير فأعفى ؛ وذلك فى صفر سنة ست وستين .

ووَلِىَ بعده أبو الحسنّ علىّ بن النعمان ، وكان شيعيًّا غاليًا ، وشاعرا مجيدا ، فأقام إلى أن مات فى رجب سنة أربع وسبعين ؛ وهو أول مَنْ نُعِت بقاضى القضاة فى مصر ؛ ولم يكن يدعَى بذلك إلا ببغداد .

ووَلِىَ بعده أخوه أبو عبد الله محمد، وكان شيعيًّا أيضا . قال ابن زولاق : ولم نشاهد بمصر لقاضٍ من الرّياسة ما شاهدناه له ، ولا بلغَنا ذلك عن قاضٍ بالعراق ، ووافق ذلك استحقاقًا ؛ لما فيه من العلم والصيانة والهيئة وإقامة الحق ، وقد ارتفعت رتبته لأنّ العزيز أجلسه معه يوم العيد على المنْبر ، وزادت عظمته فى دولة الحاكم، إلى أن مات فى صفر سنة تسع وثمانين .

ووَلِىَ القضاء بعده ابنُ أخيه الحسين بن علىّ بن النّعمان ، ثمّ صرِف سنة أربع وتسعين .

ووليَ أبو القاسم عبد العزيز بن محمّد بن النعمان ، ثم صرِف فى رجب سنة ثمان وتسعين .

ووَلِيَ بعده مالك بن سعد الفارقىّ ، ثم صرِف فى ربيع الآخر سنة خمس وأربعين .

ووليَ أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبى العوّام ، إلى أن مات فى ربيع الأول سنة ثمانى عشرة وأربعمائة[1] .

ووَلِيَ أبو محمد قاسم بن عبد العزيز بن النعمان ، ثم صرِف فى رجب سنة تسع عشرة وأربعمائة .

ووَلِيَ أبو الفتح عبد الحاكم بن سعيد الفارقىّ ، ثمّ صرِف فى ذى القعدة سنة تسع وعشرين[2] .

وأعيد أبو محمد القاسم بن عبد العزيز بن النّعمان ، ولقّب بقاضى القضاة وداعِى الدّعاة ، وثقة الدولة ، وأمير الأمراء ، وشرف الحكام ؛ واستُخلِف عنه القاضى يحيى الشهاب فأقام ثلاث عشرة سنة ، ثم عزل فى المحرّم سنة إحدى وأربعين .

وأعيد قاسم ثم صرِف من عامه، ووليَ مكانه أبو محمّد الحسن بن علىّ بن عبدالرحمن البازورىّ ، ثم أضيف إليه الوزارة أيضا ، وهو أوّل مَنْ جمع بينهما ، ثم صرف عنهما فى المحرّم سنة خمس وأربعين .

ووليَ القضاء أبو علىّ أحمد بن قاضى القضاة عبد الحاكم بن سعيد الفارقىّ ثم صرف فى ذى القعدة من السنة .

ووليَ أبو القاسم عبد الحاكم بن وهب بن عبد الرحمن المليجىّ ، ثم صُرِف فى جمادى الآخرة سنة اثنتين وأربعين .

---

(١) فى الولاة والقضاة : « فكان بين ولايته وموته اثنتا عشرة سنة وستة أشهر وخمسة وعشرون يوماً » .

(٢) انظر الولاة والقضاة ص ٤٩٧ وص ٦٠٤ .

ووَلِيَ أبو عبد الله أحمد بن محمد أبو زكريا بن عمر بن أبى العوّام، إلى أن مات فى ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين .

وأعيد أبو علىّ أحمد بن عبد الحاكم بن سعيد، ثم صُرِف فى رجب .

وأعيد أبو القاسم عبد الحاكم بن وهب ثم صُرِف فى رمضان .

ووليَ أبو محمد عبد الكريم بن عبد الحاكم بن سعيد ، ثم صرِف فى صفر سنة أربع وأربعين .

وأعيد أبو القاسم عبد الحاكم بن وهب بن عبد الرحمن ، ثم صرِف فى المحرّم سنة أربع وأربعين .

وأعيد أبو علىّ أحمد بن عبد الحاكم مضافاً للوزارة ، ثمّ صرِف فى صفر .

وأعيد أبو القاسم عبد الحاكم بن وَهْب ، ثمّ صرِف فى شعبان .

ووَلِيَ أبو محمد الحسن بن مجلى بن أسد بن أبى كدينة مضافاً للوزارة ، ثم صُرِف فى ذى الحجة .

ووَلِيَ جلال الملك أحمد بن عبد الكريم بن عبد الحاكم بن سعيد مضافاً للوزارة ، ثم صرِف فى المحرّم سنة ست وأربعين .

وأعيد الحسن بن مجلّى بن أبى كدينة ، ثمّ صرِف فى ربيع الآخر .

وأعيد أبو القاسم عبد الحاكم بن وهب ، ثم صرِف فى رمضان .

وأعيد ابن أبى كدينة ثم صرِف فى ذى الحجة .

وأعيد ابن الحاكم ، ثم صرِف فى نصف المحرم سنة سبع وأربعين .

وأعيد ابن أبى كُدينة ، ثم صرِف فى السادس والعشرين منه .

وأعيد جلال الملك أحمد بن عبد الكريم ، ثم صرِف فى جمادى .

وأعيد ابن أبى كدينة، ثم صرف فى نصف رجب .

وأعيد عبد الحاكم بن وهب ، ثم صرف .

وأعيد ابن أبى كدينة ، ثم صرف فى صفر سنة ثمان وأربعين .

وأعيد جلال الملك ، ثم صرف .

وأعيد ابن أبى كدينة ، ثم صرف فى المحرّم سنة تسع وأربعين .

ووَلِىَ عبد الحاكم المليجى ، ثم صرف فى سابع جمادى الآخرة .

وأعيد ابن أبى كدينة ، ثم صرف فى ذى القعدة .

وأعيد جلال الملك ، ثم صرف فى صفر سنة خمس وستين .

وأعيد المليجى ثم صرف فى ربيع الأول .

وأعيد ابن أبى كدينة ، ثم صرف فى جمادى الأولى .

وأعيد جلال الملك ، ثم صرف فى رمضان .

وأعيد المليجى ، ثم صرف فى ذى الحجّة .

وأعيد ابن أبى كُدينة، ثم صرف فى صفر سنة إحدى وستين .

وأعيد المليجى ، ثم صرف بعد يوم .

ووَلِى خطير الملك بن قاضى القضاة الوزير البازورىّ ، ثم صرف فى شوال .

وأعيد ابن أبى كدينة ، ثم صرف فى ذى القعدة .

وأعيد المليجىّ ، ثم صرف .

وأعيد ابن أبى كُدينة فى ربيع الأوّل سنة أربع وستين ، ثم صرف سنة ست وستين .

ووَلِىَ أبو يعلَى حمزة بن الحسين بن أحمد العراقىّ إلى أن مات سنة اثنتين وسبعين .

ووَلِىَ أبو الفضل طاهر بن على القضاعىّ .

ثم ولِىَ بعده جلال الدولة أبو القاسم علىّ بن أحمد بن عمّار ، ثمّ صُرف .

ووَلِىَ سنة خمس وسبعين أبو الفضل هبة الله بن الحسين بن عبد الرحمن بن نُباتة .

ثم وَلِىَ أبو الفضل بن عتيق .

ثم ولِىَ أبو الحسن علىّ بن يوسف بن الكمال ، ثم صرِف .

وولِىَ سنة سبع وثمانين فخر الحكام أبو الفضل محمد بن الحاكم المليجى .

ثم وَلِىَ الحسن بن علىّ بن أحمد المكرّمى ، ثم صرف بعد شهر .

وولِىَ أبو الطاهر محمد بن رجاء إلى أن مات سنة ثلاث وتسعين .

وولِىَ أبو الفرج محمد بن جوهر بن ذكاء النابلسىّ ، ثم صرف فى ربيع الأوّل سنة أربع وتسعين ، لكونه أحدث فى مجلس الحكم .

وولِىَ حسين بن يوسف بن أحمد الرّصافىّ ، ثم صرف .

ووَلِىَ أبو النجم بدر بن بدر الحرّانىّ .

ثم ولِىَ أبو الفضل نعمة بن بشير النابلسىّ المعروف بالجليس ، ثم استعفى فأعفِىَ سنة أربع وأربعين .

وولِىَ الرّشيد أبو عبد الله محمد بن قاسم بن زيد الصّقلّىّ إلى أن مات ، فأعيد الجليس إلى أن مات .

وولِىَ ثقة الملك أبو الفتح مسلم ابن علىّ الرسعنىّ سنة ثلاث وأربعين . قال ابن ميسّر فى تاريخ مصر : لما ولِىَ الحكم رفع إلى الأفضل : إنى قد اعتبرت ما فى مودَع الحكم من مال المواريث – وكان يقارب مائة ألف دينار – ورفعُها إلى بيت المال أولى من تركها فى المودع ، وإنّ لها سنين طويلة لم يطلب شىء منها . فوقّع على رقعته : إنّما قلّدناك الحكم ولا رأى لنا فيما لا نستحقّه ، فاتركه على حاله لمستحقّه ، ولا تراجع فيه . ثم اتّفق أنه صلّى

إماما فى مجلس صلاة الصبح ، وخلفه الوزير المأمون ، فقرأ سورة الشمس وضحاها ، فأرتج عليه، وقرأ « ناقة الله وسقناها » بالنون ، فعزل عن القضاء سنة ست وأربعين .

وولىَ أبو الحجاج بن أيوب المغربىّ إلى أن مات سنة إحدى وعشرين .

وولىَ أبو عبد الله محمد بن هبة الله بن الميسّر القيروانىّ ، ولقب القاضى الأمير سناء الملك شرف الأحكام قاضى القضاة عمدة أمير المؤمنين ، قال فى تاريخ مصر : وهو الذى أخرج الفستق الملبّس بالحلوَى ، ثم صُرِف فى ربيع الأوّل سنة ست وعشرين .

وولى أبو الفخر صالح بن عبد الله بن رجاء ، ثم صرف فى جمادى الآخرة .

وولىَ سراج الدّين نجم بن جعفر إلى أن قتل فى شوال سنة ثمان وعشرين .

وأعيد ابنُ الميسّر ، ثم صرف فى المحرّم سنة إحدى وثلاثين .

وولىَ الأعزّ أبو المكارم أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبى عقيل إلى أن مات فى شعبان سنة ثلاث وثلاثين وأقام الحكم [بعده شاغرا] (١) ثلاثة أشهر .

ثم اختير أبو العباس أحمد بن الحطئة ، فاشترط ألاّ يحكم بمذهب الدولة ، فلم يمكَّن من ذلك .

وولىَ فخر الأمناء هبة الله بن حسين الأنصارىّ ؛ يعرف بابن الأزرق فى ذى القعدة سنة ثلاث وثلاثين ، ثم صرف فى جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين .

وولىَ أبو الطاهر إسماعيل بن سلامة الأنصارىّ (٢) ، ثم صرف فى المحرم سنة ثلاث وأربعين .

وولىَ أبو الفضل يونس بن محمد بن حسن المقدسىّ ، ثم صرف سنة سبع وأربعين .

وولىَ عبد المحسن بن محمد بن مكرّم ، ثم صرف .

---

(١) من رفع الإصر .

(٢) بعدها فى رفع الإصر : « الجلجلولىّ » .

ثمَّ ولِىَ أبو النجم بدر بن غالى (١) .

ثم ولىَ أبو المعالى مجلّى بن جميع الشافعىّ صاحب الذخائر ، فأقام إلى سنة تسع وأربعين ، ثم صرف.

وأعيد أبو الفضائل يونس ثمّ صرف .

وَوَلِىَ المفضّل أبو القاسم جلال الدين هبة الله بن عبد الله بن كامل بن عبد الكريم الصورىّ ، فى شعبان سنة سبع وأربعين ثم صرف فى المحرّم سنة ثمان وأربعين .

وأعيد أبو الفضائل يونس ، ثم صرِف فى ذى الحجة من السّنة .

وأعيد ابن كامِل ، ثم صُرِف فى ربيع الأوّل سنة تسع وأربعين .

ووَلِىَ الأعزّ أبو محمد الحسن بن على بن سلامة المصرىّ ثم صرِف (٢) .

ووَلِىَ أبو الفتح عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوىّ ، ثم صرِف (٣) .

وأعيد ابنُ كامل فى ذى الحجة سنة أربع وستين ، فلمّا استولى الملك الناصر صلاح الدين بن أيّوب على القاهرة وزيراً عن العاضد ، أزال دولة الرّفْض والشّيعة ، وصُرِف ابن كامل .

وَوَلِىَ صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردىّ الشافعى قضاء القضاة بالقاهرة ، وذلك فى سنة ست وستين وأربعمائة ، فأقام إلى أن صرِف بعد وفاة صلاح الدين فى ربيع الأول فى سنة تسعين فى أيام العزيز .

ووَلِىَ فى سنة خمس وتسعين وأربعمائة محيى الدين محمد أبو حامد بن الشيخ شرف الدين عبد الله بن هبة الله بن أبى عصرون ؛ ثم صُرِف فى سنة إحدى وتسعين .

وَوَلِىَ زين الدين علىّ بن يوسف بن عبد الله بن بُندار الدمشقى ، ثم عُزِل فى جمادى الأولى من السنة .

---

(١) فى رفع الإصر ١ : ١٣٧ : « بدر بن بدر بن غالى » ، وفى سفحة ١٣٨ : « بدر بن عبد الله ابن غالى » . (٢) رفع الإصر ١ : ١٨٩ : « الحسن بن على بن سلامة أبو محمد المعروف بابن العدريس » .
(٣) رفع الإصر : « عبد الجبار بن إسماعيل بن جعفر بن عبد القوى بن الجليس » .

وأعيد ابنُ أبى عصرون ، ثم عزِل فى محرّم سنة اثنتين وتسعين .

وأعيد ابن بُندار ، ثم صرِف فى محرّم سنة أربع وتسعين.

وأعيد صدرُ الدين ، ثم صرِف فى جمادى الأولى سنة خمس وتسعين .

وأعيد زين الدين بن بُندار ؛ وذلك لمّا انتزع الملك الأفضلُ علىّ بن السلطان صلاح الدين بن أيوب مملكةَ مصر من ابن أخيه المنصور محمد العزيز عثمان ؛ وكتب له الصّاحب ضياء الدين نصر الله بن الأثير الجزرى تقليدا ، هذه صورته :

﴿رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ ، وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخِلْنِي برحمتكَ فى عبادك الصالحين﴾ .[1] من السّنة أن تفتتحَ صدور التقليدات بدعاء يعمّ بفضله ، ويكون وزانًا للنعمة الشاملة من قِبَلِه ، وخير الأدعية ماأجراه الله على لسان نبيٍّ من أنبيائه أو رسول من رسلِه ، وكذلك جعلنا من هذا التقليد الذى أمضى الله قلَمنا فى كتابه ، وصرَف أمرنا فى اختيار أربابه ، ثم صلّينا على رسوله محمد الصادع بخطابه ، الساطع بشهابه ، الذى جُعلت الملائكة من أحزابه ، وضرب له المثَل بقاب قوسين فى اقترابه ؛ وعلى آله وصحبه الّذين منهم مَنْ خَلَفه فى محرابه ، ومنهم من كملتْ به عدّة الأربعين من أصحابه ، ومنهم مَنْ جعل أثواب الحياء من أثوابِه ، ومنهم من بُشّر أنّه من أحباب الله وأحبّائِه ، أما بعد :

فإنّ منصب القضاء فى المناصب بمنزلة المصباح الّذى به يُستضاء ، أو بمنزلة العين التى عليها تعتمد الأعضاء ؛ وهو خير مارقمّت به الدول مسطورَ كتابها ، وأجزلتْ به مذخور ثوابها ، وجعلته بعد الأعقاب كلمة باقيةً فى أعقابِها . وقد جعله الله ثانى النبوّة حكما ، ووارثها علما ؛ والقائم بتنفيذ شرعها مادام الإسلام يسمّى ، لايُستصلح له إلاّ الواحد الذى يعدّ محفلا فى محفله ، وإذا جاءت الدنيا بأسرها خفّت على أنمِله ، وقد أجّلنا النظر

---

(١) سورة النمل ١٩ .

مجتهدين ، وعوّلنا على توفيق الله معتضدين ، وقدّمنا قبل ذلك صلاة الاستخارة وهى سنّة متبوعة ، وبركة فى الأعمال موضوعة : لاجرم أنّا أرشدْنا فى أثرها إلى مَنْ صرّح الرشد فيه بآثاره، وقال الناس هذا هو الّذى جاء على فترةٍ من وجود انتظاره[1] : وهو أنت أيها القاضى فلان ، مهّد الله لجنبك ، وجعل التوفيق من صحبك ، وأنزل الحكمةَ على يدك ولسانك وقلبك ؛ وقد قلّدناك هذا المنصب بمدينة مصر وأعمالها ، وهى مصرٌ من الأمصار تجمع وجوهاً وأعيانا ، وقد رسِم بأنّه كرسىّ مملكته عزًّا وتبياناً ، وعظُمت سلطانا ، ولما قلّدناك هو علمنا أنه سيعود وهو بك غضٌّ طرىّ ، وإنّ ولايته نيطت منك بكفء فهى بك حريّة وأنت بها حرىّ ، ممن طلبها ومن النّاس فإنّها لم تكن عندك مطلوبة ، ومن انتسب فى وجاهته إليها فليست وجاهتك إليها منسوبة ، وما أردت بها شيئا سوى تحمّل الأثقال ، وبيع الراحة بالتعب فى الأشغال؛ وتعريض النّفس لمضاضة الضيم والحيْف، والوقوف على الصّراط الّذى هو أدقّ من الشعرة وأحدّ من السيف ؛ ولكنك فى خلال ذلك تشترى الجنّة بساعة من ساعاتك ، وإذا رعيت مقام ربّك فقد أرصدته لمراعاتك ؛ وليس فى الأعمال الصالحة أقوم من إحياء حقٍّ وضع فى لحده ، أو ردّ حق مطلت الأيام بردّه .

فاستخر الله تعالى ، وتولّ ما ولّيناك بعزيمة لأنّك بها شامة، ولا تأخذها فى الله ملامة. وهذا زمان قد تلاشتْ فيه العلوم ، وعفت رسوم الشريعة حتى صارت كالرّسوم ، ومشت الأمّة المُطَيْطَى[2] وخلْفها ابنا فارس والروم ؛ وإذا نظِر إلى دين الله وجد وقد خُلط أمره خلطا ، وتخطّى رقاب النّاس مَنْ هو جدير بأن يُتخطّى ، وآذنت الساعة بالاقتراب حتى كاد أن يستوىَ ما بين السبابة والوسطى ؛ والمتصدّى لحفظه يُعَدّ ثقله بثقلين ، وفضله بفضلين ، ويؤتيه الله من رحمته كفلين ، وحقّ له أن يتقدّم على السلف الصالح الّذى

---

(١) ح : « أنظاره » . (٢) المطيطى : مشية التبختر .

كان كثيراً رشده ، حسنا هديه وقصده ، وكان قريبا برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن أولئك لم يؤتوا من جهالة ، ولا حُرموا من مقالة ، ولا حدث فى زمانهم بدعة وكلّ بدعة ضلالة ، ونحن نرجو أن يكون ذلك الرّجل الذى وُزِن بالنّاس فرجح وزنُه ، وسبق القرونَ الأوَل وإن تأخر قرنه . ولقد ألبسنا الله بك لباساً يبقى جديدا ، ويسّرنا للعمل الذى يكون محضرا ، لا للعمل الذى نود لو أن بيننا وبينه أمدا بعيدا . وإيّاك ثم إيّاك أن تقف معنا موقف الاعتذار ، وما نخشى عليك إلا الشيطان الناقل للطباع فى تقاليب الأطوار ، ولطالما أقام عابدًا من مصلاّه ، وغرّه بامتساك حبله ودلاّه ، ولمكانتك عندنا أضربنا عن وصيتك صفحاً ، وتوسّمنا أن صدرك قد شرحه الله فلم نزده شرحا ؛ والذى تضمّنه تقليد غيرك من الوصايا لم يسفر إلا عن نقاب خطأ الأقلام ، وقصر أقوالها عن المماثلة من مراتب أولى التعليم وبين العلماء الأعلام ، ولا يفتقر إلى ذلك إلاّ مَنْ ثقُل منصب القضاء على كاهله ، وقضى جهله بتحريمه عليه ، وفرق بين عالِم أمرٍ وجاهله .

وأمّا أنت فإنّ علم القضاء بعضُ مناقبك ، وهو من أوانسك لا من غرائبك ؛ لكن عندنا أربع من الوصايا لابدّ من الوقوف فيها على سنن التوقيف ، وإبرازها إلى الأسماع فى لباس التحذير والتخويف : فالأولى منهنّ ، وهى المهمّ الذى زاغت عنه الأبصار ، وهلك مَنْ هلك فيه من الأبرار ، ولربما سمعتَ هذا القول فظننته مما تجوّز فى مثله القائلون ، وليس كذلك بل هو نبأ عظيم أنتم غافلون ، وسنقصّه عليك كما فوّضناه إليك ؛ وذلك هو التسوية فى الحكم بين أقوالك وأفعالك ، والأخذ من صديقك لعدوّك ومن يمينك لشمالك . وقد علمت أنه لم تخلُ دولة من الدول من قوم يعرَفون بطيش الحلوم ، ويغترّون بقرب السلطان وهو ظلّ عليهم لا يدوم ، وإذا دُعوا لمجلس الحكم حملهم البَطَر والأشر على الامتناع من مساواة الخصوم ، ولا يفرق بين هؤلاء وبين

ضعيف لا يرفع يداً ولا طرفا ، ولا يملك عدلاً ولا صرفاً ؛ ونحن نبرأ من مخالفة الدرجات فى حكم العزيز الحكيم ؛ ولعن الله اليهود الّذين نسخوا آية الرَّجْم بما أحدثوه من التجبية والتحميم ، وقد بسطنا يدك بسطا ليس له انقباض ، ولا عليه اعتراض ؛ وأنت القاضى الذى لا يكون اسمك منقوصاً فيقال فيـه إنك قاض . وإذا استقللت بهذه الوصية ، فانظر فيما يليها من أمر الوكلاء القائمين بمجاس الحكم الذين لا تردّ أحـداً منهم إلا خليا لويًّا ، أو خادعا خلويًّا ، وإذا اعتبرت أحوالهم وُجدوا عذابا على النـاس مصبوباً ولا يتمّ لهم إلا فى ستر القضايا ونعيمها ، ولا ينحون فى شئ منها إلا نحو إماتتها وترخيمها ؛ فأرح الناس من هذه الطائفة المعروفة بنصب الُحبالة ، التى تأكل الرِّشاء وتخرجها فى مخرج الُجعالة ، وطَهّر منها مجلسَك الذى ليس بمجاس ظلم وزور وإنما هو مجلس عدل وعدالة ؛ ومن العدل أن يخلّى بين الخصوم حتى يكافح بعضهم بعضا ، والمهل فى مثل هذا المقـام لرعى الرعاية لما يقضى ؛ وإن كان أحدهم ألْحَنَ بحجّته فكِلْهُ إلى عالم الأسرار ، وإذا حكمت له بشىء من حق أخيـه فلا تبالِ أن تَقتطع له قطعة من النـار .

وكذلك فانظر فى الوصيّة المختصّة بالشهداء ؛ فإنهم قد تكاثرت أعدادهم وأهمِل انتقادُهم وصار منصب الشهادة يُسأله وسؤاله من الحرام لامن الحلال، وأصبح وهو يورث عن الآباء والأولادوالوراثة تكون فى الأموال، والشاهد دليل يمشى القضاءعلى منهاجه ، ويستقيم باستقامته ويعوجّ باعوجاجه ؛ فانْفِ كلّ من شانتْك منه شائبة ، أو رابتْك منه رائبة ، وعليك منهم بِمَنْ تخلّق بخلق الحياء والورع ، وأخـذ بالقول الّذى على مثلها فاشهد أو فدَع .

وأما الوصيّة الرابعة فإنها مقصورة على كاتب الحكم الّذى إليه الإيراد والإصدار ، وهو المهيمنُ على النقض والإمرار ؛ وينبغى أن يكون عارفا بالحلى والوسوم والحـدُود والرّسوم ، وأن يكون فقيها فى البيوع والمعاملات ، والدعاوَى والبيّنات ؛ ومِن أدنى

صفاته أن يكون قلمه سائحًا ، وخطّه واضحا ؛ وإذا استكمل ذلك فلا يُستصلح حتى يكون العفافُ شعارَه ، والأمانة عيارَه ، والحفظ والعلم سُوره وسوارَه ، وهذا الرّجل إن خلوتَ به فامض يده فيما يقول ويفعل ، واستنِم إليه استنامة الواثق الذى لايَخْجل ؛ والله يختار لنا ذلك فيما بيّناه من المراشد ، ويجعل أقوالنا ثمارا يانعةً إذا كانت الأقوال من الحصائد .

وبعد أن بوّأناك هذه المكانة ، وحمّلناك هذه الأمانة ، فقد رأينا أن نجمع لك من تنفيذ الأحكام وحفظ أصولها ، وألّا نُخْيِيَك من النّظر فى دليلها ومدلولها ؛ فإن التّرك يوحش العلوم من معهود أماكنها ، ويذهب بها من تحت أقفال خزائنها ، ومنصب التّدريس كمنصب القضاء أخ يشدّ[١] من عضده ، ويكثر من عدده ؛ فتولَّ المدرسة الفلانيّة عالمـًا أنّك قد جمعت بين سَيفين[٢] فى قراب ، وسلكت بابين إلى تحصيل الثواب ، وركبت أعزّ مكان وهو تنفيذ الحكم وجالست خير جليس وهو الكتاب .

ونحن نوصيك بطلبة العلم وصيّتين ؛ إحداهما أعظم من الأخرى ؛ وكلتاهما ينبغى أن تصرف إليهما من اهتمامك شطرا ؛ فالأولى أن تتخوّلهم[٣] فى أوقات الاشتغال ، وتكون لهم كالرّائض الذى لايبسط لهم بساط الراحة ولا يكلّفهم مشقّة الكلال . والثّانية أن تدرّ عليهم أرزاقهم إدرار[٤] المسامح ، وتنزلهم فيها على قدر الأفهام والقرائح : وعند ذلك لاتعدم منهم منبعا فى كلّ حين ، ويسرّك فى حالتيه من دنيا ودين ؛ والله يتولاّك فيما تنويه صالحة ، ويوفّقك للعمل بها لا لأن يكون فى قلبك سانحة. وقد فرضنا لك فى بيت المال قسماطيّبا مكسبه ، هنيئا مأكله ومشربه ؛ لاتعاقَبُ غداعلى كثيره ، وإن حوسبت على فتيله ونقيره[٥] . والمفروض فى هذا المال ينبغى أن يكون على

---

(١) ط : « يشهد » تحريف

(٢) ح،ط : « سيمين » تحريف .

(٣) تتخولهم : تتعهدهم .

(٤) ط : « إذرار » تحريف .

(٥) فتيله ونقيره ؛ أى على الصغير والكبير .

قدر الكفاف لا على نسبة الأقدار ، وربّ متخوّض فيما شان نفسه من مالِ الله ومال رسوله ليس له فى الآخرة إلاّ النار ؛ والدنيا حلوة خضرة تلعَبُ بذوى الألباب ،وعلاقاتها بتجدد الأيام فلا تنتهى الآراب منها إلاّ إلى آراب [١] . ومن أراد الله به خيراً لم يسلك إليها ، وإن سلك كان كمن استظلّ بظلّ شجرة ثم راح وتركها ، ونحن نخلص الضراعة والمسألة [٢] فى السّلامة من تبعاتها ، وأن نوفّق لرعى ولاية العدل والإحسان إذْ جُعلنا من رعاتها .

وهذا التّقليد ينبغى أن يُقرَأ فى المسجد الجامع بعد أن يُجمع له النّاس على اختلاف المراتب ، مابين الأباعد والأقارب ، والعراقيب والذوائب ، والأشائب وغير الأشائب ؛ ولتكن قراءته [٣] بلسان الخطيب وعلى منبره ، وليقل: هذا يوم رسم بجميل صيته واعتضاض محضره ؛ ثم بعد ذلك فأنت مأخوذ بتصفّح مطلوبه على الأيّام ،وإثباته فى قلبك بالعلم الذى لا يمحَى سطره إذا محيت سطورُ الأقلام .

واعلم أنّا غدا وإياك بين يدى الحكَم العدل الذّى تكفّ لديه الألسنة عن خطابها، وتستنطق الجوارح بالشهادة على أربابها ، ولا ينجو منه حينئذ إلا من أتَى بقلب سليم ؛ وأشفق من قول نبيه:« لاتأمّرَنّ على اثنين ولاتولّين مال يتيم » .

والله يأخذ بناصية كلّ منا إليه ، ويُخرجه من هذه الدّنيا كَفافاً لا له ولا عليه ، والسلام .

فولى عماد الدين بن عبد الرحمن بن عبد العلى بن السكرىّ مصنّف الحواشى على الوسيط ، ثم صرِف فى المحرم سنة ثلاث عشرة ، لأنه طلِب منه قرض شىء من مال الأيتام فامتنع .

---

(١) الآراب : الحاجات .

(٢) ط : « والسلمة » .

(٣) ط : « ولكن قرأته » تحريف .

قال القاضى تاج الدين السبكى فى الطبقات الكبرى: وبلغنى أنه كان فى زمانه رجل صالح يقال له الشيخ عبد الرحمن النويرىّ ، وكان كثير المكاشفات والحكم بها ، وكان القاضى عماد الدين ينكر عليه ؛ فبلغ القاضى أنّه أكثر الحكم بالمكاشفات ، فعزله ، فقال النويرىّ : عزلتُه وذريّته . فكان كما قال .

وبلغنى عن الظّهير التّزمنتىّ شيخ ابن الرفعة ، قال: زرت قبر القاضى عماد الدين بعد موته بأيّام ، فوجدت عنده فقيرا ، فقال لى : يافقيه ، يُحْشَر العلماء وعلى رأس كل واحد منهم لواء ، وهذا القاضى عماد الدين منهم ؛ وطلبتُه فلم أره .

ووَلِى بعده شرف الدين محمد بن عبدالله الإسكندرانىّ المعروف بابن عين الدّولة قضاء القضاة بالقاهرة والوجه البحرى ، وتاج الدين عبد السلام بن الخرّاط مصر والوجه القبلى ، ثم صُرِف ابنُ الخرّاط فى شعبان سنة سبع عشرة وستمائة ، وجُمِع العمَلان لابن عين الدولة .

ثم صرف ابن عين الدولة عن مصر والوجه القبلى بالقاضى بدر الدين يوسف ابن الحسن السّنجارىّ فى ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وبقى قاضيا بالقاهرة والوجه البحرىّ فقط .

وفى زمنه اتّفقت الحكاية التى اتفقت فى زمان الإمام محمد بن جرير الطبرىّ [1] ؛ وهو أنّ امرأة كادت زوجها ، فقالت : إن كنت تحبّنى فاحلف بطلاقى ثلاثا : مهما قلتُ لك تقول مثله فى ذا المجلس؛ فحلف، فقالت له : أنت طالق ثلاثا ، قل كما قلت لك . فأمسك ، وترافعا إلى ابن عين الدولة ، فقال : خذ بمقصّتها : وقل : أنت طالق ثلاثا إن طلّقتك .

---

(١) هى قصة محمد بن جرير الطبرى ومحمد بن إسحاق بن خزيمة ومحمد بن نصر المروزى ومحمد بن هارون الرويانى ؛ حيثما اجتمعوا فى تاريخ مصر ، وأرملوا ولم يبق عندهم زاد يقوتهم ؛ وأضر بهم الجوع ؛ وما كان من أمرهم مع الوالى . وانظر تفصيل القصة فى تاريخ بغداد ٢ : ١٦٤ ، ١٦٥ .

قال ابن السبكى : وكأنّهما ارتفعا إليه فى المجلس ؛ وكان بمصر مغنّية تدعى عَجيبة ، قد أولع بها الملك الكامل ، فكانت تحضر إليه ليلا وتغنّيه بالجنك [١] على الدّفّ فى مجلس بحضرة ابن شيخ الشيوخ وغيره . ثم اتّفقتْ قضية شهد فيها الكامل عند ابن عين الدولة،وهو فى دَسْت ملكه، فقال ابنُ عين الدولة : السلطان يأمر ولا يشهد ، فأعاد عليه القول ، فلمّا زاد الأمر، وفهم السلطان أنه لا يقبل شهادته ، قال : أنا أشهد ، تقبلنى أم لا ؟ فقال القاضى : لاما أقبلك ، وكيف أقبلك وعجيبة تطلع إليك بجنكها كلّ ليلة ! وتنزل ثانى يوم بُكْرة وهى تمايل سَكْرى على أيدى الجوارى ، وينزل ابن الشيخ من عندك ! أيحسن مانزلت ، فقال له السلطان : يا كيواج – وهى كلمة شتم بالفارسية – فقال : مافى الشرع يا كيواج ، اشهدوا علىّ أنى قد عزلت نفسى ونهض . فقام ابن الشيخ إلى الملك الكامل، وقال : المصلحة إعادته لئلايقال : لأىّ شيء عزلَ القاضى نفسَه ؟ وتطير الأخبار إلى بغداد ، ويشيع أمر عجيبة ! ونهض إلى القاضى ، وترضّاه ، وعاد إلى القضاء [٢] .

ومن شعره :

وَليتُ القضاء وليتَ القَضاء لم يكُ شيئاً توليتُه
وقد ساقنى للقضاء القضاء وما كنتُ قِدْماً تمنّيتُه

وأقام إلى أن توفّىَ فى ذى القعدة سنة تسع وثلاثين وستمائة .

فوَلِى بعده قضاء القاهرة بدر الدين يوسف السّنجارىّ .

وولى الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام قضاء مصر والوجه القبلى ، وكان قدم فى هذه السنة من دمشق بسبب أنّ سلطانها الصالح إسماعيل استعان بالفرنج وأعطاهم مدينة صَيْدا وقلعة الشقيف . فأنكر عليه الشيخ عزّ الدين ، وترك الدّعاء له فى الخطبة ، وساعده فى ذلك الشّيخ جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب المالكىّ ، فغضب السلطان منهما ، فخرجا

(١) الجنك من آلات الطرب ، فارسى معرب .

(٢) طبقات الشافعية ٥ : ٢٧ .
(حسن المحاضرة ١١ / ٢)

إلى الديار المصرية فأرسل السلطان إلى الشيخ عزّ الدين ؛ وهو فى الطريق قاصداً يتلطّف به فى العوْد إلى دمشق ، فاجتمع به ولاينه ، وقال له : ماتريد منك شيئاً إلّا أن تنكسر للسلطان ، وتقبّل يده لا غير . فقال الشيخ له : يامسكين ، ما أرضاه يقبّل يدِى فضلا عن أنْ أقبّل يده ! ياقوم ، أنتم فى وادٍ وأنا فى وادٍ ! والحمدُ لله الّذى عافانا ممّا ابتلاكم . فلمّا وصل إلى مصر ، تلقّاه سلطانها الصالح نجم الدين أيوب وأكرمه ، وولّاه قضاء مصر ، فاتّفق أن أستاداره [١] فخر الدين عثمان بن شيخ الشيوخ — وهو الذى كان إليه أمر المملكة — عمد إلى مسجد بمصر ، فعمل على ظهره بناء طبلخاناه ، وبقيت تضرب هناك ، فلمّا ثبت هذا عند الشيخ عزّ الدين حكم بهدم ذلك البناء ، وأسقط فخر الدين ، وعزل نفسه من القضاء ، ولم تسقط بذلك منزلة الشّيخ عند السلطان ، وظنّ فخرُ الدّين وغيره أنّ هذا الحكم لا يتأثّر به فى الخارج ، فاتفق أن جهّز السلطان رسولا من عنده إلى الخليفة المستعصم ببغداد ، فلمّا وصل الرسول إلى الديوان ، ووقف بين يدى الخليفة ، وأدّى الرسالة له ، خرج إليه ، وسأله : هل سمعتَ هذه الرسالة من السلطان ؟ فقال : لا ، ولكن حمّلنيها عن السلطان فخر الدين بن شيخ الشيوخ أستاداره ، فقال الخليفة : إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام ، فنحن لا نقبل روايته . فرجع الرّسول إلى السلطان حتى شافَهَهُ [٢] بالرسالة ، ثم عاد إلى بغداد ، وأدّاها . ولما تولّى الشيخ عزّ الدين القضاء تصدّى لبيع أمراء الدولة من الأتراك ، وذكر أنه لم يثبت عنده أنّهم أحرار ، وأن حكم الرّقّ مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين ، فبلغهم ذلك ، فعظم الخطب عندهم ، واحتدم الأمر ، والشيخ مصمّم لا يصحّح لهم بيعا ولا شراء ولا نكاحا ، وتعطّلت مصالحهم لذلك ؛ وكان من جملتهم نائب السلطنة ، فاستثار غضبا ، فاجتمعوا وأرسلوا إليه ، فقال : نعقد لكم مجلساً ، وننادى عليكم لبيت مال المسلمين ، فرفعوا الأمر إلى السلطان ، فبعث

---

(١) الأستادار : هو الذى يتولى شئون مسكن السلطان أو الأمير . (٢) ط : « شافه » .

إليه فلم يرجع ، فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة فلم يُفدْ فيه ، فانزعج النائب ، وقال : كيف ينادِي علينا هذا الشيخ ، ويبيعنا ونحن ملوك الأرض ! والله لأضربنّه بسيفي هذا ، فركب بنفسه في جماعته ، وجاء إلى بيت الشيخ والسّيف مسلول في يده ، فطرق الباب ، فخرج ولد الشيخ ، فرأى من نائب السلطنة ما رأى ، وشرَح له الحال ، فما اكترَث لذلك ، وقال : ياولدى ، أبوك أقلّ من أنْ يُقتل في سبيل الله ، ثم خرج. فحين وقع بصره على النائب ، يبستْ يدُ النائب ، وسقَطَ السيف منها ، وأرعدت مفاصلُه ، فبكى وسأل الشيخ أن يدعوَ له ، وقال : ياسيّدى إيشٍ تعمل ؟ قال : أنادى عليكم وأبيعكم ، قال : ففيم تصرف ثمننا ؟ قال : في مصالح المسلمين ، قال : من يقبضه ؟ قال : أنا .

فتمّ ما أراد ، ونادى على الأمراء واحدا واحدا ، وغالَى في ثمنهم ولم يبعهم إلّا بالثمن الوافى ، وقبضه وصرفه في وجوه الخير . .

واتفق له في ولايته القضاء عجائب وغرائب ، وفيه يقول الأديب أبو الحسين يحيى ابن عبد العزيز الجزّار :

سار عبدُ العزيز في الحكم سيراً لم يَسِرْهُ سوى ابن عبد العزيزِ
عمّنا حكمُه بعدلٍ وسيطٍ شاملٍ للورَى ، ولفظ وجيز

ولما عزل الشيخ نفسه عن القضاء ، تلطّف السلطان في ردّه إليه ، فباشره مدة ، ثم عزل نفسه منه مرة ثانية ، وتلطّف مع السلطان في إمضاء عزله ، فأمضاه وأبقى جميع نوّابه من الحكام ، وكتب لكلّ حاكم تقليدا ، ثم ولّاه تدريس مدرسته التي أنشأها بين القصرين[1] .

وولِيَ بعده أفضل الدين محمد الخونَجِيّ صاحب المنطق والمعقولات ، فأقام إلى أن

---

(١) رفع الإصر ٣٥٠ ـ ٣٥٣ .

مات فى رمضان سنة ست وأربعين وستمائة ، ورثاه العزّ الإربلىّ بقصيدة أولها :

قضى أفضلُ الدنيا، نعم وهْو فاضلُ　　وماتت بموتِ الخونجىّ الفضائلُ

وكان يخلفه على الأحكام الجمال يحيي ، فلم يزل إلى أن تولّى القاضى عماد الدين القاسم بن إبراهيم بن هبة الله الحموىّ ، فبقىَ إلى أن صرف فى جمادى الأولى سنة ثمان وأربعين .

وتولّى القاهرة وصرف عنها القاضي بدر الدين ، ورتّب قاضيا بمصر والوجه القبلى صدر الدين موهوب بن عمر الجزَرىّ ، وكان نائبا عن الشيخ عزّ الدين ثم صرِف .

وأعيد القاضى عماد الدين الحموىّ بمصر ، ورُتِّب بالقاهرة بدر الدين السنجارىّ ، وذلك فى رجب سنة ثمان وأربعين ، ثمّ بعد ذلك بأيام يسيرة أضيف له مصر أيضا ، وذلك فى شوّال من السنة . ثم صرِف عنه القضاء بمصر ، وكان يخلفه أخوه برهان الدين وذلك فى رمضان سنة أربع وخمسين .

ورتّب فيه تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعزّ ، ثم صرف السنجارىّ عن القاهرة أيضا ، وأضيف لابن بنت الأعزّ إلى أن توفِّىَ الملك المعزّ .

فرتّب فى القاهرة البدر السنجارىّ فى ربيع الآخر سنة خمس وخمسين ، وبقى مع ابن بنت الأعزّ مصر خاصة .

ثم أضيف قضاء مصر أيضا إلى السنجارىّ فى رجب من السنة ، فأقام إلى جمادى الأولى سنة تسع وخمسين ، فعُزل .

وأعيد تاج الدين بن بنت الأعزّ لقضاء مصر والقاهرة معا ، ثم فى شوّال سنة إحدى وستين عُزِل ابن بنت الأعزّ عن قضاء مصر وحدَها .

ووليه برهان الدين الخضر بن الحسن السنجارىّ ، وبقى مع ابن بنت الأعزّ قضاء القاهرة ، فلم يزل إلى رمضان سنة اثنتين وستين .

فصرف قضاء مصر عن السنجارىّ، وأضيف إلى ابن بنت الأعزّ، فلم يزل على هذه الولاية إلى أن مات يوم الأحد سابع عشر رجب سنة خمس وستين .

قال ابن السبكى فى الطبقات الكبرى : وفى ولايته هذه جدّد الملك الظاهر بيبرس القضاة الثلاثة من كلّ مذهب : قاضٍ فى القاهرة ، ثم فى دمشق . وكان سبب ذلك أنه سأل القاضى تاج الدين فى أمرٍ ، فامتنع من الدّخول فيه ، فقيل له : مُرْ نائبَك الحنفىّ ، وكان القاضى هو الشافعىّ يستنيب مَنْ شاء من المذاهب الثلاثة ، فامتنع من ذلك، فجرى ماجرى ، وكان الأمر متمحّضاً للشافعيّة ، فلا يعرف أنّ غيرهم حَكم فى الديار المصرية منذ وَلِيَها أبو زَرْعة محمد بن عثمان الدمشقىّ فى سنة أربع وثمانين إلى أن مات الظاهر ، إلا أن يكون نائب بعض قضاة الشافعية فى جزئية خاصة ، وكذا دمشق لم يلِها بعد أبى زُرعة المشار إليه إلّا شافعىّ .

قال ابن ميسّر فى تاريخ مصر : فى سنة خمس وعشرين وخمسمائة رتّب أبو أحمد بن الأفضل فى الحكم أربع قضاة ، يحكم كلّ قاضٍ بمذهبه ، ويورِّثُ بمذهبه ، فكان قاضى الشافعيّة سلطان بن رشا ، وقاضى المالكية أبا محمد عبد المولى بن اللبنى ، وقاضى الإسماعيليّة أبا الفضل بن الأزرق ، وقاضى الإماميّة ابن أبى كامل ، ولم يسمع بمثل هذا .

وقال ابن ميسر : وقد تجدّد فى عصرنا هذا الذى نحن فيه أربع قضاة على الأربعة مذاهب . انتهى .

قال ابن السبكى : وقال أهل التجربة : إن هذه الأقاليم المصرية والشاميّة والحجازية، متى كانت البلد فيها لغير الشافعية خَرِبت، ومتى قدّم سلطانُها غيرَ أصحاب الشافعىّ زالت

دولته سريعا . قال: وكأن هذا السرّ جعله الله فى هذه البلاد ، كما جعله الله لمالك فى بلاد المغرب ، ولأبى حنيفة فيما وراء النهر .

قال : وسمعت الشيخ الإمام الوالد يقول : سمعت الشيخ صدر الدين بن المرحّل يقول : ماجلس على كرسى مصر غير شافعىّ إلا وقتل سريعا ، قال : وهذا الأمر يظهر بالتجربة ، فلا يعرف غير شافعىّ إلا قُطُز ، كان حنفيًّا، ومكث يسيرا وقتل، وأما الظاهر فقلّد الشافعىّ يوم ولاية السلطنة ، ثم لما ضمّ القضاء إلى الشافعىّ استثنى للشافعىّ الأوقاف وبيت المال والنواب وقضاة البرّ والأيتام ، وجعلهم الأرفعين ، ثم إنّه ندم على مافعل . وذُكر أنّه رأى الشافعىّ فى النوم لما ضمّ إلى مذهبه بقية المذاهب ، وهو يقول : تهين مذهبي ! البلاد لى أو لك ! قد عزلتُك ، وعزلتُ ذرّيتك إلى يوم الدين . فلم يمكث إلا يسيرا ومات ، ولم يمكث ولده السعيد إلا يسيرا ، وزالت دولته ، وذرّيته إلى الآن فقراء . هذا كلام ابن السبكى[1] .

قال : وجاء بعده قلاوون ، وكان دونه تمكّنا ومعرفة ، ومع ذلك مكث الأمر فيه وفى ذرّيته إلى هذا الوقت ، وفى ذلك أسرار الله لا يدركها إلا خواصّ عباده .

قال : وقد حُكى أن الظاهر رُئِىَ فى النوم ، فقيل له: ما فعل الله بك ؟ قال : عذّبنى عذابا شديدا لجعلى القضاة أربعة ، وقال : فرّقت كلمة المسلمين !

وقال أبو شامة : لما بلغهم ضمّ القضاة الثلاثة لم يقع مثل هذا فى ملّة الإسلام قطّ ، وكان أحداث القضاة الثلاثة فى سنة ثلاث وستين وستمائة ؛ وأقام ابن بنت الأعزّ قاضيا إلى أن توفِّىَ سنة خمس وستين ، وكان شديد التصلّب فى الدين ، فكان الأمراء الكبار يشهدون عنده فلا يقبل شهادتهم ؛ وكان ذلك أيضا من جملة الحوامل على ضمّ القضاة الثلاثة إليه . وحُكِى أنه ركب وتوجّه إلى القرافة ، ودخل على الفقيه مفضّل ، حتى

تولّى عنه الشرقية ، فقيل له : تروح إلى شخص حتى نولّيه ، فقال : لو لم يفعل لقبّلت رجلَه حتى يقبل ، فإنه يسدّ عنى ثُلْمةً من جهنّم .

قال ابن السبكىّ : وكان يقال إن القاضى تاج الدين آخر قضاة العدل ؛ واتفق النّاس على عدله ؛ وقد اجتمع له من المناصب الجليلة ما لم يجتمع لغيره ؛ فإنّه ولى خمس عشرة وظيفة : القضاء ، والوزارة ، ونظر الأحباس ، وتدريس الشافعيّة ، والصالحيّة ، والحِسْبة ، والخطابة ، ومشيخة الشيوخ ، وإمامة الجامع .

ووَلىَ بعده مصر والوجه القبلى محيى الدين عبد الله بن القاضى شرف الدين بن عين الدولة ، والقاهرة والوجه البحرى تقى الدين محمد بن الحسن بنُ رَزين ، ثم مات ابنُ عين الدولة فى رجب سنة ثمان وسبعين ، وعُزِل ابن رزين فى رجب أيضا سنة ثمان وسبعين لكونه توقّف فى خلع الملك السعيد .

ووَلىَ صدر الدين عمر بن القاضى تاج الدين بن بنت الأعزّ ، فمشى على طريقة والده فى التحرّى والصلابة ، ثم عزل نفسه فى رمضان سنة تسع وسبعين .

وأعيد ابن رزين فأقام إلى أن مات فى رجب سنة ثمانين ، ووَلىَ بعده وجيه الدين عبد الوهاب بن الحسين البهنسى قضاء الديار المصرية ، ثم عزل عن القاهرة والوجه البحرى ، واستمرّ على قضاء مصر والوجه القبلى ، إلى أن تُوُفّى سنة خمس وثمانين .

ووَلىَ القاهرة بعد عزله عنها شهاب الدين بن الُخوَيِّىّ (١) ، فأقام إلى أوّل سنة ست وثمانين ، فعزِل .

ووَلىَ بعده برهان الدين الخضر السنجارىّ ، فأقام شهرا ، ثم تُوُفِّىَ .

---

(١) الخويى ، بضم الخاء وفتح الواو المشددة وتشديد الياء ، منسوب إلى خوىّ ، مدينة بأذربيجان ، واسمه أحمد بن خليل بن سعادة ، انظر شذرات الذهب ٥ : ١٨٣ .

وولى بعده تقىّ الدين عبد الرحمن بن القاضى تاج الدين بن بنت الأعزّ ، مضافا لما كان معه من قضاء مصر ؛ فإنه وليَه بعد موت البهنسىّ ، وكان من أحسن القضاة سيرةً ، وكان ابن السلعوس وزير الملك الأشرف يكرهه ؛ فعمل عليه ، ورتّب مَنْ شهد عليه بالزّور بأمور عظام ، منها أنهم أحضروا شابًّا حسنَ الصورة ، واعترف على نفسه بين يدى السلطان بأن القاضى لَاط به ، وأحضروا مَنْ شهد بأنه يحمل الزُّنّار فى وسطه ، فقال القاضى : أيّها السلطان كلُّ ما قالوه ممكن ؛ لكن حمل الزنّار لا يعتمده النصرانىّ تعظيما ولو أمكنه تركه لتركه ؛ فكيف أحمله ! ثم عزل القاضى ، وكان رجلاً صالحا لا يشكّ فيه ، بريئًا من كلّ ما رُمِىَ به .

وولىَ بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة؛ وذلك فى رمضان سنة تسعين وستّمائة ، فتوجّه القاضى تقى الدين إلى الحجاز ، ومدَح النبى صلى الله عليه وسلم بقصيدة ، وكشف رأسه ، ووقف بين يدى الحجرة الشريفة ، واستغاث بالنبىّ صلى الله عليه وسلم ، وأقسم عليه ألّا يصلَ إلى وطنه إلا وقد عاد إلى منصبه ، فلم يصل إلى القاهرة إلّا والأشرف قد قتِل ، وكذلك وزيره ، فأعيد إلى القضاء ، ووصل إليه الخبر بالعَوْد قبل وصوله إلى القاهرة ، وذلك فى أول سنة ثلاث وتسعين ؛ فأقام فى القضاء إلى أن مات فى جمادى الأولى سنة خمس وتسعين .

ووَلِىَ بعده الشيخ تقىُّ الدين بن دقيق العيد بعد امتناع شديد ، حتى قالوا له : إن لم تفعل ولَّوْا فلانا أو فلانا ــ لرَجُلَيْن لا يصلحان للقضاء ــ فرأى أنّ القبول واجب عليه حينئذ . ذكره الإسنوىُّ فى الطبقات . قال ابن السبكىّ : وعزل نفسه غير مرّة ثم يعاد . قال الإسنوىّ : وكانت القضاة يخلع عليهم الحرير ، فامتنع الشيخ من لبس الخلعة ، وأمر بتغييرها إلى الصوف ، فاستمرّت إلى الآن . وحضر مرّة عند السلطان

لاجين ، فقام إليه السلطان ، وقبّل يدَه ؛ فلم يزده على قوله : أرجوها لك بين يدى الله . وكان يكتب إلى نوّابه ، ويعظهم ويبالغ فى وعظهم ، ومع ذلك رآه بعض خيار أصحابه فى المنام وهو فى مسجد ، فسأله عن حاله ، فقال : أنا معوّق ها هنا بسبب نوّابى . هذا مع الاحتراز التامّ والكرامات الصحيحة الثابتة عنه . فهذا كله كلام الإسنوىّ .

ومن لطائفه ما كتب إلى نائبه بإخميم : صدرت هذه المكاتبة إلى مجلس مخلص الدّين ، وفقه الله تعالى لقبول النصيحة ، وآتاه لما يقربه إليه قصدا صحيحا ونية صحيحة ، أصدرناه إليه بعد حمدِ الله الّذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ويمهل حتى لايلتبس الإمهال بالإهمال على المغرور : ونذكّره بأيّام الله ﴿ وإنّ يوماً عند ربّك كألفِ سنةٍ ممّا تعدّون ﴾ ، ونحذّره صَفْقة مَنْ باع الآخرة بالدنيا فما أحد سواه مغبون ؛ عسى الله أن يرشده بهذا التّذكار وينفعه ، وتأخذ هذه النصائح بحُجْزته عن النار ؛ فإنى أخاف أن يتردّى فيخرّ مَنْ ولّاه معه . والعياذ بالله . والمقتضى لإصدارها مالحناه من الغفلة المستحكِمة على القلوبِ ، ومن تقاعد الهمم ممّا يجب للربّ على المربوب ، ومن أنسهم بهذه الدّار وهم يُزْعَجُونَ عنها ، وعلمهم بما بين أيديهم من عقبة كؤود وهم لا يتخففّون منها. ولا سيّما القضاة الذين تحمّلوا أعباء الأمانة على كواهلَ ضعيفة ، وظهرُوا بصورِ كبارِ وهممٍ نحيفة ،ووالله إنّ الأمر عظيم، والخطب جسيم ؛ ولا أرىَ مع ذلك أمنا ولا قرارا، ولا راحة ولا استمرارا، اللهمّ إلا رجلا نبذ الآخرة وراه ، واتخذ إلهه هواه ، وقَصَر همّه وهمّته على حظّ نفسه ودنياه ، فغاية مطلبه حب الجاه . والرغبة فى قلوب الناس وتحسين الزىّ والملابس، والرّكبة والمجلس ، غير مستشعر خساسة حاله ولا ركاكة مقصده ، فإنك لاتسمع الموتى ومآأنت بمسمع من فى القبور .

فاتّق الله الّذى يراك حين تقوم ، واقصر أملك عليه فإن المحروم من فضله غير

---

(١) الحج ٤٧

مرحوم ، وما أنا وإيّاكم أيها النفر إلا كما قال حبيب العجمىّ وقد قال له قائل : ليتنا لم نخلق ! قال : قد وقعتم فاحتالوا !

وإن خفىَ عليك مثل هذا الخطر ، وشغلتك الدنيا عن معرفة الوطَر ، فتأمّل كلام النبوّة : «القضاة ثلاثة قاض فى الجنة وقاضيان فى النار» ، وقول النبىّ صلى الله عليه وسلم لأبى ذرّ مشفقا عليه: «لا تأمّرنّ على اثنين ولا تَولّين مال يتيم» وما أنا والسير فى متلفٍ مبرّح بالذّاكر الضابط ،هيهات جفّ القلم، ونفذ حكم الله ، فلا رادّ لما حكم .إيه، ومن هناك شمّ الناس من فم الصديق رائحة الكبد المشوىّ . وقال الفاروق : ليت أم عمر لم تلده ! وقال علىّ والخزائن مملوءة ذهبا وفضة : من يشترى سيفى هذا ولو وجدت ما أشترى به رداء ما بعتُه . وقطع الخوفُ نياط قلب عمر بن عبد العزيز فمات من خشية العرض ، وعلّق بعض السلف سوطا يؤدِّب به نفسه إذا فتر . فترى ذلك سدًى ، أم نحن المقرّبون وهم البعداء ! فهذه أحوال لا تؤخذ من كتاب السَّلم، والإجارة[1] والجنايات ، وإنما تنال بالخضوع والخشوع ، وأن تظمأ وتجوع .

ومما يعينك على الأمر الذى دعوتُك إليه ، ويزوّدك فى السفر المعرض عليه ، أن تجعل لك وقتا وتعمره بالتذكّر والتفكّر ، وإنابة تجعلها معدّة لجلاء قلبك ، فإنه إن استحكم صداه صعب تلافيه ، وأعرض عنه من هو أعلم بما فيه .

فاجعل أكثر هومك الاستعداد ليوم المعاد ، والتأهّب لجواب الملك الجواد ، فإنه يقول : ﴿ فوربّك لنسألنّهمْ أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ .

ومهما وجدت من همّتك قصوراً ، واستشعرت من نفسك عمّا بدا لها نفورا ، فاجررها إليه وقف ببابه واطلب ، فإنه لا يُعرض عمّن صدَق ، ولا يعزب عن علمه خفايا الضمائر ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ .

---

(١) النجوم الزاهرة . . .

فهذه نصيحتى إليك ، وحجّتى بين يدى الله إن فرطت إذا سئلتُ عليك : فنسأل الله لى ولك قلبا شاكرًا ، ولساناً ذاكراً ، ونفسا مطمئنّة بمنه وكرمه ،وخفىّ لطفه،والسلام.

واستمرّ الشيخ إلى أن تُوفِّىَ فى صفر سنة اثنتين وسبعمائة .

وأعيد بعده القاضى بدر الدين بن جماعة ، ثم صرف فى ربيع الأول سنة عشر وسبعمائة .

وولِىَ جمال الدين بن عمر الزّرعىّ ، ثم صُرِف .

وأعيد ابن جماعة فى ربيع الآخر سنة إحدى عشرة ، فلم يزل إلى أن عَمِىَ سنة سبع وعشرين .

فولِىَ بعده جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزوينىّ مصنف التلخيص فى المعانى والبيان ، فأقام مدّة ثم صرِف فى سنة ثمان وثلاثين .

ووَلِىَ بعده عز الدين بن القاضى بدر الدين بن جماعة ، فاستمرّ إلى سنة تسع وخمسين، فعزل بواسطة صُرغتمش .

وولِىَ مكانه بهاء الدين بن عبد الله بن عقيل مؤلّف شرح الألفية وشرح التسهيل ، فأقام ثمانين يوما وصرِف .

وأعيد ابن جماعة ، فوَلِى على كُرْهٍ منه ، واستمرّ يطلب الإقالة إلى جمادى الأولى سنة ست وستين ، فعزل نفسه ، وصمّم على عدم العوْد ، ونزل إليه الأمير الكبير يلبُغا إلى داره ، ودخل عليه أن يعود فأبى .

فوَلِى مكانه بهاء الدين أبو البقاء محمد بن عبد البرّ السبكىّ ، فأقام إلى أن عزِل فى سنة ثلاث وسبعين .

وولىَ بعده برهان الدين إبراهيم بن جماعة ، ثم عزل نفسه ، ووَلِى بدر الدين محمد بن القاضى بهاء الدين بن عبد البرّ السبكى فى صفر سنة تسع وسبعين .

ثم أعيد البرهان بن جماعة فى سنة إحدى وثمانين ، ثم أعيد البدر بن أبى البقاء فى صفر سنة أربع وثمانين ، ثم ولىَ ناصر الدين محمد بن الميلق فى شعبان سنة تسع وثمانين ثم عزل .

ووَلِى صدر الدين محمد بن إبراهيم المناوىّ فى ذى القعدة سنة إحدى وتسعين .

ثم أعيد بدر الدين بن أبى البقاء فى ذى الحجة سنة إحدى وتسعين .

ثم ولىَ عماد الدين أحمد بن عيسى الكركىّ فى رجب سنة ثنتين وتسعين ، ثم عُزِل فى ذى الحجّة سنة أربع وتسعين .

وأعيد الصّدْر المناوى فى المحرّم سنة خمس وتسعين .

ثمّ أعيد البدر بن أبى البقاء فى ربيع الأوّل سنة ست وتسعين .

ثم أعيد المناوى فى شعبان سنة سبع وتسعين :

ثم وَلِىَ تقى الدين الزُّبيرىّ فى جمادى الأولى سنة تسع وتسعين .

ثم أعِيد المناوى فى رجب سنة إحدى وثمانمائة .

ثم وَلِىَ ناصر الدين محمد بن محمد بن عبد الرحمن الصالحىّ فى شعبان سنة ثلاث .

ثم وَلِىَ جلال الدين البُلقينىّ فى جُمادى الأولى سنة أربع فى حياة والده .

ثم أعيد الصالحىّ فى شوال سنة خمس ، ومات فى المحرّم سنة ست .

فولى شمس الدين محمد بن الأخنائىّ .

ثم أعيد البُلقينىّ فى ربيع الأول من السنة .

ثم أعيد الأخنائىّ فى شعبان من السنة .

ثم أعيد البلقينىّ فى ذى الحجة من السنة .

ثم أعيد الأخنائىّ فى جمادى الأولى سنة سبع .

---

(١) ط : « الحرم » .

ثم أعيد البُلقينىّ فى ذى القعدة من السنة .

ثم أعيد الأخنائىّ فى صفر سنة ثمان .

ثم أعيد البُلقينىّ فى ربيع الأوّل من السنة ، فأقام إلى محرّم سنة خمس عشرة ، فعزله المستعين .

ووَلِىَ شهاب الدين الباعونىّ ، فأقام شهرا ، وعُزِل .

ثم أعيد البُلقينىّ فى صفر سنة خمس عشرة ، فأقام إلى جمادى الأولى سنة إحدى وعشرين .

وَوَلِى شمس الدين محمد بن عطاء الله الهروىّ ، وفى ولايته هذه وجد فى مجلس السلطان ورقة فيها شعر ، وهو :

يأيها الملك المؤيّد دَعوةً ... من مُخلِصٍ فى حبّه لك ينصحُ

انظر لحال الشافعيّة نظرةً ... فالقاضيان كلاهما لا يصلُحُ

هذا أقاربه عقارب وابنه ... وأخٌ وصهر ، فعلُهم مستقبح

غطّوا محاسنه بقبح صنيعهمْ ... ومتَى دعاهم للهدى لا يُفلحوا

وأخو هراة بسيرة اللنك اقتدَى ... وله سهام فى الجوانح تجرَحُ

لا دَرْسه يُقرا ، ولا أحكامُه ... تدرَى ، ولا حين الخطابة يفصحُ

فأرِحْ هموم المسلمين بثالثٍ ... فعسى فساد منهمْ يُستَصْلَحُ

وكان ذلك فى أوّل شعبان ، فعرض السلطان الورقة على الجلساء من الفقهاء الذين يحضرون عنده ، فلم يعرفوا كاتبها ، وطالت الأبيات . فأمّا الهروىّ فلم ينزعج من ذلك، وأمّا البُلقينىّ فقام وقعد ، وأطال البحث والتنقيب عن ناظِمها ، وتقسّمت الظنون ؛ فمنهم من اتّهم شعبان الأثارىّ ، ومنهم من اتهم تقىّ الدين بن حِجّة . قال العَينِىّ : وبعضهم نسبها لابن حجر ؛ قال : والظّاهر أنه هو .

ثم أعيد البلقينيّ فى ربيع الأوّل سنة اثنتين وعشرين ، فأقام إلى أن مات فى شوّال سنة أربع وعشرين .

ووَلِىَ الشيخ ولى الدين العراقى ، ثم عُزِل فى ذى الحجة سنة خمس وعشرين .

ووَلِى شيخنا شيخ الإسلام علم الدين صالح بن شيخ الإسلام سراج الدّين البُلقينىّ .

ثم تولّى الحافظ ابن حجر فى المحرم سنة سبع وعشرين .

ثم أعيد الهرويّ فى ذى القعدة من السّنة .

ثم أعيد ابن حَجَر فى رجب سنة ثمان وعشرين .

ثم أعيد شيخنا البُلقينىّ فى صفر سنة ثلاث وثلاثين .

ثم أعيد ابن حَجَر فى جمادى الأولى سنة أربع وثلاثين .

ثم أعيد شيخنا البُلقينىّ فى شوال سنة أربعين .

ثم أعيد ابنُ حجر فى شوال سنة أحدى وأربعين .

ثم وَلِىَ شمس الدين القاياتىّ فى المحرّم سنة تسع وأربعين ، فأقام إلى أن مات فى المحرّم سنة خمسين .

وأعيد ابن حَجَر .

ثم أعيد شيخنا البُلقينىّ فى أوّل المحرم سنة إحدى وخمسين .

ثم وليَ ولىّ الدين السَّفَطى فى نصف ربيع الأول من السنة ؛ ثم عزِل .

وأعيد ابن حجر فى ربيع الآخر سنة اثنتين وخمسين ، ثم عزَل نفسه فى آخر جمادى الآخرة من السنة .

وأعيد شيخنا البلقينىّ فى صفر سنة سبع وخمسين ، فأقام إلى شوّال سنة خمس وستين ، فعزِل .

وأعيد المناوىّ ثم أعيد البلقينىّ فى شوّال سنة سبع وستين ، فأقام إلى أن مات فى رجب سنة ثمان وستين .

وأعيد المناوى ، ثم عزل فى جمادى الآخرة سنة سبعين .

ووَلِىَ صلاح الدين المكينىّ ربيب شيخنا البلقينىّ .

ثم عزل بعد ستة أشهر .

ووَلِىَ بدر الدين أبو السعادات محمد بن تاج الدين بن قاضى القضاة جلال الدين البلقينى فى أوّل سنة إحدى وسبعين ، ثم عُزل بعد أربعة أشهر .

وولى ولىّ الدين أحمد بن أحمد الأسيوطىّ فى نصف جمادى الأولى من السنة فأقام خمس عشرة سنة ، ثم عزل فى جمادى الآخرة سنة ست وثمانين .

ووَلِىَ الشيخ زكريا محمد الأنصارى السبكىّ .

وقد نظم محمد بن دانيال الموصلىّ أرجوزة فيمن ولِىَ قضاء مصر من حين فتحت إلى عهد البدر بن جماعة ، فقال :

يقولُ راجِى كرم الله العَلِى ... محمّد بن دانيالَ الموصلِى[1]

من بعد حمدٍ للعلىّ الحاكمِ ... غامِرِنا بالجود والمراحمِ

ثمّ الصلاة بعد ترتيل اسمِهِ ... على أحمد الهادى أمين حكمه[2]

وآله وصحبه العدولِ ... شهودِ حجّة أحمد الرّسولِ

فإنّنى ضمّنت هذا الشِّعْرا ... أنباء كلّ مَنْ تولّى مِصْرَا

من سائر القضاة والحكّام ... مذ ملكتْهَا مِلّة الإسلام[3]

من لدُنِ ابن العاصِ أعنى عَمْرا ... لفتحها إلى هَلُمّ جَرّا[4]

(١) أوردها ابن حجر فى رفع الإصر ١ : ٢ — ٤ ، وقال : أنبأنا أبو الحسن علىّ بن أبى بكر بن سليمان مشافهة عن أبى عمر بن أبى عبدالله بن إسحاق الكنانى ، قال : « أنشدنا ابن دانيال لنفسه .

(٢) رفع الإصر : « على النبى الهادى » .

(٣) رفع الإصر : « دولة الإسلام » .

(٤) رفع الإصر : « من فتحها » .

لـكنّنى اخترتُ الكلام الرّاجزا   فى حَصرهم إذ كان لفظا مُوجَزا[١]

* * *

أوّل مَنْ وَلِى القضا للحكم   قيسٌ فتى عدىٍّ بن سَهْم
وآل بعده لـكعب عَبْسِ   ثمّ لعثمان بغير لَبْسِ
ثم وَلِي سُلَيْمُ نجلُ عِتْرِ   وبعده السّائب نجلُ عَمْرِو
ثم يليه عابسُ المرادِى   وبعده ابن النّضْرِ فى البلادِ
وآل بَعْدَهُ لعبد الرّحمنْ   ثم إلى مالكٍ نجل خَوْلَانْ
ويونس من بعده ولِىَ القضَا   ثم ولى أوْس بعزمٍ مُنْتَضَى
ثم تولّى الحكم عَبْدُ الرّحمنْ   ثم وليه بعد ذاك عمرانْ
وبعده صار لعبد الأعلى   وابن حُدَيج ذى الفخار الأعلى[٢]
ثمّ لعبدِ الله ذاك القاضى   آل ومن بَعْدُ إلى عِياضِ[٣]

---

(١) بعده فى رفع الإصر :

ليغتدِى عِقْدًا من اللآلِى   ينفسُه ذكْرُ الجناب العالِى
العالمى العاملِىّ الأوحدُ   بَدْر التمامِ ذو السّنَا محمّدُ
أعنِي الكنانِيّ ابن إبراهيمَا   السّيِّد المفضّلَ الكريمَا
قاضى القضاةِ وإمام العَصْرِ   مفتِى الفريقَيْن بأرض مِصْرِ
نظمتُها وسيلةً إليهِ   معتمدًا دون الوَرَى عليهِ
لازال سِتْرًا مسبلاً علينا   يبعثُ فضل رفدِه إلينا
وها أنا بذكر ذاك مبتدى   بحمد ذى الحمد البديع الصّمَدِ

(٢) ط : « جريج » ، وصوابه من الأصل ورفع الإصر .
(٣) رفع الإصر .

وعاد للقضا بحكم ثاني ابن حُجيرة الفتى الخَوْلانى (١)
ثم إلى عياضَ آل ثانيَهْ ثمّ لعبد الله غيروانيه
والحضرمىّ ثم للخيار ثم يزيد جاء فى الآثار
وآل بعد نوبةٍ وخُبرِ إلى ابن سالمٍ بكلِّ خَيْرِ
هذا وفى عصر بنى العبّاسِ صار نعيم ثابت الأساسِ
وعاد غوث بعد ذاك يحكُمُ ثم وَلِى يزيد بعدُ فاعْلَمُوا
وعاد غوْثُ قبل إبراهيما (٢) والحضرمىّ بعده مأموما
ثم لإسماعيل نجل اليَسَعِ ثم تلاه الغَوْثُ خَيْرُ تَبَعِ
وبعد هذا حَكم المفضّلُ (٣) ثم أبو طاهِرَ ذاكَ الأفضلُ
ثم المفضّل الأمين حكما ثم ابن مسروق وما إن ظلما
ثم وليها بعده التُّجيبى (٤) والعمرىُّ أيما نجيب
وبعده البكرى وابن ألبُكَا ثم ابن عيسى وهو أزْكى نُسُكا
والأسامىّ حاكمُ الشَّريعَهْ ثم ابنُ عيسى واسمه لَهِيعَهْ
ثم لإبراهيم نجل القارِى ثم لإبراهيم ذى الفخار
ثم لعيسى آلت الأحكامُ وبعدَهُ زهريها الإمام (٥)
ثم ولِى الأحكام نجل شدّادْ وبعده الحارث خَيْرُ الأجْوَادْ (٦)
وبعد ما ولى دُحَيم الأمصار (٧) صَارَ لها قاضى القضاةِ بكّارْ
هذا ونجْل عبدةٍ توَلّى (٨) ثم أبو زُرْعة لما ولى

(١) رفع الإصر : « نجل حجيرة » . (٢) رفع الإصر : « قبل إبراهيما » .
(٣) رفع الإصر : « ولى المفضل » . (٤) رفع الإصر : « ثم ولى من بعده التجيبى » .
(٥) رفع الإصر : « هارون الإمام » .
(٦) رفع الإصر : « خير من جاد » . (٧) رفع الإصر : «الأنصار» . (٨) رفع الإصر : «محمد ابن عبدة تولى» .

(حسن المحاضرة ٢/١٢)

ثم ابن عبدةٍ تولى الحُكما وكان فيه بالمحلّ الأسمى
ثم ابن حرب وأبو الذِّكرِ حَكَمْ قبل الكُريزىّ زمانًا فى الأمَمْ
والجوهرىّ ، وهو نعم القاضى ومَنْ به قد وقع التَّراضِى
وبعده أحمد وابن أحمدا وأحمدُ ثانيةً فيها اغتدَى
وصرفوه بابن زِبْرٍ فقضَى من قبل إسماعيل فيما قد مضَى
ثم ابن مسلم ونجل حمّادْ والسّرخسى والصّيّرفى بإسناد
وبَعْد عبدِ الله نجل زِبْرِ ولِى أبو بكر جميع الأمرِ
ثم ابن زرعةٍ ونجل بدرِ من قبل عبد الله نجل زِبْرِ
ثم ابن بدر بعد عبد اللهِ أمسى عليها آمراً وناهى
ثم أبو ذكر تولى والحسَنْ وبعده الكشىّ فى ذاك الزَّمنْ
وبعد ذا ابن أُخت وليد لم يزَلْ حاكمها والعدْلُ عنه ما عدَلْ[1]
وبعدَهُ ولى القضا ابن الحدّادْ[2] وبعده ابن اخت وليدٍ قد عادْ
وبعد ذاك ولد الخطيبِ ولى القضا وولد الخصيب
وبعده محمد قد حَكما ثم أبو الطاهر فيما علِما

* * *

الدولة المصرية

وبعد هذا ولد النُّعْمانِ[3] ونَجْلُهُ فى ذلك الزَّمَانِ
ثم ابنُه وصِنْوهُ الحسينُ ولم يشِنْهُ فى القضاء شَيْنُ
وبعد ذاك مالكٌ توَلىّ ثم أبو العباسِ فيما يتْلَى
وقاسمٌ ثم أبو الفتحِ وَلِى وهو بغير قاسمٍ لم يعْزلِ[4]

(١) هذا البيت ساقط من رفع الإصر . (٢) رفع الإصر : « ثم تولى حكمها ابن الحداد » .
(٣) رفع الإصر : « وبعد ذاك » . (٤) بعده فى رفع الإصر :

وصَرَفوه بأبى محمدِ قبل أبى علىّ المسدّدِ

ثم ابن وهبٍ جاءها فى الإثْرِ ونالها من قبل نجل ذكرى [(١)]

ثم أعيـــد أحمدٌ للحُكْمِ ثم ابن وهبٍ فاستمع لنظمِى

ثم ولِىَ الحُكْمَ ابنُ عبد الحاكِمِ ثم أعيد بعـــدَه للقاسمِ

ثمّ لعبـــدِ الحاكم الإمامِ وقاسم وُجِّهَ بالأحكامِ

وبعده ولى القضا نجل أسَـــدْ وبعده أحمد ذو الحُكْمِ الأسدَ

ثم أعيـــدَ ابنُ أبى كَدينهْ لمّا ارتضوْا سيرته ودِينَــهْ

ثمّ علىّ بعـــده الميسّرِ [(٢)] ثم الرّصافى الجميـــلُ الذّكْرِ

وبعـده ولِى القضـا ابن وهبِ وابن أبى كدِينَةٍ ذو اللُّبِ

وبعـــده المليجى فى المدينَهْ ولى القضا وابن أبى كدينَـه

ثم وليـه بعده البـــازورِ وابن أبى كدنَة بغـير زورِ [(٣)]

وبعـــده العرق والقضاعِى ولى القضا حقًّا بلا نزاعِ

ثم جـــلال الدولة ابن القاسمِ عاد فأضحى وهو خير حاكِمِ [(٤)]

وبعده نجل نبـاتةٍ وَلِى وولد الكحّال ذو التفضُّلِ

وبعـــده المليجى والمكرمِ ثم أبو الطاهر ذو التّكرّمِ

وبعـــده وَلِى القضا نجلُ ذكا وبعده الحسينُ وهو ذو الذّكا

ثم ابن بدرٍ وأبو الفضلِ قضى من بعده الصقلّى وأبو الفضل الرضى

وبعـــده ابن ظافرٍ تولّى وابن الحسين ذو المقام الأعلَى

ثم أبو الفتح ويوسف ولِى وكان كلٌّ ذا محلٍّ أفضلِ

ثم وليـــه ولد الميسّرِ أعنى سناء الملك ربّ الفخـرِ

---

(١) فى الأصل : « ذكر » ، وما أثبته من رفع الإصر ؛ وهو أحمد بن أبى محمد بن زكريا .

(٢) ط : « المعرى » ، صوابه من الأصل ورفع الإصر . (٣) رفع الإصر : « وابن كدينة بغيرزور » . (٤) رفع الإصر : « عاد وولى وهو خيرحاكم » .

ثم أبو الفخر ونجــلُ جعفرَا ثم محمّد وَلِى بلا مِــرَا

وبعد هذا ولِى الرّعيني ثم سنا الملك بغير مين

وبعــده نجــل عقيلٍ لم يَزَلْ وابن حسينٍ صار حاكمَ العَمَلْ

وابن سلامة ونجل المقدسي وكان فيها ذا تَحَلٍّ أنفَسِ

وابن مكرّمٍ ونجــلُ عالِى ثم ضياء الدين ذو الإفضالِ

ثم الأعزّ وأبو الفتح وَلِى وبعــده أعيــد نجــلُ كامل

وبعد ذاك فى زمانِ الغُزِّ ذوى الفَخَار والعُلا والعزِّ

وليــه عبــدُ الملك بن عيسىَ قبــل علِي ـ أعنِي الفتىَ الرئيسا

ثم ابن عصرون تَوَلّى الحُكماَ وعاد صدر الدين وهْو الأسْمَى

والسكّرى وأبو محمّدْ قبل ابن عَيْن الدّولة المجّدْ

ثم تولّى يوسف السّنجارِى وجاء عزّ الدين فى الآثار

وبعده موهوبُ ـ أعنى الجزَرىّ والخُوَنجى ثم العماد الحموِىّ

ثم أعيد يوسف السِّنجارِى ثم تلاهُ التّاج ذو الفخار

ووِلِى البرهانُ أعنى الخِضْرا وعاد تاجُ الدِّين فيما غَبرا

ثم ولِى الأحكام محيِى الدِّينِ وابن رزين ذو الحِجى الرّزينِ

وبعد عزله تولاه عُمَرْ أعنى العلامىّ وبالعدْل أمرْ [(١)]

ثم أعيد ابن رزينٍ فحَكَمْ من بعْدصدر الدّينعدلًا فى الأمم

ثم الوجيــهُ البهنسىّ للقضا عُيّن بعد ذا التّقىُّ إذْ قَضَى

وعندما استعفى لبعد القاهرَهْ عن مصره خَصَّ بهــا أوامِرَهْ

ثم الشهاب رفعوا محــلَّهْ وأشخصوه من رُبى المحَلّهْ [(٢)]

(١) فى الأصول: « العلاقى » ، وصوابه من رفع الإصر.

(٢) رفع الإصر : « واستحضروه من قضا المحلة » .

ولم يزل حتى توفّاه الرّدَى ووِلي الشام الفتى ابنُ أحمــدا
ثم ولِي القاضى التقىّ ابنُ خَلَفْ بعد الوجيه والشهاب المنصرِفْ
وعزلوه عن قضاء القاهِرَهْ ثم وليـــه سيّد السّنَاجِرَهْ
ثم ولِي التّقى عبد الرحمنْ وبان بدر الدّين لمّا أنْ بان
وعادَ بدْر الدّين للشـــآم ثم ولى الحكم الفتى العـلامِى
ولم يزل حتى توفّاه القضاَ ثم ولى التّقى أبو الفتح القضا[1]
وإذ أتـاه نازل الحِمـــامِ عاد إليها البـدْر فى التّمام
بدر منيرٌ كامل الأوصافِ والمنهل العذبُ المنير الصافى[2]
لابرحتْ نافـذةً أحـكامُه وخُلِّدَت زاهرةً أيّامُـهُ[3]

قلت : وقد ذيّلت عليه بمن جاء بعد ذلك ، فقلت :

وبعد ذاك قد وليه الزّرعِى ثم أعيد البدرُ لمّا أنْ دُعِى
ثم وِليه بعـــدَه القَزْوينِى وبعده ابن البدر عزّ الدّين
وبعده نجل عقيل قد وَلِى ثم أعيـد العزّ ذا تبجُّل
وبعـده وَلِى أبو البقـاء وبعده البرهانُ ذو ارْتقاء

(١) رفع الإصر : « الرضا » .
(٢) بعده فى رَفع الإصر
قاضِى القضاةِ حاكم الحكّامِ واسطة العقُودِ فى النظامِ
(٣) بعده فى رفع الإصر :
مالاحَ بَدْرٌ كاملُ الإبدارِ وما انجلى الهلالُ من سِرَارِ
والحمد لله على إنعامِهِ وفضل ما سدّد من أحكامِه
وأفضل الصلاةِ والسّلامِ على النبىِّ سيّـــد الأنام
وآله وصحبـــهِ وعترتِهْ وكلّ من أخلصَ فى محبّته

وبعده البدْر هو السُّبكىُّ ثم أتى برهاننا الزكىّ

ثم أعيد البدر ذو التحقُّقِ ثم وليه النّاصر ابن الميلقِ

ثم وليه صَدْرُنا المناوِى ثم أعيد البدْر ذو الفتاوِى

ثم تولّاه العماد الكَرَكِى ثم أعيد الصّدر ذو التمسُّكِ

ثم أعيد البدرُ ثم الصَّدْرُ ثم الزّبيرىّ وعاد الصَّدْرُ

ثم وليه بعد ذاكَ الصالِحِى ولم يكن فى علمه بالراجِحِ

ثم وليه ولدُ البُلقينِى عالم عصره جلالُ الدِّينِ

ثم أعيد الصالحىّ النائِى ثم وَلِى محمد الإخنائى

وبعده عاد الجلال للقضاَ ثمت الاخنائىّ وهو مَنْ مَضَى

ثم الجلالُ بعده الباعونِى ثم الجلال باذل الماعُونِ

ثم ولى الهروِىّ فالجلالِى ثم العراقىّ وهو ذُو الكمال

ثم وليه العَلَمَ البُلقينِى لحافظ العَصْر شهاب الدِّين

ثم أعيد الهروى ثم استقرّْ من بعد عزله شهاب ابن حَجَرْ

ثم أعيد شيخنا فابن حَجَرْ ثم أعيد شيخنا فابنُ حَجَرْ

ثم وليه بعده القاياتِى ثم أعيد حافظ السُّنات

ثم أعيد شيخنا البُلْقينِى ثم أتى السَّفطِى ولىّ الدِّين

ثم أعيد بعد ذاك ابن حَجَرْ ثم أعيد شيخنا ثم استقرّْ

من بعد ذاك الشرف المناوِى وشيخنا من بعد ذُو الفتاوِى

ثم أعيد بعد ذاك الشرفْ ثم أعيد شيخنا فالشَّرفْ

ثم الصلاح وهو المكِينِى ثم ولِى البدر هو البُلقينى

ثم السّيوطى ولى الدين ثمّ   للشيخ أعنى زكريا الحكم عمّْ(١)

---

(١) وفى رفع الإصر: « وقد ذيل عليها بعض أصحابنا إلى عصرنا ، فسرد الشافعية على منوال ابن دانيال ، ثم سرد القضاة الثلاثة مذهبا بعد مذهب إلى عصره ، وهذا صورة ما نظم فى قضاة الشافعية : أنشدنا العز أحمد بن إبراهيم العسقلانى لنفسه مكاتبة قال :

والزّرعِى والبَـدْرُ والقَزوينِى   والعزّ والبهـا وعزّ الدينِ
أبو البقا البرهان ثمّ البـدْرُ   وعاد برهانٌ لهـا وبَدْرُ
وبعـده ابن الميلق المنـاوِى   والبَدْر والعماد والمنـاوِى
وبعد هذا البَـدْرُ والمناوى   ثمّ الزبيرى مع المنـاوى
والصالحِىّ معْ جـلالِ الدِّينِ   والصالِحىّ ثم شمس الدِّينِ
ثم جلال الدين والإخنـائى   ثم جلالُ الدِّين والإخنـائى
ثم جـلال الدّين ثم الشمسُ   ثمّ جـلال الدين ثمّ الشمْسُ
ثمّ الجـلالىّ ولىّ الدّين   والعلمىّ مع شهـاب الدِّين
والهروىّ مع شهـاب الدّينِ   والعلمىّ مع شهـاب الدين
عين الوجود ثم رأس المحتفَى   ومَنْ به منصِبـه تشرّفا
كمْ قـلّد الأعناق منامِنّهْ   مواسِى القلب الضعيف منّـه
وأوصل الإجـداء فى الإجدابِ   واستعمل الإغضاء فى الإغضابِ
دام عـلاه فى سما السعود   ما أمطرت بوارق الرعـود

وسيأتى ما نظمه فى قضاة بقية المذاهب ، أما المؤلف فلم يعقد فصلا لقضاة الشافعية .

ذكر قضاة الحنفية

أوّل مَنْ وَلى منهم زمن الظاهر بيبرس فى سنة ثلاث وستين وستمائة صدرُ الدين سُليمان بن أبى العزّ .

ووَلِىَ بعـده معزّ الدين النعمان بن الحسن ، إلى أن مات فى شعبان سنـة اثنتين وتسعين .

ووَلىَ شمسُ الدين محمد السُّروجىّ ، ثم عزل أيّام المنصور لاجين .

وولىَ حسام الدين الحسن بن أحمد الرازىّ ، ثم عزِل سنة ثمان وتسعين .

وأعيد السّروجىّ ، ثم عزل فى ربيع الآخر سنة عشر وسبعمائة .

ووَلى شمس الدين محمـد بن عثمان الحريرىّ إلى أن مات فى جمـادى الآخرة سنة ثمان وعشرين .

وَوَلِىَ برهان الدين إبراهيم بن عبد الحق ، وقال بعض الشعراء فى ذلك :

طُوبَى لمصرَ فقد حلّ السرورُ بها ... من بعد مارُميَتْ دهراً بأحزانِ

كنانةُ اللهِ قد قام الدّليل على ... تفضيلها من نبى حقٍّ ببرهانِ

ثم عزِل فى جمادى الآخرة سنة ثمان وثلاثين .

ووَلىَ حسام الدين الحسن بن محمد الغُورى ، ثم عزِل فى سنة اثنتين وأربعين .

ووَلى زينُ الدين عمر البِسطامىّ ، ثُمّ عزل فى جمادى الأولى سنة ثمان وأربعين .

ووِلىَ علاء الدين التركمانّى إلى أن مات فى المحرّم سنة خمسين .

ووَلِىَ ولده جمال الدين عبد الله إلى أن مات فى شعبان سنة تسع وستين .

وَلِى سراج الدين عمر بن إسحاق الهندىّ إلى أن مات فى رجب سنة ثلاث وسبعين

ووَلِيَ صدرُ الدين محمد بن جمال الدين التُّركمانى، إلى أنْ مات فى ذى القعدة سنة ست وسبعين.

ووَلِيَ نجمُ الدين أحمد بن العماد إسماعيل بن الكشك ، طُلب من دمشق فى المحرّم سنة سبع وسبعين ، ثم عزل .

ووَلِيَ صدرُ الدّين علىّ بن أبى العزّ الأذرَعىّ ، ثم استعفَى فأعفِىَ .

ووَلِيَ شرفُ الدّين أحمد بن منصور الدمشقىّ ، ثم عزَل نفسه فى سنة ثمان وسبعين .

ووَلِيَ جلالُ الدين جار الله إلى أن مات فى رجب سنة اثنتين وثمانين .

ووَلِيَ صدرُ الدّين محمد بن علىّ بن منصور إلى أن مات فى ربيع الأوّل سنة ست وثمانين .

ووَلِيَ شمسُ الدّين محمد بن أحمد الطرابُلُسِىّ ، ثمّ عزَلَ نفسَه سنة اثنتين وتسعين .

ووَلِيَ مجدُ الدين إسماعيل بن إبراهيم الكنانىّ ، ثم عزِلِ فى شعبان سنة اثنتين وتسعين .

ووَلِى جمالُ الدين محمود القَيْصرىّ إلى أن مات فى ربيع الأوّل سنة تسع وتسعين .

وأعيد الطرابلسىّ إلى أن مات فى آخر السنة .

وولى جمالُ الدين يوسف بن موسى المَلْطِىّ، طلِب من حلب فى ربيع الآخر سنة ثمانمائة ، فأقام إلى أن مات فى ربيع الآخر سنة ثلاث .

ووَلِيَ أمينُ الدين عبد الوهاب بن قاضى القضاة شمس الدين الطّرابلُسِىّ ، ثم عُزِل فى رجب سنة خمس .

ووَلِيَ كمالُ الدِّين عمر بن العديم إلى أن مات فى جمادى الآخرة سنة إحدى عشرة.

ووَلى ابنُه ناصر الدين محمد ، ثم عُزِل فى رجب من السنة .

وأعيد الأمين بن الطرابلُسىّ ، ثم عزِل فى المحرّم سنة اثنتى عشرة .

وأعيد ناصر الدين بن العديم ، ثمّ عُزِل فى سنة خمس عشرة .

ووَلِىَ صدرُ الدين على بن الأدَمىّ إلى أن مات فى رمضان سنة ست عشرة .

وأعيد ابنُ العَديم إلى أن مات فى ربيع الآخر سنة تسع عشرة .

ووَلِىَ شمسُ الدين الدَّيرىّ ، طُلِب من القدس ، ثم عُزِل فى ذى القعدة سنة اثنتين وعشرين .

ووَلِىَ زينُ عبد الرحمن بن على التَّفِهْنِىّ ، ثم عُزِل فى ربيع الآخر سنة تسع وعشرين

ووَلِى بدرُ الدين العينىّ ، ثم عزل فى صفر سنة ثلاث وثلاثين .

وأعيد التَفِهْنىّ ، ثم عُزِل فى جمادى الآخرة سنة خمس وثلاثين .

وأعيد العَيْنىّ ، ثم عُزِل فى سنة اثنتين وأربعين .

ووَلِى سعد الدين بن الديْرىّ ، فأقام إلى أن عُزِل قبل موته بيسير فى شوّال سنة ست وستين .

ووَلِى محبّ الدين بن الشّحنة ، ثم عُزِل فى رجب سنة سبع وستين .

ووَلِىَ بدرُ الدين بن الصوّاف الحموىّ إلى أن مات آخر العام ، وأعيد ابنُ الشّحنة ، ثم عزل فى جمادى الآخرة سنة سبعين .

ولِىَ البرهانُ ابن الدَّيرىّ ، ثم عزل .

وأعيد ابنُ الشِّحنة فى أول سنة إحدى وسبعين ، ثم عُزل فى سنة ست وسبعين .

ووَلِىَ شمسُ الدين محمد بن الحسن الأمشاطىّ ، إلى أن مات فى رمضان سنة خمس وثمانين .

ووَلِىَ شرفُ الدين موسى بن عيد ، طُلِب من دمشق ، فأقام دون الشّهرين ،وما[ت]
من واقِع وقع عليه من الزّلزلة بالمدرسة الصالحيّة فى المحرّم سنة ست وثمانين .
ووَلِىَ شمسُ الدين محمد بن المغربىّ ، ثم عُزل فى رمضان سنة إحدى وتسعين .
ووَلِىَ القاضى ناصر الدين الإخميمىّ (١) .

---

(١) وفى قضاة الحنفيــة نظم أحمــد بن إبراهيم العسقلانى هذه الأرجوزة ، ونقلها ابن حجر فى رفع الإصر ١ : ١٧ :

وابن أبى العزّ معزّ الدّينِ ثم السّروجىّ حسـام الدين
ثم السّروجى مع الحريرىّ ثم ابن عبد الحق ثمّ الغورِى
والزين والعلا جمال الدينِ كذلك الهندىّ صدر الدّين
والنجم والصدر كذا ابن منصورِ والجارُ والصدر هو ابن منصور
والشمس والجدُ كذاك العجمى والشمس ثم المَلْطِى فاعـلِم
ثمّ أمين الدين والعديمى ونجله الأمين والعديمى
والآدمى وابن العديمِ يأفتى عينيهم ، والسعد بعــــده أتَى

ذكر قضاة المالكية

أوّل من وَلِىَ منهم زمَن الظّاهر شرفُ الدين عمر بن السّبكىّ ، إلى أن مات سنة سبع وستين وستمائة .

ووَلِىَ بعده نفيس الدّين بن شكر إلى أن مات سنة ثمانين وستمائة .

ووَلِىَ تقىّ الدين بن شاس، إلى أن مات فى ذى الحجة سنة خمس وثمانين .

ووَلِىَ زينُ الدين بن مخلوف النُّويرىّ إلى أن مات سنة خمس وسبعمائة .

ووَلِىَ نورُ الدّين علىّ بن عبد النصّير السخاوىّ، إلى أن مات فى جمادى الأولى سنة ستّ وخمسين .

ووَلِىَ تقىّ الدين محمد بن أحمد بن شاس، إلى أن مات فى شوّال سنة ستين وسبعمائة .

ووَلِىَ تاجُ الدّين محمد بن القاضى علم الدّين محمد بن أبى بكر بن الأخنائىّ إلى أن مات فى أوّل سنة ثلاث وستين .

ووَلِىَ أخوهُ برهان الدين إبراهيم ، إلى أن مات فى رجَب سنة سبع وسبعين .

ووَلِىَ ابنُ أخيه بدر الدين عبد الوهاب بن الكمال أحمد ، ثم صُرِف فى ذى القعدة سنة ثمان وسبعين .

ووَلِىَ علمُ الدّين سليمان بن خالد البساطىّ، ثم عُزِل فى صفر سنة تسع وسبعين .

وأعيد البدْر الإخنائىّ ، ثم صرِف فى رجب من السنة .

وأعيد البِساطىّ فى سنة ثلاث وثمانين.

ووَلِىَ جمال الدين عبد الرحمن بن محمد بن خير السكندرىّ ، وقال بعضهم فى ذلك :

قالوا تولىّ ابن خيرٍ فقيهُ ثَغْرِ الرّباطِ

فقلت : ذا فيض خيرٍ من بعد خير البِسَاطِ

ثم عزل فى جمادى الآخرة سنة ست وثمانين.

وولى عبد الرحمن بن خلدون ، ثم عُزِل فى جُمادى الآخرة سنة سبع وثمانين .

وأعيد ابن خيرٍ إلى أن مات سنة إحدى وتسعين .

ووَلِىَ تاجُ الدين محمد بن يوسف الكركىّ ، إلى أن مات فى شوال سنة ثلاث وتسعين .

ووَلِى شهاب الدين النّحريرىّ ، ثم عُزِل فى ذى الحجة من السنة .

ووَلِىَ ناصر الدين أحمد بن محمد بن التّنَسِىّ ، إلى أن مات فى رمضان سنة إحدى وثمانمائة .

ووَلِىَ ولىّ الدين بن خلدون، ثم عُزِل فى المحرّم سنة ثلاث.

ووَلِىَ نورُ الدّين على بن الخلاّل إلى أن مات من عامِه .

ووَلِىَ جمال الدّين عبد الله الأقْفَهسىّ ، ثم عزِل بعد شهر .

وأعيد ابن خلدون، ثم عزل فى شعبان سنة أربع.

ووَلِىَ جمال الدين يوسف البِساطىّ ، ثم صُرف فى ذى الحجة من السنة .

وأعيد ابن خلدون، ثم صُرِف فى ربيع الأول سنة ست.

وأعيد البِساطىّ ، ثم صُرِف فى رجب سنة سبع.

وأعيد ابن خلدون ، ثم صرِف فى ذى القعدة من عامه .

وأعيد الجمال الأقْفَهسىّ .

ثم ولِى جمال الدين عبد الله بن القاضى ناصر الدين التّنَسِىّ فى مستهلّ ربيع الأول سنة ثمان ، ثم عُزِل بعد يومين .

وأعيد البِساطىّ ، ثمّ صرف فى رمضان من عامه .

وأعيد ابن خلدون، ثم لم يلبث أن مات فيه.

وأعيد جمال الدين التنسيّ ، ثم صُرِف فى سادس عشر شوال .

وأعيد البساطيّ ، ثم صرِف فى شوال سنة اثنتى عشرة .

ووَلِىَ شمسُ الدين محمد بن على المدنىّ ثم صُرِف فى ربيع الآخر سنة ست عشرة .

وولى شهاب الدين الأمويّ ، ثم أعيد الجمال الأقفهسىّ إلى أن مات فى جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين .

ووَلِىَ العلامة شمس الدين البِساطىّ ، فأقام إلى أن مات فى رمضان سنة اثنتين وأربعين .

ووَلِىَ بدر الدين بن القاضى ناصر الدين التَّنَسِىّ إلى أن مات فى صفر سنة ثلاث وخمسين .

ووَلِىَ وَلىّ الدين السنباطىّ ، إلى أن مات فى رجب سنة إحدى وستين .

ووَلِىَ حسام الدين بن جرير إلى أن مات سنة ثلاث وسبعين .

ووَلِىَ أخوه سراج الدّين ثم عزل ، وولى البرهان اللّقانىّ ، ثم عزل فى جمادى سنة ست وثمانين .

وولى صاحبنا محيي الدين بن تقىّ[1] .

---

(١) ونظم أيضا أحمد بن إبراهيم العسقلانى فى قضاة المالكية ونقله ابن حجر فى رفع الإصر ١ : ١٨، ١٩ :

والحسنِى وابن شكرَ وابن شاسِ ... ثم ابن شكرٍ قد تلا ابن شاسِ

ثم ابن مخلوفٍ تقى تاجُ ... ثم السخاوى تلاه التــاجُ

وبعد البرهن بدرٌ وعلمْ ... أعنى البِساطىّ وبدر وعلمْ

ثم ابن خلدونٍ مع ابن خيرِ ... بهرام ثم العــدنى النحريرى

ثمّ ابن خلدونٍ مع البِساطى ... ثم ابن خلدونٍ مع البِساطى

ثم ابن خلدون مع البساطى. ... والتنسى هكذا البساطى

ثم ابن خلدونٍ جمال الدينِ ... ثم البِساطى ثم شمس الدينِ

ثم البِساطى المــدنىّ الأموى ... ثم الجمال والبساط المحتوى

ابن التّنِسى والبساطى ولَوْهُ ... وابن جرير بعده أخوه

ذكر قضاة الحنابلة

أوّل مَنْ ولِيَ منهم زمن الظاهر شمس الدين محمد بن العماد الجمّاعيليّ ، ثم عزل سنة سبعين وستمائة ، ولم يلِ الوظيفة بعد عزله أحدٌ حتى توفّيَ سنة ست وسبعين .

ووَلِيَ عزّ الدين عمر بن عبدالله بن عوض فى جمادى الآخرة سنة ثمان وسبعين ، إلى أن مات سنة ست وتسعين .

ووَلِيَ شرفُ الدين عبد الغنيّ بن يحيى الحرّانى ، إلى أن مات فى ربيع الأوّل سنة تسع وسبعمائة .

ووَلِيَ الحافظ سعد الدين الحارثىّ ، ثم عزل فى ربيع الأول سنة اثنتى عشرة .

ووَلِيَ تقىّ الدين بن قاضى القضاة عزّ الدين عمر ، ثم عُزل .

ووَلِيَ موفّق الدين عبد الله بن محمد المقدسىّ فى جمادى الآخرة سنة ثمان وثلاثين ، إلى أن مات فى المحرّم سنة تسع وستين .

ووَلِيَ ناصرُ الدين نصر الله بن أحمد العسقلانىّ ، إلى أن مات فى شعبان سنة خمس وتسعين .

ووَلِيَ ابنه برهان الدين إبراهيم ، إلى أن مات فى ربيع الأول سنة اثنتين وثمانمائة .

ووَلِيَ أخوه موفّق الدين أحمد بن نصر الله ، ثم صرِف .

ووَلِيَ نُور الدين على الحُكْرِىّ (1) ، ثم صُرِف .

وأعيد موفّق الدين إلى أن مات فى رمضان سنة ثلاث وثمانمائة .

ووَلِيَ مجدُ الدين سالم ثمّ صرِف فى سنة ثمانى عشرة .

ووَلِيَ علاء الدين على بن مُغلى ، إلى أن مات فى صفر سنة ثمان وعشرين .

---

(١) فى الأصول : « السكرىّ » ، وما أثبته من النجوم الزاهرة ٧ : ١٣٥ .

ووَلِيَ محبّ الدين أحمد بن نصر الله البغدادىّ ، ثم صرف فى جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين .

ووَلى عزّ الدين عبد العزيز بن على البغدادىّ، ثم صُرِف فى سنة إحدى وثلاثين .

وأعيد محب الدين إلى أن مات فى جمادى الأولى سنة أربع وأربعين .

ووَلِيَ بدرُ الدّين محمد بن عبد المنعم البغدادىّ ، إلى أن مات فى جمادى الأولى سنة سبع وخمسين .

ووَلى شيخُنا عزّ الدين أحمدُ بن قاضى القضاة برهان الدين بن قاضى القضاة نصر الله إلى أن مات فى سنة ست وسبعين .

ووَلِيَ تلميذه البدر السعدىّ [1] .

---

(١) وفى قضاة الحنابلة نظم أيضا أحمد بن إبراهيم العسقلانى ، هذا الرجز ، ونقله ابن حجر فى رفع الإصر ١ : ٢٠ :

وابن العماد قد تلاه ابن عوَضْ   عبد الغنى والحارثى وابن عِوَضْ
ثمّ موفّق الدّين تلاه الناصِرُ   ثمّ ابنه ، ثم أخوه الآخِر
وبعده الحكرى والموفّقُ   وسالمٌ ثم ابن فعاله يلحقُ
ثمّ محبّ ثم عز والمحبُّ   والبدر والناظم نال مايحبّ

ذكر وزراء مصر

اعلم أنّ الوزارة وظيفة قديمة كانت للملوك من قبل الإسلام؛ بل من قبل الطُّوفان، وكانت للأنبياء؛ فما من نبيّ إلا وله وزير، قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً من أهلي * هارونَ أخي * اشدُدْ به أزْرِي * وأشرِكْهُ في أمرِي﴾، وقال تعالى مخاطبا له: ﴿سنشدّ عَضُدَكَ بأخيكَ ونَجْعَلُ لكما سلطاناً﴾.

وكان للنبي صلى الله عليه وسلم أربعة وزراء: روى البزّار والطّبرانيّ في الكبير عن ابن عباس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ الله أيّدني بأربعة وزراء اثنين من أهل السماء: جبريل وميكائيل، واثنين من أهل الأرض: أبي بكر وعمر».

وقد وردت الأحاديث في وزراء الملوك، روى أبو داود عن عائشة، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزيرَ صِدْقٍ؛ إن نَسِيَ ذَكَّرهُ، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد الله به غيرَ ذلك جعل له وزير سوء؛ إن نسي لم يذكّرهْ، وإن ذكر لم يُعِنْه».

ولم تكن الوزارة في صدر الإسلام إلا للخلفاء دون أمراء البلاد، فكان وزير أبي بكر الصديق عمر بن الخطاب، ووزير عمر ووزير عثمان مروان بن الحكم؛ ذكره ابن كثير في تاريخه.

ووزير عبد الملك رَوْح بن زِنْباع، ووزير سليمان بن عبد الملك عمر بن عبدالعزيز.

قال ابن كثير: وكان رجاء بن حَيْوة وزيرَ صِدْقٍ لخلفاء بني أميّة. ووزير هشام ابن عبد الملك فمَنْ بعده عبد الحميد بن يحيى؛ غير أنّه لم يكن أحد في عهدهم يلقَّب بالوزير، ولا يخاطَب بوصف الوزارة.

(حسن المحاضرة ٢/١٣)

وأوّل مَنْ لقب الوزير فى الإسلام أبو سلمة حفص بن سليمان الخلّال وزير الخليفة السّفّاح، أوّل خلفاء بنى العباس .

وقال ابن فضل الله فى المسالك : لم تكن للوزارة رُتْبة تعرَف مدّة بنى أميّة وصدراً من دولة السّفّاح ، بل كان كلّ مَنْ أعان الخلفاء على أمرهم ، يقال له : فلان وزير فلان : بمعنى أنّه موازِر له ، لا أنّه متولّى رتبة خاصة يجرى لها قوانين ، وتنتظم بها دواوين .

وأوّل مَنْ فَخّم قواعد الملك فى هذه الأمّة ، وعظّم عوائد السلطان عبدُ الملك بن مروان ؛ إذ لم يستتبّ الأمر لأحدٍ بعد عثمان بن عفّان كما استتبّ له ، وكان منه إلى معاوية خَبْط عشواء ، وأمّا معاوية فعمرو بن العاص ، وإن كان له وزراً ورداء ، فإنه أجلّ قدرا وأعظم أمرا من أنه يجرى معه مجرى الوزراء ، إذ كان لا يزال كالممتنّ عليه لانحيازه إلى جَمْعه مع ما يُكنّه [1] له فى شرفه ... وسابقته [2] فى الإسلام .

وأوّل من دُعى بالوزير فى دولة السّفّاح أبو سلمة حفص سليمان الخلال ؛ وكان يقال له وزير آل محمد ؛ ثم إن أبامسلم الخراسانىّ بعث إليه مَنْ قتله، وفيه قيل هذا البيت :

إنّ الوزير وزير آل محمّدٍ أودَى فمن يشناكَ كان وزيرًا

وَوَزر للسفّاح بعده أبو الجهم بن عطيّة ، وخالد بن برمك ، وسليمان بن مَخْلد ، والربيع بن يونس .

ووزَر للمنصور أبو أيّوب المُوريانىّ وعبد الجبار بن عبد الرحمن والرّبيع بن يونس ، وخالد بن برمك ،وسليمان بن مخلد ،وعبدالحميد [3] .

وَوَزر للمهدىّ معاوية بن عبد الله الطبرىّ ، ويعقوب بن داود بن طهمان ، والفيض بن صالح .

---

(١) ط : « تكنه » . (٢) كذا فى الأصل بعد بياض ، وفى ح ، ض : « وما أبقاه » .
(٣) كذا فى الأصول .

ووزر للهادى الرّبيع بن يونس ، والفضل بن الربيع ، وإبراهيم بن ذكوان .

فلمّا استخلف الرّشيدولّى الوزارة يحيى بن خالد البرمكىّ ،وقال له: فوّضتُ إليك[1] أمر الرعيّة ، وخلعت ذلك من عنقى ، وجعلته فى عنقك ، فولّ من شئت ، واعزل من شئت : وقال إبراهيم الموصلى فى ذلك :

ألم ترَ أنّ الشمسَ كانت سقيمةً فلمّا ولِىَ هارونُ أشرق نورُها
تبسّمت الدّنيــا جمالاً بمُلْــكِه فهارون واليها ويحيَى وزيرُها

ومن هذا الوقت عظُم أمر الوزارة ، ولم تــكن قبل ذلك بهــذه المثابة : وهى عن الخلافة فى معنى السلطنة عن الخلافة الآن ؛ وكانت البرامكة كلُّهم فى معنى الوزراء،للرشيد خالد بن برمك ، وأولاده يحيى والفضل وجعفر : حتى قال سَلْم الخاسر :

إذا ما البرمكى غــدا ابنَ عشرٍ فهمّتهُ أميرٌ أو وزيرُ

ثم لما قتل الرشيد البرامكة ، استوزر الفضل بن الربيع بن يونس ، وفى ذلك يقول أبو نواس :

مارَعَى الدّهرُ آل برمكَ لمّا أن رمى ملــكهمْ بأمرٍ فظيعِ
إنّ دهرا لم يرع عهــداً ليحيَى غــيرُ راعٍ ذمَام آل الربيع

ووزَر للأمين الفضل أيضا .

ووزَر للمأمون الفضل بنُ سهل ذو الرياستين ، وأخوه الحسن بنُ سهل ، وأحمد ابن أبى خالد ، وعمرو بنُ مسعدة .

ووزَر المعتصم الفضلُ بن مروان ، وأحمد بن عمّار ، ومحمد بن عبد الملك الزيات .

ووزَر للواثق محمّد بن عبد الملك الزيات .

---

(١) خ : « لك » .

ووزَر للمتوكل محمد بن عبد الملك أيضا ، والفتح بن خاقان ، ومحمد بن الفضل الخراسانيّ ، وعبيدالله بن يحيي بن خاقان .

ووزَر للمنتصر أحمد بن الخصيب .

ووزر للمستعين ابنُ الخصيب ، وسعيد بن حميد .

ووزَر للمعتزّ جعفر الإسكاف وعيسى بن فرّوخ شاه وأحمد بن إسرائيل .

ووزَر للمهتدى .

ووزر للمعتمد عُبيد الله بن يحيي بن خاقان والحسن بن مخلدوسليمان ابن وهب وابنُه عبيد الله بن سليمان وإسماعيل بن بلبل .

قال محمّدبن عبدالملك الهمدانيّ فى كتاب عنوان السِّيَر : وزَر للمعتضد أبو القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب ، ثم ابنه أبو الحسين القاسم ، وهو أوّل وزير لقب فى الدولة ، فإن المعتضد لقّبه ولى الدولة ، وتوفِّىَ فى زمن المكتفِى ، فوزر له أبو أحمد العباس بن الحسن بن أحمد بن أيوب ، وهو أول وزيرمنع أصحاب الدواوين من الوصول إلى الخليفة.

ووزَر للمقتدر أبو الحسن علىّ بن محمد بن الفرات ثلاث مرات ، وأبو علىّ محمد ابن الوزير أبى الحسن عبيد الله بن خاقان ، وأبو الحسن علىّ بن عيسى بن داود بن الجراح مرتين . قال الصولىّ : ولا أعلمُ أنه وزر لبنى العباس وزير يشبهه فى زُهده وعفته وتعبّده ،كان يصوم نهارَه ، ويقوم ليله ، وكان يسمّى الوزير الصالح[1] .

وقال الذهبىّ فى العبر :كان فى الوزراء كعمر بن عبد العزيز فى الخلفاء . وأبو محمد حامد بن العباس ، وكان له أربعمائة مملوك يحملون السلاح ، ولكلّ منهم عدّة مماليك ،

---

(١) نقله ابن الطقطقى فى الفخرى ٢٣٦ ، والعبارة هناك : « وما أعلم أنه وزر لبنى العباس وزير يشبه علىّ بن عيسى فى زهده وعفته وحفظه للقرآن وعلمه بمعانيه وكتابته وحسابه وصدقاته ومبراته » .

(٢) العبر ٢ : ٢٣٨

وكان يخدُمه على بابه ألف وسبعمائة راجل وعشرون حاجبا ، يجرى مجرى الأمراء[١] .

وأبو العباس أحمد بن عبيد الله ابن الوزير أبى العباس بن الخصيب ، وأبو على محمد بن أبى العباس بن مقلة صاحب الخط المنسوب ، ولمّا خُلِع عليه بالوزارة قال نِفطويه النحوىّ :

إذا أبصرت فى خلع وزيراً فقل أبشر بقاصمةِ الظهور
بأيام طوالٍ فى بــــلاء وأيامٍ قصــــارٍ فى سرورِ

وأبو علىّ الحسين بن الوزير أبى الحسين القاسم بن الوزير عبيد الله ، ولقب عميد الدولة ، وأبو القاسم سليمان بن الوزير ، وأبو محمد الحسن بن مخلد بن الجرّاح وأبو الفتح الفضل بن جعفر بن محمد بن الفُرات المعروف بابن حِنْزابة ، هؤلاء وزراء المقتدر .

ووزَر للقاهر أبو علىّ بن مقلة ، وأبو العباس بن الخصيب ، وأبو جعفر محمد بن الوزير القاسم بن الوزير عبيد الله .

ووزَر للرّاضى أبو علىّ بن مقلة وابنه علىّ أبو الحسين شريكاً مع أبيه ؛ فكانت الكتب يُكتب عليها : « من أبى علىّ وعلىّ بن أبى علىّ » . ولم يَلِ الوزارَة أصغر سنًّا من علىّ هذا ، فإنه ولِىَ وسنّه ثمانى عشرة سنة . وأبو الفتح الفضل بن الفرات ، وأبو علىّ

---

(١) قال فى الفخرى : « وكما عرف المقتدر قلة فهم حامد وقلة خبرته بأمور الوزارة أخرج إليه علىّ بن عيسى بن الجراح من السجن ، وضمه إليه ، وجعله كالنائب له ، فكان على بن عيسى لخبرته هو الأصل ؛ فكان ما يعقده ينعقد ، وكل ما يحله ينحل ، وكان اسم الوزارة لحامد ، وحقيقتها لعلى بن عيسى ؛ حتى قال بعض الشعراء :

قلْ لابن عيسى قولةً يرضى بها ابنُ مجاهدِ
أنتَ الوزير وإنّما سخروا بلحية حامدِ
جعلوه عندك سُترةً لصلاح أمرٍ فاسدِ
مهما شككتَ فقلْ له كم واحدًا فى واحدِ

عبد الرحمن بن علىّ بن عيسى بن داود بن الجراح ، وأبو القاسم سليمان بن الجراح ، وأبو جعفر محمد بن القاسم الكرخىّ وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن يعقوب البريدىّ .
وفى أيّام الراضى تغلّب محمد بن رائق ، ووَلِىَ إمارة الأمراء ، وصارت الكتب تؤرّخ عن ابن رائق ، وتقدّم على الوزير ، فسقط حكم الوزارة من ذلك الوقت .

ووزَر للمتقى علىّ بن مقلة ، وأبو القاسم سليمان بن الجرّاح ، وأبو جعفر الكرخىّ وأبوعبدالله البريدىّ ، وأبو الحسين أحمد بن محمد بن ميمون الأفطس[1] ، وأبو إسحاق محمد بن أحمد القراريطىّ الإسكافىّ وأبو العباس أحمد بن عبد الله الأصفهانىّ .

ووزَر للمستكفى أبو الفرج محمد بن على السريرىّ . قال الهمدانىّ : وصادره تُوزون على ثلاثين ألف دينار . وانتقلت الوزارة من كتّاب الخلفاء إلى كتاب الديلم ، فلم يخاطَبْ بوزير غيرُهم ، وكتب أبو أحمد الفضل بن عبد الرحمن الشيرازىّ للمستكفى ، وكتب أبو نصر إبراهيم بن الوزير أبى الحسن علىّ بن على بن عيسى للمطيع ، وكتب أبو الحسن علىّ بن جعفر الأصبهانى للطّائع ، وبعده أبو القاسم عيسى بن الوزير أبى الحسن علىّ بن عيسى وبعده أبو الحسن على بن عبدالعزيز بن حاجب النعمان ، وخوطب برئيس الرؤساء .

وكتب أيضا للقادر ، وبعده ابنه أبو الفضل ، وبعده أبو طالب محمد بن أيوب ولقب عميد الرؤساء .

وكتب أيضا للقائم وبعده رئيس الرؤساء أبو القاسم علىّ بن أبى الفرج الحسن بن مَسْلَمة ، وخوطب وزير أمير المؤمنين ؛ وهو الذى استدعَى الغَزِّالِىَّ إلى بغداد ، وأزال دولة بنى بويه .

ووزَر بعده للقائم أبو الفتح منصور بن أحمد بن داوست الشيرازىّ ، وهو أول مَنْ خوطب بالوزير لدار الخلافة فى الدولة السّلجوقية ، ووزَر بعده فخر الدولة أبو نصر محمد بن محمد بن جَهِير الموصلىّ .

ووزَر أيضا للمقتدى ، وبعده ولده عميد الدولة شرف الدين أبو منصور محمد ،

(١) ح ، ط : « الأخطس » ، وما أثبته من الأصل .

وعزل بالوزير أبى شجاع ظهير الدين محمد بن الحسين ، ثم عُزِل وأعيد عميد الدولة .
وقال أبو شجاع حين عُزِل :

تولّاهــا وليس له عدوٌّ ... وفارَقها وليسَ له صديقُ

ووزَر للمستظهر عميد الدولة ، وسديد الملك أبو المعالى الفضــل بن عبد الرزاق الأصبهانىّ ، وأخو عميد الدولة زعيم الرؤساء أبو القاسم علىّ بن محمد بن جَهِــير ، وأبو المعالى هبة الله بن محمد بن علىّ بن المطلب ، ونظــام الدين أبو منصور الحسين ابن أبى شجاع .

ووزَر للمسترشِد ابنه عضُد الدولة أبو شجاع ، وسنّه تسع عشرة سنة وستة أشهر ، ولم يل الوزارةَ أصغرُ مِنه ، وأبو نصر أحمد بن نظام الملك ، وعميد الدولة جلال الدين أبوعلىّ الحسن بن صَدقة ، وشرف الدين صَدر الإسلام أبو شروان بن خالد القاسانىّ ؛ وهو الذى كلّف الحريرى تصنيف المقامات ، وشرف الدين يمين الدلة أبو القاسم علىّ ابن طرادالزينبىّ العباسى ؛ قال الهمــدانىّ : ولم يِل الوزارة عباسىّ سواه ، ولقّب معزّ الإســلام عضد الإمام صدر الشرق والغرب وكذا قال ابن كثير : لا يعرَف أحــد من العباسيين باشرَ الوزارة غيره .

وأمّا الراشد فلم يرتّب لهوزير مراقبة للعسكرىّ ، وكان المتولى لأمره[1] ناصح الدولة بهاء الدين أبو عبد الله الحسين بن جهير أستاذ الدار إذ ذاك ، وجلس للمظالم فى بيت التوبة جلوس الوزراء ووزر له بالمعسكر جلال الدين بن نوشروان ، وما تمّت وزارته ، ووزَر له جلال الدين أبو الراضى بن صدقة .

ووزَر للمقتفى شرف الدين الزينبىّ ، ونظام الدين أبو نصر المظفّر بن الزعيم علىّ بن جهير ، وعون الدين أبو المظفر يحيى بن هبيرة ، وهو مصنّف كتاب الإفصاح ، وكان من خيار الوزراء وعلمــائهم ، وكان يبالغ فى إقامة الدولة العباسيّة وحسم مادة الملوك

(١) ح : « أمره » .

السلجوقية عنهم بكلّ ممكن ، حتى استقرّت الخلافة بالعراق كلّه ، ليس للملوك معهم حكم بالكلية ، ولله الحمد .

ووزَر للمستنجد بن هبيرة المذكور إلى أن مات سنة ستين وخمسمائة ، فوزر بعده شرف الدّين أبو جعفر ابن البلدىّ ، ولقّب جلال الدين معزّ الدولة .

ووزَر للمستضىء عضُد الدولة رئيس الرؤساء محمد بن عبد الله بن المظفّر ، وقيماز المستنجدىّ ، وعضد الدولة بن رئيس الرؤساء بن المسلَمة .

ووزَر للناصر أبو المظفر جلال الدين عبد الله بن يونس الحنبلىّ ، ومؤيد الدين أبو الفضل محمد بن على بن القصّاب ، وعز الدين أبو المعالى سعيد بن على بن حديدة الأنصارىّ ، ونصير الدين ناصر بن مهدىّ العلوىّ ، ومؤيد الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم القمّى .

ووزر للظاهر القمىّ هذا .

ووزَر للمستنصر القمىّ أيضا ، وشمس الدين أبو الأزهر أحمد بن محمد بن الناقد ، ونصير الدين العلقمىّ .

ووزَر للمستعصم نصير الدين محمد بن الناقد إلى أن مات سنة اثنتين وأربعين وستمائة. فلما مات استوزر مؤيد الدين أبا طالب محمد بن أحمد بن العلقمىّ ، وهو الوزير المشئوم على الخليفة ، وعلى بقية بنى العباس ، وعلى سائر المسلمين وعلى نفسه أيضا ؛ فإنه الذى مالأ التتار ، حتى قدموا وأخذوا بغداد ، وقتلوا الخليفة ، وجرى ماجرى ، وقال فيه بعضهم :

يافرقة الإسلام نُوحوا واندُبوا أسفاً على ماحلّ بالمستعصِمِ
دَسْتُ الوِزارة كانَ قبل زمانِه لابن الفرات فصار لابن العلْقمِى

وقال ابن فضل الله فى ترجمته : وزيرٌ وليته ماوزَر ، وارتفع رأسه وليته رُضّ بالحجَر ، كَمَن كمون الأرقم ، وسقى النّاس من كأسه العلقم .

* * *

وأما مصر فكانت إمْرة بلا وزارة إلى أيام السلطان أحمد بن طولون ، فعظُم أمرها ، ووزَر لخمارويه أبو بكر محمد بن رستم الماذرائىّ الكاتب .

ووزَر لكافور الأخشيدىّ أبو الفضل جعفر بن القرات المعروف بابن حِنْزابه .

ووزَر للمعزّ جوهر القائد .

وللعزيز أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلّس ، وكان يهوديًّا فأسلم ، وفوّض إليه الأمور فى سائر مملكته ، قال ابن زولاق : هو أوّل مَنْ وزَر للدولة العُبيدية بالديار المصرية ، وكان من جملة كتّاب كافور ، فلما مات حزن عليه العزيز حزنا شديدًا ، وأغلق الديوان أياما من أجله ، وكانت وفاته سنة ثمانين وثلثمائة .

ووزَر بعده نصرانىّ يقال له عيسى بن نسطورس ، ثم قُبض عليه .

ووزَر للظاهر أبو القاسم على بن أحمد الجرجرائىّ فى سنة ثمانى عشرة وأربعمائة إلى أن مات فى زمن المستنصر سنة ست وثلاثين ، فوزر بعده أبو نصر صدقة بن يوسف الفلاّحىّ ، وكان يهوديًّا فأسلم ، وفيه يقول الحسن بن خاقان الشاعر المصرىّ :

حِجابٌ وإعجابٌ وفرطُ تصلّفٍ ومدّ يدٍ نحو العلا بتكلّف
فلو كان هذا من وراء كفاية عذَرنا ولكن من وراء تخلّف

وكان معه أبو سعد التُّسترىّ اليهودى يدبر الدوله له ، فقال بعض الشعراء :

يهودُ هذا الزمان قد بلَغوا غاية آمالهمْ وقد ملَكوا
العزُّ فيهم والمال عندهمُ ومنهم المستشار والملِكُ
يا أهلَ مصرٍ إنى نصحتُ لكمْ تهوّدوا قد تهود الفلَكُ

ثم عزل الفلاّحىّ سنة تسع وثلاثين : ووزّر بعده أبو البركات الحسين بن محمد بن أحمد الجرجرائىّ ابن أخى الوزير صفىّ الدين ، ثم صرف فى شوال سنة إحدى وأربعين .

ووزر القاضى أبو محمد الحسن بن على البازورىّ مضافا لقضاء القضاة ، ولقّب الناصر للدين ، غياث المسلمين الوزير الأجل المكين سيّد الرؤساء تاج الأصفياء قاضى القضاة ، وداعى الدعاة ، وفى أيامه سأله للمستنصر أن يكتب اسمه معه على السّكة ، فكان ينقش عليها :

ضربت فى دولة آل الهدى　　من آل طه وآل ياسين

مستنصرٌ بالله جلّ اسمه　　وعبده الناصر للدين

« سنة كذا » ، وطبعت عليها الدنانير نحو شهر ، فأمر المستنصر ألّا تسطر فى السير. ثم عزل البازورىّ ، عن الوزارة والقضاء فى المحرم سنة خمسين .

ووزر أبو الفرج عبد الله بن محمد البابلىّ ، ثم صرف فى ربيع الأول من السنة .

ووزّر أبو الفرج محمد بن جعفر المغربىّ ، ثم صرف فى رمضان سنة اثنتين وخمسين .

وأعيد البابلىّ ، ثم صُرف فى المحرم سنة ثلاث وخمسين .

ووزَر أبو الفضل عبد الله بن يحيى بن المدبر ثمّ صرف فى رمضان .

ووزَر أبو محمد عبد الكريم بن عبد الحاكم أخو قاضى القضاة إلى أن مات فى المحرّم سنة أربع وخمسين .

ووزَر أخوه أبو علىّ أحمد مصروفا عن القضاء ، ثم صُرف فى شوّال ، وأعيد أبو الفرج البابلىّ ، ثم صرف فى المحرّم سنة خمس وخمسين .

وأعيد أبو علىّ أحمد بن عبد الحاكم ، مضافا للقضاء ، ثم صُرف فى صفر ، وأعيد أبو الفضل بن المدبّر ، فمات فى جمادى الأولى من السنة .

ووزَر أبو غالب عبد الظاهر بن الفضل بن الموفّق المعروف بابن العجمى ، ثم صُرف فى شعبان .

ووَزَر الحسن بن مجلّى بن أسد بن أبى كدينة مضافا للقضاء ، ثم صرف فى ذى الحجة .

ووَزَر أحمد بن عبد الحاكم مضافاً للقضاء ، ثم صُرِف فى المحرّم سنة ست وخمسين .

ووَزَر أبو المكارم المشرف بن أسعد بن عقيل ، ثم صرف فى ربيع الآخر .

وأعيد أبو غالب عبد الظاهر ، ثم صرف فى رجب .

ووَزَر أبو البركات الحسين بن عماد الدولة بجرجراى ، ثم صُرِف فى رمضان وأعيد الحسن بن مجلّى ، ثم صرف فى ذى الحجة .

ووَزَر أبو علىّ الحسن بن أبى سعد إبراهيم بن سهل التُّستَرىّ ، ثم صرف .

ووَزَر محمد بن جعفر المغربىّ ثم صُرِف .

ووَزَر جلال الملك ثم صُرِف .

ووَزَر خطير الملك بن الوزير البازورىّ ، ثم صرف وأعيد ابن أبى كدينة ، ثم صرف فى سنة ست وستين .

وولى الوزارة التُّستَرِىّ ، ثم صرف فى نصف المحرم سنة سبع وخمسين .

ووَزَر أبو شجاع محمد بن الأشرف أبو غالب محمد بن علىّ بن خلف ، ثم صُرِف ثانى يومه عنها ، وأعيد ابن أبى كدينة ، ثم صُرِف بعد أربعة أيام .

وأعيد أبو شجاع بن الأشرف ، ثم صرف فى نصف ربيع الأوّل .

ووَزَر سديد الدولة أبو القاسم هبة الله بن محمد الرحبىّ ، ثم صُرِف فى ربيع الآخَر .

وأعيد ابن أبى كدينة ، ثم صُرِف فى رجب .

وأعيد أبو المكارم المشرف ابن أسعد ، ثم صُرِف فى شوال .

ووزر الأمير أبو الحسن على بن الأنبارىّ ، ثم صرف فى ذى الحجة .

وأعيد سديد الدولة هبة الله ، ثم صُرِف فى ربيع الآخر سنة ثمان وخمسين .

ووزَر جلال الملك أحمد بن عبد الكريم مضافًا للقضاء ، ثم صُرِف بعد أيام

ووزَر أبو الحسن بن طاهر بن وزير، ثم صُرِف بعد أيام .

ووزَر أبو عبد الله محمد بن أبى حامد التنسى يومًا واحدا ، ثم صُرِف .

ووزَر أبو سعد منصور بن زنبور ثم هرب بعد أيام .

ووزَر أبو العلاء عبد الغنى بن نصر بن سعيد ، ثم صُرِف بعد أيام .

وأعيد ابن أبى كدينة .

ووَلِىَ الوزارة أمير الجيوش بدر بن عبد الله الجمالى ، وإليه تنسب قيساريّة أمير الجيوش ، والعامة يقولون « مرجوش » ، وهو بانى الجامع الّذى بثغر الإسكندرية بسوق العطارين ، فأقام إلى أن مات سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ، فقام فى الوزارة ولدُه الأفضل أبو القاسم شاهنشاه ، فوزَر للمستنصر بقيّة أيّامه وللمستعلى وصدراً من ولاية الآمر ، ثم إنه قتل ، ضربه فداوى وهو راكب ، وذلك فى رمضان سنة خمس عشرة وخمسمائة. قال ابن خلكان : وترك من الأموال مايفوق العدّ من ذلك من الذهب العَين ستمائة ألف ألف دينار ، ومن الفضة مائتين وخمسين أردبا ، وسبعين ألف ثوب ديباج أطلس ، ودواة ذهب فيها جوهر باثنى عشر ألف دينار ، وخمسمائة صندوق للبس بدنه ، وصندوقان كبيران فيهما إبر ذهب برسْم النساء ، ومن سائر الأنواع مالا يَعلم قدره إلا الله .

وقام فى الوزارة مكانه أبو عبدالله محمد بن مختار بن بابك البطائحىّ ، ولقّب المأمون، وهو بانى الجامع الأقمر ، وله صنّف الإمام أبو بكر الطرطوشى كتاب سراج الملوك ، ثم قَبَض عليه الآمر ، وقتله فى سنة تسع عشرة .

وقام فى الوزارة أبو علىّ بن الأفضل ، ولقِّب أمير الجيوش، فلما ولِىَ الحافظ استحوذ الوزير على الأمور دونه ، وحصر الحافظ فى موضع لايدخل عليه إلا من يريده ، ونقل الأموال من القصر إلى داره ، ولم يبق للحافظ سوى الاسم فقط ، ودعا لنفسه على المنابر

بناصر أيام الحق ، هادى العصاة إلى اتباع الحق ، مولى الأمم ، ومالك فضيلتى السيف والقلم . وخطب للمهدى المنتظر آخر الزمان ، فلم يزل كذلك إلى أن قُتل فى العشرين من المحرّم سنة خمس وعشرين ، قتله مملوك أفرنجىّ للحافظ بأمره .

واستوزر بعده مملوكه أبا الفتح يانس الحافظىّ ، ولقّب أمير الجيوش أيضا ، ثم تخيل منه الحافظ ، فدسّ عليه من سَمّمه فى ماء الاستنجاء ، فمات .

واستوزر بعده ابنه الحسن - أعنى ابن الحافظ الخليفة - وكان ولىّ عهد أبيه ، فأقام ثلاثة أعوام ، يظلم ظلما فاحشا ؛ حتى إنه قتَل فى ليلة أربعين أميرا ، فخافه أبوه ، فدسّ عليه مَنْ سمّه ، فهلك فى سنة تسع وعشرين .

ثم استوزر بهرام الأرمنى النصرانىّ ، ولقّب تاج الدولة ، فتمكّن فى البلاد ، وأساء السيرة ، فقبض عليه الحافظ ، وسجنه .

واستوزر بعده رضوان بن الوحشىّ ، ولقبه الملك الأفضل ، ولم يلقّب وزير بذلك قبله ، ثم وقع بينه وبين الحافظ ، فقتله سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، واستقلّ بتدبير أموره وحده من غير وزير .

فلمّا وَلِىَ الظافر سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، استوزر أبا الفتح بن فَضالة بن المغربىّ ، ولقّب أمير الجيوش ، فأحسن السيرة ، ثم قُتل سنة خمس وأربعين .

ووزر ابن سلّار ، ولقب الملك العادل ، ثم قُتل من عامه .

ووزر أبو نصر عباس الصّنهاجىّ ، فدسّ عليه الظافر مَنْ قتله فقُتِلَ هو أيضا .

فلما أقيم الفائز وزَر له طلائع بنُ رزّيك ، وتلقّب بالملك الصالح ، وهو صاحب الجامع بجوار باب زُويلة ، وخلع عليه مثل الأفضل أمير الجيوش بدر الجمالى من الطّيلسان المقوّر ، وكتب له تقليد من إنشاء الموفق أبى الحجاج يوسف بن على بن الخلّال وهذه صورته :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فالحمدُ لله المنعم على المخلصين من أوليائه بسوابغ

آلائه ، والمتكفّل لمن نصره بنصره وتثبيت قدمه وإعلائه ، الممهّد لمن قام بحقّه أرفع مراتبَ الدنيا والآخرة ، والموضّح لمَنْ حامى عن الدولة الفاطمية آياتِ التأييد الباهرة ، والجامع القلوبَ على طاعة مَنْ أطاعه فى الدفاع عن أهل بيت نبيّه ، والمحسّن إلى من أحسن إلى مهجته غيْرة لأئمة الهدى المصطفَيْن من عترة وصيّه ، والمذلّل الصعاب لمن رفع راية الإيمان ونَشَرَها ، والميسّر الطّلاب لمن أحيا كلمةَ التوحيد وأنشرها ، ممّن أحبَّ الله ورسوله ممّن اصطفاه من أبرار عباده ، والماحى إساءة من أعلن ببيان الحق وجهر بعباده ، والمعرض مَنْ أسعده بالسبق إلى مرضاته ، لنيل غايات المنّ الجسيم والمرتّب مَنْ جاء فى ذاته ، فى أرفع مراتب الإجلال والتفخيم ، والموجب لمن أخلص منه وأحسن عملا تعجيل مقام الفخر الكريم ، وتأجيل الخلود فى النعيم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

والحمدُ لله الّذى أوضح أنوار الحقائق بأنبيائه الهُداة ، وأبان برسله الأمناء لعباده مناهج النجاة ، وجعل العمل بمراشدهم ذريعةَ الموقنين إلى علىّ المنازل ورفيع الدرجات ، وختمهم بأفضلهم نفساً ومحتدا ، وأحقّهم بأن يكون لكفاتهم سيّدا ، محمد هادى الأنام ، والداعى إلى الإسلام ، والمخصوص بانشقاق القمر وتظليل الغمام ، وأورث أخاه وابنَ عمّه باهر شرفه وبارع علمه ، وأفرده بإمامة البشر وخَصّ ، وأقرّها فيه فى عقبه إلى يوم القيامة بجلىّ النصّ ، فأصبحت الإمامة للملة الحنيفيّة قواما ، ولأسباب الشريعة بأسرها نظاما ، ونقل الله نورها فى أئمة الهدى من نسله فتناولها الآخر من الأوّل ، وتلقاها الأكمل عن الأكمل ، فكلّما رام معاند بخيف نورها ، أو قصد منافق إخفاء ظهورها ، زاد أنوارها إشراقا ، ووجد لبدورها كمالاً واتّساقا ، ومكّن قواعد دولتها وإن زحزحها الغادرون ، وأحكم معاقدها وإن جهد فى حلّها الماكرون ، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متمّ نوره ولو كره الكافرون .

والحمد لله الذى حفظ بأمير المؤمنين نظام الخلافة واتساقها ، وحمى لميامنه دوحة الإمامة وأبقى نضرتها وإبراقها ، وأورث خصائص الأئمة الراشدين فى آبائه ، وأودعه سرائر دينه المصونة فى صدور أنبيائه ، وأيده بموارد الإرشاد والإلهام ، وجعل طاعته فرضاً مؤكدا على كافة الأنام ، وخصه بالتوفيق والعصمة ، وأفاض للأمة به سجال الرحمة. وأبرم بأمانته أمر المِلّة ، وأحكم معاقد الدين ، وجعله من هداته ، قال جل وعلا فيهم : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أئمة يهدُون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾ .

يحمَده أمير المؤمنين على مانقلَه إليه من خصائص آبائه الأئمة الأطهار ، وأيده به فى أنصار دعوته من العلوّ والاستظهار ، واتخذه به من جنود السماء والأرض وأظهرَ له من معجزاته وآياته ، وأظهر بمزيته من مظاهر الظفر لألويته وراياته .

ونسأله أنْ يصلِّيَ على جده محمد نبيه الأمين ، ورسوله المبعوث فى الأميين ، الهادى إلى جنات النعيم ، والمحيطة متابعته بالفوز العظيم ، الذى جلَى الله ظلمات الجهالة بمبعثه ، وشرّف الأئمة من ذريته بمقامه وموروثه ، وردّ النافر إلى الطاعة بالبرّ والإيناس ، وجعله خيرَ رسولٍ إلى خيرِ أمّةٍ أخرجت للناس .

وعلى أخيه وابن عمه أبينا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب قسيمه فى المناسب والفضائل ، وثالثه فى تشفيع الذرائع والوسائل ، ومفرّج الكرب عنه بموازرته وصدق كفاحه ، وباب مدينة عِلْمِهِ الذى لا يوصَل إليه إلا باستفتاحه ، وعلى الأئمة من ذريتهما الذين بلّغ الله بهم الأربَ والسؤال ، وأغنى الأئمة بهداهم عن التقفية بعده برسول ، والعترة المصطفين ، وأحد الثقلين ، وبحار العلم الزاخره ، والمرجوّين لصلاح الدنيا والآخرة ، وسلّم ومجّد ، ووالَى وردّد .

وإن أمير المؤمنين لِمَا مهّده الله من ذوى الشرف الباذخ ، وحازه لمنصبه من الفخر

الأصيل والمجد الشامخ ، وأفرد به من خلافته على العالمين ، وأورثه إيّاه من غوامض الحكم التى لا يعقلها إلا أعيان العالمين ، وحباه به من ضروب الوجاهة والكرامة ، وأفاضه عليه من أنوار الإمامة ، وواصله[1] إليه من العناية الشاملة والبرّ الحفىّ ، وجمعه له من الإحسان الجلىّ واللطف الخفىّ ، وأقرّه من مواهب الفضل والإفضال لديْه ، وجعل فى كلّ حركة وسكون دليلا واضحا يشير إليه ، يقدّر نعم الله حق قدرها ، ويُواصل العكوفَ على الاعتداد بها ونشرها ، ويبالغ فى شكرها قولاً وعملا ونيّة ، ويجهد نفسه فى حمدها اجتهاداً يرجو به دَرْك الأمنيّة . ويتحقق أن أسماها محلاّ وقدرا ، وأولاها على كافّة البرية ثناء وشكرا ، وأعلاها قيمة ، وأعمّها نفعا وأعذبها ديمة ، وأجمعها لضروب الجذل والاستبشار ، وأجدرها بأن تؤثر فى الأمم أحسن الآثار ، وأوسعها فى مضمار الاعتداد مجالاً ، وأعظمها على الرئيس والمرءوس نفعا وجمالا . النّعمة بك أيها السيد الأجلّ والتغوّث والدعاء إذْ كنت نجدة الله المذخورة لأمنائه على خلقه ، والقائم دون البرية بما افترضه عليهم من مظاهرة أمير المؤمنين والأخذ له بحقّه ، واللطف الذى كان من الإمامة ومن إعدامها حاجزا ، والنّصر الذى أصبح به أمير المؤمنين بعون الله فائزا ، وحزب الله القاهر الغالب ، وشهاب أمير المؤمنين الصائب الثاقب ، وظلّه الذى يفىء على العام والخاصّ ، ومنهل فضله الذى يصفو ويعذب لذوى الولاء والإخلاص ، وسيفه الذى يستأصل ذوى الشقاق والنفاق ، ويده التى ينبعث منها ينابيع العطاء وسحائب الأرزاق ، والولىّ الذى ارتضاه أمير المؤمنين للمصالح كفيلا ، والصفىّ الذى لا تبغى دولته عن موازرته تبديلا ولا تحويلا .

فعلوّ قدرك عند أمير المؤمنين لا ينتهى إلى أمدٍ محدود ، وقيامك فى الأخذ بحقّه يتجاوز كلّ سعى مبرور ومقام محمود ، ودعاؤه بنصرك الله فى طاعته يصفو عنده كل

(١) ح : « وأوصل إليه » .

عظيم فى مجافاتك ، وشفاؤك صدر أمير المؤمنين من أعدائه ، أعجز القدرة عما يشفى غايله فى إحسان مجازاتك .

ولقد حزتَ من المآثر مافقتَ به أهلَ عصرك قدَما وسبقا ، وسموت بجمالك إلى ذوى مجد لا تجد الهمم العلية إلى تمنّيها مرقا ، ومازلت فى كلّ أزمنتك سلطانا مهيبا ، وفردا فى المجالس لا تدرك له الأفكار ضريبا ، ومطاعاً تبارك بأنبائه الأندية والمحافل، وهماما تخضع باسمه المهائب وتُذعن الجحافل ، وسيدا تلقَى إليه مقاليد التقدمة والسيادة ، ومعظّما ليس على ماخصه الله به من التعظيم موضع الزيادة .

وكشف الله أمرَك فى الولاء فدعاك الأئمة ظهيراً ، وزاد فى إنعامه على الأمّةفارتضاك لهداة أهل بيته معينا ونصيرا ، ووفّر نصيبك من الفضائل والمناقب فوهبك منها ماأفاضه عليك سرفا ، وأحظى الملوك بتمكّنك منهم وكونك لهم نخراً وشرفا ، فلا رتبة علاء إلا وقد فَرعتها منزلاً ، ولا منزلة سناء إلّا وقد سموتَ إليها منتقِلا ، ولا مزية فضل إلا احتويت عليها وحزتَها ، ولا منزلة نخر إلا طُلتَها بفضائلك وجزتها ، ولا مأثرة إلا وكنت فاتح بابها ، ولا منزلةً خطيرة إلّا وأنت مستوجبها وأولى بها . ولا سماة مجد إلا وخصائلك طالعة فى آفاقها أقمارا ، ولا موقف فضل إلا ولك فيه تقدّم لا تنازَع فيه ولا تمارَى ، فما يُوجد مقدم إلا وقد فضلتَه بآثارك وتقدّمتَه ، ولا مميز إلا أسمته فى جَناب فضلك ورسمتَه .

تقلّدت جلائل الأمور فابستَها نباهة وتقويما ، وباشرتَها فأحرزت بمناقبك جلالة ووجاهة وتفخيما ، تجرجرُ بك الرّتب أذيال الفخر والإجلال ، وتُزْهَى بأفعالك التى يبعث عليها ما أوتيتَه من شرف الجلال .

ولم تزل تدابير أولياء الدولة ورجالها بفضائل سياستك فتثبّت لهم الأقدام ، وتكسبهم عزّة النفوس فيستهينوا فى حق الانتصار بك بملاقاة الحِمام .

(حسن المحاضرة ١٤ / ٢)

ورمَى الله بك طغاة الـكفّار بتأييد الإسلام ، واختارك للمجاهدة عن الملّة فأصبحتْ بك مرفوعة الأعلام ، وأبدت الأعداء الجوامع الباكيات من المحايد والمخلوف وأعمال الحسام : فلو تراخَى بك الأمل فى جهادهم لـكنتَ لجلبهم مستأصلا ، ولغدوت لهم عن الأعمال السامية بعرفانك فاضلا ، فأثرك فيهم الأثر الذى لم يبلغه مجـاهد ، وما قالت فى هامهم من حدّ العضب الصارم بباسل ناطق وبجدل شاهد .

فما يبلغ التّعـداد ماجمعتَه من المناقب والفضائل ، ولا يستولى الإحصـاء على مالك من المفاخر التى لايحيط بهـا أحدٌ مِن الملوك الأوائل ، فتجمع زُهد الأبْدال إلى هِمَم الأكاسرة ، وتوفّق فى أعمالك بين ما يقضِى بصلاح الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، فأنت البرّ التقىّ النقىّ الحسيب ، الطاهر المبرّأ من كل دنس وعيب ، والمرضِى خالقَه بالأفعال التى لاينجو بها لبْس ولا ريْب ، وواحد الدنيا لايسامَى ولا يطاوَل ، والملك الأوحـد الذى برعت أدوات كاله فما يشابَه ولا يماثَل .

جعلتك الفضائل غريباً فى الأنام ، وخصّك الحظّ السعيد بفطرة تهرب فتهرب أن تأتِىَ بمثلها الأيام ، وحويتَ من الأخلاق الملوكيّة ماقصّر بعظماء الملوك عن مجـاراتك ، واقتنيت من الحـكم والمعارف ماجعل كافة العلماء مفترقين بعظم فضيـلة ذاتك ، وقرنت بَيْن مَنْ عزُّه إذفرار البيت ولطافة حكم القلم ، وكاثرت فيك المعجزات لجمعك ما افترق من مفاخر الأمم .

فمـا أشرف ما أفردك الله به من كمال الشجاعة والبراعَة ، وتوحّدك بمجده من معجزات تصنيف الصارم واليراعة ، فسيفك مؤيّد فى قطّ العضو والهام ، وقلمك ماضٍ فى البلاغتين مضاءً لايُدرَك إلا بالإلهام ، فـكم مقام جلال وجلاد فرّجْتَه بعضب وبنان ، وموقف خطاب وضِرَاب كشفتَ غمتّه بسنّ قلم وسنان .

فسبحان من أفردك باستـكمال المـآثر ، وجمَع لك من المحاسن ما أعجز وصفَه جهـد

الناظم والناثر ، وآتاك غاية شرف النفس وكرم الأصل ، ومكّنك من كلّ منقبة بإحراز السبق وإدراك الخصل ، وأطلعك من أفق علاء نـكاثرت سعوده ، واستخلصك من منصب سناء سما فأعجز النجم صعوده ، وانتخبك من بيتِ عزٍّ غدت دعائمه لذات السمهريّة وظلاله صَفَحات القبض المشرفيّة ، وحشاياه صهوات الجُرْد الأعوجيّة .

ولقد كان وقع التحامل على الحضرة ببعدك عن فنائها ، وحسدت على قربك منها لما يُعلم من متابعتك لها ، وأغْراقك فى ولائها ، وحاد بك عن موضعك من الاختصاص بها مَنْ قَصَد اهتضامها ، وأفسد لسوء عقيدته نظامها ، وصَلَها على أنك لم تخل بنصرتها على بعد الدار ، بل نصرتَ الحقّ حيث كان ودُرت معه حيث دار . وقد كان أمير المؤمنين حين أبهمت الأمور ، وحرِجت الصدور ، وحارت الألباب ، واستشرف للارتياب ، يرجو من الله أن يفجأه منك بالفـرج القريب ، ويُصمِى أعداءه من عزمك بالسّهم المصيب ، واستجاب الله دعاءه فيك بمـا ماثل دعاء جده رسول الله صلى الله عليـه وسلم وضاهَى ، وحصل فى ذلك على معنى قوله تعالى: ﴿ قد نَرَى تقلُّبَ وجهكِ فى السماء فلنولينّك قِبلة ترضاها ﴾ .

ولمّا أذهب الله بك أيها السّيد الأجـلّ الملك الصالح عن دولة أمـير المؤمنين غايات العيّ ، وأدرك بها ثار أولياء الله من ذوى المباينة والبغى ، وأنجسن له الصنيع بموازرتك ، وبلّغه مظافرتك ومكانفتك لما أحاط الخبرة بأرجائه ، وفقه من التعوّيل عليك لما كان غاية رجائه ، فقلدّك من وزارته ، وفوّض إليك تدبير مملـكته وكفالته ، وجعلك إمارة جيوشه الميامين ، وكفالة قضاة المسلمين ، وهداية دعاة المؤمنين ، وتدبير ماهو مردود إليهم من الصلاة والخطابة وإرشاد الأولياء المستجيبين ، والنظر فى كل ماأغدقه الله من أمور أوليائه أجمعين ، وجنوده وعساكره المؤيدين ، وكافّة رعاياه بالحضرة وجميع أعمـال المملـكة دانيها وقاصيها ، وسائر أحوال الدولة باديها وخافيها ، وكلّ ماتنفذ فيه أوامره ،

تَبووح بشعاره منابره . وردّ إليك تدبير ماوراء سرير خلافته ، وسياسة ماتحتوى عليه أقطار مملكته ، وألقى إليك مقاليد البسْط والقبض ، والرفع والخفض ، والإبرام والنقض ، والقطع والوصل ، والولاية والعزل ، والتصرّف والصَرْف ، والإمضاء والوقف ، والغضّ والتنبيه ، والإخمال والتنويه ، وجميع مايقتضيه صواب التدبير من الإنعام والإرغام ، وما توجبه أحكام السياسة من الإباء والإتمام ، تيمّناً بما يحقق مبالغتك فى متابعته ، واجتهادك فى إعلامنا ودعوته ، وعلماً بأن التوفيق لايعدو وراك ، والمسعود لايفارق أنحاك .

فتقلّدْ ماقلدك أميرُ المؤمنين من هذه الرتب العالية ، والمنزلة التى قرّب عليك تناولَها أعمالك الزاكية ، والمنصب الذى تحكم [1] فيه بأمر أمير المؤمنين وتنطق بلسانه [2] ، وتبطش [3] بيده وتحبّ وتبغض بقلبه وجَنانه ، جارياً على رسمك فى تقوى الله وخشيته ، واتّباع مرضاته واستشعار رجعته ، ومنتجزاً ماوعد به فى كتابه ، إليه ينتهى الحكم [4] وينتسب [5] ، إذ يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ [6] .

والعساكر المنصورة فهم أشياعُ الدين ، وأعضاد دولة أمير المؤمنين ، وأبناء دعوة آبائه الرّاشدين ، والقائمون بمدافعة الأعداء عن حَوْزة الدولة العلويّة ، والمدّخَرون لكفاح المباين للمملكة الفاطميّة ، والمنادون بشعارها فى كلّ وقت وحين ، والمَعدّون للذبّ عن بيضة المسلمين وأنصار الخلافة ، وطاردو الوجل والمخافة ، المصطلون نيرانَ الحرْب والكِفاح ، ذوو القلوب فى المواقف التى تهتزّ فيها السيوف وتضطرب كعُوب

---

(١) ط : « يحكم » ، بالمبنى المجهول .
(٢) ط : « وينطق » .
(٣) ط : « وتبطن » .
(٤) بعدها فى ط : « إليه » .
(٥) ح : « وينسب » .
(٦) سورة الطلاق ٢ .

الرماح ، والممنوحون مزيّة اللطف لحسنِ معتقَدهم فى الطاعة ، والمستعمِلون فى خدمة ولىّ نعمتهم جهد الطّاقة والاستطاعة .

ومنهم الأمراء الأكابر ، والأعيان الأخاير[1] ، وولاة الأعمال وسَداد الثّغور ، واللائقة بهم سوامى الرُّتب ومعالى الأمور ، والأوليـاء الّذين سلمت موالاتُهم من الشوائب ، واشتملوا على غُرَر المـآثر والمناقب ، والأنجاد الذين يندفع بهم الخطْب الملمّ ، والـكفاة الذين يتسرّعون إلى ما يندَبون له من كلّ مهمّ ، وما زالت تحسُن لهم الوساطة فى المحضر والمغِيب ، ويشيع ذكرهم بما يتضوّع نشرُه ويطيب ، وتسفر لهم بما يَبْلُغون به آمالهم ، وتجتهد فى توفير المنافع عليهم وتحرص على إيصالِها لهم ؛ لا سيّما الآن وجميع أمرهم إليك مردود ، وقد ظهر لك من إخلاصهم فى الطّاعة مقامهم المشهور وسعيهم المحمود ؛ فهم خليقون منك بمضاعفة المـكرُمة والتبجيل ، جديرون بتوفير حظّهم من الإحسان الجزيل .

فتوخَّ كلًّا منهم بما يقتضيه له حالُه ، وتستدعيه نهضته واستقلالُه ، وتعرب لهم عمّا يمنّون به عن محض طاعتهم ، وصريح مسابقتهم ، وتسرّعهم إلى مقارعة الأعـداء والمخالفين ، وتمسّـكهم بحبل الولاء المتين .

فأمّا القضاة والدّعاة فأنتَ كافلُهم وهاديهم ، وعلمُك محيطٌ بقاصيهم ودانيهم ، وتأنّيك[2] يبعثك على استكفاء إعفائهم ودياناتهم ، ويمنعك من استعمال المفضولين فى علم وأمانة ، ويحضّك على التعويل على ذوِى النّزاهة والصيانة .

فأمّا الأموال وهى عماد الدّول وقِوامُها ، وبها يكون استثبات أمورها وانتظامها ، ويُستعان بها على الاستكثار من الرجال والأنصار ، وبوفورها تقوم المهابة فى نفوس مماليك

---

(١) ط : « الأجابر » . (٢) ح : « وتأتيك » .

الأطراف والأمصار : وأمير المؤمنين يرجو أنْ تتضاعف بنظرك ، وتنمى لفاضل سياستك وحمد أثرك ، تتسع بإذن الله فى أيامك العمارة : وتتوافر بما يعمّ الأعمال بحسن تأنيك من البهجة والنضارة .

والرّعايا فهم ودائع الله عند مَن استحفظ أمورَهم ، وعياله الّذين يتعينّ على ولاة الأمر أن يشرحوا بالرّعاية صدورَهم ، وتأكيد الوصايا بتخفيف الوطأة عنهم ، والأمر بالعدل والإحسان على الصغير والكبير منهم ؛ وقد خصّك الله بالكمال ، وحبّب إليك الإحسان والإجمال، بغايات تنتج لك من أبواب المصالح ما لا تحيط به الوصايا ، ويشترك فى عائدة نفعه الخواصّ والأجناد والرعايا . وقدرُك يجلّ أن نُكثِر لك بالقول ما نبتدع أضعافه بأفعالك المستحسَنة ، ومحلُّك مرتفع عن التنبيه إذ لا تلمّ بعين رعايتك إغفاءةٌ[1] ولا سِنة .

والله سبحانه يؤيّد الدولة العلويّة بعزَماتك الثاقبة ، ويعيد عليها حقوقها بسيوفك القاضبة وآرائك الصائبة ، ويجعل أمَد عمرك مديداً ، وإقبالك فى كلّ وقت جديدا ، وأعمالك مُرتضاة عند الله متقبّلة، ووفود المُنا إلى جَنابك متوالية مقبلة ، فاعمل به إن شاء الله تعالى .

وكتب أمير المؤمنين الفائز على طرّة السجل بخطه ما نصه : « لوزيرنا السيّد الأجلّ الملك الصالح من جلالة القَدْر ، وعِظَم الأمر وفخامة الشأن ، وعلوّ المكان ، واستحباب[2] الفضل واستحقاق غاية المَن الجزيل ، ومزية الولىّ الذى بعثه على بذل النفس فى نصرتنا ، ودعاه دون الخلائق إلى القيام بحقّ متابعتنا وطاعتنا ، ما يبعثنا على التبرّع له ببذل كلّ مصُون ، والابتداء من ذاتنا بالاقتراح له كلّ شى يسرّ النفوس ويقر العيون . والّذى

(١) ط : « أغواك » ، تحريف سوابه من الأصل .
(٢) ط : « واستيجاب » .

تضمنه هذا السجلّ من تقريظه وأوصافه ، فالذى تشتمل عليه ضمائرنا أضعاف أضعافه :
وكذلك شرّفناه بجميع التدبير والإنالة ، ورفعناه إلى أعلى رتب الاصطفاء بما جعلناه له من الكفالة ، والله تعالى يعضُد به دولتنا ، ويحوط به حوزتنا ، ويمدّه بموادّ التوفيق والتأييد ، ويجعل أيّامه فى وزارتنا ممنوحة بآيات الاستمرار والتأبيد ، إن شاء الله تعالى .

قلت : كانت الوزارة قديمًا تعدل السلطنة الآن ، فإن الوزير كان نائب الخليفة فى بلده ، يفوّض إليه جميع أمور المملكة ، وتولية مَنْ رآه من القضاة ونواب البلاد وتجهيز العساكر والجيوش وتفرقة الأرزاق ، إلى غير ذلك مما هو الآن وظيفة السلطان وكان الوزير يلقّب بألقاب السلطنة الآن كالملك الصالح ونحوه ، وقد تقهقر أمر الوزير حتى قال بعض وزراء القرن السابع : الوزير الآن عبارة عن « حوش كاش عفش » يشترى اللحم والحطب وحوائج الطعام . والأمر كما قال .

***

وأقام ابن رُزِّيك وزيرا إلى أن قتِل فى رمضان سنة ست وخمسين فى خلافة العاضد ، وكان العاضد والفائز كلاهما تحت حجره، فأقيم بعده فى الوزارة ابنه رزِّيك ، ولقّب العادل ، فأقام فيها سنة وأياماً ، وقتل .

ووزَر بعده شاوَر بن مجير أبو شجاع السعدىّ ، ولقّب أمير الجيوش ، وهو الوزير المشئوم الذى يضاهيه فى الشؤم العلقمىّ وزير المستعصم ؛ فإنّ هذا قد أطمع الفرنج فى أخذ الديار المصرية ، ومالأهم على ذلك ، كما أنّ العلقمىّ هو الذى أطمع التتار فى أخذ بغداد، إلا أن الله لطف بمصر وأهلها ، فقيّض لهم عسكر نور الدين الشهيد ، فأزاحُوا الفرنج عنها ، وقُتِل الوزير شاوَر بيد صلاح الدين يوسف بن أيوب ؛ وقال بعض الشعراء فى ذلك :

هنيئاً لمصرٍ حَوْزُ يوسف ملكَها ... بأمرٍ من الرّحمن قد كان موقوتا
وما كان فيها قتلُ يوسفَ شاوَراً ... يماثل إلا قتلَ داودَ جالوتا

وكان قتل شاوَر فى ربيع الآخر سنة أربع وستين .

و ولِىَ الوزارة بعده الأمير أسد الدين شيركوه ؛ ولقّب الملك المنصور ، لقّبه بذلك العاضد ، فأقام فيها شهرين وخمسة أيام ، ومات فى جمادى الآخرة .

فاستوزر العاضدُ بعده ابنَ أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ولقّب الملك الناصر ، وقد تقدّم ذكر الخليعة التى لبسها يومئذ .ثم إن صلاح الدين أزال دولة بنى عُبيد ، وأعاد الخطبة لبنى العباس فى أوّل سنة سبع وستين ، فصار لمصر أميراً بعد أن كان وزيراً .

وجعل وزيره القاضى الفاضل محيى الدين عبد الرحيم البَيْسانىّ ، فاستمرّ وزيرا له ، ولولده الملك العزيز ، ولولد العزيز الملك المنصور ، إلى أن مات سنة ست وتسعين وخمسمائة .

فوَزَر بعده للعادل صفىّ الدين بن شكر الدّميرىّ ، إلى أن عزِل سنة تسع وستمائة .

ووَزَر للكامل ابن شكر أيضا والحسن بن أحمد الديباجىّ .

ووَزَر للصالح جمالُ الدين علىّ بن جرير الرّقىّ ومعين الدين الحسن بن صدر الدين شيخ الشيخ ، وأخوه فخر الدين يوسف ، والقاضى بدر الدين السّنجارىّ والقاضى تاج الدين بن بنت الأعزّ .

ووَزَر لشجر الدّر فى دولتها بهاء الدين علىّ بن محمد بن سليم المعروف بابن حَنّا .

ووزَر للمعزّ الأسعد ـ بل الأنحس الأشقىّ ـ هبة الله بن صاعد الفائزىّ ، وكان هذا أوّل شؤم الأتراك فى مملكتهم ، أن عدلوا عن وزارة العلماء إلى الأقباط والمَسالِمة ، وكان الأسعد هذا نصرانياً فأسلم ، فلمّا تولى الوزارة أحدث مكوساً ومظالم كثيرة على نَحْو ما كانت فى أيام العُبيديين ووزرائهم النصارى والرافضة ، وقد كان السلطان صلاح الدين رحمه الله أبطلَها فأحدثها هذا الملعون ، وقد قال فيه بعضهم :

لَعَن الله صاعدًا وأباه فصاعِدًا
وبنيهِ فنازِلًا واحداً ثم واحدًا

ولمّا قُتل المعزّ ، وقبِض على ولده المنصور ، أهين الأسعد هذا ، ثم قُتِل فى سنة خمس وخمسين .

ووَلِىَ الوزارة للمظفّر بعده القاضى بدر الدين السِّنجارىّ مضافا لقضاء القضاة ، ثم صُرِف من عامِه عن الوزارة .

ووليَها القاضى تاج الدين بن بنت الأعزّ ، ثم صُرِف فى ذى القعدة سنة سبع وخمسين .

***

ووزَر زينُ الدين يعقوب بن عبد الرفيع المعروف بابن الزّبير ، فأقام إلى أيّام الظاهر بيبرس ، فعزله عن الوزارة فى ربيع الآخر سنة تسع وخمسين ، واستوزَر بعده الصاحبَ بهاء الدين ابن حنّا ؛ فأقام وزيرا إلى أن مات الظاهر ، وتولّى ولده الملك السعيد، فأقرّه على الوزارة ، وكتب له تقليدا من إنشاء القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر . وهذه صورته :

الحمد لله الذى وهب هذه الدّولة القاهرة من لدنْه وليًا ، وجعل مكان سرّها وشدّ أزرِها عليًّا، ورضىَ لها مَنْ لم يزل عند ربِّه مرضيًّا .

نحمَده على نعمِه التى أمسيَ بنابرِّه حفيًّا ، ونشكره على أن جعل دولتنا جنّة أورث تدبيرها مِنْ عباده مَنْ كان تقِيًّا .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة نسبِّح بها بكرة وعشيًّا ، ونصلّى على سيدنا محمد الذى آتاه الله الكتاب ، وجعله نبيًّا، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة نتّبع بها صراطا سويًّا .

وبعد ، فإنّ أوْلى ماتنغّمتْ به ألسنة الأقلام بتلاوة سُوَره ، وتنعمّت أفواه المحابر

بالاستمداد لتسطير سيَره، وتناجت الكرام الكاتبونَ بمجمَله ومفصَّله، وتناشدت الرُّواة حسنَ نسيبه وترنمت الحداة بطيب غزَله، وتهادت الأقاليمُ تحفَ معجَّله ومؤجَّله، وغنيت[1] وجوه المهارق لصعود كَلِمِه[2] الطيب ورفع صالح عمله، ما كان فيه شكرٌ لنعمة تمنّها على الدولة سعادة جُدودها وحظوظها، وإفادة مصونها ومحفوظها، وإرادة مرقومها بحسن الاستبداع[3] وملحوظها، وحمدٌ لمنحةٍ وافاتها بركة أحسنت للمملكة الشريفة مآلا، وقرّبت لها مثالا. وأصلحت لها أحوالا، وكاثرت مدد البحر وكلّ أجرى ذلك ماءً أجرت هى مالًا، وإنْ ضَنّت السُّحب أنشأتْ سُحُباً، وإن قيل سحَّ سحّها ورونق الأرض ذهب، عوّضت عنه ذهبا، كم لها فى الوجود من كرم وكرامة، وفى الوجوه من وُسوم وسامة، كم أحيتْ مهجاً، وكم جعلت للدولة من أمرها مخرجاً، وكم وسّعت أملا وكم تركت صدر الخزائن ضيّقاً حَرجا، وكم استخدمت جيش تهجّدٍ فى بطن الليل، وجيش جهاد على ظهور الخيل. وكم أنفقت فى واقفٍ فى قلب بين الصفوف والحروب، وفى واقفٍ فى صفوف المساجد من أصحاب القلوب، كم سبيل يسّرتْ، وسعود كثّرتْ. وكم مخاوفَ أدبرت حين دَبّرت، وكم آثار فى البلاد والعباد أبرتْ وأثّرت. وكم وافت ووفّت، وكم كَفَتْ وكَفّت، وكم أعفَتْ وعَفَتْ وعفّتْ. وكم بها موازين للأولياء ثقُلت وموازين للأعداء خَفّت. وكم أجرتْ من وقوف، وكم عرفت بمعروف. وكم بيوت عبادة صاحبُ هذه البركات هو محرابُها، وسماء جودٍ هو سَحابُها ومدينة علمٍ هو بابها. تثنى[4] الليالى على تغليسه إلى المساجد فى الحنادس، والأيام على تهجيره لعيادة مرضى الفقراء وحضورْ جنائز وزيارة القبور الدوارس. يكتنّ تحت جناح عدله الظاعنُ والمقيم، ويشكر يثربَ ومكة وزمزمَ والحطيم. كمْ عمّتْ سُنَن تفقّداته

---

(١) ط: «وعنت»
(٢) ط: «كلة»
(٣) ح: «الاستيداع».
(٤) ح: «تثنى»

ونوافله . وكم مرّت صدقاته بالوادى فسح الله فى مدته فأثنت عليه رماله وبالنادى فأثنت أرامله (1) ، مازار الشام إلّا أغناه عن مسّه المطر ، ولا صحب سلطانه فى سفر إلاّ قال : نعمْ الصّاحب فى السّفَر والحضر .

ولمّا كان المتفرّد بهذه البركات هو واحد الوجود ، ومَنْ لايشاركه فى المزايا شريك وإنّ الليالى بإيجاد مثله غير ولُود . وهو الذى إن لم نسمِّه ، قال سامع هـذه المناقب : هو الموصوف ، عند الله وعند خلقه معروف . وهذا الممدوح بأكثر من هـذه المادح ، والمحامد من ربّه ممدوح وممنوح .

والمنعوت بذلك ، قد نعتّتْه بأكثر من هـذه النّعوت اللائك ، وإنما نذكر نعوته التذاذاً ، فلا يعتقد كاتب ولا خاطب أنه وفّى جلالته بعض حقّها ؛ فإنه أشرف من هذا. وإذا كان لابدّ للمادح أنه يحول ، وللقلم أنه يقول ، فتلك بركات للمجلس العالى الوالدى الصاحبى الوزيرى السيدىّ الورِعى الزاهدى العابدى الذّخرى الكفيلى المهدّى المشيدى العونى القوامى النظامى الأفضلى الأشرفى العاملى العادلى البهائى ، سيّد الوزراء والأصحاب فى العالمين ، كهف العابدين ، ملجأ الصالحين ، شرف الأولياء المتّقين ، مدبّر الدوَل ، سِداد الثغور ، صلاح الممالك ، قدوة الملوك والسلاطين ، يمين أمير المؤمنين ، علىّ بن محمد أدام الله جلاله ، مَنْ تشرفُ الأقاليم بحياطة قلمه المبارك ، والتقاليد بتجديد تنفيذه الذى لايساهَم فيه ولا يشارك ، فما جُدّد منها إنما هو بمثابة آيات تُزاد فتردّد ، أو بمنزلة أسجالٍ فى كلّ حين به يحكم وفيه يُشهد ؛ حتى تتناقل بثبوته الأيّام والليالى ، ولا يخلو جِيد دولةٍ أن يكون الحالِى بما له من مفاخر اللآلى ، فلذلك خرج الأمر العالى لابرح بكسب بهاء الدين المحمدىّ أتمّ الأنوار ، ولا برحتْ مراسمه تزهُو من قلم منفذه بذى الفقَر وذى الفَقار ؛ أن يضمن هـذا التقليد الشريف بالوزارة التامّة العامة الشاملة الكاملة

(1) ط : « أرماله » تحريف .

الشريفة الصاحبيّة البهائية أحسن التضمين ، وأن ينشر منها مايتلقّى روايته كلّ ربّ سيف وقلم باليمين ، وأن يعلم كافّة الناس ومَنْ يضمّه طاعة هذه الدولة وملكها من ملك وأمير ، وكلّ مدينة ذات منبرٍ وسرير ، وكلّ من جمعتْه الأقاليم من نوّاب سلطنة ، وذوى طاعة مذعِنة ، وأصحاب عقد وحَلّ ، وظَعْنٍ وحِلّ ، وذوى جنود وحشود ، ورافعى أعلامٍ وبنود ، وكلّ راعٍ ورعيّة ، وكلّ من ينظر فى الأمور الشرعيّة ، وكلّ صاحب علم وتدريس ، وتهليل وتقديس ، وكلّ مَنْ يدخل فى حكم هذه الدولة العالية من شموسها المضيئة ، وبُدُورها المنيرة ، ونجومها المشرقة وشهبها الثاقبة فى الممالك المصرية والنوبيّة والساحلّية والكركية والشّوبكية والشاميّة والحلبيّة ، وما تداخل بين ذلك من ثغور وحصون وممالك .

إن القلم المبارك الصاحبي البهائىّ فى جميع هذه الممالك مبسوط ، وأمر تدبيرها به منوط ، وعناية شفقته لها تحوط ، وله النظر فى أحوالها وأموالها ، وإليه أمر قوانينها ودواوينها ، وكتابها وحسابها ومراتبها ، ورواتبها وتصريفها ومصروفها ، وإليه التولية والصرف ، وإليه تقدِمة البدل والنعت والتوكيد والعطف ، وهو صاحب الرتبة التى لا يحلّها سواه ، وسوى مَنْ هو مرتضيه من السادة الوزرانيّة ، ومَنْ سمّينا غيره وغيرهم بالصحوبيّة .

فليحذر مَنْ يخاطب غيرهم بها أو يسمّيه ، فكما كان والدنا الشهيد يخاطبه بالوالد خاطبناه بذلك وخطبناه ، وماعدلنا عن ذلك بل عَدَلنا[1] ، لأنه ماظلم مَنْ أشبَهَ أباه ، فمنزلته لا تسامَى ولا تُسام ، ومكانته لا ترامَى ولا ترام ؛ فمن قدح فى سيادته من حسّاده — أبادهم الله — زِناد قدحٍ أحرِق بشَرَرِ شررِه ، ومَنْ ركب إلى جلالته سيح سوء أغرق فى

(١) فى الأصل : « أعدلنا » ، تحريف .

بحره ، ومن فَتَل لسعادته حَبْلَ كيدٍ فإنما فَتله مُبرِمه لنحره .

فلْتلتزم [١] الألسنة والأقلام والأقدام فى خدمته أحسن الآداب ، وليقل المترددون : حِطَّة إذا دخلوا الباب ، ولا يغرّنهم فرط تواضعِه لدينه وتقواه ، فمن تأدّب معه تأدّب معنا ومَنْ تأدّب معنا تأدّب مع الله .

ولْيتلَ هـذا التقليد على رءوس الأشهاد ، ونَنسَخ نسخته حتى تتناقلها الأمصار والبلاد ؛ فهو حجّتنا على مَنْ سمّيناه خصوصاً ومَنْ يدخل فى ذلك بطريق العموم ، فليعملوا فيه بالنصّ والقياس والاستنباط والمفهوم .

والله يزيد المجلس العالى الصاحبيّ البهائىّ من فضله ، ويبقيه لغاية هـذه الدولة ويصونه لِشبْله كما صانه لأسْدِه من قَبْله ، ويمتّع بنيّته الصالحة التى يحسن بها إن شاء الله نماء الفرع كما حَسُن نماء أصله .

***

واستمرّ الصاحب بهاء الدين فى الوزارة إلى أن مات فى ذى القعدة سنة سبع وسبعين .

وكان الملك السعيد إذ ذاك بدِمشق ، فلما بلغتْه وفاته ، أرسل إلى برهان الدين الخضر بن الحسن السنجارىّ باستقراره وزيرا بالديار المصرية ، فقال القاضى محيي الدين ابن عبد الظاهر حين سُيِّر إليه تقليد الوزارة : بك زال الخلاف ، واصطلح الخصمان بادولة الملك السعيد ، فلما قالت الوزارة بالبرهان قال البرهان بالتقليد .

وقال السراج الوراق حين خلع عليه :

تهنّ بخلعةٍ لبسَتْ جمالاً ... بوجهٍ منك سَمْحٍ يجتلُوهُ
وقال النّاس حين طلعت فيها : ... أهـذا البدر ؟ قلتُ لهم : أخوهُ

وقال فى خلعة ولده شمس الدين :

---

(١) ط : « فتلزم » تحريف .

.أهنّى الوزيرَ ابنَ الوزير بخلعــةٍ محاسِنُها فتّانة العقل والحسّ
أضاءت بها الآفاقُ شرقًا ومغربًا ولمْ لا، ومن أطواقها مَطلَعُ الشمسِ!

ولما عُوجل خلع الملك السعيد ، قال ناصر الدين بن النقيب :

تطيّرت الوزارةُ مِن قريبٍ بصاحبهـا الجديد ومِنْ بعيدِ
وقالتْ : كعبه كعب شؤم ولا سِيمَا على الملك السعيدِ

وأقام السنجاریّ فی الوزارة إلى أن وَلِيَ قلاوون فی رجب سنة ثمان وسبعين ، فعزله . واستوزر فخر الدين بن لقمان كاتب السرّ ، فأقام إلى جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين .

فأعيد السنجاریّ إلى الوزارة ، ورجع ابن لقمان إلى كتابة الإنشاء ، فأقام إلى ربيع الأول سنة ثمانين ، فعزِل .

ووَزَر نجم الدين حمزة بن محمد بن هبة الله الأصفونیّ.

ووزر الأمير علم الدين سنجر الشجاعیّ ، وهو أوّل مَنْ وَلِيَ الوزارة من الأمراء ، وأوّل وزير ضربت على بابه الطبلخاناه على قاعدة وزراء الخلافة بالعراق ، ثم عُزِل .

ووزَر الأمير بدر الدين بيدار ، ثم صرف .

وأعيد الشجاعیّ ، ثم صُرِف .

ووَزَر شمس الدين محمد بن عثمان المعروف بابن السّلعوس،فأقام إلى أن قُتِل الأشرف، فأخذ وضُرِب إلى أن مات تحت الضّرب .

وكان لما تولى الوزارة ، كتب إليه بعض أصحابه يحذره من الأمير علم الدين سنجر الشجاعیّ المنصوریّ :

تنبّـهْ ياوزيرَ الأرض واعلمْ بأنك قـد وَطِئتَ على الأفاعی

وكنْ بالله معتصماً فإنّى أخاف عليك من نَهْشِ الشجاعى

فكان الذى تسبب فى إهلاكه الشجاعىّ .

وولىَ الشجاعىّ الوزارة مكانه ، فأقام بها أكثر من شهر ، وحدّثته نفسه بالسّلطنة ، فقُتِل .

ووَلِىَ الوزارة بعده تاج الدين بن فخر الدين بن الصاحب بهاء الدين بن حنّا ، فأقام إلى أن تولّى العادل كَتْبُغا، فعزِل .

ووَلِىَ مكانه فخر الدين عثمان بن مجد الدين عبد العزيز بن الخليلى ، فأقام إلى أن تولى لاجين ، فعُزِل .

ووَلِىَ مكانه الأمير شمس الدين سنقر الأعسر ، ثم عزِل من عامه وحُبِس ؛ فلما أعيد الملك الناصر إلى السلطنة أخرج الأعسر من الحبس وأعاده إلى الوزارة ، ثم عزله فى سنة إحدى وسبعمائة .

ووَلِّىَ الأمير عزّ الدين أيبك المنصورى ، وولّى ناصر الدين محمد السنجىّ ثم عُزِل فى شوال سنة أربع .

ووَزَر سعد الدين محمد بن محمد بن عطاء الله فى المحرّم سنة ست .

ووَزَر التّاج أبو الفرج بن سعيد الدولة السلامانىّ ، ووَزَر ضِيَاء الدين النّشائىّ [(١)] ، فلمّا عاد الناصر إلى السلطنة المرة الثالثة سنة سبع استوزر فخر الدين الخليلىّ ثم عُزِل فى رمضان سنة عشر .

ووزَر الأمير سيف الدين بكتُمر الحاجب ، ثم عُزِل فى ربيع الآخر سنة إحدى عشرة .

ووَزَر أمينُ الملك أبو سعيد المستوفى .

---

(١) النشائى ، بكسر ثم معجمة ، ممدود ؛ كذا ضبطه صاحب الضوء اللامع ١١ : ٢٣٠ .

ووزَر فى سنة ثلاث وعشرين أمين الملك ثم الأمير علاء الدين مغلطاى الجمالى .

ثم أبطل الناصر الوزارة ، ورتّب وظيفة ناظر الخواصّ ، وولّاها كريم الدين عبد الكريم بن هبة الله بن السديد، فكان كالوزير وربّما قيل له : الصاحب، واستمرّت الوزارة شاغرة إلى سنة أربع وأربعين .

فاستوزر الكاملُ شعبان نجم الدين محمود بن شروين ، وكان أصله وزير بغداد فى المحرّم ووزر الأمير أيتمُش المحمّدىّ ، ووزَر الأمير منجك اليوسفىّ ، ثم عُزِل ثالث ربيع الأوّل سنة تسع وأربعين .

ووزر الأمير أستدمُر العُمَرىّ فى رابع عشرة ثم استعفى فى خامس عشرين ربيع الآخِر ، فأعفِيَ .

وأعيد منجك ، ثم عُزِل فى محرم سنة إحدى وخمسين .

ووَزَر علمُ الدين عبد الله بن أحمد بن زنبور القبطىّ ، ثم عُزِل فى رمضان سنة ثلاث وخمسين .

ووَزَر موفّق الدين هبة الله بن سعد الدولة القِبْطىّ ، فأقام إلى أن مات فى ربيع الآخر سنة خمس وخمسين ، وشغرت الوزارة بعده إلى سنة ثمان وخمسين .

ووزر الأمير قَشْتَمُر ، ثم عُزِل سنة تسع وخمسين .

ووزَر تاج الدين بن رشية ، ثم عزل سنة إحدى وستين .

ووزَر جمال الدين يوسف بن أبى شاكر .

ثم وَزَر الأمير الأكز الكشلاوىّ .

ثم وَزَر كريم الدين بن غنّام، ثم فخر الدين بن تاج الدين موسى ، ثم صُرِف سنة أربع وسبعين .

وَوَزَر ابن الغنّام ، ثم صرِف سنة خمس وسبعين .

وأعيد مَنْجَك اليوسفىّ إلى الوزارة ، وفوّض إليه السلطان كلّ أمور المملكة ، وأنّه أقامه مقام نفسه فى كلّ شىء ، وأنّه يخرِج الإقطاعات التى عبرتها سبعمائة دينار فما دونها ، وأنّه يعزِل مَنْ شاء من أرباب الدولة ، ويخرج الطبلخانات والعشراوات بسائر الممالك الشامية ، ورسم للوزير أن يجلسَ قدّامه فى الدّركات ، ثم مات مَنْجك فى سنة سبعين. قال ابن الكرمانىّ فى مختصر المسالك : وهو الّذى جعل للماليك اللحم السّميط فى وزارته ، ولم يكن يفرّق عليهم قبل ذلك إلا السليخ.

ووزَر تاج الدين عبد الوهاب الملكىّ ، ويعرف بالنشو ، ثم صرِف فى رجب سنة ست وسبعين.

وأعيد ابن الغنام ، ثم صرِف من عامه .

وتعطلت الوزارة إلى ربيع الأول سنة سبع وسبعين ، فأعيد التاج الملكىّ ، ثم صرف سنة ثمان وسبعين .

وأعيد ابن الغنّام ثم صرِف .

وأعيد النّشو ثم صرِف .

واستقرّ كريم الدين بن الرويهب ، ثم عُزِل فى شوال سنة تسع وسبعين .

ووزر صلاح الدين خليل بن عرّام ، ثم عُزِل فى صفر سنة ثمانين .

ووزر كريم الدين بن مكانس ، ثمّ عزِل فى شوال من السّنة .

وأعيد النّشوّ ، ثم عزِل فى ربيع سنة إحدى وثمانين .

ووَزَر شمس الدين بن أبر [1] ثم عُزِل سنة خمس وثمانين .

ووزر شمس الدين إبراهيم كاتب أرنان ، فأقام إلى أن مات سنة تسع وثمانين .

ووزر بعده علم الدين إبراهيم القِبطىّ بن كاتب سيّدى ، ثم عُزِل فى رمضان سنة تسع .

---

(١) ح ، ط : « أبره » .

ووزَر كريم الدين بن غنّام ، ثم وزَر موفّق الدين أبو الفرج فى صفر سنة اثنتين وتسعين .

ثم وزَر سعد الدين سعد الله بن البقرىّ فى ربيع الآخر من السّنة ، ثمّ عزِل فى رمضان سنة اثنتين وتسعين .

وأعيد أبو الفرج ، ثم عُزِل فى صفر .

ووزر ركن الدين عمر بن قَيْماز ، ثم عُزِل فى رجب .

ووزَر تاج الدين بن أبى شاكر ، ثم عُزِل فى المحرّم سنة خمس وتسعين .

وأعيد موفّق الدين ، ثم عُزِل سنة ست وتسعين .

ووزَر الأمير ناصر الدين محمد بن رجب بن كلبك بن الحسام ، ولقِّب وزير الوزراء إلى أن مات سنة ثمان وتسعين .

ووزر مبارك شاه ، ثم صُرِف فى رجب .

وأعيد ابن البقرىّ ، ثمّ عزِل فى ربيع الأوّل سنة تسع وتسعين .

وَوَزَر بدر الدين محمد الطوخىّ ، ثمّ صرِف فى ربيع الآخر سنة إحدى وثمانمائة .

ووَزَر تاجُ الدّين عبد الرزاق بن أبى الفرج ، ثم صُرِف فى ذى القعدة من السنة ، ووزر الشهاب أحمد بن عمر بن قُطْنة ، ثم صُرِف فى ذى الحجة من السنة .

ووَزَر فخر الدين ماجد بن غراب ، ثم صُرِف فى ربيع الآخر سنة اثنتين .

وأعيد بدر الدين الطوخىّ ، ثم عزل .

وأعيد ابن غراب ، ثمّ عُزِل فى رجب سنة ثلاث .

وَوَزَر علمُ الدين يحيى بن أسعد المعروف بأبوكمّ ، ثم صرف فى ربيع الآخر سنة أربع .

وَوَزَر الأمير مبارك شاه الحاجب ، ثم صرِف .

ووزر تاج الدين بن البقرىّ ، ثم صرِف فى المحرّم .

ووزر فخر الدين بن غراب ، ثمّ عزِل سنة خمس .

ووزر علاء الدين الأخمص ، ثم عُزِل فى شوال .

ووزر مبارك شاه ، ثم صُرِف .

وولىَ تاج الدين بن البقرىّ، ثم توارَى فى المحرّم سنة ست وثمانمائة .

وأعيد علم الدين أبو كمّ ، ثم هرَب بعد ثمانية أيام .

وأعيد ابن البقرىّ ، ثم هرب فى ربيع الأول .

وأعيد تاج الدين بن عبد الرزاق ، ثم هرب أيضا بعد أيّام .

وأعيد ابن البقرىّ ، ثم صرِف فى ذى الحجة سنة سبع .

وأعيد فخر الدين ماجد بن غراب ، ثم صرِف سنة تسع .

ووزر جمال الدين البيرىّ الأستادار ، ثم صُرِف فى سنة اثنتى عشرة .

ووزر سعد الدين إبراهيم بن البشيرىّ ، ثم صُرِف فى ربيع الأوّل سنة ست عشرة .

ووَزَر تاج الدين بن الهيصم .

ثم وَزَر تقىّ الدين عبد الوهاب بن أبى شاكر فى المحرّم سنة تسع عشرة ، فأقام إلى ذى القعدة من السنة ، ومات .

فوَزَر فخرُ الدين الأستادار فى سنة عشرين .

وَوَزَر أرغون شاه ، ثم صرِف فى جمادى الأولى سنة إحدى وعشرين .

وَوَزَر بدرُ الدين بن محبّ الدين ، ثم صرِف فى ذى القعدة من عامِه .

وَوَزَر بدر الدين بن نصر الله ، ثم صُرِف فى المحرّم سنة أربع وعشرين .

ووزَر تاج الدين كاتب المناخات ، ثم صرِف فى ذى الحجة سنة خمس وعشرين .

وَوَزَر أرغون شاه ، ثم صُرِف فى شوّال سنة ست وعشرين .

وَوَزَر كريم الدين بن كاتب المناخات ، ثم صُرِف فى رجب سنة سبع وثلاثين .

وَوَزَر أمين الدين بن الهيصم ، ثمّ صُرِف فى سنة ثمان وثلاثين .

ووزر سعد الدين إبراهيم بن كاتب جكم .

ثم وزَر أخوه جمال الدين يوسف فى ربيع الأوّل من السنة ، ثم صُرِف فى جمادى الآخرة من السنة .

ووَزَر تاجُ الدّين عبد الوهاب بن الخطير ، ثم صرف فى رمضان سنة تسع وثلاثين.

ووزر الأمير خليل بن شاهين نائب الإسكندرية ، ثم صُرِف .

ووزر كريم الدين بن كاتب المناخ فى ربيع الأوّل سنة أربعين .

ثمّ فى جمادى الآخرة سنة إحدى وخمسين وَزَر عوضاً عن أمين الدين بن الهيصم ، ثم صرِف .

ووزر سعد الدين فرج بن النجار ، ثم صُرِف فى جمادى سنةِ ثمان وخمسين .

وأعيد أمين الدين بن الهيصم ، ثم صُرِف فى ذى القعدة من السنة .

وأعيد سعد الدين.

ثم وزر علىّ بن محمد الأهناسىّ ، ثم صرِف فى صفر سنة أربع وستين .

ووزر فارس المحمدىّ يوما واحدا ، ثمّ صرِف .

ووزَر منصور الكاتب ثم صُرِف .

ووزر محمد الأهناسىّ والد علىّ المذكور عشرة أيام .

ثمّ وزر منصور الأسلمىّ ثم صرِف فى ربيع الآخر .

وأعيد سعد الدين بن النجار ، ثم صرِف فى ربيع الأوّل سنة خمس وستين .

وأعيد علىّ بن الأهناسىّ ، ثم صرِف .

ووزر شمس الدين بن صنيعة ، ثم صرِف فى صفر سنة سبع وستين .

وأعيد ابن الأهناسى ، ثم صرِف فى شوال .

وَوَزَر مجد الدين بن البقرى ، ثم صرف فى المحرم سنة ثمان وستين .

وَوَزَر يونس بن عمر بن جربغا ، ثم صرِف عن قرب .

وأعيد المجد بن البقرى ثم صرِف فى ربيع الأول .

ووزر محمد البباوى إلى أن غرق آخر ذى الحجة سنة تسع وستين .

وأعيد الشرف يحيى بن صنيعة ، ثم صرِف فى جمادى الآخرة .

ووزر قاسم القرافى ، ثم صُرِف .

ووزر الأمير يشبك الدّوادار ، ثمّ صرف .

ووزر الأمير خشقدم الطواشى ، ثم صرِف .

ووزر ابن الزرازيرى كاشف الصعيد ثم صرف عن قرب .

وأعيد قاسم ، ثم صرِف .

ووزر الأمير أقبردى الدّوادار .

ثم ولىَ بعده الأمير كرتباى الأحمر يوم الخميس ، مستهلّ ذى الحجة سنة إحدى وتسعمائة .

ذكر كتاب السر

قال ابن الجوزى فى التلقيح [١] : كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ وأبىّ بن كعب وزيد بن ثابت الأنصارى ومعاوية بن أبى سفيان وحنظلة بن الربيع الأسدىّ وخالد بن سعيد بن القاضى وأبان بن سعيد والعلاء بن الحضرمىّ ؛ وكان المداوم له على الكتابة زيد ومعاوية .

وكان كاتبَ أبى بكر الصدّيق عثمان بن عفان ، وكاتب عمر زيد بن ثابت وكاتب عثمان مرْوان بن الحكم ، وكاتب علىّ عبدُ الله بن رافع وسعيد بن أبى نمر ، وكاتب الحسن كاتب أبيه ، وكاتب معاوية عبيد الله بن أوْس الغسّانىّ . وكاتب يزيدَ عبيدُ الله بن أوْس ، ثم عمر العذرىّ ، وكاتب ابنه معاوية زمل بن عمر العذرىّ ، وكاتبَ مرْوان عبيدُ الله بن أوْس وشعبان الأحول ، وكاتبَ عبد الملك بن مَرْوان رَوْح بن زِنْباع الجذامىّ وقَبيصة بن ذؤيب ، وكاتب ابنه الوليد قبيصة بن ذؤيب وقرّة بن شَريك والضحاك بن زِمْل ، وكاتب سليمانَ يزيد بن المهلّب وعبد العزيز بن الحارث ، وكاتب عمر بن عبد العزيز رجاء بن حيْوَة الكندىّ وليث بن أبى رُقية ، وكاتب يزيد بن عبد الملك سعيد بن الوليد الأبرش ومحمد ابن عبد الله بن حارثة الأنصارىّ ، وكاتب هشام هذان وسالم مَوْلاه ، وكاتب الوليد العباس ابن مسلم ، وكاتب يزيد بن الوليد ثابت بن سليمان ، وكاتب إبراهيم بن الوليد ثابت هذا ، وكاتب مروان الحمار عبدُ الحميد بن يحيى مولى بنى عامر .

وقال ابن فضل الله : كانت كتابة الإنشاء فى المشرق فى خلافة بنى العباس منوطة

---

(١) هو كتاب « تلقيح فهوم أهل الآثار ، فى مختصر السير والأخبار » طبعت قطعة منه فى ليدن سنة ١٨٩٢ م .

بالوزراء ، وربمّا انفرد بها رجل ، واستقلّ بها كتّاب لم يبلغوا مبلغ الوزارة ، فكان يسمىّ فى المشرق كاتب الإنشاء . ثم لمّا كثر عددهم سمِّىَ رئيسهم رئيس ديوان الإنشاء ، ثم بَقِىَ يطلَق عليه تارةً صاحب ديوان الإنشاء ، وتارةً كاتب السرّ . قال : وهى عندى أنبَه ، وعندالنّاس أدلّ، وكانت فى دولة السلاجقية وملوك الشرق يسمىّ ديوان الطغراوية ، والطغراء هى الطرّة بالفارسية . وأهل المغرب يسمّون صاحب ديوان الإنشاء صاحب القلم الأعلىَ . انتهى .

وقال غيره : إنما حدثت وظيفة كتابة السرّ فى أيام قلاوون ، وكانت هذه الوظيفة قديما فى ضمن الوزارة ، والوزير هو المتصرّف فى الديوان، وتحت يده جماعة من الكتّاب، وفيهم رجل كبير يسمى صاحب ديوان الإنشاء ، وصاحب ديوان الرسائل ، فكان الكاتب للسفّاح عبد الجبار بن عدىّ ثم كتب للمنصور ، وكتب له أيضا عبد الله بن المقفّع المشهور بالبلاغة وأبو أيوب المورياني[1] ، وكتب للمهدىّ وزيره معاوية بن عبد الله والربيع بن يونس الحاجب ، وكتب للهادى عمرو بن بزيع ، فلما استخلف الرشيد ولّى يوسفَ بن القاسم بن صُبيح كتابة الإنشاء ، فكان هو الذى قام خطيبا بين يديه ، حتى أخِذت له البيعة ، وكتب للمأمون أحمد بن يوسف والقاسم بن صُبيح الكاتب وأحمد ابن الضحاك الطبرىّ ، وعمرو بن مسعدة والمعلىّ بن أيوب وعمرو بن مهبول ، وكتب للمعتصم والواثق إبراهيم الموصلىّ . وكتب للمتوكل أحمد بن المدبّر وإبراهيم بن العباس الصولىّ . وكتب للطائع أبو القاسم عيسى بن الوزير علىّ بن عيسى بن الجراح . وكتب للقادر إبراهيم بن هلال الصابئ ، وكان على دين الصابئة إلى أن مات .

وكتب لجماعة من الخلفاء أبُو سعيد العَلاء بن الحسن بن وهب بن الموجلايا ،

---

(١) فى الأصول : « المرزبانى » تحريف ، صوابه من الفخرى ١٥٢

قال بعضهم : كتب فى الإنشاء للخلفاء خمسا وستين سنة ، وكان نصرانيا ، فأسلم على يد المقتدى .

وكتب للمقتدى سديد الدّولة أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الكريم ابن الأنبارىّ . قال ابنُ كثير : كان كاتبَ الإنشاء ببغداد للخلفاء ، وانفرد بصناعة الإنشاء .

وكتب للنّاصر قوامُ الدين يحيى بن سعيد الواسطىّ المشهور بابن زيادة صاحب ديوان الإنشاء ببغداد ، ومن انتهيت إليه رياسة الترسّل .

وكتب للمستعصم عزّ الدين عبد الحميد بن هبة الله بن أبى الحديد المدائنىّ الكاتب ومات سنة خمس وخمسين وستّمائة ، وقُتِل الخليفة عقب موته . فهو آخر كتّاب الإنشاء لخلفاء بغداد .

قلت : ومن الاتّفاق الغريب أنّ آخر خلفاء بنى أمية كتب له عبد الحميد الكاتب وآخر خلفاء بنى العباس ببغداد كتب له من اسمه عبد الحميد .

***

وأما مصر فلم يكن بها ديوان إنشاء من حين فتحت إلى أيّام أحمد بن طولون ، فقوِىَ أمرُها ، وعظم ملكها ، فكتب عنده أبو جعفر محمد بن أحمد بن مودود .

وكتب لولده خُمارويه إسحاق بن نصر العبادىّ .

وتوالت دواوين الإنشاء بذلك إلى أن ملكها العُبيدية ، فعظم ديوان الإنشاء بها ووقع الاعتناء به واختيار بلغاء الكتاب مابين مسلم وذمّى ؛ فكتب للعزيز بن المعزّ وزيرهُ ابن كلّس ثم أبو عبد الله الموصلىّ، ثم أبو المنصور بن حورس النصرانىّ، ثم كتب للحاكم ومات فى أيامه .

وكتب للحاكم بعده القاضى أبو الطاهر المولىّ ، ثم كتب لابن الحاكم الظاهر .

وكتب للمستنصر القاضى ولىّ الدين بن خَيْران وولىّ الدولة موسى بن الحسن بعد انتقاله إلى الوزارة وأبو سعيد العبدىّ .

وكتب للآمر والحافظ أبوالحسن علىّ بن أبى أسامة الحلبىّ، إلى أن توفّىَ ، فكتب ولده أبو المكارم إلى أن توفّىَ ومعه أمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم علىّ بن سليمان المعروف بابن الصيرفىّ والقاضى كافى الكفاة محمود بن الموفق بن قادوس وابن أبى الدم اليهودىّ . ثم كتب بعد ابن أبى المكارم القاضى موفّق الدين أبو الحجاج يوسف بن الخلّال بقية أيام الحافظ إلى آخر أيام العاضد، وبه تخرّج القاضى الفاضل .

ثم أشرك العاضد مع ابن الخلّال فى ديوان الإنشاء القاضى جلال الدين محمود الأنصارىّ .

ثم كتب القاضى الفاضل عبد الرحيم البَيْسانىّ بين يدى ابن الخلّال فى وزارة صلاح الدين ، فلما ملك صلاح الدين كتب له القاضى الفاضل . ثم أضيفت إليه الوزارة . ثمّ كتب بعده لابنه العزيز ثم لولده المنصور ومات .

وكتب للكامل أمين الدين سليمان المعروف بكاتب الدّرج إلى أن مات ، فكتب بعده أمين الدين عبد المحسن بن حمود الحلبىّ ثم كتب للصالح أيضا .

ثم وَلِىَ ديوان الإنشاء الصاحب بهاء الدين زهير الشاعر المشهور (١) ، ثمّ صرف وولىَ بعده الصاحب فخر الدين إبراهيم بن لقمان الأسعردىّ ، فأقام إلى انقراض الدولة الأيّوبية، وكتب بعدها للمعزّ أيبك ثم للمظفر قُطُز، ثم للظاهر بيبرس ثم للمنصور قلاوون، ثم نقله قلاوون من ديوان الإنشاء للوزارة .

---

(١) صاحب الديوان المعروف باسمه .

ووليَ ديوان الإنشاء مكانه فتحُ الدين بن عبد الظاهر ، وهو أوّل مَنْ سُمِّيَ كاتب السرّ ، وسبب ذلك ماحكاه الصلاح الصَّفَدىّ أنّ الملك الظاهر رُفع إليه مرسوم أنكره، فطلب محيي الدين بن عبد الظاهر وأنكر عليه ، فقال : ياخوند[١] ، هكذا قال لى الأمير سيف الدين بَلَبَان الدّوادار ، فقال السلطان : ينبغى أن يكون للملك كاتب سر يتلقى المرسوم منه شِفاها ــ وكان قلاوون حاضرا من جملة الأمراء ــ فوقرت هذه الكلمة فى صدره، فلمّا تسلطن اتّخذ كاتب سرّ ، فكان فتح الدين هذا أول من شهر بهذا الاسم ؛ وكان هو والوزير لقمان بين يدى السلطان ، فحضر كتاب ، فأراد الوزير أن يقرأه ، فأخذ السلطان الكتاب منه، ودفعه إلى فتح الدين ، وأمره بقراءته ، فعظم ذلك على ابن لقمان ؛ وكانت العادة إذ ذاك ألّا يقرأ أحدٌ على السلطان كتابا بحضرة الوَزير . واستمرّ فتح الدين فى كتابة السرّ إلى أن توفِّىَ أيام الأشرف خليل .

فولِىَ مكانه تاجُ الدين بن الأثير إلى أن توفِّىَ .

ووَلِىَ شرف الدين عبد الوهاب العمرىّ ، ثم نقله الناصر فى سنة إحدى عشرة وسبعمائة إلى كتابة السرّ بدمشق .

ووَلِىَ مكانه علاء الدين بن تاج الدين بن الأثير إلى أن فلِج .

ووَلِىَ محيي الدين بن فضل الله ، وولده شهاب الدين معينا له لكِبَر سنه ، ثم صرِفا .

ووليَ شرف الدين بن الشهاب محمود ثم صُرِف ، وأعيد ابن فضل الله وولده شهاب الدين ثم صُرِفا إلى الشام .

ووَلِىَ علاء الدين بن فضل الله أخو شهاب الدين، فاستمرّ فى الوظيفة نيِّفاً وثلاثين سنة إلى أن مات سنة تسع وستين وسبعمائة .

(١) خوند : لفظ تركىّ أو فارسىّ ، وأصله خداوند بضم الخاء ، ومعناه السيد أو الأمير ، ويخاطب به الذكور والنساء على السواء . حواشى السلوك ١ : ٢٢٤ .

ووَلِىَ ولده بدر الدين محمد إلى أن تسلطن برقوق فصرَفه .

وولّى أوحدَ الدين عبد الواحد بن إسماعيل التركمانىّ ؛ إلى أن مات فى ذى الحجة سنة ست وثمانين .

وأعيد بدرُ الدين إلى أن تسلطن برقوق الثّانية ، فصرفه .

ووَلِىَ علاء الدين علىّ بن عيسى الكرَكىّ إلى أن مات سنة أربع وتسعين .

وأعيد بدر الدين إلى أن مات فى شوال سنة ست وتسعين .

ووَلِىَ بدرُ الدين محمود الكُلُسْتانىّ إلى أن مات فى جمادى الأولى سنة إحدى وثمانمائة .

ووَلِىَ فتح الدين فتح الله بن مستعصم التّبريزىّ ، ثم صَرَفهُ الناصر فرج بسعد الدين ابن غراب مدّة يسيرة ، ثم صُرِف ابن غراب ، وأعيد فتح الله ثم صرِف ، ووَلى فخر الدين بن المزوّق ثم صُرِف ، وأعيد فتح الله إلى أن قبض عليه المؤيد سنة ست عشرة وثمانمائة.

ووليَ ناصر الدين محمد بن البارزىّ إلى أن مات فى سنة ثلاث وعشرين.

ووَلِىَ ولدُه كمال الدين محمد، ثم صرِف .

ووَلِىَ علم الدين داود بن الكويز إلى أن مات سنة ست وعشرين .

ووَلِىَ جمال الدين يوسف بن الكرَكىّ ثم صُرِف .

ووَلِىَ قاضى القضاة شمس الدين الهروي الشافعىّ، ثم صُرِف .

ووَلِىَ نجمُ الدين عمر بن حجى ثم صرِف .

ووَلِىَ شمسُ الدين محمد بن مزهر إلى أن مات فى جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثين.

ووَلِىَ ولده جلال الدين محمد ، ثم صرِف .

ووَلِىَ الشّريف شهاب الدين الدّمشقى إلى أن مات بالطاعون .

ووَلِىَ شهاب الدين أحمد بن السفّاح الحلبىّ إلى أن مات سنة خمس وثلاثين .

ووَلِىَ الوزير كريم الدين عبد الكريم كاتب المناخ مضافا للوزارة ثم صُرِف بعد أشهر .

وأعيد الكمال بن البارزىّ ، ثم صُرِف فى رجب سنة تسع وثلاثين .

ووَلِى محبّ الدّين بن الأشقر ، ثم صرِف .

ووَلِى صلاح الدين محمد بن الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله إلى أن مات بالطاعون سنة إحدى وأربعين .

ووَلِىَ مكانه أبوه الصاحب بدر الدين حسن ، ثم صُرِف فى ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعين .

وأعيد ابنُ البارزىّ إلى أن مات فى صفر سنة ستٍّ وخمسين .

وأعيد ابنُ الأشقر ثم صُرِف فى ذى القعدة .

وَوَلِىَ محبّ الدين بن الشِّحنة ثم صُرِف بعد ستة أشهر .

وأعيد ابن الأشقر ، ثم صُرِف فى جمادى الأولى سنة ثلاث وستين .

وأعيد ابن الشِّحنة ثم صرِف فى شوال سنة ست وستين .

ووَلِىَ القاضى برهان الدين بن الديرىّ ، ثم صُرِف بعد نصف شهر .

ووَلِىَ القاضى تقىّ الدين أبو بكر بن كاتب السرّ بدر الدين بن مزهر ، فاستمرّ إلى الآن عامله الله بألطافه ، وختم لنا وله بخير. آمين!

ثم تُوفِّى فى سادس رمضان سنة ثلاث وتسعين ، ووَلِىَ ولده القاضى بدر الدين أعزّه الله تعالى !

ذكر جوامع مصر*

اعلم أنه من حين فُتحت مصر لم يكن بها مسجد نقام فيه الجمعة سوى جامع عمرو بن العاصى إلى أن قدم عبد الله بن علىّ بن عبد الله بن عباس من العراق فى طلب مَرْوان الحمار سنة ثلاث وثلاثين ومائة ، فنزل عسكرُه فى شمالىّ الفُسطاط وبنوْا هنالك الأبنيَة، فسمِّىَ ذلك الموضع بالعسكر، وأقيمتْ هناك الجمعة فى مسجدفصارت الجمعة تقام بجامع عمرو وبجامع العسكر إلى أن بنى السلطانُ أحمدُ بن طولون جامعه حين بنى القطائع [(١)] ، فأبطِلت الخطبة من جامع العَسْكر ، وصارت الجمعة تقام بجامع عمرو وبجامع ابن طولون إلى أن قدِم جوهر القائد [(٢)] ، واختطّ القاهرة ، وبنى الجامع الأزهر فى سنة ستين وثلاثمائة ، فصارت الجمعة تُقام بثلاثة جوامع [(٣)] .

ثم إنّ العزيز بالله بنَى فى ظاهر القاهرة من جهة باب الفتوح الذى يعرف اليوم بجامع الحاكم سنة ثمانين وثلاثمائة ،وأكمله ابنُه الحاكم ، ثم بنى جامع المقس وجامع راشدة، فكانت الجمعة تقام فى هذه الجوامع الستة إلى أن انقضت دولة العُبيديين فى سنة سبع وستين،وخمسمائة، فبطلَت الجمعة من الجامع الأزهر،وبقِيتْ فيما عداه .

فلّما كانت الدولة التركيّة أحدثتْ عدّة جوامع ، فبُنى فى زمن الظّاهر بيبرس جامع الحسينيّة فى سنة تسع وستين ؛ ثم بَنَى النّاصر بن قلاوون الجامع الجديد بمصر فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة ، وبنى أمراؤه وكتّابه فى أيامه نحو ثلاثين جامعا ، وكثُرت فى هذا القرن وما بعده إلى الآن ؛ فلعلّها الآن فى مصر والقاهرة أكثر من مائتى جامع .

---

* المقريزى ٤ : ٢ .

(١) المقريزى : « على جبل يشكر ، فى سنة تسع وخمسين ومائتين حين بنى القطائع » .

(٢) المقريزى : « من بلاد القيروان بالمغرب » .

(٣) المقريزى : « فكانت الجمعة تقام فى جامع عمرو ، وجامع ابن طولون والجامع الأزهر وجامع القرافة الذى يعرف اليوم بجامع الأولياء » .

قال هشام بن عمّار : حدّثنا المغيرة بن المغيرة ، حدّثنا عثمان بن عطاء الخُراسانىّ عن أبيه ، قال : لمّا افتتح عمر البلدان كتب إلى أبى موسى وهو على البصرة يأمره أن يتّخذ مسجدا للجماعة ، ويتّخذ للقبائل مساجد ، فإذا كان يوم الجمعة انضمّوا إلى مسجد الجماعة، وكتب إلى سعد بن أبى وقاص وهو على الكوفة بمثل ذلك ، وكتب إلى عمرو بن العاصى وهو على مصر بمثل ذلك ، وكتب إلى أمراء أجناد الشام ألّا ينْبذوا إلى القرى وأن ينزلوا المدائن ، وأن يتّخذوا فى كلّ مدينة مسجدا واحدا ، ولا تتّخذ القبائل مساجد ؛ وكان الناس متمسّكين بأمر عمر وعهده .

وقال القُضاعىّ : لم تكن الجمعة تقام فى زمن عمرو بن العاصى بشىء من أرض مصر إلا بجامع الفسطاط .

قال ابنُ يونس : جاء نفر من غافق إلى عمرو بن العاصى ، فقالوا : إنّا نكون فى الريف ، فنجتمع فى العيدين الفطر والأضحى ، ويؤمّنا رجل منّا ، قال : نعم ، قالوا: فالجمعة؟ قال : لا ، ولا يصلّى الجمعة بالناس إلاّ من أقام الحدود ، وأخذ بالذنوب، وأعطى الحقوق.

جامع عمرو*

قال ابن المتوج فى إيقاظ المتغفل وإيعاظ المتؤمل : هو الجامع العتيق المشهور بتاج الجوامع ، قال الليث بن سعد : ليس لأهل الراية مسجد غيره : وكان الذى حاز موضعه ابنُ كلثوم التُّجِيبىّ[١] ، ويكنَى أبا عبد الرحمن ، ونزله فى حصارهم الحصن ، فلمّا رجعوا من الإسكندرية سأل عمرو قيسَبة فى منزله هذا ، تجعله مسجدا؟ فقال قيسبة: فإنى أتصدّق به على المسلمين ، فسلّمه إليهم ؛ فبُنِى فى سنة إحدى وعشرين ، وكان طوله خمسين ذراعا فى عرض ثلاثين . ويقال إنه وقف على إقامة قبلته ثمانون رجلا من الصحابة ، منهم الزبير ابن العوام والمِقداد بن الأسود وعبادة بن الصّامت و [أبو] الدرداء وأبو ذرّ وأبو بُصرة ومحمية بن جَزء الزُّبيدىّ ونبيه بن صواب وفضالة بن عبيد وعقبة بن عامر ورافع بن مالك وغيرهم[٢] .

ويقال إنها كانت مشرفة جدًّا ، وأنّ قرة بن شريك لما هَدم المسجد وبناه فى زمن الوليد تيامن قليلا .

وذُكِر أنّ الليث بن سعد وعبد الله بن لَهِيعة كانا يتيامنان إذا صلّيَا فيه ؛ولم يكن للمجسد الذى بناه عمرو محراب مجوّف ، وإنما قُرّة بن شَريك جعل المحراب المجوّف .

---

* المقريزى ٤ : ٥ .

(١) هو قيسبة بن كلثوم التجيبى ؛ أحد بنى سوم ؛ سار من الشام إلى مصر مع عمرو بن العاص ، فدخلها فى مائة راحلة وخمسين عبداً وثلاثين فرسا . فلما أجمع المسلمون وعمرو بن العاص على حصار الحصن ، نظر قيسبة بن كلثوم ، فرأى جنانا تقرب من الحصن ، فعرج عليها فى أهله وعبيده ، فنزل فضرب فيها فسطاطه ، وأقام فيها طول حصارهم الحصن ، حتى فتحه الله عليهم، ثم خرج قيسبة مع عمرو إلى الإسكندرية وخلف أهله فيها ، ثم فتح الله عليهم الإسكندرية ، وعاد قيسبة إلى منزله هذا فنزله » . المقريزى .

(٢) المقريزى عن داود بن عقبة : « أن عمرو بن العاص بعث ربيعة بن شرحبيل بن حسنة وعمرو ابن علقمة القرشى ثم العدوى يقيمان القبلة ؛ وقال لهما : قوما إذا زالت الشمس ــ أو قال : انتصفت ــ فاجعلاها على حاجبيكما ــ ففعلا » .

وأوّل مَنْ أحدث ذلك عمر بن عبد العزيز ، وهو يومئذ عاملُ الوليد على المدينة حين هدم المسجد النبوىّ ، وزاد فيه .

وأوّل مَنْ زاد فى جامع عمرو مسلمة بن مخلّد ، وهو أمير مصر سنة ثلاث وخمسين، شكا الناس إليه ضيق المسجد ، فكتب إلى معاوية ، فكتب معاوية إليه يأمره بالزيادة فيه ، فزاد فيه مِنْ بحريّه ، وجعل له رحبة من البحرىّ وبيّضه وزخرفه ، ولم يغيّر البناء القديم ، ولا أحدث فى قبلته ولا غربيّه شيئا .

وكان عمرو قد اتّخذ منبرا ، فكتب إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعزِم عليه فى كسره: أما بحسبك أن تقوم قائما ،والمسلمون جلوس تحت عقبيْك ! فكسره .

وذُكر أنّه زاد من شرقيّه حتى ضاق الطريق بينه وبين دار عمرو بن العاصى وفرشَه بالحصر وكان مفروشا بالحصباء .

وقال فى كتاب الجند العربىّ : إنّ مسلَمة نَقَض جميع ما كان عمرو بن العاصى بناه ، وزاد فيه من شرقيّه ، وبنَى فيه أربع صوامع ، فى أركانِه الأربعة برسم الأذان، ثم هدمه عبدالعزيز بن مروان أيّام إمْرَته بمصر فى سنة تسع وسبعين ، وزاد فيه من ناحيةالغرب، وأدخل فيه الرّحبة التى كانت بحريّه .

ثم فى سنة تسع وثمانين أمر الوليد نائبه بمصر بِرفع سَقْفه وكان مطأطئاً ، ثم هدمه قُرّة بن شَريك بأمر الوليد سنة اثنتين وتسعين وبناه ، فكانوا يجمعون فى قيساريّة العسل حتى فرِغ من بنائه فى رمضان سنة ثلاث وتسعين، ونصِب فيه المنبر الجديد فىسنة أربع وتسعين ، وعمِل فيه المحراب المجوّف ، وعمل للجامع أربعة أبواب ، ولم يكن لهقبل إلا بابان ، وبنىَ فيه بيت المال بناه أسامة بن زيد التنّوخى متولّىالخراج بمصر سنة تسع وتسعين ؛ فكان مال المسلمين فيه، ثم زاد فيه صالح بن علّى بن عبد الله بن عباس ،

وهو يومئذ أمير من قِبَل السّفاح ، وذلك فى سنة ثلاث وثلاثين ومائة، فأدخل فيــه دار الزبير بن العوام ، وأحدث له بابا خامسا .

ثم زادِ فيه موسى بن عيسى الهاشمىّ ، وهو يومئذ أمير مصر من قِبَل الرشيــد فى شعبان سنة خمس وسبعين ومائة .

ثم زاد فيه عبد الله بن طاهر بن الحسين ـ وهو أمير مصر من قِبَل المأمون ـ فى جمادى الآخرة سنة اثنتى عشرة[1] ومائتين ؛ فتــكامل ذَرْع الجامع مائتين وتسعين ذراعا بذراع العمل طولاً فى مائة وخمسين عَرْضا . ويقال إن ذَرْع جامع ابن طولون مثل ذلك سوى الأزقّة المحيطة بجوانبه الثلاثة . ونصب عبد الله بن طاهر اللّوح الأخضر ، فلما احترق الجامع احترق ذلك اللوح ، فجعل أحمد بن محمد العجيفىّ هذا اللوح مكانه ، وهو الباقى إلى اليوم .

ولما تولّى الحارث بن مسكين القضاء من قِبَل المتوكل سنة ثلاث وثلاثين ومائتين، أمر ببناء هذه [2] الرحبة لينتفع الناس بهــا ، وبلّط زيادة بن طاهر ، وأصلح السّقف . ثم زاد فيه أبو أيوب أحمد بن محمد بن شجاع صاحب الخراج فى أيام المستعصم فى سنة ثمان وخمسين ومائتين.

ثمّ وقع فى مؤخّر الجــامع حريق فى ليلة الجمعة لتسع خلون من صفر سنــة خمس وسبعين ومائتين ، فأمر خمارويه بن أحمد بن طولون بعمارته على يد العُجيفىّ ، فأعيــد على ما كان، وأنفق فيــه ستة آلاف وأربعمائة دينار ، وكتِب اسم خمــارويه فى دائرة الرّواق الذى عليه اللوح الأخضر [3] .

---

(١) فى المقريزى : « وصل عبدالله بن طاهر بن الحسين بن مصعب مولى خزاعة ، أميراً من قبل المأمون فى شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة ومائتين ، وتوجه إلى الإسكندرية مستهل صفر سنة اثنتى عشرة ومائتين ، ورجع إلى الفسطاط فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة » . (٢) المقريزى : « ورحبة الحارث هى الرحبة البحرية من زيادة الخازن ، وكانت رحبة يتابع الناس فيها يوم الجمعة » .

(٣) المقريزى : « وأمر عيسى النوشرى فى ولايته الثانية على مصر فى سنة أربع وتسعين ومائتين بإغلاق الجامع فيما بين الصلوات ، فكان يفتح للصلاة فقط ، وأقام على ذلك أياما ، فضج أهل المسجد ففتح لهم » .

وزاد فيه أبو حفص العباسىّ أيام نظره فى قضاء مصر خلافةً لأخيه الغرفة التى يؤذّن فيها المؤذنّون فى السطح ؛ وذلك فى سنة ست وثلاثين وثلثمائة .

ثمّ زاد فيه أبو بكر محمد بن عبد الله بن الخازن رواقا مقداره تسعة أذرع، وذلك فى رجب سنة سبع وخمسين وثلثمائة ، ومات قبل إتمامه فأتمّهُ ابنه علّى، وفرغ فى رمضان سنة ثمان وخمسين ، ثم بنى فيه الوزير أبو الفرج يعقوب بن كلّس بأمر العزيز بالله الفوّارة التى تحت قبة بيت المال ، وهو أوّل من عمل فيه فوّارة[١] .

وفى سنة سبع وثمانين وثلثمائة بيّض المسجد، ونقشت ألواحُه، وذُهّب على يد برجوان الخادم ، وعمِل فيه تنّور يوقَد كلّ ليلة جمعة .

وفى سنة ثلاث وأربعمائة أنزِل إليه من القصر بألف ومائتين وتسعين[٢] مصحفاً فى ربعات ، فيها ماهو مكتوب بالذهب كلّه ، ومكّن الناس من القراءة فيها ، وأنزِل إليه تنوّر من فضّة استعمله[٣] الحاكم بأمر الله برسم الجامع، فيه مائة ألف درهم فضّة ،فاجتَمع الناس، وعلّق بالجامع بعد أن قلِعَتْ عتبتا الجامع حتى أدخل به .

ثم فى أيّام المستنصر فى رمضان سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة زيد فى المقصورة فى شرقيّها وغربيّها ، وعمِلت منطقة فضّة فى صدر المحراب الكبير ، أثبت عليها اسم أمير المؤمنين، وجَعل لعمودىِ المحراب أطواقاً من فضة ، فلم يزل[٤] ذلك إلى أن استبدّ السلطان صلاح الدين بن أيوب فأزاله[٥] .

وفى ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ، عمِل مقصورة خشب ومحراب ساج

---

(١) المقريزى : « وزاد فيه مساتف الخشب المحيطة بها على يد المعروف بالمقدسى الأطروش متولى مسجد بيت المقدس » . (٢) المقريزى : « وثمان وتسعين » . (٣) المقريزى : « عمله » .

(٤) المقريزى : « وجرى ذلك على يد عبدالله بن محمد بن عبدالله فى شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة » . (٥) المقريزى : « بعد موت العاضد لدين الله فى محرم سنة سبع وستين وخمسمائة، فقلع مناطق الفضة من الجوامع بالقاهرة » .

منقوش بعمودىْ صندل برسم الخليفة ، تنصّب له فى زمن الصيف ، وتقلع فى زمن الشتاء إذا صلى الإمام فى المقصورة الكبيرة .

وفى سنة أربع وستين وخمسمائة تمكّن الفرنج من ديار مصر ، وحكموا فى القاهرة حكما جائرا ، فتشعّث الجامع ، فلما استبدّ السلطان صلاح الدين جدّده فى سنة ثمان وستين وخمسمائة ، ورخّمه ورسم عليه اسمه ، وعمر المنظرة التى تحت المئذنة الكبيرة ، وجعل لها سقاية .

ولما تولى تاج الدين بن بنت الأعزّ قضاء الديار المصرية أصلح ما مال منه ، وهدم مابه من الغرف المحدَثة ، وجمع أرباب الخِبْرة ، واتفق الرأى على إبطال جواز الماء [١] إلى الفسقيّة ، وكان الماء يصل إليها من بحر النيل ، فأمر بإبطاله لما كان فيه من الضرر على جدار الجامع .

وجدّ السلطان بيبرس فى عمارة ماتهدّم من الجامع ، فرسم بعمارته ، وكتب اسم الظاهر بيبرس على اللوح الأخضر ، وجُلِيت العُمُد كلّها ، وبُيّض الجامع بأسره ، وذلك فى رجب سنة ست وستين وستمائة . ثم جُدّد فى أيام المنصور قلاوون سنة سبع وثمانين وسبعمائة .

ولما حدثت الزلزلة فى سنة اثنتين وسبعمائة تشعّث الجامع فجدّده [٢] سلار نائب السلطنة .

ثم تشعث فى أيّام الظاهر برقوق ، فعمره الرئيس برهان الدين إبراهيم بن عمر المحلىّ

---

(١) المقريزى : « جريان الماء إلى فوارة الفسقية » .

(٢) المقريزى : « فاتفق الأميران بيبرس الجاشنكير — وهو يومئذ أستادار الملك الناصر محمد بن قلاوون والأمير سلار وهو نائب السلطنة ، وإليهما تدبير الدولة — على عمارة الجامعين بمصر والقاهرة » .

رئيس التجار ، وأزال اللوح الأخضر ،وجدّد لوحا آخر بدله وهو الموجود الآن ، وانتهت عمارته فى سنة أربع وثمانمائة .

* * *

وقال ابن المتوّج : ذرْع هذا الجامع اثنان وأربعون ألف ذراع بذراع البزّ المصرىّ القديم ، وهو ذراع الحصر المستمرّ الآن ، وذرعه بذراع العمل ثمانية وعشرون ألف ذراع ، وعدد أبوابه ثلاثة عشر بابا .

وممّن تولى إمامة هذا الجامع أبو رجب العلاء بن عاصم الخولانىّ ، وهو أوّل من سلّم فى الصلاة تسليمتين بهذا الجامع ، بكتاب ورد عليه من المأمون يأمره بذلك ؛ وصلّى خلفه الإمام الشافعىّ حين قدم مصر ، فقال : هكذا تكون الصلاة ، ماصلّيتُ خلف أحد أتمّ صلاة من أبى رجب ولا أحسن .

ولما تولّى القَصص حسن بن الربيع بن سليمان فى زمن المتوكّل سنة أربعين ومائتين ، أمر بترك قراءة « بسم الله الرحمن الرحيم » فى الصّلاة ، وأمر أن تصلّى التراويح ، وكانت تصلَّى قبل ذلك ستّ تراويح .

قال القضاعىّ : ولم يكن النّاس يصلّون بالجامع صلاة العيد ، حتى كانت سنة ست وثلثمائة صلّى فيها رجل يعرف بعلىّ بن أحمد بن عبد الملك الفهمىّ [(١)] صلاة الفِطْر ، ويقال إنه خطب من دفترٍ نظرا ، وحُفِظ عنه أنه قال : « اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلّا وأنتم مشركون » ، فقال بعض الشعراء :

قام فى العيــــد لنا خطيباً   فحرّض النّاس على الكفرِ [(٢)]

وذكر بعضهم أنه كان يوقَد فى الجامع العتيق كلّ ليلة ثمانية عشر ألف فتيلة

---

(١) المقريزى : « يعرف بابن أبى شيخة » .

(٢) بعده فى المقريزى : « وتوفى سنة تسع وثلثمائة » .

وأنّ المطاق برسمه خاصة لوقود كل ليلة أحد عشر قنطارا زيتاً طيّبا .

وقال المقريزىّ : أخبرنى شهاب الدين أحمد بن عبد الله الأوحدىّ ، أخبرنى المؤرخ ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفُرات ، أخبرنا العلامة شمس الدين محمد بن عبدالرحمن ابن الصائغ الحنفىّ ، أنه أدرك بجامع عمرو قبل الوباء الكائن فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة بِضْعاً وأربعين حلْقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه .

جامع أحمد بن طولون *

هــذا الجـامع موضعه يعرف بجبل يشـكر ، قال ابن عبد الظـاهر : وهو مكان مشهور بإجابة الدعاء ، وقيل : إن موسى عليه الصلاة والسلام ناجى ربه عليه بكلمات .

وابتدأ فى بناء هذا الجامع الأمير أبو العباس أحمد بن طولون بعد بنائه القطائع (١) ، وهى مدينة بناها مابين سفح الجبل حيث القلعة الآن ، وبين الـكبارة ومابين كوم الجارح وقناطر السباع ؛ فهذه كانت القطائع (٢) .

وكان ابتداء بنائه فى سنة ثلاث وستين ومائتين ، وفرغ منه سنة ست وستين ، وبلغت النفقة عليه فى بنائه مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار . وقيل : إنه قال : أريد أن أبنىَ بناء إن احترقتْ مصر بقىَ ، وإن غرقت بقىَ ، فقيل : تبنى بالجير والرّماد والآجرّ الأحمر ، ولا تجعل فيه أساطين رخام ، فإنّه لا صبر له على النّار ؛ فبنى هذا البناء ، فلمّا كمل بناؤه أمر بأن يعمل دائرة منطقه عنبر معجون ليفوح ريحُها على المصلّين ، وأشعر الناس بالصلاة فيه ، فلم يجتمع فيه أحدٌ ، وظنّوا أنه بناه من مال حرام ، فخطب

* المقريزى ٤ : ٣٦ ــ ٤٩ .

(١) المقريزى : « فى سنة ثلاث وستين ومائتين » .

(٢) قال ابن تغرى بردى : « القطائع كانت بعض الأطباق التى للمماليك السلطانية الآن ، وكانت كل قطيعة لطائفة تسمى بها ؛ فـكانت قطيعة تسمى قطيعة السودان ، وقطيعة الروم ، وقطيعة الفراش ؛ ونحو ذلك ، وكانت كل قطيعة لسكن جماعة ؛ وهى بمنزلة الحارات اليوم ، وسبب بناء ابن طولون القصر والقطائع لـكثرة مماليكه وعبيده ، فضاقت دار الإمارة عليه ، فركب إلى سفح الجبل ، وأمر بحرث قبور اليهود والنصارى ، واختط موضعها ، وبنى القصر والميدان ، ثم أمر لأصحابه وغلمانه أن يختطوا لأنفسهم حول قصره وميدانه بيوتا ، واختطوا وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة الفسطاط ــ أعنى مصر القديمة ــ ثم بنيت القطائع ، وسميت كل قطيعة باسم من سكنها » . النجوم الزاهرة ٣ : ١٥ .

فيه ، وحلف أنه مابنى هذا المسجد بشىء من ماله ، وإنما بناه بكنز ظفر به ، وإن العشار الذى نصبه على منارته وجده فى الكنز [١] .

فصلى الناس فيه ، وسألوه أن يوسع قبلته، فذكر أن المهندسين اختلفوا فى تحرير قبلته، فرأى فى المنام النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول : يا أحمد ، ابن قبلة هذا الجامع على هذا الموضع ؛ وخط له فى الأرض صورة ما يعمل . فلما كان الفجر مضى مسرعا إلى ذلك الموضع ؛ فوجد صورة القبلة فى الأرض مصورة، فبنى المحراب عليها ، ولا يسعه أن يوسع فيه لأجل ذلك ، فعظم شأن الجامع ، وسألوه أن يزيد فيه زيادة ، فزاد فيه .

قال الخطيب : ركب أحمد بن طولون يوماً يتصيد بمصر ، فغاصت قوائم فرسه فى الرمل ، فأمر بكشف ذلك الموضع ، فظهر له كنز فيه ألف ألف دينار ، فأنفقها فى أبواب البر والصدقات ، وبنى منها الجامع ، وأنفق عليه مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار ، وبنى المارستان ، وأنفق عليه ستين ألف دينار .

وقال صاحب مرآة الزمان [٢] : قرأت فى تاريخ مصر أن ابن طولون كان لا يعبث قط ،

---

(١) المقريزى : « كان أحمد بن طولون يصلى الجمعة فى المسجد القديم اللاصق للشرطة ، فلما ضاق عليه بنى الجامع الجديد مما أفاء الله عليه من المال الذى وجده فوق الجبل فى الوضع المعروف بتنور فرعون ، ومنه بنى العين ، فلما أراد بناء الجامع قدر له ثلاثمائة عمود ، فقيل له : ما تجدها أو تنفذ إلى الكنائس فى الأرياف والضياع والخراب ، فتحمل ذلك ؛ فأنكر ذلك ولم يختره ، وتعذب قلبه بالفكر فى أمره ، وبلغ النصرانى الذى تولى له بناء العين ، وكان قد غضب عليه وضربه ورماه فى المطبق ، فكتب إليه يقول : أنا أبنيه لك كما تحب وتختار بلا عمد إلا عمودى القبلة ، فأحضروه وقد طال شعره حتى نزل على وجهه ، فقال له : ويحك ! ما تقول فى بناء الجامع ؟ فقال : أنا أصوره للأمير حتى يراه عيانا بلا عمد إلا عمودى القبلة ، فأمر بأن تحضر له الجلود فأحضرت ، وصوره له ، فأعجبه واستحسنه وأطلقه وخلع عليه ، وأطلق له للنفقة عليه مائة ألف دينار ، فقال له : أنفق ، وما احتجت إليه بعد ذلك أطلقناه لك ، فوضع النصرانى يده فى البناء فى الموضع الذى هو فيه ، وهو جبل يشكر ، فكان ينشر منه ، ويعمل الجير ، ويبنى إلى أن فرغ من جميعه ، وبيضه وعلق فيه القناديل والسلاسل الحسان الطوال ، وفرش فيه الحصر ، وحمل إليه صناديق المصاحف ونقل إليه القراء والفقهاء » .

(٢) مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، لسبط ابن الجوزى ، فى التواريخ القديمة الإسلامية وأخبار الأمم الماضية ، رتبه على السنين إلى سنة ٦٥٤ ، وهى السنة التى مات فيها المؤلف .

وأنه أخذ يوما درجا من الكاغَد ، وجعل يعبث به ، وبقيَ بعضه فى يده ، فعجب الحاضرون فقال : اصنعوا منارة الجامع على هذا المثال ، وهى قائمة اليوم على ذلك . قال : ولما تمّ بناء الجامع رأى ابنُ طولون فى منامه كأن الله تجلّى للقصور التى حول الجامع ، ولم يتجلّ للجامع ، فسأل المعبّرين ، فقالوا : يخرب ما حوله ، ويبقى الجامع قائما وحده . قال : ومِنْ أين لكم هذا ؟ قالوا : من قوله تعالى : ﴿ فلمّا تجلّى ربُّه للجَبَلِ جَعله دكّاً ﴾[1] وقوله عليه الصلاة والسلام : « إذا تجلّى الله لشىء خضع له » ، فكان كما قالوا .

وفى الخطط للمقريزىّ : بنى أحمد بن طولون جامعه على بناء جامع سامرّاء ، وكذلك المنارة ، وبيّضه وحلّقه وفرشه بالحصر العبدانيّة ، وعلّق فيه القناديل المحكمة بالسلاسل النحاس المفرغة الحسان الطوال ، وحمل إليه صناديق المصاحف ، وكان فى وسط صحنه قبّة مشبّكة من جميع جوانبها ، وهى مذهّبة على عشرة عُمد رخام مفروشة كلّها بالرخام ، وتحت القبة قصعة رخام سعتها أربعة أذرع ، وسطها فوّارة تفور بالماء ، وكانت على السطح علامات للزوال والسطح بدرابزين ساج ، فاحترق هذا كلّه فى ساعة واحدة فى ليلة الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى سنة تسع وسبعين وثلاثمائة ، فلما كان فى محرّم سنة خمس وثمانين وثلاثمائة ؛ أمر العزيز بالله بن المعزّ ببناء فوّارة عِوَضا عن التى احترقت .

قال المقريزىّ : ولما كمل بناء جامع بن طولون صلّى فيه القاضى بكّار[2] إماما ، وخطب فيه أبو يعقوب البلخىّ ، وأملى فيه الحديث الربيع بن سليمان تلميذ الإمام الشافعىّ ، ودفع إليه أحمد بن طولون فى ذلك اليوم كيسا فيه ألف دينار[3] . وعمل الربيع

---

(١) الأعراف ١٤٣

(٢) المقريزى : « بكار بن قتيبة القاضى » . (٣) المقريزى : « فلما فرغ المجلس خرج إليه غلام بكيس فيه ألف دينار وقال : يقول لك الأمير : نفعك الله بما علمك؛ وهذه لأبى طاهر — يعنى ابنه — وتصدق أحمد بن طولون بصدقات عظيمة فيه ، وعمل طعاما عظيما للفقراء والمساكين وكان يوماً عظيما » .

كتاباً (١) فيما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «مَن بنى لله مسجدا ولو كمفحَص قطاة بنى الله له بيتا فى الجنة » ، ودسّ أحمد بن طولون عيونا لسماع ما يقوله النّاس من العيوب فى الجامع ، فقال رجل : محرابه صغير ، وقال آخر : ما فيه عمود ، وقال آخر : ليس له ميضأة ، فجمع الناس وقال : أمّا المحراب فإنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد خطّه لى ، وأما العُمُد فإنى بنيتُ هذا الجامع من مالٍ حلال وهو الكنز ، وما كنت لأشوبَه بغيره ، وهذه العمد إمّا أن تكون من مسجد أو كنيسة ، فنزهته عنهما ؛ وأما الميضأة ، فها أنا أبنيها خَلْفه . ثم عمل فى مؤخّره ميضأة وخِزانة شراب فيها جمع الأشربة والأدوية ، وعليها خدم ، وفيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث من الحاضرين للصلاة ، وأوقف على الجامع أوقافاً كثيرة سِوَى الرِّباع ونحوها ، ولم يتعرّض إلى شىء من أراضى مصر البتّة .

ثم لمّا وقع الغلاء فى زمن المستنصر خربت القطائع بأسْرِها ، وعدم السكن هنالك، وصار ما حول الجامع خرابا .

وتوالتْ الأيام على ذلك ، فتشعّث الجامع ، وخرب أكثرُه ، وصارت المغاربة تنْزل فيه بإبلها ومتاعها عند ما تقدُم الحج ، وتمادَى الأمر على ذلك .

ثم إنّ لاجين لما قتِل الأشرفُ خليل بن قلاوون هرب، فاختفى بمنارة هذا الجامع فنذر إن نجّاه الله من هذه الفتنة ليعمرنه ، فنجّاه الله ، وتسلْطن، فأمر بتجديده ، وفوّض أموره إلى الأمير علم الدين سنجر الزينىّ ، فعمره ووقف عليه وقفاً ، ورتّب فيه دروس التفسير والحديث والفقه على المذاهب الأربعة والقراءات والطبّ والميقات حتى جعل من جملة ذلك وقفا على الدِّيكة تكون فى سطح الجامع فى مكان مخصوص بها لأنها تعين الموقّتين وتوقظهم فى السحر . فلما قرِئ كتاب الوقف على السلطان أعجبه ،

---

(١) المقريزى: « بابا » .

كلّ ما فيه إلا أمرُ الدِّيكة ، فقال: أبطلوا هذا لاتُضحِكوا النّاس علينا ، فأبطل .

وأوّل من ولىَ نظرَه بعد تجديده الأميرُ علم الدين سنجر العادلىّ ، وهو إذ ذاك دوادار السلطان لاجين .

ثم ولىَ نظره قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة ، ثم وليَه أميرُ مجلس فى أيام الناصر محمد بن قلاوون ؛ فلما مات وليَه قاضى القضاة عزّ الدين بن جماعة . ثم ولّاه الناصرُ للقاضى كريم الدين ، فجدّد فيه مئذنتين ، فلمّا نكبه السلطان عاد نظره للقاضى الشافعىّ إلى أيام السلطان حسن ، فتولّاه الأمير صرغتمش ؛ وتوفّر فى مدة نظره من مال الوقف مائة ألف درهم فضّة ، وقبض عليه وهى حاصلة ، فباشره قاضى القضاة إلى أيام الأشرف شعبان ، ففوّض نظره إلى الأمير الجاى اليوسفىّ إلى أن غرق ، فتحدّث فيه القاضى الشافعىّ إلى أن فوض الظاهر برقوق نظره إلى الأمير قطلوبغا الصفوىّ ، ثم عاد نظره إلى القضاة بعد الصفوىّ ، وهو بأيديهم إلى اليوم .

وفى سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة جدّد الرواق البحرى الملاصق للمئذنة البازدار مقدّم الدولة عبيد بن محمد بن عبد الهادى ، وجدّد فيه أيضا ميضأة بجانب الميضأة القديمة .

الجامع الأزهر *

هذا الجامع أول جامع أُسِّسَ بالقاهرة ، أنشأه القائد جوهر الكاتب الصِّقِلِّىّ مولى المعزّ لدين الله لما اختطّ القاهرة ، وابتدأ بناءه فى يوم السّبت لستٍّ بقين من جُمادى الأولى سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ، وكَمُل بناؤه لسبع[1] خلوْن من رمضان سنة إحدى وستين ، وكان به طِلّسم ، لا يسكُنه عصفور ولا يمام ولا حمام ، وكذا سائر الطيور[2] .

ثمّ جدّده الحاكم بأمر الله ، ووقف عليه أوقافاً ، وجعل فيه تنوُّرين فِضّة وسبعة وعشرين قِنديلا فِضّة ، وكان نضدّه فى محرابه منطقة فِضّة ، كما كان فى محراب جامع عمرو ، فقلِعت فى زمن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فجاء وزنها خمسة آلاف درهم نُقْرة[3] ، وقلع أيضا المناطق من بقيّة الجوامع .

ثم إنّ المستنصر جدّد هذا الجامع أيضا وجدّده الحافظ ، وأنشأ فيه مقصورة لطيفة بجوار الباب الغربى الذى فى مقدّم الجامع[4] .

ثم جُدِّد فى أيام الظاهر بيبرس .

ولما بُنى الجامع كانت الخطبة تقام فيه ، حتى بُنِيَ الجامع الحاكمىّ ، فانتقلت الخطبة إليه ، وكان الخليفة يخطب فى جامع عمرو جمعة ، وفى جامع ابن طولون جمعة ، وفى

(*) المقريزى ٤ : ٤٩ ــ ٥٥ .

(١) المقريزى : « لتسع » . وفيه : « وجم فيه وكتب بدائرة القبة التى فى الرواق الأول وهى على يمنة المحراب والمنبر ما نصه بعد البسملة : « مما أمر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم معد الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين على يد عبده جوهر الكاتب الصقلى وذلك فى سنة ستين وثلثمائة » .

(٢) المقريزى : « وهو صورة ثلاثة طيور منقوشة ، كل صورة على رأس عمود ، فنها صورتان فى مقدم الجامع بالرواق الخامس، منهما صورة فى الجهة الغربية فى العمود وصورة فى أحد العمودين اللذين على يسار من استقبل سدة المؤذنين ، والصورة الأخرى فى الصحن فى الأعمدة القبلية مما يلى الشرقية » .

(٣) النقرة : القطعة المذابة من الذهب أو الفضة .

(٤) المقريزى : «عرفت بمقصورة فاطمة ، من أجل أن فاطمة الزهراء رضى الله عنها رئيت بها فى المقام » .

الجامع الأزهر جمعة ، ويستريح جمعة . فلمّا بُنى الجامع الحاكمىّ صار الخليفة يخطُب فيه .

ولم تنقطع الجمعة من الجامع الأزهر بالكلية . فلمّا وَلِىَ السلطان صلاح الدين بن أيوب،قلّد وظيفةَ القضاءصدرَ الدّين بن درباس، فعمل بمقتضى مذهبه ، وهو امتناع إقامة خطبتين فى بلد واحد ، كما هو مذهب الشافعىّ رضى الله عنه ، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر ، وأقرّها بالجامع الحاكمىّ لكونه أوسع ، فلم يزل الجامع الأزهر معطّلاً من إقامة الخطبة فيه إلى أيام الظاهر بيبرس ، فتحدّث فى إعادتها فيه ، فامتنع قاضى القضاة ابن بنت الأعزّ وصمّم ، فولّى السّلطان قاضيا حنفياً ، فأذِن فى إعادتها فأعيدت .

جامع الحاكم *

أوّلُ مَنْ أسّسه العزيز بالله ابن المعزّ ، وخطب فيه ، وصلّى بالناس [١] ، ثم أكمله الحاكم بأمر الله [٢] ، وكان أوّلاً يعرف بجامع الخطبة ، ويعرف اليوم بجامع الحاكم ، ويقال له الجامع الأنور ، وكان تمام عمارته فى سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وَحَبَس عليه الحاكم عِدّة قياسر وأملاك بباب الفتوح ، وقد هُدِم فى الزلزلة الكائنة فى سنة اثنتين وسبعمائة ، فجدّده بيبرس الجاشنكير ، ورتّب فيه دروساً على المذاهب الأربعة ، ودرس حديث ودرس نحو ، ودرس قراءات .

* * *

ومن بناء الحاكم أيضا جامع راشدة ، بجوار رباط الآثار ، وعرِف بجامع راشدة؛ لأنه فى خُطّة راشدة ؛ قبيلة من لَخْم . وصلّى به الحاكم الجمعة أيضا [٣] .

* * *

ومن بنائه أيضا الجامع الذى بالمقْس على شاطئ النيل، ووقف عليه أوقافا ، ثم جدّده فى سنة سبعين وسبعمائة الوزير شمس الدين المقْسِىّ [٤] .

* * *

(*) المقريزى ٤ : ٥٥ ـ ٦٢ .

(١) المقريزى : « هذا الجامع بنى خارج باب الفتوح أحد أبواب القاهرة » .

(٢) المقريزى: « ثم أكمله الحاكم بأمر الله ، فلما وسع أمير الجيوش بدر الجمالى القاهره ، وجعل أبوابها حيث هى اليوم صار جامع الحاكم داخل القاهرة ، وكان يعرف أولا بجامع الخطبة » .

(٣) نقل المقريزى عن المسبحى فى حوادث سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة ، «ابتدئ ببناء جامع راشدة سابع عشر ربيع الآخر ، وكان مكانه كنيسة حولها مقابر لليهود والنصارى فبنى بالطوب ثم هدم وزيد فيه ، وبنى بالحجر ، وأقيمت به الجمعة » .

وانظر المقريزى ٤ : ٦٣ ـ ٦٥ .

(٤) انظر المقريزى ٤ : ٦٥ ، ٦٦ .

ومن الجوامع التى بنيت فى خلافة بنى عُبيد الجامع الأقمر ، بناه الآمر بأحكام الله [١] .

والجامع الأفخر ؛ وهو [٢] الذى يقال له اليوم جامع الفكاهيّين بناه الخليفة الظافر.

وجامع الصالح خارج [٣] باب زُويلة بناه الملك الصالح طَلائعَ بن رُزِّيك وزير الخليفة الفائز.

---

(١) المقريزى عن ابن عبد الظاهر « كان مكانه علافون والحوش مكان المنظرة ، فتحدث الخليفة الآمر مع الوزير المأمون بن البطائحى فى إنشائه جامعاً ، فلم يترك قدام القصر دكانا ، وبنى تحت الجامع المذكور فى أيامه دكاكين ومخازن من جهة باب الفتوح ، لامن صوب القصر ، وكمل الجامع المذكور فى أيامه ، وذلك فى سنة تسع عشرة وخمسمائة ، وذكر أن اسم الآمر والمأمون عليه » .
وانظر المقريزى ٤ : ٧٥ ، ٧٦ .

(٢) ذكره المقريزى فى ٤ : ٨٠ باسم جامع الظافر ، وقال : « هذا الجامع بالقاهرة فى وسط السوق الذى كان يعرف قديما بسوق السراجين، ويعرف اليوم بسوق الشرابيين ... وهو من المساجد الفاطمية » .

(٣) ذكره المقريزى فى ٤ : ٨١ باسم جامع الصالح .

ذكر أمهات المدارس والخانقاه العظيمة بالديار المصرية

قال : أوّل من بَنَى المدارس فى الإسلام الوزير نظام الملك قوام الدين الحسن بن علىّ الطوسىّ ، وكان وزيرَ السلطان البارسلان السلجوقىّ عشر سنين ، ثم وزَر لولده مَلِكشاه عشرين سنة . وكان يحبّ الفقهاء والصوفيّة ويكرمهم ، ويؤثرهم ، بنى المدرسة النظاميّة ببغداد ، وشرع فيها فى سنة سبع وخمسين وأربعمائة ، ونَجزَت سنة تسع وخمسين، وجمع الناس على طبقاتهم فيها يوم السبت عاشر ذى القعدة ليدرس فيها الشيخ أبو إسحاق الشّيرازىّ ، فجاء الشيخ ليحضر الدرس ، فلقيَه صبىٌّ فى الطريق ، فقال : ياشيخ كيف تدرس فى مكان مغصوب ؟ فرجع الشيخ ؛ واختفى . فلمّا يئسوا من حضوره ، ذكر الدّرس بها أبو نصر بن الصّباغ عشرين يوما . ثم إنّ نظام الملك احتال على الشيخ أبى إسحاق ولم يزل يرفق به حتى درّس بها ، فحضر يوم السّبت مستهَلّ ذى الحجة ، وألقى الدرس بها إلى أن تُوفِّىَ . وكان يخرج أوقات الصلاة فيصلِّى بمسجد خارجها احتياطا. وبنى نظام الملك أيضا مدرسة بنيسابور تسمىَّ النظاميّة ، درّس بها إمام الحرَمين ،واقتدى النّاس به فى بناء المدارس.

وقد أنكر الحافظ الذهبىّ فى تاريخ الإسلام على مَنْ زعمَ أنّ نظام الملك أوّل مَنْ بنى المدارس وقال : قد كانت المدرسة البيهقيّة بنيسابور قبل أن يولَد نظام الملك ،والمدرسة السعيدّية بنيسابور أيضا ، بناها الأمير نصر بن سُبكُتِكين أخو السلطان محمود لمّا كان واليا بنيسابور ، ومدرسة ثالثة بنيسابور ، بناها أبو سعد إسماعيل بن علىّ بن المثنّى الأستراباذى الصوفىّ الواعظ شيخ الخطيب ، ومدرسة رابعة بنيسابور أيضا بنيت للأستاذ أبى إسحاق .

قال الحاكم فى ترجمة الأستاذ أبى إسحاق : لم يكن بنيسابور مدرسة قبلها مثلها ؛

وهذا صريح فى أنه بُنِيَ قبلها غيرها. قال القاضى تاج الدين السّبكى فى طبقاته الكبرى : قد أدَرت فكرى ، وغلب على ظنّى أن نظام الملك أول مَنْ رتب فيها المعاليم للطلبة ، فإنه لم يصحّ لى : هل كان للمدارس قبله معاليم أم لا ؟ والظاهر أنه لم يكن لهم معلوم . انتهى .

وأما مصر ، فقال ابن خلكان : لمّا ملك السلطان صلاح الدين بن أيوب الديار المصرية ، لم يكن بها شيء من المدارس ، فإنّ الدولة العُبيدية كان مذهبُها مذهب الرافضة والشيعة ، فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء ، فبنى السلطان صلاح الدين بالقَرافة الصغرى المدرسة المجاورة للإمام الشافعى ، وبنى مدرسة مجاورة للمشهد الحسينى بالقاهرة ، وجعل دار سعيد السعداء خادم الخلفاء المصريين خانقاه[1] ، وجعل دار عباس الوزير العُبيدىّ مدرسة للحنفيّة ، وهى المعروفة الآن بالسيوفية ، وبنى المدرسة التى بمصر المعروفة بزين التجار للشافعى ، وتعرف الآن بالشريفيّة ، وبنى بمصر مدرسة أخرى للمالكيّة وهى المعروفة الآن بالقمحيّة .

وقد حُكى أنّ الخليفة المعتضِد بالله العباسىّ لما بنى قصره ببغداد استزاد فى الذّرع ، فسئل عن ذلك ، فذكر أنه يريده ليبنى فيها دورا ومساكن ومقاصر ، يرتّب فى كلّ موضع رؤساء ، كلّ صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعمليّة ، ويجرِى عليهم الأرزاق السنيّة، ليقصد كلّ مَن اختار علما أوصناعة رئيسا ، فيأخذ عنه .

وقد ذكر الواقدىّ أنّ عبد الله بن أمّ مكتوم قدِم مهاجرا إلى المدينة ، فنزل دار القرّاء .

---

(١) الخانقاه ، وجمعها خوانق، وكذلك الرباطات والزوايا : معاهد دينية إسلامية للرجال والنساء ، أنشئت لإيواء المنقطعين للعلم والزهاد والعباد . ولفظا الرباط والزاوية عربيان، أما الخانقاه ففارسية ومعناها البيت ، وهى حديثة فى الإسلام ، فى حدود الأربعمائة ، وجعلت لتخلى الصوفية فيها للعبادة والتصوف .

ذكر المدرسة الصلاحية

بجوار الإمام الشافعيّ رضى الله عنه ، وينبغى أن يقال لها : تاج المدارس ،وهى أعظم مدارس الدنيا على الإطلاق لشرفها بجوار الإمام الشافعىّ ، ولأن بانيها أعظمُ الملوك ، ليس فى ملوك الإسلام مثله ، لا قبله ولا بعده ، بناها السّلطان صلاح الدين بن أيوب رحمه الله تعالى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، وجعل التدريس والنظر بها للشّيخ نجم الدين الُخبُوشانىّ ، وشرط له من المعلوم فى كلّ شهر أربعين دينارا معاملة ، صرف كلّ دينار ثلاثة عشر درهما وثلث درهم عن التدريس ، وجعل له عن معلوم النظر فى أوقاف المدرسة عشرة دنانير ، ورتّب له من الخبز فى كلّ يوم ستين رطلا بالمصرىّ ، وراويتين من ماء النيل .

قال المقريزىّ : ولىَ تدريسها جماعة من الأكابر الأعيان ، ثم خلت من مدرّس ثلاثين سنة ، واكتُفى فيها بالمعيدين [(١)] ، وهم عشرة أنفس ، فلمّا كان سنة ثمان وسبعين وستمائة ، ولىَ تدريسها تقىّ الدين بن رزين ، وقُرِّر له نصف المعلوم ، فلما مات وليَها الشيخ تقىّ الدين بن دقيق العيد بربع المعلوم ، فلما ولىَ الصاحب برهان الدين الخضر السنجارىّ التدريس قرّر له المعلوم الشاهد به كتاب الوقف .

وقد استمرّت بيد الخبُوشانىّ إلى أن مات سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، فوليَها شيخ الشيوخ صدر الدين أبو الحسن محمد بن حَمّويه الجوينىّ فى حياة الواقف ،فلما مات الواقف عزل

---

(١) المعيد : ما عليه قدر زائد على سماع الدروس ، من تفهيم الطلبة ونفعهم معيد النعم ١٨٠ .
(حسن المحاضرة ٢/١٧)

عنها واستمرّت عليها أيدى بنى السلطان ، واحدا بعد واحد ، ثم خلصت بعد ذلك وعاد إليها الفقهاء والمدرّسون . كذا فى تاريخ ابن كثير .

وذكر المقريزىّ فى الخطط أن صدر الدين بن حمّويه ولىَ تدريس الشافعىّ ، وأنه وليها ولده كمال الدين أحمد ، ومات سنة تسع وثلاثين وستمائة ، ثم وليها قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعزّ ، ثم وليها قاضى القضاة تقىّ الدين بن رزين ، ثم وليها قاضى القضاة تقىّ الدين بن بنت الأعزّ ، ثم وليها قاضى القضاة شيخ الإسلام تقىّ الدين بن دقيق العيد ، ثم وليها عز الدين محمد بن محمد بن الحارث بن مسكين ، ثم وليها فى سنة إحدى عشرة وسبعمائة ضياء الدين عبد الله بن أحمد بن منصور النّشائىّ[1] ، ومات سنة ست عشرة وسبعمائة ، ثم وليَها مجد الدين حرمى بن قاسم بن يوسف الفاقوسىّ إلى أن مات سنة أربع وثلاثين وسبعمائة ، ثم وليَها شمس الدين بن القمّاح ، ثم ضياء الدّين محمد بن إبراهيم المناوىّ ، ثم شمس الدين بن اللّبان ، ثم شمس الدين محمد بن أحمد بن خطيب بيروت الدّمشقى ، ثم بهاء الدين بن الشيخ تقىّ الدين السبكىّ ، ثم أخوه تاج الدين لما سافر بهاء الدين عِوضه قاضيا بالشام ، ثم لمّا عاد تاج الدين إلى القضاء عاد إليها إلى التدريس إلى أن مات .

ثم ابن عمه قاضى القضاة بهاء الدين أبو البقاء محمد بن عبد البرّ السبكىّ ، ثم ولده بدر الدين محمد ، ثم البرهان بن جماعة ، ثم الشيخ سراج الدين البُلقينىّ ، ثم أعيد البرهان بن جماعة ، ثم أعيد بدر الدين أبو البقاء السبكىّ ، ثم قاضى القضاة عماد الدين أحمد بن عيسى الكَرَكىّ ، ثم أعيد البدر بن أبى البقاء ، ثم وليها بعده ولده جلال الدّين محمد إلى أن مات ، فوليَها بعده شمس الدين البيرىّ أخو جمال الدين الأستادار ، ثم عزِل فى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة لمّا نكب أخوه . ووَليها

---

(١) ط : « النسائى » تحريف .

نور الدين على بن عمر التِّلوانى[1] ، فأقام بهـا مدة طويلة إلى أن مات فى ذى القعدة سنة أربع وأربعين وثمانمائة ؛ وهو أطول شيوخها مدّة ، ووليها بعده العلاء القلقشندىّ ، ثم ابن حَجَر الونائى[2] ، ثم القاياتى ، ثم السَّفَطىّ ، ثم الشرف المناوىّ ، ثم السراج الحِمْصىّ ثم أعيد المناوىّ إلى أن مات ، ثم ولده زين العابدين ، ثم ابنه ثم إمام الكاملية ، ثم الحمصىّ ، ثم الشيخ زكريا .

(١) التلوانى ، بالكسر ، نسبة لتلوانة قرية بالمنوفية .
(٢) الونائىّ ، منسوب لونا من قرى الصعيد .

خانقاه سعيد السعداء*

وقَفها السلطان صلاح بن أيوب ، وكانت دارًا لسعيد السعداء قنبر – ويقال عنبر – عتيق الخليفة المستنصر[1]، فلما استبدّ الناصر صلاح الدين بالأمر ، وقَفها على الصوفيّة فى سنة تسع وستين وخمسمائة ، ورتّب لهم كلّ يوم طعاما ولحما وخبزا ، وهى أول خانقاه عُمِلت بديار مصر ، ونعت شيخُها بشيخ الشيوخ ، وما زال يُنعَت بذلك إلى أن بنى الناصر محمد بن قلاوون خانقاه سرياقوس ، فدُعى شيخها بشيخ الشيوخ ، فاستمرّ ذلك بعدهم إلى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة ست وثمانمائة ، وضاعت الأحوال ، وتلاشت الرّتب ، تلقّب كل شيخ خانقاه بشيخ الشيوخ ، وكان سكانها من الصوفيّة ، يعرَفون بالعلم والصلاح ، وتُرجَى بركتُهم .

وولىَ مشيختها الأكابر ، وحيث أطلق فى كتب الطبقات فى ترجمة أحد أنه ولى «مشيخة الشيوخ » فالمراد مشيختُها ولشيخها شيخ الشيوخ ؛ هذا هو المراد عند الإطلاق .

وقد وليها عن الواقف صدر الدين محمد بن حَمّويْه الجوينىّ ، ثم ولده كمال الدين أحمد، ثم ولده معين الدين حسن أخو كمال الدين ، ثم وَليَها كريم الدين عبد الكريم بن الحسين الآمُلِىّ ، ثم وليها قاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعزّ ، ثم وليها الشيخ صابر الدين حسن البخارىّ ، ثم وليها شمس الدين محمد بن أبى بكر الأيلىّ ، ثم وليها قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة ، ثم وليها الآمُلىّ ، ثم وليها العلامة علاء الدين القُونوىّ ، ثم وليها مجد الدين موسى بن أحمد بن محمود الأقصرائىّ ، ثم وليها شمس الدين محمد بن إبراهيم

(*) المقريزى ٤ : ٢٧٣ – ٢٧٥ .

(١) فى المقريزى: « أحد الأستاذين المحنكين خدام القصر عتيق الخليفة المستنصر ، قتل فى سابع شعبان سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، ورمى برأسه من القصر ، ثم صلبت جثته بباب زويلة » .

النقشوانىّ ، ثم وليَها كمال الدين أبو الحسن الجوارىّ ، ثم سراج الدين عمر الصدّى إلى أن مات سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، ثمّ وَليَها الشيخ بدر الدين حسن بن العلاّمة علاء الدين القُونوىّ إلى أن مات سنة ست وسبعين وسبعمائة ، ثم جلال الدين جار الله الحنفىّ إلى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة ، ثم وليَها علاء الدين أحمد بن محمد السرائىّ ، ثم الشيخ برهان الدين الأبناسىّ ، ثم شمس الدين محمد بن محمود بن عبد الله ابن أخى جار الله ، ثم أعيد البرهان الأبناسىّ ، ثم شهاب الدين أحمد بن محمد الأنصارىّ ، ثم أعيد محمد بن أخى جار الله ، ثم وليَها شمس الدين محمد بن على البلالىّ مدة متطاولة إلى أن مات سنة عشرين وثمانمائة ، ثم وليَها شمس الدين البيرىّ أخو جمال الدين الأستادَار ، ثم وليَها الشيخ شهاب الدين بن المحموه ، ثم جمال الدين يوسف بن أحمد التّزمنتىّ المعروف بابن المجبّر ، ثم أعيد إبن المحموه ، ثم القاياتى ، ثم الشيخ خالد ، ثم تقىّ الدين القلقشندىّ ، ثم السراج العبادىّ ، ثم الكورانىّ ، ثم السنتاوىّ .

المدرسة الكاملية*

وهى دار الحديث ، وليس بمصر دار حديث غيرها ، وغير دار الحديث التى بالشيخونيّة. قال المقريزىّ : وهى ثانى دارٍ عُملت للحديث ، فإنّ أوّل مَنْ بنى دار حديث على وجه الأرض الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بدمشق ، ثم بنى الكامل هذه الدار ، بناها الملك الكامل ، وكملت عمارتها فى سنة إحدى وعشرين وستمائة ، وجعل شيخها أبو الخطاب عمر بن دحية ، ثم وَلِيَها بعده أخوه أبو عمر وعثمان بن دِحْية ، ثم وليَها الحافظ زكى الدين عبد العظيم المنذرىّ ، ثم وليَها شرف الدين بن أبى الخطاب بن دحية ، ثم وليَها بعده المحدّث محيي الدين بن سراقة ، ثم وليَها تاج الدين بن القسطلانىّ المالكىّ ، ثم وليها النّجيب عبد اللطيف الحرّانىّ ، ثم وليَها القطب القسطلانىّ الشافعىّ، ثم وليها ابنُ دقيق العيد ، ثم وليها أبو عمرو بن سيّد الناس والد الحافظ فتح الدين ، فانتزعها منه البدْر بن جماعة ، ثم وليَها عماد الدين محمد بن علىّ بن حرمىّ الدمياطىّ ومات سنة تسع وأربعين وسبعمائة ، ثم البدْر بن جماعة ، ثم نزل عنها للجمال ابن التّركمانى إلى أن مات سنة تسع وستين وسبعمائة ، ووليَها الحافظ زين الدين العراقىّ ، ثم لمّا أن وَلِىَ قضاء المدينة سنة ثمان وثمانين وسبعمائة ، استقرّ فيها الشيخ سراج الدين بن الملقّن .

(*) المقريزى ٤ : ٢١١ ــ ٢١٦ .

المدرسة الصالحية *

بين القصرين هى أربع[1] مدارس للمذاهب الأربعة ، بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل ، شرع فى بنائها سنة تسع وثلاثين[2] . قال المقريزىّ : وهذه المدرسة من أجلّ مدارس القاهرة إلّا أنها قد تقادم عهدها ، فرثت ، ولما فتحت أنشد فيها الأديب أبو الحسين الجزّار :

ألّا هكذا يبنى المدارسَ مَنْ بَنَى ومَنْ يتغالَى فى الثّواب وفى البنَا

فى أبيات أخر .

قال السراج الورّاق :

مليك له فى العلم حبٌّ وأهله فلله حبٌّ ليس فيه ملامُ!

فشيّدها للعلم مدرسةً غدا عراق أهلها إذ ينسبون وشامُ

ولا تذكرنْ يوما نظاميّةً لها فليس يضاهى ذا النّظام نظامُ

قال ابن السنبرة الشاعر ــ وقد نظر إلى قبر الملك الصالح ، وقد دفن إلى مايختص بالمالكية من مدرسته :

بنيتَ لأرباب العلوم مدارساً لتنجُو بها من هَوْل يوم المهالِك

وضاقت عليك الأرضُ لم تلق منزلا تحلّ به إلا إلى جنب مالك

(*) المقريزى ٤ : ٢٠٩ ــ ٢١١ .

(١) المقريزى : « هذه المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة ، كان موضعها من جملة القصر الكبير الشرقى » .

(٢) قال المقريزى : « ورتب فيها دروساً أربعة للفقهاء المنتمين إلى المذاهب الأربعة فى سنة إحدى وأربعين وستمائة ، وهو أول من عمل بمصر دروسا أربعة فى مكان » .

المدرسة الظاهرية القديمة*

للملك الظاهر بيبرس البندقدارىّ شرع فى بنائها سنة إحدى وستين وستمائة، وتمّت فى أول سنة اثنتين وستين ، ورتّب لتدريس الشافعيه بها تقىّ الدين بن رزين، والحنفيّة محب الدين عبد الرحمن بن الكمال عمر بن العديم ، ولتدريس الحديث الحافظ شرف الدين الدمياطىّ ، ولإقراء القراءات بالروايات كمال الدين القرشىّ ووقف بها خزانة كتب[1] .

المدرسة المنصورية**

أنشأها هى والبيمارستان الملك المنصور قلاوون ، وكان على عمارتها الأمير علم الدين سنجر الشجاعىّ ، فلما تمّا دخل عليه الشرف البوصيرىّ ، فمدحه بقصيدة أولها :

أنشأت مدرسة ومارستانًا لتصحّح الأديان والأبدانا[2]

فأعجبه ذلك وأجزل عطاءه ، ورتب فى هذه المدرسة دروس فقه على المذاهب الأربعة، ودرس تفسير ودرس حديث ، ودرس طبّ .

(*) المقريزى ٤ : ٢١٦ ، ٢١٧ .

(١) المقريزى : « وجعل بها خزانة كتب تشتمل على أمهات الكتب فى سائر العلوم ، وبنى بجانبها مكتبا لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله تعالى ، وأجرى لهم الجرايات والكسوة » .

(**) المقريزى ٤ : ٢١٨ .

المدرسة الناصرية*

ابتدأها العادل كتبغا ، وأتمها الناصر محمد بن قلاوون ، فرغ من بنائها سنة ثلاث وسبعمائة ، ورتّب بها درسا للمذاهب الأربعة .

قال المقريزىّ : أدركت هذه المدرسة وهى محترمة إلى الغاية ، يجلس بدهليزها عدة من الطواشّية ، ولا يمكن غريب أن يصعد إليها[1] .

* * *

الخانقاه البيبرسية**

بناها الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكيرىّ فى سنة سبع وسبعمائة موضع دار الوزارة ، ومات بعد أن تسلطن، فأغلقها الناصر بن قلاوون فى سلطنته الثالثة مدّة ، ثم أمر بفتحها . قال المقريزىّ : وهى أجل خانقاه بالقاهرة بنيانًا ، وأوسعها مقدارا ، وأتقنها صنعة ، والشباك الكبير الذى بها هو الشباك الذى كان بدار الخلافة ببغداد . وكانت الخلفاء تجلس فيه ، حمله الأمير البساسيرى مِنْ بغداد لمّا غلب على الخليفة القائم العباسىّ وأرسل به إلى صاحب مصر .

(*) المقريزى ٤ : ٢٢١ .

(١) بعدها فى المقريزى « وكان يفرق بها على الطلبة والقراء وسائر أرباب الوظائف بها السكر فى كل شهر لكل أحد منهم نصيب » .

(**) المقريزى ٤ : ٢٧٦ ــ ٢٧٩.

خانقاه قوصون بالقرافة*

بنيت فى سنة ست وثلاثين وسبعمائة ، وأول مَنْ ولى مشيختها الشمسى محمود الأصفهانى الإمام المشهور صاحب التصانيف المشهورة ، وكانت من أعظم جهات البرّ ، وأعظمها خيرا ، إلى أن حصلت المِحَن سنة ست وثمانمائة ، فتلاشى أمرها كما تلاشى غيرها .

* * *

خانقاه شيخو**

بناها الأمير الكبير رأس نوبة الأمراء الجدارية سيف الدين شيخو العمرى جالبه خواجا عمر وأستاذه الناصر محمد بن قلاوون ، ابتدأ عمارتها فى المحرّم سنة ست وخمسين وسبعمائة، وفرغ من عمارتها فى سنة سبع وخمسين وسبعمائة ورتّب فيها أربع دروس على المذاهب الأربعة ، ودرْس حديث ، ودرْس قراءات ومشيخة إسماع الصحيحين والشفاء ، وفى ذلك يقول ابن أبى حَجَلة :

ومدرسةٍ للعلم فيها مواطنٌ ... فشيخو بها فردٌ وإيثارُه جمعُ
لئن بات منها فى القلوب مهابةٌ ... فواقفِها ليثٌ وأشياخُها سبعُ

ومات شيخو بعد فراغها بسنة فى ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ، وشرط فى شيخها الأكبر وهو شيخ حضور التصوف وتدريس الحنفية بالديار المصرية ، وأن يكون عارفا بالتفسير والأصول ، وألّا يكون قاضياً ؛ وهذا الشرط عامٌّ فى جميع أرباب الوظائف بها .

(*) المقريزى ٤ : ٢٧٨ .
(**) المقريزى ٤ : ٢٨٣ .

وأول مَن تولى المشيخة بها الشيخ أكمل الدين محمد بن محمود البابرتيّ .

وأوّل من تولى تدريس الشافعيّة بها الشيخ بهاء الدين بن الشيخ تقى الدين السّبكى .

وأوّل مَنْ تولّى تدريس المالكيّة بها الشيخ خليل ، صاحب المختصر .

وأوّل من تولى تدريس الحنابلة بها قاضى القضاة موفّق الدين .

وأوّل من تولى تدريس الحديث بها جمال الدين عبد الله بن الزولىّ ، وأقام الشيخ أكمل الدين فى المشيخة إلى أن مات فى رمضان سنة ست وثمانين .

ووَلِىَ بعده عزّ الدين يوسف بن محمود الرازىّ إلى أن مات فى المحرم سنة أربع وتسعين .

ووَلِىَ بعده جمال الدين محمود بن أحمد القيصرىّ المعروف بابن العجمىّ ، ثم عُزل فى سنة خمس وتسعين .

ووَلِىَ الشيخ سيف الدين السِّيرامىّ مضافا لمشيخة الظاهرية .

ثم ولىَ بدر الدين الكلسانىّ ، ثم عزل وولى الشيخ زاده .

ثم ولى بعده جمال الدين بن العديم سنة ثمان وثمانمائة ، ثم ولده ناصر الدين سنة إحدى عشرة وثمانمائة .

ثم وليَها أمين الدين بن الطرابُلُسىّ سنة اثنتى عشرة ، ثم أعيد ابن العديم ، ثم وَلِيهـا شرف الدين بن التبانىّ ، سنة خمس عشرة إلى أن مات فى صفر سنة سبع وعشرين ، وولى الشيخ سراج الدين قارئ الهداية إلى أن مات سنة تسع وعشرين ، ووليها الشيخ زين الدين التَّفَهنىّ ، ثم صُرِف فى سنة ثلاث وثلاثين بالقضاء ، ووليها صدر الدين بن العجمىّ ، فمات فى رجب من عامه ، ووليها البدر حسن بن أبى بكر القدسىّ ، ثم وليها الشيخ باكير.

***

مدرسة صرغتمش *

ابتدأ بعمارتها فى رمضان سنة ست وخمسين وسبعمائة ، وتمت فى جمادى الأولى سنة سبع وخمسين ، وهى من أبدع المبانى وأجلّها ، ورُتِّب فيها درس فقه على مذهب الحنفيّة ، قرر فيه القوام الإتقانىّ ، ودرس حديث .

وقال العلامة شمس الدين بن الصائغ :

ليهنك ياصَرْغَتْمَشُ مابنيتَـــهُ　　لأخراك فى دنياك من حسنِ بنيانِ
به يزدهى الترخيم كالزهر بهجـــةً　　فلله من زهر ولله من بانِ!

(*) المقريزى ٤ : ٢٥٦ .

مدرسة السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون

شرع فى بنائها فى سنة ثمان وخمسين وسبعمائة ، وكان فى موضعها دور وإسطبلات.
قال المقريزىّ : لا يعرف ببلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يَحكِى هذه المدرسة فى كبر قالبها ، وحسن هِندامها ، وضخامة شكلها ، قامت العمارة فيها مدة ثلاث سنين ، لا تبطُل يوما واحدا ، وأرصد لمصروفها فى كلّ يوم عشرين ألف درهم ، منها نحو ألف مثقال ذهباً ، حتى قال السلطان : لولا أن يقال : ملك مصر عجز عن إتمام مابناه لتركتُ بناءها؛ من كثرة ماصرف .

وذرع إيوانها الكبير خمسة وستون ذراعا فى مثلها ، ويقال إنه أكبر من إيوان كسرى بخمسة أذرع، وبها أربع مدارس للمذاهب الأربعة .

قال الحافظ ابن حجر فى إنباء الغمر : يقال إن السلطان حسن أراد أن يُعمل فى مدرسته درس فرائض ، فقال البهاء السبكى: هو باب من أبواب الفقه ، فأعرض عن ذلك. فاتّفق وقوع قضية فى الفرائض مشكلة ، فسئل عنها السّبكىّ ، فلم يجب عنها ، فأرسلوا إلى الشيخ شمس الدين الكلائىّ [1] فقال : إذا كانت الفرائض باباً من أبواب الفقه ، فما له لايجيب ! فشقّ ذلك على بهاء الدين وندم على ماقال .

وكان السّلطان قد عزم على أن يبنى أربع منائر ، يؤذنون عليها ، فتمت ثلاث منائر إلى أن كان يوم السبت سادس ربيع الآخر سنة اثنتين وستين وسبعمائة ، سقطت المنارة التى على الباب ، فهلك تحتها نحو ثلاثمائة نفس من الأيتام الذى كانوا قد رُتِّبُوا بمكتب السبيل ومن غيرهم ، فلهج الناس بأن ذلك ينذر بزوال الدولة ، فقال الشيخ بهاء الدين السبكى فى ذلك أبياتا :

أبشر فسعدك يا سلطان مصرَ أتى   بشيرُه بمقالٍ سار كالمثلِ

---

(١) الكلائى ، بالفتح ، منسوب لكفر كلا بالغربية .

إن المنـارة لم تسقط لمنقصـةٍ   لـكن لسرٍّ خفى قد تبيّن لى

من تحتها قرِئ القرآن فاستمعت   فالوجد فى الحال أدّاها إلى الميل

لو أنزل الله قرآنا على جبـلٍ   تصدّعت رأسه من شدة الوجل

تلك الحجارة لم تنقض بل هبطت   من خشية الله لا للضعف والخلل

وغاب سلطانها فاستوحشت فرمت   بنفسها الجوّ فى القلب مشتعل

فالحمد لله خطّ العين زالَ بما   قد كان قدّره الرحمن فى الأزل

لا يعترى البؤس بعد اليوم مدرسةً   شيّدتَ بنيانها لِلْعلم والعملِ

ودمت حتى ترى الدّنيا بها امتلأت   علماً فليس بمصرٍ غيرُ مشتغلِ

فاتّفق قتل السلطان بعد سقوط المئذنة بثلاثة وثلاثين يوما .

المدرسة الظاهرية

كان الشروع فى عمارتها فى رجب سنة ست وثمانين ، وانتهت فى رجب سنة ثمان وثمانين ، وكان القائم على عمارتها جركس الخليلى أمير أخور ، وقال الشعراء فى ذلك وأكثروا، فمن أحسن ماقيل :

الظّاهر الملكُ السلطانُ هِمَّتُـــهُ ... كادتْ لرفعتِه تسمو على زُحَـلِ
وبعض خـدّامه طوعاً لخدمتِه ... يدعو الجبالَ فتأتيه على عجـــلِ

قال ابن العطار :

قد أنشأ الظّاهر السلطان مدرسةً ... فاقت على إرَمٍ مع سرعة العملِ
يكفى الخليلىّ أنْ جاءت لخدمتِـه ... شمُّ الجبال لها تأتى على عَجَلِ

قال الحافظ ابن حجر : ومَنْ رأى الأعمدة التى بها عرف الإشارة . ونزل السلطان إليها فى الثانى عشر من رجب ، ومدّ سماطا عظيما ، وتـكلّم فيها المدرسون ، واستقرّ علاء الدين السِّيرامىّ مدرس الحنفيّة بها ، وشيخ الصوفيّة ، وبالغ السلطان فى تعظيمه حتى فرش سجّادته بيده ، واستقرأ أوحد الدين[1] الرومىّ مدرّس الشافعية وشمس الدين ابن مكين مدرّس المالـكيّة، وصلاح ابن الأعمى مدرّس الحنابلة، وأحمد زاده العجمى مدرس الحديث، وفخر الدين الضرير إمام الجامع الأزهر مدرس القراءات .

قال ابن حجر : فلم يكن منهم مَنْ هو فائق فى فنه على غيره من الموجودين غـيره ، ثم بعد مدّة قرر فيها الشيخ سراج الدين البُلقينىّ مدرس التفسير وشيخ الميعاد .

---

(١) ط : « وحيد الدين » .

المدرسة المؤيدية

انتهت عمارتها فى سنة تسع عشرة وثمانمائة ، وبلغت النفقة عليها أربعين ألف دينار ، واتفق بعد ذلك بسنة ميلُ المئذنة التى بنيت لها على البرج الشمالى بباب زَويلة ، وكان النّاظر على العمارة بهاء الدين بن البرجىّ ، فأنشد تقى الدين بن حجة فى ذلك أبياتا :

على البرجِ من بابْى زَويلة أنشئت مَنارةُ بيتِ الله للعمَل المنجِى
فأخذَ بها البرجُ اللّعين أمالها ألا صرِّحوا ياقومُ باللّعْن للبرجِ

وقال شعبان الأثارىّ :

عتبناَ على ميـــــل المنار زويلةً وقلنا تركت الناس بالميل فى هَرْجِ
فقالت قرينى برج نحسٍ أمالَنى فلاَ بارك الرّحمن فى ذلك البرْجِ

قال الحافظ ابن حجر :

لجامــع مولانا المؤيد رونَقٌ منارتُه بالحسنِ تزهو وبالزَّيْنِ
تقول وقد مالتْ عن القصد أمهلُوا فليس على جسمى أضرّ من العينِ

وقال العينىّ :

منارةٌ كعروس الحسن إذ جُليتْ وهدمها بقضــــاء الله والقدَرِ
قالوا أصيبتْ بعين قلت ذا غلطٌ ما أوجب الهــدم إلا خسّة الحجرِ

وقال نجم الدين بن النبيه :

يقولون فى تلك المنــــار تواضعٌ وعينٌ وأقوالٌ وعنـدِى جليُّهَا
فلا البرجُ أخنى والحجارة لم تُعَبْ ولـكن عروسٌ أثقلتهـا حُليُّهَا

وقال أيضا :

بجـــامع مولانا المؤيد أنشئتْ عروس سَمت ماخلت قطّ مثالَها
ومذ علمت أن لانظيرَ لها انثنت وأعجبَها والعجبُ عنّا أمالَهَا

رباط الآثار*

بالقرب من بركة الحَبَش[1] عَمره الصّاحب تاج الدين بن الصـاحب فخر الدين بن الصاحب بهاء الدين حنا[2]، وفيـه قطعة خشب وحـديد وأشياء أُخر من آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم[3]، اشتراها الصاحب المذكور بمبلغ ستين ألف درهم فضة من بنى إبراهيم أهلَ ينْبُع ؛ ذكروا أنها لم تزل موروثة عندهم من واحد إلى واحد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحملها إلى هذا الرباط، وهى به إلى اليوم يُتبَرَّك[4] بها . ومات الصاحب تاج الدين فى جمادى الآخرة سنة سبع وسبعمائة .

وللأديب جلال الدين بن خطيب داريا فى الآثار بيتان :

ياعينُ إن بَعُد الحبيب ودارُهُ ونأتَ مرابِعُه وشَطَّ مَزَارُهُ[5]
فلقد ظفرتِ من الزمان بطائلٍ إن لم تَرِيْهِ فهـــذه آثارُه

(*) المقريزى ٤ : ٢٩٥–٢٩٧ .

(١) المقريزى : « مطل على النيل ومجاور للبستان المعروف بالمعشوق » .

(٢) هو تاج الدين محمد بن الصاحب فخر الدين محمد بن الوزير الصاحب بهاء الدين على بن سليم بن حنا . ولد سنة ٦٤٠ ، وسمع من سبط السلفى ، وحدث ، وإليـه انتهت رياسة عصره . وكان صاحب صيانة وسؤدد ومكارم وشاكلة حسنة، وبزة فاخرة . وزر سنة ٦٩٣ . وتوفى سنة ٧٠٧ . المقريزى٤ : ٢٩٦ .

(٣) المقريزى : « وإنما قيل له رباط الآثار ؛ لأن فيه قطعة خشب وحديد ، يقال : إن ذلك من آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم » . (٤) قال المقريزى : « وأدركنا لهذا الرباط بهجة ، وللناس فيـه اجتماعات ، ولسكانه عدة منافع لمن يتردد إليه أيام كان ماء النيل تحته دائماً ، فلما انحسر الماء من تجاهه، وحدثت المحن من سنة ست وثمانمائة قل تردد الناس إليه ، وفيه إلى اليوم بقية » .

(٥) المقريزى ٤ : ٢٧٦ ، قال : وقد سبقه لذلك الصلاح خليل بن أيبك الصفدى ؛ فقال :

أكْرِمْ بآثار النبىّ محمّدٍ مَنْ زارَهُ استوفى السرورَ مزارُهُ =

(حسن المحاضرة ٢/١٨)

ذكر الحوادث الغريبة الكائنة بمصر فى ملة الإسلام

من غلاء ووباء وزلازل وآيات وغير ذلك

فى سنة أربع وثلاثين من الهجرة. قال سيف بن عُمر: إن[1] رجلاً يقال له عبد الله بن سَبَأ كان يهوديًّا فأظهر الإسلام، وصار إلى مصر، فأوحى إلى طائفةٍ من الناس كلاماً اخترعه من عند نفسه، مضمونه أنّه كان يقول للرجل: أليس قد ثبت أنّ عيسى بن مريم سيعود إلى هذه الدنيا[2]؟ فيقول الرّجل: بلى، فيقول له: رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل منه، فما يمنع أن يعود إلى هذه الدنيا وهو أشرف من عيسى! ثم يقول: وقد كان أوصى إلى علىّ بن أبى طالب؛ فمحمد خاتم الأنبياء، وعلىّ خاتم الأوصياء. ثم يقول: فهو أحقّ بالأمر من عثمان، وعثمانُ معتدٍ فى ولايته ما ليس له. فأنكروا عليه، فافتتن به بشرٌ كثير من أهل مصر وكان ذلك مبدأ تألّبهم على عثمان.

وفى سنة ست وستين وقع الطاعون بمصر[3].

وفى سنة سبعين كان الوَباء بمصر، قاله الذهبىّ[4].

وفى سنة أربع وثمانين قُتِل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندىّ،

= يا عينُ دونكِ فانظرى وتمتّعى إنْ لم ترَيْهِ فهذِه آثارُهُ

واقتدى بهما فى ذلك أبو الحزم المدنى فقال:

يا عيْنُ كَمْ ذا تَسفحِينَ مدامعًا شوقا لقرب المصطفى وديارِهِ
إن كان صرفُ الدهرِ عاقكَ عنهماَ فتمتّعِى يا عيْن فى آثارِهِ

(١) الخبر فى الطبرى ٤ : ٣٤٠ . (٢) كذا فى الأصول، وعبارة الطبرى: «العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع، ويكذب بأن محمدا يرجع، وقد قال تعالى: ﴿إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معادٍ﴾، فمحمد أحق بالرجوع من عيسى». (٣) النجوم الزاهرة ١ : ١٧٩ : «وفيها كان الطاعون بمصر، ومات فيه خلائق عظيمة، وهذا خامس طاعون مشهور فى الإسلام». (٤) فى العبر ١ : ٧٨ .

وقطِع رأسه، فأمر الحجّاج فطِيف به فى العراق ، ثم بعث به إلى عبد الملك بن مَرْوان ، فطيف به فى الشام ، ثم بعث به إلى عبد العزيز بن مروان وهو بمصر ، فطيف به فيها ، ودفن بمصر ، وجثّته بالرُّخَّج[1] ، فقال بعض الشعراء فى ذلك :

هيهات موضع جثةٍ من رأسِها رأسٌ بمصرَ وجُثّـةٌ بالرّخَّجِ

وفى سنة خمس وثمانين كان الطاعون بالفسطاط ، ومات فيه عبد العزيز بن مرْوان أمير مصر .

وفى سنة خمس وأربعين ومائة ، انتثرتِ الكواكب من أوّل الليل إلى الصباح ، نخاف الناس . ذكره صاحب المرآة .

وفى سنة ثمانين ومائة كان بمصر زلزلة شديدة سقطت منها رأس منارة الإسكندرية.

وفى سنة ست عشرة ومائتين ، وثب رجلٌ يقال له عَبْدوس الفهرىّ فى شعبان ببلاد مصر ، فتغلّب على نوّاب أبى إسحاق بن الرشيد[2] ، وقويتْ شوكته ، وأتبعه خلق كثير ، فركب المأمون من دمشق فى ذى الحجة إلى الديار المصرية ، فدخلها فى المحرّم سنة سبع عشرة ، وظفِر بعبدوس ، فضرب عنقه ، ثم كرّ راجعا إلى الشام[3] .

وفى سنة سبع وثلاثين ومائتين ظهر فى السماء شىء مستطيل دقيق الطّرفين ، عريض الوسط ، من ناحية المغرب إلى عشاء الآخرة ، ثم ظهر خمس ليالٍ وليس بضوء كوكب ، ولا كوكب له ذنَب ، ثم نقص . قاله فى المرآة .

وفى سنة ثمان وثلاثين ومائتين ، أقبلت الرّوم فى البحر فى ثلثمائة مركب ، وأبّهة عظيمة ، فكبَسوا دمياط ، وسَبَوْا وأحرقوا وأسرعوا الكرّة فى البحر ، وسبوْا ستمائة امرأة ، وأخذوا من الأمتعة والأسلحة شيئاً كثيرا ، وفرّ الناس منهم فى كل جهة ،

---

(١) الرخج : كورة أومدينة من نواحى كابل . (٢) هو أبو إسحاق محمد المعتصم ، وكان من ولاته على مصر عيسى بن منصور بن موسى بن عيسى الرافقى ، مولى بنى نصر بن معاوية ، وليها بعد عزل عبدويه ابن جبلة عنها . النجوم الزاهره ٢ : ٢١٥ . (٣) الحادثة مفصلة فى النجوم الزاهره ٢ : ٢١٥، ٢١٦ .

فكان مَنْ غرق فى بحيرة تِنّيس أكثر ممّن أسِر ، ورجعوا إلى بلادهم ، ولم يعرِض لهم أحد[1].

وفى سنة اثنتين وأربعين ومائتين ، زُلزلت الأرض ورُجمت السويداء (قرية بناحية مصر) من السماء ، ووُزِن حجر من الحجارة فكان عشرة أرطال.

وفى سنة أربع وأربعين ومائتين ، اتّفق عيد الأضحى وعيد الفطر لليهود وشعانين النصارى فى يوم واحد . قال ابن كثير : وهذا عجيب غريب[2] . وقال فى المرآة : لم يتّفق فى الإسلام مثل ذلك .

وفى سنة خمس وأربعين ومائتين زُلزلت مصر ، وسُمِع بتِنّيس ضجة دائمة طويلة، مات منها خلق كثير[3].

وفى سنة ست وستين ومائتين قتَل أهلُ مصرَ عامِلَهم البكرخيّ .

وفى سنة ثمان وستين ومائتين ، قال ابن جرير : اتفق أنّ رمضان كان يوم الأحد ، وكان الأحد الثانى الشعانين ، والأحد الثالث الفِصْح ، والأحد الرابع السرور ، والأحد الخامس انسلاخ الشهر .

وفى سنة تسع وستين فى المحرّم ، كسفت الشمس وخسف القمر، واجتماعهما فى شهر نادر . قاله فى المرآة .

وفى سنة ثمان وسبعين ومائتين ، قال ابن الجوزىّ : لليلتين بقيتا من المحرّم طلع نجم ذو جُمّة ، ثم صارت الجُمّة ذؤابة . قال: وفى هذه السنة وردت الأخبار أن نيل مصر غارَ ، فلم يبق منه شىء ، وهذا شىء لم يُعهَد مثله ، ولا بلغنا فى الأخبار السابقة ، فغلت الأسعار بسبب ذلك . وفى أيام أحمد بن طولون تساقطت النجوم ، فراعه ذلك فسأل

---

(١) النجوم الزاهرة ٢ : ٢٩٢ .
(٢) تاريخ ابن كثير ١٠ : ٣٤٦ .
(٣) ابن كثير ١٠ : ٣٤٦ .

العلماء والمنجّمين عن ذلك ، فما أجابوا بشىء، فدخل عليه الجمل الشاعر وهم فى الحديث ، فأنشد فى الحال :

قالوا تساقطتِ النّجو مُ لحـادثٍ فَظٍّ عسيرِ
فأجبتُ عنـد مقالهمْ بجواب محتنِكٍ خَبـيرِ
هـذى النّجوم الساقطا تُ نجوم أعداء الأميرِ

فتفاءل ابنُ طولون بذلك، ووصله .

وفى سنة اثنتين وثمانين ومائتين ، زُفَّتْ قطر الندى بنت خمارويه بن أحمد ابن طولون، من مصر إلى الخليفة المعتضد ، ونقَل أبوها فى جهازها مالم يُر مثله ، وكان من جملته ألف تكة بجوهر وعشرة صناديق جوهر ، ومائةهون ذهب ، ثم بعد كلّ حساب معها مائة ألف دينار لتشترِىَ بها من العراق ماقد تحتاج إليه مما لا يتهيأ مثله بالديار المصرية. وقال بعض الشعراء :

ياسيّـد العربِ الّذى وردتْ له باليُمن والبركات سيدة العجمْ
فاسعدْ بها كسعودِها بك إنّهـا ظفرت بمـا فوق المطالب والهِمَمْ
شمس الضُّحى زُفَّتْ إلى بدر الدّجى فتكشّفت بهما عن الدنيا الظُّلَمْ

وفى سنة أربع وثمانين ومائتين ظهر بمصر ظلمة شديدة وحمرة فى الأفق حتّى جعل الرجل ينظر إلى وجه صاحبه فيراه أحمَر اللون جدًّا ، وكذلك الجدران ، فمكثوا كذلك من العصر إلى الليل ، فخرجوا إلى الصحراء يدْعون الله ويتضرّعون إليه حتى كشف عنهم. حكاه ابن كثير [١] .

وفى سنة ثلاث وتسعين ومائتين ، ظهر رجل بمصر يقال له الخلنجىّ [٢] ، فخلع الطاعة واستولَى على مصر ، وحارب الجيوش ، وأرسل إليه الخليفة المكتفى جيشا فهزمهم

(١) تاريخ ابن كثير ١١ : ٧٦ .

(٢) هو محمد بن علىّ الخلنجى ، قال صاحب النجوم الزاهرة : « شاب من الجند المصريين » .

ثم أرسل إليــه جيشاً آخر عليهم فاتك المعتضدى ، فهزم الخلنجى ، وهرب ، ثم ظفر به وأمسك ، وسُيِّر إلى بغداد [١] .

وفى سنة تسع وتسعين ومائتين ، ظهر ثلاثة كواكب مذنّبة ، أحدها فى رمضان ، واثنان فى ذى القعدة تبقى أياما ، ثم تضمحلّ حكاه ابن الجوزى [٢] . وفيها استخرج من كنز بمصر خمسمائة ألف دينار من غير موانع ، ووجد فى هذا الـكنز ضلع إنسان طوله أربعة عشر شبرا وعرضه شبر ، فبعث به إلى الخليفة المقتدر [٣] ، وأهدى معهُ من مصر تيساً له ضَرْع يحلب لبنا ، حكى ذلك الصولى وصاحب المرآة وابن كثير [٤] .

وفى سنة إحــدى وثلاثمائة ، سار عبد الله المهدى المتغلّب على المغرب . فى أربعين ألفا ليأخــذ مصر ، حتى بقى بينه وبين مصر أيام ، ففجر تـكين [٥] الخاصة النيل فحال المــاء بينهم وبين مصر ، ثم جرت حروب فرجع المهدى إلى برقة بعــد أن ملك الإسكندرية والفيوم .

وفى سنة اثنتين وثلاثمائة عاد المهدى إلى الإسكندرية، وتمّت وقعة كبيرة ، ثم رجع إلى القيروان [٦] .

وفى سنة ست وثلاثمائة أقبل القائم بن المهــدى فى جيوشه ، فأخــذ الإسكندرية وأكثر الصعيد ، ثم رجع.

وفى سنة سبع كانت الحروب والأراجيف الصعبة بمصر ، ثم لطف الله وأوقع المرض بالمغاربة ، ومات جماعة من أمرائهم ، واشتدّت علّة القائم .

---

(١) انظر تفصيل الخبر فى النجوم الزاهرة ٣ : ١٤٧ — ١٥٠ ، وكان ذلك الحادث فى ولاية عيسى بن محمد الأمير أبو موسى النوشرى. (٢) المنتظم ٦ : ١٠٩ (٣) ابن كثير : « وذكر أنه من قوم عاد» .
(٤) تاريخ ابن كثير ١١ : ١١٦ . (٥) تـكين: والى مصر للمرة الرابعة ، من قبل المقتدر .
(٦) النجوم الزاهرة ٣ : ١٨٤ .

وفيها انقضّ كوكب عظيم ، وتقطّع ثلاث قطع ، وسُمِع بعد انقضاضه صوت رعد شديدهائل من غير غيم .

وفى سنة ثمان ملك العُبيديون جزيرة الفُسطاط ، فجزعت الخلق ، وشرعوا فى الهرب والجفل .

وفى سنة تسع استُرجعت الإسكندرية إلى نوّاب الخليفة ، ورجع العُبيدىّ إلى المغرب.

وفى سنة عشر وثلثمائة فى جمادى الأولى ظهر كوكب له ذنَب طوله ذراعان، وذلك فى برْج السنبلة . وفى شعبان منها أهدى نائب[1] مصر إلى الخليفة المقتدر هدايا من جملتها بغلة معها فِلْوُها يتبعها ، ويرجع معها ، وغلام يصل لسانه إلى طرف أنفه. حكاه صاحب المرآة وابن كثير[2].

وفى سنة ثلاث عشرة وثلثمائة فى آخر المحرّم انقضّ كوكب من ناحية الجنوب إلى الشمال قبل مغيب الشمس ، فأضاءت الدنيا منه ، وسُمِع له صوت كصوت الرّعد الشديد.

وفى سنة ثلاث وثلثمائة فى المحرّم ظهر كوكب بذنَب رأسه إلى المغرب وذنَبه إلى المشرق ، وكان عظيما جدًّا وذنَبه منتشر ، وبقىَ ثلاثة عشر يوما إلى أن اضمحلّ .

وفى سنة أربع وأربعين زُلزلت مصر زلزلة صعبة هدمت البيوت ، ودامت ثلاث ساعات ، وفزع الناس إلى الله بالدعاء .

وفى سنة تسع وأربعين رجع حجيج مصر من مكّة، فنزلوا واديًا، فجاءهم سيلٌ فأخذهُم كلهم ، فألقاهم فى البحر عن آخرهم .

وفى سنة خمس وخمسين قطعت بنو سُليم الطريق على الحجيج من أهل مصر ، وأخذوا منهم عشرين ألف بعير بأحمالها ، وعليها من الأموال والأمتعة مالا يُقوّم كثرة ، وبقى الحاجّ فى البوادى ، فهلك أكثرهم . وفى أيام كافور الإخشيدى كثرت

(١) فى ابن كثير : « وهو الحسين بن الماردانى » .
(٢) تاريخ ابن كثير ١١ : ١٤٥ .

الزلازل بمصر ، فأقامت ستة أشهر ، فأنشد محمد بن القاسم بن عاصم قصيدة منها :

مازُلزلت مصر من سوء يُراد بها   لكنها رقصت من عدله فرحا[1]

كذا رأيته فى نسخة عتيقة، من كتاب مذهب الطالبيين، تاريخ كتابتها بعد السمائة، ثم رأيت مايخالف ذلك كما سأذكر .

وفى سنة تسع وخمسين انقضّ كوكب فى ذى الحجة ، فأضاء الدنيا حتى بقىَ له شعاع كالشمس ، ثم سُمِع له صوت كالرعد .

وفى سنة ستين وثلثمائة ، سارت القرامطة فى جمع كثير إلى الديار المصرية ، فاقتتلوا هم وجنود جوهر القائد قتالًا شديدا بعين شمس ، وحاصروا مصر شهورا؛ ومن شعر أمير القرامطة الحسين بن أحمد بن بهرام :

زعمتْ رجال الغرب أنّى هبتهمْ   فدمِى إذنْ ماببنهم مطلولُ

يامصرُ إن لم أسقِ أرضَكِ من دمٍ   يروى ثَراكِ فلا سقانِى النّيلُ

وفى هذه السنة سار رجل من مصر إلى بغداد ، وله قرنان ، فقطعَهما وكواهما وكانا يضربان عليه . حكاه صاحب المرآة .

وفى سنة ثلاث وستين ، خرج بنو هلال وطائفة من العرَب على الحجاج ، فقتلوا منهم خلقا كثيرا ، وعطّلوا على مَنْ بقىَ منهم الحجّ فى هذا العام ، ولم يحصل لأحد حجّ فى هذه السنة سوى أهل دَرْب العراق وحدهم .

وفى سنة سبع وستين كان أمير الحاجّ المصرىّ الأمير باديس بن زيرى ، فاجتمع إليه اللصوص ، وسألوا منه أن يضمنهم الموسم هذا العام بما شاء من الأموال ، فأظهر لهم الإجابة ، وقال : اجتمعوا كلّكم حتى أضمنَكم كلّكم ، فاجتمع عنده بضع وثلاثون لصًّا،

---

(١) تمام المتون ٦٧ ، وقبله :

بالحاكِم العدْلِ أضحَى الدينُ معْتليًا   نجل العلا وسليل السادة الصلحا

فقال : هل بقىَ منكم أحد ؟ فحلفوا أنّه لم يبق منهم أحد ، فعند ذلك أمر بقطع أيديهم كلّهم . ونعمّا فعل !

وفى سنة أربع وثمانين انفرد بالحجّ أهلُ مصر ، ولم يحجّ ركْب العراق ولا الشام لخوف طريقهم ، وكذا فى سنة خمس وثمانين والّتى بعدها .

وفى سنة ست وثمانين قدمتْ مصرَ أربع عشرة قطعة من الأسطول، فقتَلت ونهبت، وأحرقت أموال التجار ، وأخذت سرايا العزيز وحَظاياه ، وكان حالًا لم يُر أعظم منه . ذكره ابن المتوّج .

وفى سنة تسعين أمر الحاكم بمصر بقتل الكلاب فقتِلتْ كلُّها .

وفى سنة اثنتين وتسعين ليلة الاثنين ثالث ذى القعدة انقضّ كوكب أضاء كضوء القمر ليلة التّمام ، ومضى الضياء ، وبقى جُرْمه يتموّج[1] نحو ذراعين فى ذراع برأي العين ، وتشقّق بعد ساعة . وفى هذه السنة انفرد المصريون بالحجّ ، ولم يحجّ أحد من بغداد وبلاد المشرق لعبث الأعراب بالفساد ، وكذا فى سنة ثلاث وتسعين .

وفى سنة ثلاث وتسعين أمر الحاكم بقطع جميع الكرُوم الّتى بديارِ مصر والصعيد والإسكندرية ودمياط ، فلم يبق بها كرْم ، احترازاً من عصر الخمر . وفى هذه السنة أمر الحاكم الناس بالسجود إذا ذكر اسمه فى الخطبة .

وفى سنة سبع وتسعين انفرد المصريون بالحجّ ، ولم يحجّ أهل العراق لفساد الطريق بالأعراب،وكسَا الحاكم الكعبة القَباطىّ البيض .

وفى سنة ثمان وتسعين هدم الحاكم الكنائسَ التى ببلاد مصر ، ونادى : من لم يُسلِم وإلّا فليخرج من مملكتى ، أو يلتزم بما أمِر ، ثم أمر بتعليق صلبان كبار على صُدور النصارى ، وزْن الصّليب أربعة أرطال بالمصرىّ ، وبتعليق خشبة على تمثال رأس

---

(١) ط : « متموج » .

مجل وزنها ستة أرطال فى عنق اليهود . وفى هذه السنة كان سيل عظيم حتى غرق الخندق ، ذكره ابن المتوّج .

وفى سنة تسع وتسعين انفردَ المصريون بالحجّ .

وفى سنة أربعمائة بنى الحاكم دارا للعلم وفرشها ، ونقل إليها الكتب العظيمة مما يتعلّق بالسنّة ، وأجلس فيها الفقهاء والمحدّثين ، وأطلق قراءة فضائل الصحابة ، وأطلق صلاة الضّحى والتراويح ، وبطل الأذان بحىّ على خير العمل ، فكثر الدعاء له ، ثم بعد ثلاث سنين هدم الدار ، وقتل خلقا ممن كان بها من الفقهاء والمحدثين وأهل الخير والديانة ، ومنع صلاة الضّحى والتراويح .

وفى سنة إحدى وأربعمائة انفرد المصريون بالحجّ .

وفى سنة اثنتين وأربعمائة كتِب محضر ببغداد فى نسب خلفاء مصر الّذين يزعمون أنّهم فاطميّون وليسوا كذلك ، وكتب فيه جماعة من العلماء والقضاة والفقهاء والأشراف والأماثل والمعدّلين والصالحين ، شهدوا جميعا أنّ النّاجم بمصر وهو منصور بن نزار المتلقّب بالحاكم ـ حكم الله عليه بالبوار والدمار والخزى والنّكال والاستئصال ـ ابن معدّ ابن إسماعيل بن عبد الرحمن بن سعيد ـ لاأسعده الله ـ فإنه لمّا صار إلى المغرب تسمّى بعُبيد الله ، وتلقّب بالمهدىّ ، ومَنْ تقدّم من سلفه من الأرجاس الأنجاس ـ عليه وعليهم لعنةُ الله ولعنة اللاعنين ـ أدعياء خوارج ، ولانسبَ لهم فى ولد علىّ بن أبى طالب ، ولا يتعلّقون منه بسبب ، وأنّه منزّه عن باطلهم ، وأنّ الذى ادّعوه من الانتساب إليه باطل وزور ، وأنهم لايعلمون أنّ أحدا من أهل بيوت الطالبيين توقّف عن إطلاق القول فى هؤلاء الخوارج أنهم أدعياء ، وقد كان هذا الإنكار لباطلهم شائعاً فى الحرَمين ، وفى أوّل أمرهم بالمغرب منتشرا انتشارا يمنع من أن يدلّس على أحد كذبُهم ، أو يذهبَ وهم إلى تصديقهم ، وأنّ هذا النّاجم بمصر هو وسلفه كفّار وفُسّاق فجّار وملحِدون زنادقة ،

معطِّلون وللإسلام جاحدون ، ولمذهب الثنويّة[1] والمجوسية معتقدون ، قد عطّلوا الحدُود وأباحوا الفرُوج ، وأحلّوا الخمر ، وسفكوا الدّماء ، وسبوا الأبناء ، ولعنوا السلف، وادّعوا الرّبوبية . وكتب فى ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعمائة .

وقد كتب خطه فى المحضر خَلْق كثيرون ، فمن العلوّيين المرتضى والرضىّ وابن الأزرق الموسوىّ وأبو طاهر بن أبى الطيب ومحمد بن محمد بن عمرو بن أبى يَعلى ، ومن القضاة أبو محمد بن الأكفانى وأبو القاسم الحريرىّ وأبو العباس بن السيورىّ . ومن الفقهاء أبو حامد الإسفراينى وأبو محمد بن الكشفلىّ وأبو الحسين القدورىّ وأبو عبد الله الصَّيمرىّ وأبو عبدالله البيضاوىّ وأبو علىّ بن حمكان . ومن الشهود أبو القاسم التَّنُوخىّ، فى كثير .

وفى سنة ثلاث وأربعمائة ،قال ابن المتوّج: رسم الحاكم بألّا تقبّل الأرض بين يديه، ولا يخاطَب مولانا ولا بالصلاة عليه ، وكتب بذلك سِجلٌ فى رجب . قال: وفيها حبسَ النساء ومنعهنّ من الخروج فى الطُّرقات ، وأحرق الزبيب وقطع الكَرْم ، وغرّق العسل. قال ابن الجوزىّ : وفى رمضان انقضّ كوكب من المشرق إلى المغرب غلب ضوءه على ضوء القمر ، وتقطّع قِطعاً ، وبقى ساعة طويلة .

وفى سنة خمس وأربعمائة زاد الحاكم فى مَنْع النساء من الخروج من المنازل ومن دخول الحمّامات ومن التطلّع من الطاقات والأسطحة ومنع الخفّافين من عمل الخِفاف لهنّ ، وقَتَل خلقا من النساء على مخالفته فى ذلك ، وهدم بعض الحمامات عليهنّ ، وغرّق خلقا .

وفى سنة سبع وأربعمائة وردَ الخبرُ بتشعيث الركن اليمانىّ من المسجد الحرام، وبسقوط جدار بين قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، وبسقوط القبّة الكبيرة على صخرة

(١) ط : « النبوية » تحريف .

بيت المقدس . قال ابن كثير : فكان ذلك من أغرب الاتفاقات وأعجبها [1] .

وفى سنة سبع أيضا انفرد المصريون بالحجّ ، ولم يحجّ أحد من بلاد العراق لفساد الطرقات بالأعراب ؛ وكذا فى سنة ثمان .

وفى سنة إحدى عشرة وأربعمائة ، قال ابن المتوّج : عزّ القوت ، ثم هان بعد أراجيف عظيمة . وفى أيام الحاكم ، قال ابن فضل الله فى المسالك : زُلزلت مصر حتى رجفت أرجاؤها ، وضجّت الأمة لا تعرف كيف جارها ، فقال محمد بن قاسم بن عاصم شاعر الحاكم :

بالحاكم العدْل أضحى الدين معتلياً نَجل الهُدى وسليل السّادة الصُّلَحاَ
مازلزلتْ مصرُ من كيدٍ يُراد بها وإنمـا رقصتْ من عدلِهِ فَرَحا

وكانت أيام الحاكم من سنة ست وثمانين وثلثمائة إلى سنة إحدى عشرة وأربعمائة .

وفى سنة ثلاث عشرة وأربعمائة . قال ابن كثير : جرت كائنة غريبة ومصيبة عظيمة ؛ وهى أنّ رجلا من المصريّين من أصحاب الحاكم اتفق مع جماعة من الحجّاج المصريين على أمر سوء ، فلمّا كان يوم الجمعة ، وهو يوم النّفْر الأوّل ، طاف هذا الرجل بالبيت ، فلما انتهى إلى الحجَرِ الأسود ، جاء ليقبّله فضربه بدبّوس كان معه ثلاث ضربات متوالياتٍ ، وقال : إلى متى يعبَد هذا الحجر ! ولا محمّد ولا علىّ يمنعنى عما أفعله ، فإنى أهدم اليوم هذا البيت . فاتّقاه أكثر الحاضرين ، وتأخّروا عنه ، وذلك أنه كان رجلاً طويلا جسيما ، أحمر أشقر ، وعلى باب المسجد جماعة من الفرُسان وقوف ليمنعوه ممّن أراده بسوء ، فتقدّم إليه رجل من أهل اليمن ، معه خِنْجر ، وفاجأه بها ، وتكاثر عليه الناس فقتلوه ، وقطّعوه قِطَعاً ، وتتبّعوا أصحابه ، فقتل منهم جماعة ونهب أهل مكة ركب المصريّين ، وجرت فتنة عظيمة جدًّا ، وسكن الحال ، وأما الحجر

---

(١) ١٢ : ٥ .

الشريف فإنه سقط منه ثلاث فِلَق مثل الأظفار ، وبدا ماتحتها أسمر يضرب إلى صفرة ، محبّباً ، مثل الخشخاش ، فأخذ بنو شيبة تلك الفِلق ، فعجنوها بالمسك واللكّ[1] وحشوا بها تلك الشقوق التي بدَت ، [2] وذلك ظاهر فيه إلى الآن [2] .

وفى سنة سبع عشرة منع الظاهر صاحب مصر من ذَبْح البقر السليمة من العيوب التى تصلح للحرث ، وكتِب عن لسانه كتاب قرئ على الناس ، فيه : « إن الله بسابغ نعمته ، وبالغ حكمته ، خلَق ضروب الأنعام ، وعلم بها منافع الأنام ، فوجب أن تُحْمَى البقر المخصوصة بعمارة الأرض المذلّلة لمصالح الخلق ، فإنّ ذبحها غاية الفساد ، وإضرار بالعباد والبلاد » .

وفيها انفرد المصريون بالحج ، ولم يحجّ أهل العراق والمشرق لفساد الأعراب ، وكذا فى سنة ثمانى عشرة وفى سنة تسع عشرة لم يحجّ أحـد من أهل المشرق ولا من أهل الديار المصرية أيضاً ، إلا أنّ قومامن خُراسان ركبوا فى البحر من مدينة مُكران ، فانتهوا إلى جُدّة ، فحجّوا .

وفى سنة عشرين حجّ أهل مصر دون غيرهم .

وفيها فى رجب انقضّت كواكب كثيرة شديدة الصوت ، قويّة الضوء .

وفى سنة إحـدى وعشرين تعطّل الحجّ من العراق أيضا ، وقطِع على حجاج مصر الطريق ، وأخذته الروم أكثره .

وفى سنة ثلاث وعشرين تعطّل الحجّ من العراق أيضا . وفيها قال ابن المتوّج : استحضر خليفة مصر الظاهر بن الحاكم كلّ مَنْ فى القصر من الجوارى ، وقال لهم : تجتمعون لأصْنَعَ لكم يوماً حسنا لم يُرَ مثلُه بمصر ، وأمر كلّ مَنْ كان له جارية فليحضرها ، ولا تجيء جارية إلا وهى مزيّنة بالحلْى والحُلل ، ففعلوا ذلك حتى لم تُترك جارية إلا أحضِرَتْ ، فجعلهنّ فى مجلس ، ودعا بالبنائين ، فبنى أبواب المجلس عليهنّ ، حتى

(١) اللك نبات يصبغ به .

(٢-٢) ابن كثير ١٢ : ١٤ « فاستمسك الحجر ، واستمر على ما هو عليه الآن ، وهو ظاهر لمن تأمله » .

ماتوا عن آخرهنّ ، وكان يوم جمعهنّ يوم الجمعة لستّ خلوْن من شوّال، وعدّتهن وستمائة وستون جارية ، فلمّا مضى لهنّ ستة أشهر أضرَم النار عليهنّ ، فأحرقهنّ وحليهنّ ، فلا رحمه الله ولا رحم الذى خلَفه !

وفى سنة خمس وعشرين كثُرت الزلازل بمصر . وفيها انقضّ كوكب وسُمِع له صوت مثل الرّعد وضوء مثل المشاعل . ويقال : إنّ السماء انفرجت انقضاضه . حكاه فى المرآة . ولم يحجّ أحدٌ سوى أهلِ مصر ، وكذا فى سنة ست و وسنة ثمان وعشرين .

وفى سنة ثمان وعشرين بعث صاحبُ مصر بمالٍ لينفَق على نهر بالكوفة الخليفة العباسيّ فى ذلك ، فجمع القائم بالله الفقهاء ، وسألهم عن هذا المال ، فأفتوا فىء للمسلمين يُصرَف فى مصالحهم ، فأذن فى صرفه فى مصالح المسلمين .

وفى سنة ثلاثين وأربعمائة تعطّل الحجّ من الأقاليم بأسرها ، فلم يحجّ أحد مصر ولا من الشام ولا من العراق ولا من خُراسان .

وفى سنة إحدى وثلاثين والّتى تليها تفرّد بالحجّ أهلُ مصر ، وكذا فى س وثلاثين وسبع وثلاثين وتسع وثلاثين وثلاث وستين بعدها .

وفى سنة إحدى وأربعين فى ذى الحجّة ارتفعتْ سحابة سوداء ليْلاً ، فزا ظلمة الليل ، وظهر فى جوانب السماء كالنّار المضيئة ، فانزعج النّاس لذلك ، وأ الدعاء والتضرّع ، فانكشفت بعد ساعة .

وفى سنة خمس وأربعين وثلاثٍ تليها انفرد أهلُ مصر بالحجّ .

وفى سنة ثمانٍ وأربعين . قال فى المرآة : عمّ الوباء والقحط مصرَ والشام والدنيا ، وانقطع ماء النيل . واتفقت غريبة ، قال ابن الجوزىّ : ورد كتاب م أن ثلاثة من اللصوص نقَبوا بعض الدّور ، فوُجِدوا عند الصباح موتَى ؛ أح

باب النَّقْب ، والثانى على رأس الدَّرَجَة ، والثالث على الثياب المكوّرة . وفيها ، فى العشر الثانى من جمادى الآخرة ظهر وقت السحر نجم له ذؤابة بيضاء ، طولها فى رأى العين نحو عشرة أذرع فى نحو ذراع ، ولبث على هذه الحال إلى نصف رجب ثم اضمحلّ .

وفى سنة إحدى وخمسين وسنتين بعدها ، انفرَد أهلُ مصر بالحجّ .

وفى شوال من هذه السنة لاحَ فى السماء فى الليل ضوء عظيم كالبرْق يلمع فى موضعين ؛ أحدهما أبيض ، والآخر أحمر إلى ثُلث الليل ، وكبَّر الناس وهلّلوا . حكاه فى المرآة .

وفى سنة ثلاث وخمسين فى جُمادى الآخرة لليلتين بقيتاً منه ، كَسفت الشمس كسوفا عظيما ، جميع القرص ، فمكثت أربعَ ساعات حتى بدت النجوم ، وأوت الطيور إلى أوكارها لشِدّة الظلمة .

وفى سنة خمس وخمسين وقع بمصر وباء شديدٌ ، كان يخرج منها فى كلّ يوم ألف جنازة .

وفى سنة ست وخمسين وقعتْ فتنة عظيمة بين عبيد مصر والتّرك ، واقتتلوا . وغلبَ العَبيد على الجزيرة الّتى فى وسط النيل بين مصر والجيزة ، واتصل الحرب بين الفريقين .

وفى سنة ثمان وخمسين ، فى العَشْر الأوّل من جُمادى الأولى ظهر كوكب كبير ، له ذؤابة عرضها نحو ثلاثة أذرع وطولها أذرع كثيرة ، وبقىَ إلى أواخر الشهر ، ثم ظهر كوكب آخر عند غروب الشمس ، قد استدار نورُه عليه كالقمر ، فارتاع النّاس وانزعجوا ، فلما أعْتَمَ الليل ، رمى ذؤابة نحو الجنوب ، وأقام إلى أيام فى رجب ، وذهب .

وفى سنة ستين وأربعمائة كان ابتداء الغلاء العظيم بمصر ، الّذى لم يُسمع بمثله فى

الدهور ؛ من عهد يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام ، واشتدّ القحط و
سنين متواليـة بحيث أكلوا الجيَف والميتات ، وأفنيت الدوابّ ، وبيع الـ
دنانير والهرّ بثلاثة دنانير ، ولم يبق لخليفةِ مصر سوى ثلاثة أفراس بعد العد
ونزل الوزير يوما عن بغلتِه ، فغفل الغلام عنها لضعفه من الجوع ، فأخذه
فذبحوها وأكلوها، فأخِذوا فصُلبوا وأصبحوا وقد أكلهم الناس ،ولم يبق إلا
وظُهِر على رجل يقتل الصبيان والنساء ويبيع لحومهم ويدفن رءوسهم وأطراف
وبيعت البيضة بدينار ، وبلغ الأردبّ القمح مائة دينار ثم عدم أصلاً ، حتى حـ
المرآة أنّ امرأة خرجتْ من القاهرة ، ومعها مُدّ جوهر ، فقالت : من يأخـذه
فلم يلتفت إليها أحد ، وقال بعضهم يهنئ القائم ببغداد :

وقد عـلِم المصرىّ أنّ جنودَه سنُو يوسفٍ هَوْلًا وطاعونُ عـ
أقامت به حتى اســـترابَ بنفسه وأوجس منها خيفة أىّ إ

وفى سنة اثنتين وستين ، زُلزلت مصر حتى نفرت إحدى زوايا جامع عمرو
ضرب صاحب مصر اسمَ ابنه ولىّ العهد على الدينـــار ، وسُمِّىَ الآمرىّ
التعامل بغـيره .

وفى سنة خمس وستين اشتدّ الغلاء والوباء بمصر حتى إنّ أهلَ البيت كانو
فى ليلة ، وحتى إنّ امرأةً أكلت رغيفا بألف دينار ، باعت عُروضها قيمته ألف
واشترت بها جملة قمح ، وحمله الحمّال على ظهره فنهبه الناس ، فنُهبت المرأة م
فصحّ لها رغيف واحد ، وكان السّودان يقفون فى الأزقّة ، يصطادون
بالـكلاليب ، فيأكلون لحومهنّ ، واجتازت امرأة بزقاق القناديل ، فعلقِها ا
بالـكلاليب ، وقطعوا من عَجُزِهَا قطعة ، وقعدوا يأكلونها وغفلوا عنها ، فخر
الدار ، واستغاثت ، فجاء الوالى وكبس الدّار ، فأخرج منها ألوفا من القتلى .

وفى سنة ست وثمانين وسنتين بعدها انفردَ المصريون بالحجّ .

وفى سنة إحدى وتسعين حدثت بمصر ظُلمة عظيمة ، غَشِيت أبصارَ النّاس ، حتى لم يبقَ أحدٌ يعرِف أين يتوجه !

وفى سنة سبع وتسعين عَزّ القمح بمصر ، ثم هان . وفيها تولّى الآمر بمصر فضرَب الفضة السّوداء المشهورة بالآمريّة .

وفى سنة خمس عشرة وخمسمائة هَبّتْ ريح سَوْدَاء بمصر ، فاستمرّت ثلاثة أيام ، فأهلكت خَلْقاً كثيرا من النّاس والدوابّ والأنعام . قاله ابن كثير[1] .

وفى سنة سبع عشرة بلغ النّيل ستة عشر ذراعاً سواء بعد توقّف .

وفى سنة ثمان عشرة أَوْفَى النّيل بعد النّيروز بتسعة أيام ، وزاد عن الستة عشر ذراعا أحَد عشر إصبعا لا غير ، وعزّ السّعر ثم هان . وفى حدود هذه السنين احترق جامع عمرو .

وفى سنة خمس وستين حاصرت الفرنج دمياطَ خمسين يوما ، بحيث ضيّقوا على أهلها ، وقتلوا منهم ، فأرسل نور الدين محمود الشهيد إليهم جيشاً عليهم صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فأجلوهم عنها ، وكان الملك نور الدين شديد الاهتمام بذلك ؛ حتى إنه قرأ عليه بعضُ طلبة الحديث جزءا فيه حديث مسلسل بالتبسّم ، فطلِب منه أن يتبسّم ليتصل التسلسل،فامتنع من ذلك ، وقال:إنّى لأستحيي من الله أن يرانى متبسما،والمسلمون تحاصرهم الفرنج بثغر دمياط . وذكر أبو شامة أنّ بعضهم رأى فى تلك الليلة التى أُجْلِيَ فيها الفرنج عن دمياط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول له : سلّم على نور الدين ، وبشّره بأنّ الفرنج قد رحلوا عن دمياط ، فقال له الرائى : يا رسولَ الله ، بأىّ علامة ؟

---

(١) تاريخ ابن كثير ١٢ : ١٨٨ .

فقال : بعلامة لما سجد يوم كذا ، وقال فى سجوده : اللهمّ انصر دينك ومَنْ هو محمود الكلب ! فأصبح الرأى ، وبشرّ نور الدين بذلك ، وأعلمه بالعلامة ، ففرح ، ثم جاء الخبر بإجلائهم تلك الليلة [1] . فرحم الله هذا الملك وأمثاله !

وفى سنة ثلاث وثمانين ، قال ابن الأثير فى الكامل : كان أولّ يوم منها يوم السبت ، وكان يوم النيروز ؛ وذلك أول سنة الفُرْس ، واتفق أنّه أول سنة الروم أيضا، وفيه نزلت الشمس بُرْج الحَمَل ، وكذلك كان القمر فى بُرْج الحَمَل أيضا ، قال : وهذا شىء يبعد وقوع مثله [2] .

وفى سنة ثلاث وتسعين ورد كتاب من [القاضى] الفاضل من مصر إلى القاضى محيي الدين بن الذكىّ يخبره فيه بأنّ فى ليلة الجمعة التاسع من جمادى الآخرة أتى عارضٌ فيه ظلمات متكاثفة ، وبروق خاطفة ، ورياح عاصفة ، فقوىَ أهويتُها ، واشتدّ هبوبها ، فتدافعت لها أعنّة مطلقات ، وارتفعت لها صواعق مصعقات ، فرجفت لها الجدران واصطفقت، وتلاقت على بعدها واعتنقت،وثار بين السماء والأرض عجاج فقيل : لعل هذه على هذه أطبقت ، ولا نحسِب إلّا أنّ جهنم قد سال منها وادٍ ، وعَدَا منها عادٍ ، وزاد عصف الرياح إلى أن انطفأت سُرُج النجوم ، ومزّقت أديم السماء ومحت ما فوقه من الرقوم ؛ فكنا كما قال الله : ﴿ يَجْعَلُونَ أصابعَهُم فى آذانهم من الصَّواعق ﴾ ، وكما قلنا : ويردّون أيديَهم على أعينهم من البوارق ، لا عاصم من الخطف للأبصار ، ولا ملجأ من الخطب إلا معاقل الاستغفار ، وفرّ الناس نساء ورجالا وأطفالا ، ونفروا من دورهم خِفافاً وثِقالا ، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ، فاعتصموا بالمساجد الجامعة ، وأذعنوا للنّازلة بأعناق خاضعة ، ووجوه عانية ، ونفوس عن الأهل والمال سالية ، ينظرون من طَرْف خفّى ، ويتوقّعون أى خَطْب جلىّ ، قد انقطعت من الحياة عَلَقُهم ، وعميّت عن النجاة طرُقهم ، ووقعت الفكرة فيما هم عليه قادمون ، وقاموا إلى

(١) كتاب الروضتين ١ : ١٨١ . (٢) الكامل لابن الأثير ٩ : ١٧٥ .

صلاتهم، وودّوا أنْ لو كانوا من الذينْ هم عليها دائمون ، إلى أن أذن الله فى الركود ، وأسعف الماجدين بالمجود ، وأصبح كلٌّ ليسلّمٍ على رفيقه ، ويهنئه بسلامة طريقه ، ويرى أنه قد بُعث بعد النفخة ، وأفاق بعد الصيحة والصرخة ، وأن الله قد ردّ له الكرّة ، وأدّبه بعد أن كان يأخذه على الغِرّة . ووردت الأخبار بأنها كسرت المراكب فى البحار والأشجار فى القفار ، وأتلفت خلقا كثيرا من السّفّار ، ومنهم من فرّ فلم ينفعه الفرار . إلى أن قال : ولا يحسب المجلس أنّى أرسلت القلم محرّفًا ، والقول مجزّفا ، فالأمر أعظم ، ولكن الله سلّم ، ونرجو أن يكون الله قد أيقظنا بما وَعَظنا ، ونبّهنا بما ولّهنا ، فما من عباده من رأى القيامة عيانا ، ولم يلتمسْ عليها من بعده برهانا ، إلا أهل بلد يافا ، اقتصّ الأولون مثلها فى المُثلات ، ولا سبقت لها سابقة فى المعضلات ، والحمد لله الذى من فضله جعلنا نخبر عنها ولا تخبر عنّا ، ونسأل الله أن يصرف عَنّا ، عارِضَى الحِرص والغرور إذا عنّا .

وفى سنة ست وتسعين ، قال الذهبىّ ، فى العبر : كسر النّيل من ثلاثة عشر ذراعا إلا ثلاثة أصابع، فاشتدّ الغلاء ، وعدمت الأقوات ، ووقع البلاء وعظم الخطب ، إلى أنْ آل بهم الأمر إلى أكل الآدميين الموتى[1] . قال ابن كثير فى هذه السنة والتى بعدها : كان بديار مصر غلاء شديد ،فهلك الغنىّ والفقير ، وعمّ الجليل والحقير ، وهرب الناس منها نحو الشام ، ولم يصل منها إلا القليل من الفئام[2] ، وتخطّفتهم الفرنج من الطرقات ، وعزّوهم فى أنفسهم ، واغتالوهم بالقليل من الأقوات. وكان الأمير لؤلؤ أحد الحجاب بالديار المصرية[3] يتصدّق فى هذا الغلاء فى كلّ يوم باثنى عشر ألف رغيف على اثنى عشر ألف فقير[4] .

(١) العبر ٤ : ٢٩٠ . (٢) الفئام : الجماعة من الناس .
(٣) قال ابن كثير : « كان من أكابر الأمراء فى أيام صلاح الدين ، وهو الذى كان متسلم الأسطول فى البحر» . (٤) ابن كثير ١٣ : ٢٣ ، ٢٤ .

وفى سنة سبع وتسعين ، قال الذهبىّ فى العبر : كان الجوع والموت المفرط بالديار المصرية ، وجرت أمور تتجاوز الوصف ، ودام ذلك إلى نصف العام الآتى ، فلو قال القائل : مات ثلاثة أرباع أهلِ الإقليم لَمَـاَ أبعد ، والذى دخل تحت قلم الحصرية [١] فى مدّة اثنين وعشرين شهرا مائة ألف وأحد وعشرون ألفا بالقاهرة ، وهذا نَزْر فى جَنْب ماهلك بمصر والحواضر ، وفى البيوت والطرُقات ولم يدفن ، وكلّه نَزْر فى جَنْب ماهلك بالأقاليم. وقيل إنّ مصر كان فيها تسعمائة منسَج للحصر ، فلم يبق إلاّ خمسةعشر منسَجاً، فقس على هذا ؛ وبلغ الفرّوج مائة درهم ، ثم عدم الدّجاج بالكلّية ، لولا ماجلب من الشام ، وأما أكل لحوم الآدميّين فشاع وتواتر . هذا كلام الذهبى [٢] .

وقال صاحب المرآة : فى هذه السنة كان هبوط النيل ، ولم يمهد ذلك فى الإسلام إلاّ مرة واحدة فى دولة الفاطميين ، ولم يبقَ منه إلا شىء يسير ، واشتدّ الغلاء والوباء بمصر ، فهرب النّاس إلى المغرب والحجاز واليمن والشام ، وتفرّقوا وتمزّقوا كلّ ممزّق. قال : وكان الرّجل يذبح ولَده ، وتساعده أمّه على طبخه وشيّه؛ وأحرق السلطان جماعة فعلوا ذلك ولم ينتهوا ، وكان الرجل يدعو صديقَه وأحبَّ الناس إليه إلى منزله ليضيفَه ، فيذبحه ويأكله ، وفعلوا بالأطباء ذلك ، وفقدت الميتات والجِيَف ، وكانوا يخطَفون الصبيان من الشوارع فيأكلونهم ، وكفَّن السلطان فى مدة يسيره مائتى ألف وعشرين ألفا ، وامتلأت طرقات المغرب والحجاز والشام بِرِمَم النّاس ، وصلّى إمام جامع إسكندرية فى يوم واحد على سبعمائة جنازة .

قال العماد الكاتب : فى سنة سبع وتسعين وخمسمائة اشتدّ الغلاء ، وامتدّ الوباء وحدثت المجاعة ، وتفرّقت الجماعة ، وهلك القوىّ فكيف الضعيف ! ونحف السمين فكيف العجيف ! وخرّج النّاس حذَر الموت من الديار ، وتفرّقت فِرق مِصْر فى

---

(١) كذا فى ح ، وفى ط والأصل والعبر : « الحشرية » . (٢) العبر ٤ : ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

الأمصار ، ولقد رأيتُ الأراملَ على الرّمال ، والجمال باركةً تحت الأحمال ، ومراكب الفرنج واقفة بساحل البحر على اللقم ، تسترق الجياع باللُّقَم .

قال صاحب المرآة وغيره : وكان فى هذه السنة ، فى شعبان، زلزلة هائلة من الصّعيد ، هدمت بنيان مصر،فمات تحت الهدم خَلْق كثير.

وفى سنة تسع وتسعين فى ليلة السّبت سَلْخ المحرّم ماجت النجوم فى السماء شرقاً وغربا ، وتطايرت كالجراد المنتشر يمينا وشمالا ، ودام ذلك إلى الفَجْر ، وانزعج الخلق ، وضجوّا بالدعاء ، ولم يُعهد مثل ذلك إلاّ فى عام البعث وفى سنة إحدى وأربعين ومائتين. قاله صاحب المرآة وغيره.

وفى سنة ستّمائة ، كانتْ زلزلة عظيمة بديار مصر ، قاله ابن الأثير فى الكامل . وفيها أخذت الفرنج فوّة واستباحوها ، دخلوا من فم رشيد فى النيل . ذكره الذهبىّ فى العبر [١] .

وفى سنة سبع وستّمائة ، دخلت الفرنج من البحر من غربىّ دمياط ، وساروا فى البرّ فأخذوا قرية بورة ، واستباحوها قتلاً وسبيا ، ورُدّوا فى الحال ، ولم يدركهم الطلب [٢] .

وفى سنة ثمان وستّمائة ، كانتْ زلزلة شديدة ، هدَمت بمصر والقاهرة دورا كثيرة ، ومات خلق تحت الهدم .

وفى سنة خمس عشرة وستّمائة ، فى جمادى الأولى ، نزلت الفرنج على دمياط ،وأخذوا بُرْج السلسلة [٣] ، ثم استحوذوا على دمياط فى سنة ست عشرة ، فاستمرّت بأيديهم إلى أن استُرِدّت منهم فى سنة ثمان عشرة .

(١) العبر ٤ : ٣١١ . (٢) العبر ٥ : ٢١ .

(٣) فى العبر ٥ : ٥٣ : « وأخذت الفرنج برج السلسلة من دمياط ، وكان قفل ديار مصر ، وهو فى وسط النيل ، فكان يمد منه سلسلة على وجه النيل إلى دمياط وأخرى إلى برج آخر ، فلا يمكن المراكب أن تعبر من البحر فى النيل » .

قال الذهبيّ فى العِبر : فى سنة ست عشرة وستمائة ،حاصر الفرنج أهل دمياط، ووقعت حروب كثيرة يطول شرحها ، وجدّت الفرنج فى المحاصرة ، وعملوا عليهم خندقاً كبيرا، وثبت أهل البلد ثباتا لم يُسمع بمثله ، وكثر فيهم القتل والجَرْح والموت ، وعدِمت الأقوات ، ثم سلّموهـا بالأمان فى شعبان ، وطار عقل الفرنج ، وتسارعوا إليها من كل فجّ ، وشرعوا فى تحصينها ، وأصبحت دارَ هجرتهم، ورجوْا بها أخذ ديار مصر ، وأشرف الإسلام على خطة خسف ، وأقبل التتار من المشرق والفرنج من المغرب ، وعزم المصريون على الجلاء ، فثبّتهم الكامل إلى أن سار إليه أخوه الأشرف والمعظم ، وحصل الفتح ولله الحمد[1].

وفى سنة ثمان وعشرين وستمائة ، كان غلاء شديد بديار مصر ، قاله ابن كثير[2] .
وبلغ النيل ستة عشر ذراعا وثلاثة أصابع فقط ، بعد توقّف عظيم ، ووصل القمح خمسة دنانير الإردبّ ، فرسم السلطان بفتح الأهراء وشوَن الأمراء ، وأن يباعَ بثمانين درهما الإرْدبّ من غير زيادة ، فانحط السّعر إليه. ذكره ابن المتوّج .

وفى سنة تسع وعشرين ، وصل النيل ثمانيـة عشر ذراعا وستة أصابع ، وتأخّر نزوله حتى خاف الناس من عَدم نزوله ،فغلا السّعر ، ثم نزل، فانحطّ السعر .

وفى سنة إحدى وثلاثين،قدِم إلى الملك الكامل هديّةٌ من الإفرنج ، فيها دُبٌّ أبيض وشعره مثل شعر السبع ، ينزل البحر فيصعد بالسمك فيأكله .

وفى سنة اثنتين وثلاثين كان الوباء العظيم بمصر .

وفى سنة ثلاث وأربعين كان الغلاء بمصر ، وقاسَى أهلُها شدائدَ .

وفى سنـــة سبع وأربعين نزلت الفرنج دمياط برًّا وبحرا ، وملَكوهـا ، ثم استُنْقِذَتْ منهم .

---

(١) العبر ٥ : ٥٩ ، ٦٠ . (٢) البداية والنهاية ١٣ : ١٢٨ .

وفى سنة تسع وأربعين ، قال ابن كثير : صُلّيت صلاة العيد يوم الفطر بعد العصر ، قال: وهذا اتفاق غريب [(١)] .

وفى سنة سبع وخمسين ، حصلت بديار مصر زلزلة عظيمة جدًّا .

وفى سنة إحدى وستين ، جهّز الظاهر بيبرس رحمه الله تعالى أخشاباً وآلات كثيرة لعمارة المسجد النبوىّ بعد حريقه ، فطِيف بها بالديار المصريّة ، فرحاً بها ، وتعظيما لشأنها ثم ساروا بها إلى المدينة.

وفى سنة اثنتين وستين كان بديار مصر غلاء عظيم ، وفرّق الظاهر الفقراء على الأمراء والأغنياء ، وألزمهم بإطعامهم ، وفرّق هو قمحا كثيرا ، ورتّب كلّ يوم للفقراء مائة إردبّ تخبَز وتفرّق عليهم .

وفى هذه السنة ولد بمصر ولد ميّت ، له رأسان وأربعة أعين وأربعة أيدٍ وأربعة أرجل .

وفى سنة ثلاث وستين وقع حريقٌ عظيم ببلاد مصر ، اتّهم به النّصارى ، فعاقبهم السلطان عقوبة عظيمة . وفيها استجدّ الظاهر بمصر القضاة الثلاثة ، من كلّ مذهب قاضٍ .

وفى سنة أربع وستين ، قال ابن المتوّج : حفر الظاهر بَحْرَ مصر بنفسه ، وعسكره مابين الروضة والمنشاة .

وفى سنة خمس وستين كَبَا الفرس بالملك الظاهر ، فانكسرت فخِذه ، وحصل له عَرَج .

وفى سنة ست وستين كانت كائنة الحبيس [(٢)] النصرانىّ ، كان كاهناً ثم ترهّب وأقام بمغارة بجبل حُلوان ، فقيل إنه ظفر بكنز للحاكم صاحب مصر ، فواسَى منه الفقراء

---

(١) تاريخ ابن كثير ١٣ : ١٨١ .   (٢) فى ح : « الحبيش » .

والمستورين من كل ملة ، واشتهر أمرُه وشاع ذكره ، وأنفق فى ثلاث سنين أموالاً عظيمة ، فأحضره السلطان ، وتلطّف به ، فأبى عليه أن يعرّفه بجلية أمره ، وأخذ يُراوغه ويغالطه ، فلمّا أعياه حَنَق عليه ، وبسط عليه العذاب فمات . قال الذهبىّ : وقد أفتى غيرُ واحد بقتله خوفاً على ضعفاء الإيمان من المسلمين أن يضلّهم ويغويَهم [١] .

وفى سنة سبع وستين ، رسم السلطان بإراقة الخمور ، وإبطال المفسدات والخواطئ من الديار المصرية والشاميّة ، وحبست الخواطئ حتى يتزوجْنَ ، وكتب إلى جميع البلاد بذلك ، وأسقِطت الضرائب التى كانت مرتبةً عليها [٢] .

وفى هذه السنة حجّ السلطان فأحسن إلى أهل الحرَمين ، وغسل الكعبة بماء الورد بيده . وفى أواخر ذى الحجة من هذه السنة هبّت ريح شديدة بديار مصر ، غرّقت مائتى مركب فى النيل ، وهلك فيها خلْق كثير ، ووقع مطر شديد جدًّا ، وأصابت الثمار صَغْقة أهلكتها ، حكاه ابن كثير [٣] .

وفى سنة تسع وستين شدّد السلطان فى أمر الخمور ، وهدّد مَنْ يعصرها بالقتل ، وأسقط الضّمان فى ذلك ، وكان ألف دينار كلّ يوم بالقاهرة وحدّها ، وكُتب بذلك توقيع قرئ على مِنبر مصر والقاهرة ،وسارت البُرُد بذلك إلى الآفاق.

وفى سنة سبعين ، قال قطب الدين : فى جمادى الآخرة ولِدت زَرافة بقلعة الجبل ، وأرضِعت من بقرة ، قال : وهذا شىء لم يُعْهَد مثله .

وفى سادس [٤] عشر شوّال سنة خمس وسبعين ، قال ابن كثير : طيف بالمحمل ، وبكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة ، وكان يوما مشهوداً [٥] .

قلت : كان هذا مبدأ ذلك ، واستمرّ ذلك كلّ عام إلى الآن.

وفى سنة تسع وسبعين ، فى يوم عَرفة وقع ببلاد مصر بَرَدٌ كبار ، أتلف كثيرا من

(١) العبر ٥ : ٢٨٥ . (٢) ابن كثير ١٣ : ٢٥٤ . (٣) ابن كثير ١٣ : ٢٥٥ .
(٤) ابن كثير : « فى حادى عشر » . (٥) ابن كثير ١٣ : ٢٧١ .

الغِلال ، ووقعت صاعقة بالإسكندريّة ، وأخرى تحت الجبل الأحمر على حَجَرٍ فأحرقته ، فأخِذ ذلك الحجر وسُبِك ، فخرج منه من الحديد أواقٍ بالرطل المصريّ .

وفى سنة ثمان وستمائة تربت جزيرة كبيرة ببحر النيل تُجاه قرية بولاق واللّوق ، وانقطع بسببها مجرى البحر ، مابين قلعة المَقْس وساحل باب البحر ، واشتدّ ونشف بالكليّة ، واتّصل مابين المَقْس وجزيرة الفِيل بالمشى ، ولم يعهد فيما تقدّم ، وحصل لأهل القاهرة مشقّة من نقل الماء لبعد النيل ، فأراد السلطان حَفره ، فقالوا : إنّه لا يفيد ، ونشف إلى الأبد .

وفى سنة إحدى وثمانين فى شعبان ، طافوا بكسوة الكعبة ، ولعبت مماليك الملك المنصور أيام الكسوة بالرّماح والسلاح ؛ وهو أوّل ماوقع ذلك بالديار المصرية،واستمرّ ذلك إلى الآن ، يُعمل سنين ويبطل سنين .

وفى سنة إحدى وتسعين فى الرابع والعشرين من المحرّم ، وقع حريق عظيم بقلعة الجبل ، أتلفت شيئاً كثيرا من الذّخائر والنفائس والكتب .

وفى سنة ثلاث وتسعين ، قال ابن المتوّج : كثرت الفلوس ، وردّها أرباب المعائش ، وجعلت بالميزان بربع نُقْرة كل أوقيّة ، ثم بسدس الأوقية ، وتحرّك السعر بسبب ذلك . وكان القمح فى أوّل السنة بثلاثة عشر درهما الإردبّ ، فانتقل إلى ستين درهما الإردبّ . وفيها، قال ابن المتوج : كانت زلزلة بديار مصر .

وفى سنة أربع وتسعين ، أوْفى النيل فى السادس من أيام النَّسِيء وكسر ، وبلغ مجموع زيادته ستة عشر ذراعا وسبعة عشر أصبعا ، وحصل فى هذه السنة بديار مصر غلاء شديد . واستهلّت سنة خمس وتسعين وأهل الديار المصرية فى قحط شديد ووباء مفرط ، حتى أكلُوا الجِيَف ، ونفدت حواصل السلطان من العَلِيق ، فأقامت خيول السلطان ثلاثة أيام حتى أحضرت التقاوى المخلّد فى البلاد ، وبلغ الإردبّ القمح مائة وسبعين درهما

نُقْرة ، وذلك عبارة عن ثمانية مثاقيل ذهب ونصف مثقال ، والخبز كلّ رطل وثلث بالمصرىّ بدرهم نُقْرة ، وأكلت الضعفاء الكلابَ ، وطرِحت الأموات فى الطرقات ، وكانوا يحفرون الحفائر الكبار ، فيلقون فيها الجماعة الكثيرة . وبيع الفرّوج بالإسكندرية بستة وثلاثين درهما نُقرة ، وبالقاهرة بتسعة عشر ، والبيض كل ثلاثة بدرهم ، وفنيت الحمُرُ والخيل والبغال والكلاب ، ولم يبق شىء من هذه الحيوانات يلُوح . وفى جمادى الآخرة خفّ الأمر ، وأخذ فى الرخص ، وانحطّ سعر القمح إلى خمسة وثلاثين درهما الإردب .

وفى سنة ست وتسعين ، بلغتْ زيادة النيل إلى أوّل تُوت خمسة عشر ذراعا وثمانية عشر إصبعا ، ثم نقصَ ولم يوفِّ .

وفى سنة سبع وتسعين توقّف النيل ، ثم أوفَى آخر أيام النّسِىء .

وفى سنة ثمان وتسعين فى المحرّم ، ظهر كوكب له ذؤابة .

وفى سنة تسعين ، أوفَى النيل فى ثالث عشر توت .

وفى شعبان سنة سبعمائة ، أمر بمصر والشام اليهود بلبْس العمائم الصُّفْر ، والنصارى بلبْس الزّرق ، والسامرة بلبس الحُمْر ، واستمرّ ذلك إلى الآن .

وقال الشعراء فى ذلك ، فقال العلاء الوداعىّ :

لقد ألزموا الكفّار شاشاتِ ذلّةٍ ... تزيدهمُ من لعنة الله تشويشاَ
فقلت لهم : ما ألبسوكم عمائماً ... ولكنّهم قد ألبسوكمْ بَرَاطِيشا

وقال آخر :

تعجبّوا للنصارى واليهود معاً ... والسامريّين لمّا عُمّموا الخِرَقَا
كأنما بات بالأصباغ منسهلًا ... نَسْر السّماء فأضحى فوقهم ذَرَقَا

وفى سنة اثنتين وسبعمائة فى ذى الحجة ، كانت الزلزلة العظمى بمصر ، وكان تأثيرها

بالإسكندرية أعظم من غيرها ، وطلع البحر إلى نصف البلد ، وأخذ الحمّال والرجال، وغرقت المراكب ، وسقطت بمصر دور لا تحصى ، وهلك تحت الرَّدْم خلقٌ كثير .

وفى هذه السنة ، قال البرزالىّ فى تاريخه: قرأت فى بعض الكتب الواردة من القاهرة أنه لما كان بتاريخ يوم الخميس رابع جمادى الآخرة ، ظهرت دابة عجيبة الخِلْقة من بحر النيل إلى أرض المنوفيّة ، وصفتها: لونها لون الجاموس بلا شعر، وآذانها كآذان الجمل ، وعيناها وفرجها مثل الناقة ، يغطّى فرجَها ذنبُها، طوله شبر ونصف، طرفه كذنب السمك، ورقبتها مثل غِلظ المسند المحشوّ تبنا ، وفمها وشفتاها مثل الكربال ، ولها أربعة أنياب ، اثنان من فوق واثنان من أسفل ، طولها دون الشّبر ، وعرض إصبعين ، وفى فمها ثمانية وأربعون ضرساً وسنًّا ، مثل بيادق الشطرنج ، وطول يديها من باطنها إلى الأرض شبران ونصف ، ومن ركبتها إلى حافرها مثل بطن الثعبان ، أصفر مجعّد ودور حافرها مثل السّكرجة بأربعة أظافير مثل أظافِير الجمل ، وعرض ظهرها مقدار ذراعين ونصف، وطولها من فمها إلى ذنبها خمسة عشر قدما ،وفى بطنها ثلاثة كروش ، ولحمها أحمر، وزَفرته مثل السمك ، وطعمه كطَعْم الجمل ، وغِلَظ جلدها أربعة أصابع ، ماتعمل فيه السيوف ، وحُمِل جلدها على خمسة أجمال فى مقدار ساعة، من ثِقله على جملٍ بعد جمل ، وأحضروه إلى القلعة بين يدى السلطان ، وحشوْه تبنا ، وأقاموه بين يديه .

وفى هذه السنة أبطل الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير عيدَ الشهيد بمصر ، وذلك أنّ النصارى كان عندهم تابوت فيه إصبع ، يزعمون أنه من أصابع بعض شهدائهم ، وأن النيل لا يزيد مالم يُلقَ فيه هذا التابوت ، وكان يجتمع النصارى من سائر النواحى إلى شُبْرا ، ويقع هناك أمور فظيعة ؛ من سُكر وغيره ، فأبطل ذلك إلى يومنا هذا ، ولله الحمد .

وفى سنة أربع وسبعمائة ظهر من معدن الزّمرد قطعة زنتها مائة وخمسة وسبعون

مثقالا ، فأخفاها الضامن ، ثم حملها إلى بعض الملوك ، فدفع له فيها مائة ألف وعشرين ألف درهم ، فأبَى أن يبيعها بذلك ، فأخذها الملك منه غصباً ، وبعث بها إلى السلطان ، فمات الضامن غمًّا .

وفيها أوفَى النّيل رابع توت ، وكذا فى سنة خمس .

وفى سنة تسع وسبعمائة توقّف النيل ، واستسقى الناس فلم يُسقَوْا ، وانتهت زيادته فى سابع عشرى توت إلى خمسة عشر ذراعاً وسبعة عشر إصبعا ، ثم زاد .

وأوفى ستة عشر ذراعا فى تاسع عشر بابَه ، وتشاءم النّاس بسلطنة بيبرس ، وغنّت العامة فى ذلك :

سلطاننا رُكين ، ونائبنا دُقين ، يجيئنا الماء من أين !

يجيبوا لنا الأعرج ، يجىء الماء ويدحرج .

وفى هذه السنة لما عاد ابن قلاوون تكلم الوزير ابن الخليلىّ فى إعادة أهل الذمة إلى لبس العمائم البيض بالعلائم ، وأنهم قد التزموا للديوان بسبعمائة ألف فى كلّ سنة زيادة على الجالية ، فسكت أهل المجلس ، وقام الشيخ تقىّ الدين بن تيمية رحمه الله ، وتكلّم كلاما عظيما ، وردّ على الوزير مقالته ، وقال للسلطان : حاشاك أن تكون ممّن ينصر أهل الذمة ! فأصغى إليه السلطان ، واستمرّ لبسهُم للأصفر والأزرق ، ثم عُمِل ذلك ببغداد أيضا فى سنة أربع وثلاثين اقتداء بملك مصر .

وفى سنة خمس عشرة وسبعمائة وقع الشروع فى رَوْك[1] الإقطاعات بمصر ، وأبطل السلطان مكوساً كثيرة ، وأفرِدت الجهات التى بقيت من المكس، وأضيفت

---

(١) الروك فى كتب المؤرخين معناه مسح أرض الزراعة فى بلد من البلاد لتقدير الخراج المستحق عليه لبيت المال ، ومنه تصرف أعطية الجند ورواتب الولاة وموظفى دواوين الدولة ، وما زاد عن ذلك يودع بيت المال . حواشى السلوك ١ : ٨٤١ .

للوزير ، وأفرد لكلٍّ راتب من الدولة ، ولكل فريق جهة من البلاد ، ولم يكن الوزير يتعلّق به جهة مكْس قديما ، ولذا كان يتولّاه العلماء وقضاة القضاة .

وفى سنة عشرين وسبعمائة حصلَ بالدّيار المصرية مرض كثير ، قلّ أن سلمت منه دارٌ ، وغلت الأدوية والأشربة ، وبيعت الرّمّانة الحامضة بثلاثة أرباع نُقْرة ، والعنّاب الرّطل المصرىّ بستة دراهم نُقرة ، وكذلك الإجّاص والقرّاصيا والقَلْب اللوز ، وتمّتْ مدة عظيمة ؛ ولكن كان المرض سليما والموت قليلا . ذكره فى العبر .

وفى سنة إحدى وعشرين ، كان بالقاهرة حريق كبير متتابع خارج عن الوصف ، ودام أياما فى أماكن ، وأحرق جامعَ ابن طولون وما حوْله بأسره ، ثم ظفر بفاعليه ، وهم جماعة من النصارى يعملون قواريرَ النِّفط ، فقتلوا وأحرقوا ، وهدم غالب كنائس النصارى بمصر ، ونهب الباقى ، وبقيت القاهرة أيّاماً لم يظهر فيها أحد من النصارَى ، وبقى لا يظهر نصرانىّ إلا ضربه العوامّ ، وربما قتلوه .

وفى هذه السنة، قال الذهبىّ فى العبر : نقلت من خط بدر الدين العزّازى أنّ كلبةً ولدت بالقاهرة ثلاثين جرْواً ، وأنها أحضِرت بين يدى السلطان ، فعجب منها وسأل المنجّمين عن ذلك ، فلم يكن عندهم علم منه .

وفى سنة اثنتين وعشرين أبطلَ السلطان المكْس المتعلّق بالمأكول بمكّة ، وعوّض صاحبها ثلثى بلد دَمَامين(١) ، من صعيد مصر .

وفى سنة أربع وعشرين رسم السلطان بإبطال الملاهى بالديار المصرية ، وحبس جماعة من النساء الزوانى ، وحصل بالديار المصرية موت كثير .

وفى هذه السنة ، نُودى على الفلوس أنْ يتعامل بها بالرّطل ، كلّ رطل بدرهمين ، ورسم بضرب فلوس زنة الفَلْس منها درهم .

---

(١) تقع شرق النيل على شاطئه فوق قوص . ذكرها ياقوت .

وفى سنة خمس وعشرين، وقع بالقاهرة مطر كثير، قلّ أن وقع مثله، وجاء سيل إلى النيل حتى تغيَّر لونه، وزادنحو أربعة أصابع .

وفى هذه السنة حضر السلطان النّاصر بن قلاوون عند قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة، فسمع عليه عشرين حديثاً من تساعيّاته، وخلع عليه خلعة عظيمة، وفرّق من الذهب والفضة على الفقراء نحو ثلاثين ألف درهم .

وفى سنة سبع وعشرين، رسم بقتل الكلاب بالديار المصرية .

وفى سنة تسع وعشرين، رسم بألّا يباع مملوك تركىّ لكاتب ولا لعامىّ .

وفى سنة أربعين، نودى على الذهب كلّ دينار بخمسة وعشرين درهما، وكان بعشرين درهما، وأن يتعاملوا به ولا يتعاملوا بالفضة، فشقّ ذلك على الناس، ثم بطل ذلك .

وفى سنة أربع وأربعين، اشتدّ آل ملك نائب السلطنة على والِي القاهرة فى إراقة الخمر، ومنع المحرّمات، وعاقب جماعة كثيرة على ذلك، وأخرب خزانة النُّبوذ، وكانت دار فسق وفجور، وبنى مكانها مسجداً، ونادى: مَنْ أحضر سكرانا، أو مَنْ معه جَرّة خمر خُلع عليه . فقعد العامة لذلك بكلّ طريق، وأتوه بجندىّ سكران، فضربه وقطع خبزَه، وأخلع على الآتى به، وصار له مهابة عظيمة، وكفّ الناس عن أشياء كثيرة، حتى أعيان الأمراء، فقال بعض الشعراء فى ذلك :

آلُ ملك الحاجُ غدا سعدُهُ ... يملأُ ظهر الأرض فيما سَلَكْ
فالأمر أمْنٌ دونه سوقَةٌ ... والملكُ الظّاهر هو آل ملكْ

وفى سنة سبع وأربعين قلّ ماء النيل، حتى صار مابين المقياس ومصر يُخاض، وصار من بولاق إلى المنشيّة طريقا يُمشَى فيه، وبلغت راوية الماء درهمين، وكانت بنصف درهم .

وفى سنة تسع وأربعين كان الطّاعون العامّ بمصر وغيرها .

وفى سنة خمس وخمسين وسبعمائة أمر بأن يكون إزار النصرانية أزرق وإزار اليهودية أصفر ، وإزار السامريّة أحمر .

وفى سنة سبع وخمسين فى ربيع الآخر ، هبّت ريح من جهة المغرب ، وامتدت من مصر إلى الشام فى يوم وليلة ، وغرقت ببولاق نحو ثلاثمائة مركب ، واقتلعت من النّخيل والجميز ببلاد مصر وبلبيس شيئاً كثيرا .

وفى سنة إحدى وستين وقع الوباء بالديار المصرية .

وفى سنة أربع وستين كان الطاعون بديار مصر .

وفى سنة خمس وستين وقع الفَناء فى البقَر ، فهلك منها شىء كثير .

وفى سنة سبع وستين أخذت الفرنج مدينة إسكندريّة ، وقتلوا وأسروا ، فخرج السلطان والعسكر لقتالهم ، ففرّوا وتركوها .

وفى سنة تسع وستين وقع الوباء بالديار المصرية .

وفى سنة ثلاث وسبعين رسم للأشراف بالديار المصرية والشامية أن يسمُوا عمائمهم بعلامة خضراء ، تمييزا لهم عن الناس ، ففعل ذلك فى مصر والشام وغيرها ، وفى ذلك يقول أبو عبد الله بن جابر الأندلسى الأعمى نزيل حلب :

جعَلُوا لأبناء الرّسول علامةً ... إن العلامة شأنُ مَنْ لم يُشْهَرِ

نور النبوّة فى كريم وجوههِمْ ... يُغنِى الشريفَ عن الطّراز الأخضرِ

وقال فى ذلك جماعة من الشعراء مايطول ذكره ؛ ومن أحسنها قول الأديب شمس الدين محمد بن إبراهيم الدمشقى :

أطراف تيجانٍ أتتْ من سُنْدُسٍ ... خُضْرٍ بأعلام على الأشرافِ

والأشرف السلطان خصّصهمْ بها ... شرفاً ليعرفهم من الأطرافِ

وفى هـــذه السنة راد النيــل زيادة مفرِطة ، وثبت إلى أيّام من هاتور ، فاجتمع جماعــة بالجـامع الأزهر ، وجامع عمرو ، وسألوا الله فى هبوطه ، وعمل ابنُ أبى حَجَلة مقامتَه المشهورة .

وفى هذه السنة أراد السّراج الهندىّ قاضىالحنفيّة أن يساوِىَ قاضى الشافعيّة فى لُبْس الطَّرْحــة وتولية القضاة فى البلاد ، وتقرير مودع الأيتام ،فأجيب إلى ذلك ؛ فاتفق أنّه توعّك عقب ذلك ، وطال مرضُه إلى أن مات ولم يتمّ الذى أراده .

وفى سنة أربع وسبعينوقعت صاعقة علىالقلعة ، فأحرقت منهاشيئاً كثيرا ، واستمرّ الحريق أيّاما ، وفى هذه السنة عقد الجائى مجلساً بالعلماء فى إقامة خطبة بالمنصورية ، فأفتاه البُلقينّى وابن الصائغ بالجواز ، وخالف الباقون ، وصنّف البُلقينىّ كتابا فى الجـــواز ، وصنّف العِراقىّ كتابا فى المنع ، وجمع أيضا القاضى بُرهان الدين بن جماعة جزءا فى المنع .

وفى سنة خمس وسبعين ، توقّف النيل عن الزيادة ، وأبطأ إلى أن دخل توت ، واجتمع العلماء والصلحاء بجامع عمرو ، واستسقوا ، وكسر الخليج تاسع توت عن نَقْص أربعة أصابع من العادة ، ثم نودى بصيام ثلاثة أيّام ،وخرجوا إلىالصحراء مشاةً ،وحضر غالب الأعيان ومعظم العوامّ وصبيان المــكاتب ، ونُصِب المنبر ، فخطب عليه شهابالدين القسطلانىّ خطيب جامع عمرو ، وصلّى صلاة الاستسقاء ، ودعا وابتهل ، وكشف رأسَه واستغاث وتضرّعوا ، وكان يوما مشهودا ، وابتدأ الغلاء وزادت الأسعار .

وفى هذه السنة فى أول جُمادى الأولى حدثت زلزلة لطيفة ، فيها ابتدِئت قراءة البخارىّ فى رمضان بالقَلْعة بحضرة السلطان،ورُتِّب الحافظ زين الدين العِراقىّ قارئاً ،ثمّ اشترك معه شهاب الدين العريانّى يوما بيوم ، وأمر السلطان مشايخ العلم أن يحضروا عنده سامعين ليتباحثوا ، فحضر جماعة من الأكابر .

وفيها أبطل ضمان المغانى ومكس القراريط التى كانت فى بيع الدّور ، وقرئ بذلك

مرسوم على المنابر ، وكان ذلك بتحريك البُلقينىّ ، وأعانه أكمل الدين والبرهان ابن جماعة .

وفى سنة ست وسبعين وقع الفناء بالديار المصرية ، وبيع كلّ رمانة بستة عشر درهما وهى قريب من دينار ، وكلّ فرّوج بخمسة وأربعين ، وكلّ بطّيخة بسبعين .

وفى هذه السنة أحضر والى الأشمونين إلى الأمير مَنْجَك بنتا عمرها خمس عشرة سنة ، فذكر أنها لم تزل بنتاً إلى هذه الغاية ، فاستدّ الفرج وظهر لها ذكر وأنثيان ، واحتلمتْ ، فشاهدوها وسمَّوْها محمدا ، ولهذه القضية نظير ، ذكرها ابن كثير فى تاريخه .

قال الحافظ ابن حجر : ووقع فى عصرنا نظير ذلك فى سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة .

وفى سنة سبع وسبعين وصلت هدايا إسطنبول من الرّوم ، وفى جملة الهدايا صندوق فيه شخوص له حَرَكات ، كلّما مضى ساعة من الليل ضربت تلك الشخوص بأنواع الملاهى ، وكلما مضت درجة سقطت بندقة .

وفى سنة ثمان وسبعين ، فى شعبان ، خسَف الشمس والقمر جميعا ، فطلع القمر خاسفاً ليلة السبت رابع عشرة ، وكسفت الشمس بين الظهر والعصر يوم السبت ثامن عشرينه .

وفى سنة ثمانين كان بمصر حريقٌ عظيم ودام أياما . وفى هذه السنة ، فى ذِى القعدة عَقَد برقوق أتابك العساكر مجلساً بالقضاة والعلماء . وذكر أنّ أراضى بيت المال أخِذت منه بالحيلة ، وجُعلت أوقافا من بعد الناصر بن قلاوون ، وضاق بيت المال بسبب ذلك ، فقال الشيخ سراج الدين البُلقينى : أمّا ما وُقف على خديجة وعويشة وفطيمة فنعم ، وأمّا ما وُقف على المدارس والعلماء والطلبة فلا سبيل إلى نقضه ، لأن لهم فى الخمس أكثر من ذلك . فانفصل الأمر على مقالة البُلقينى .

(حسن المحاضرة ٢٠/٢)

وفى هـذه السنة ظهر كوكب له ذؤابة ، وبقىَ مدة يُرى فى أوّل النهـار من ناحية الشمال .

وفى هذه السنة أمر بتبطيل الوُكلاء من دور القضاة .

وفى سنة إحدى وثمانين رسم الأمير بركة بنفى الـكلاب من مصر ، ورسم بأن يعمَل على قنطرة فم الغور ساسلة تمنع المراكب من الدخول وإلى بركة الرطلىّ ، فقـال بعض الشعراء فى ذلك :

أطلقتُ دمعى على خليجٍ مُذْ سلسلوه فراح مُقْفَلْ
مَنْ رام مِنْ دهرنا عجيباً فلينظر المطلَق المُسَلْسَلْ

وفى ربيع الآخر من هذه السنة أحدث السّلام على النبىّ صلى الله عليـه وسلم عقب أذان العشاء ليـلة الاثنين مضافا إلى ليلة الجمعة ، ثم أحـدث بعد عشر سنين عقب كلّ أذان إلّا المغرب .

وفى سنة ثلاث وثمانين ابتدأ الطاعون بالقاهرة . وفيها أمطرت السماء مطراً عظيماً ، حتى صار باب زَويلة خوضاً إلى بطون الخيل ، وخرج سيل عظيم إلى جهة طُرى ، فغرق زرعها ، وأقام الماء أياما ، ولم يَعْهد الناس ذلك بالقاهرة . وفيها ظهر نَجْم له ذؤابة قدْ رمحين من جهة القِبْلة .

وفى سنة أربع وثمانين وقع الغلاء بمصر . وفيها شرع جركس الخليلى فى عمل جسْر بينَ الروضة ومصر ، وطوله مائتا قصبة فى عَرْض عشرة عند موردة الحبش ، وعمـل على النّيل طاحونا تدور بالماء .

وفى هذه السنة قال الحافظ ابن حجر : توجّه الظاهر برقوق إلى بولاق التـكرور ، فاجتاز من الصّليبة وقناطر السباع وفم الخور . قال : وكانت عادة السلاطين قبـله من زمن الناصر لايظهرون إلاّ فى الأحيان ، ولا يركبون إلاّ من طريق الجزيرة الوسطى .

قال : ثم تكرّر ذلك منه ، وشقّ القاهرة مرارا ، وجرى على ماألف فى زمن الإمـرة ، وأبطل كثيرا من رُسوم السلطنة ، وأخذ من بعده بطريقته فى ذلك إلى أن لم يبق من رسمها فى زماننا إلا اليسير جدا .

وفى هذه السنة بَنَى السلطان قناطر بنى مَنْجة ، فأحكم عمارتها .

وفى سنة خمس وثمانين نزَل السّلطان إلى النّيــل ، فخلّق المقياس ، وكسر الخليج بحضرته . قال ابن حجر : ولم يباشر ذلك السلطان قبله فى زمن الظاهر بيبرس .

وفى سنة سبع وثمانين زُلزلت مصر والقاهرة زلزلة لطيفة ، فى ليلة الثالث عشر من شعبان.وفيها أحضرت صغيرة ميتة لها رأسان وصدر واحد ويدان فقط،ومن تحت السّرّة[(١)] صورة شخصين كاملين ، كلّ شخص بفرْج أنثى ، فشاهدها الناس ، ودفنت . وفيهـا وقع الغلاء بمصر .

وفى سنة ثمان وثمانين فى جمادى الآخرة زُلزلت الأرض زلزلة لطيفة ، وفى هــذه السنة عزّ الفستق عِزّةً شديدة إلى أن بيع الرطل منه بمثقال ذهب ونصف .

وفى سنة تسع وثمانين ضربت الدراهم الظاهرية ، وجعل اسم السلطان فى دائرة ، فتفاءلوا له من ذلك بالحبس ، فوقع عن قريب ، ووقع نظيره لولده النّاصر فرَج فى الدنانير الناصرية .

وفى سنة تسعين أصاب الحاجَّ فى رجوعهم عند ثغرة حامد سَيْلٌ عظيم ، أهلك خلقا كثيرا . وفى هذه السنة وقع الطاعون بالقاهرة .

وفى سنة إحدى وتسعين فى شعبان أمر نجم الدين الطنبدىّ المحتسب أن يزاد بعد كلّ أذان الصلاة على النبىّ صلى الله عليه وسلم كما يصنع ذلك ليلة الجمعة بعد العشاء ، فصنعوا ذلك إلّا فى المغرب لضيق وقتها .

وفى سنة اثنتين وتسعين عطش الحــاجّ بعجرود ؛ حتى بلغت القربة مائة درهم فضـة .

---

(١) ساقط من ط .

وفى سنة ثلاث وتسعين أمر كُتُبغا نائب الغيبة ألّا تخرج النساء إلى التّرب بالقرافة وغيرها ، ومنع النساء من لبس القمصان الواسعة الأكمام وشُدّد فى ذلك .

وفى هذه السنة فى جمادى الآخرة ظهر كوكب كبير بذؤابة طول رمحين .

وفى سنة أربع وتسعين وقع الوباء فى البقر، حتى كاد إقليم مصر أن يفنى منها . وفى هذه السنة أمر أصحاب العاهات والقطعات أن يخرجوا من القاهرة . وفيها ضربت بالإسكندريّة فلوس ناقصة الوزن عن العادة طمعا فى الرّبح ، فآل الأمر إلى أن كانت أعظم الأسرار فى فساد الأسرار ونقص الأموال .

وفى سنة تسع وتسعين استأذن كاتب السرّ بدر الدين الكلستانىّ السلطان له ولجميع المتعمّمين أن يلبسوا الصوف الملوّن فى المواكب ، فأذن لهم ، وكانوا لا يلبسون إلا الأبيض خاصة . وفيها ولدت امرأة بظاهر القاهرة أربعة ذكور أحياء .

وفى سنة ثمانمائة هبّت ريح شديدة بالقاهرة، حتى اتّفق الشيوخ العتق على أنهم لم يسمعوا بمثلها.

وفى سنة إحدى وثمانمائة ، ذكر أهل الهيئة أنّه يقع فى أول يوم منها زلزلة ، وشاع ذلك فى الناس فلم يقع شىء من ذلك . وفى رجب سنة أربع ظهر كوكب قدْر الثرّيا ، له ذُؤابة ظاهرة النور جدّا ، فاستمر يطلع ويغيب ، ونوره قوىّ يُرى مع ضوء القمر ، حتى رُئِىَ بالنّهار فى أوائل شعبان ، فأوّله بعضُهم بظهور ملك الشيخ المحمودىّ .

وفى سنة ست وثمانمائة ، نُودى على الفلوس بأن يتعامل بها بالميزان ، وسُعّرت كل رطل بستة دراهم ، وكانت فسدت إلى الغاية بحيث صار وزن الفلوس ربع درهم بعد أن كان مثقالا .

وفى سنة عشر، وقع الطاعون بالديار المصرية .

وفى سنة خمس عشرة ضُربت الدراهم الخالصة ، زنة الواحد نصف درهم والدينار ثلاثين منه ، وفرح الناس بها ، وبطلت الدراهم النقْرة ، وكان ضربها قديما فى كلّ درهم عشرُه فضة ، وتسعة أعشاره نحاس .

وفى سنة ست عشرة فشا الطاعون بمصر .

وفى سنة سبع عشرة أمر المؤيد بضرب الدراهم المديديّة .

وفى سنة ثمان عشرة كان الطاعون بالقاهرة .

وفى سنة تسع عشرة كان الطاعون بالقاهرة ، وكَثُر الوباء بالصعيد والوجه البحرىّ .

وفى هذه السنة أمر الملك المؤيد الخطباء إذا وصلوا إلى الدعاء إليه فى الخطبة أنْ يهبطوا من المنبر درجة ، ليكون اسم الله ورسوله في مكانٍ أعلَى من المكان الذى يذكر فيه السلطان ، فصنع ذلك الحافظ ابن حجر بالجامع الأزهر ، وابن النقاش بجامع ابن طولون . قال ابن حجر . وكان مقصد السلطان فى ذلك جميلاً .

وفى سنة عشرين ولدت جاموسة ببلبيس مولودا برأسين وعنقين وأربعة أيدٍ وسلسلتى ظهر واحد ورِجْلين اثنتين لا غير ، وفَرْج واحد أُنثى ، والذنَب مفروق باثنتين ، فكانت من بديع صنع الله .

وفى هذه السنة أمسك نصرانىّ زَنا بامرأة مسلمة ، فاعترفا ، فحكم برجمهما ، فرُجما خارج باب الشّعريّة وأحرِق النصرانىّ ، ودفنت المرأة .

وفى سنة اثنتين وعشرين فشا الطاعون بالديار المصرية .

وفى سنة خمس وعشرين زلزلت القاهرة زلزلة لطيفة .

وفى سنة سبع وعشرين جدّد للمشايخ الذين يحضرون سماع الحديث بالقلعة فراجى سنجاب ، وهو أوّل ما فعل بهم ذلك .

وفى سنة ثمان وعشرين وقع بدمياط حريق عظيم حتى احترق قدر ثلثها ، وهلك من الدّوابّ والناس شىء كثير .

وفى سنة ثلاث وثلاثين كان الطاعون العظيم بالديار المصرية .

وفى سنة إحدى وأربعين كان الطاعون بالديار المصرية .

ذكر الطريق المسلوك من مصر إلى مكة شرفها الله تعالى

قال ابن فضل الله : المحامل السلطانيّة وجماهير الركبان لاتخرج إلا من أربع جهات : مصر ، ودمشق ، وبغداد ، وتَعِزّ[١] .

قال : فيخرج الركْب من مصر بالمحمل السلطانيّ والسبيل المسبَل[٢] للفقراء والضعفاء والمنقطعين بالماء والزاد والأشربة والأدوية والعقاقير والأطباء والكحالين والمجبّرين والأدلّاء والأئمة والمؤذّنين والأمراء والجند والقاضى والشهود والدواوين والأمناء ومغسّل الموتى ؛ فى أكمل زىّ ، وأتمّ أبّهة ، وإذا نزلوا منزلا أو رحلوا مرحلاً تدقّ الكوسات[٣] ، وينفِر النّفير[٤] ليؤذِنَ الناس بالرحيل والنزول ، فإذا خرج الركب من القاهرة نزل البركة[٥] على مرحلة واحدة، فيقيم بها ثلاثة أيام أو أربعة ، ثم يرحل إلى السويس فى خمس مراحل ، ثم إلى نخل فى خمس مراحل . وقد عمِل فيها الأمير آل ملك الجوكندار المنصورىّ أحد أمراء المشورة فى الدولة الناصرية بن قلاوون بركا ، واتّخذ لها مصانع ، ثم يرحل إلى أيْلة فى خمس مَرَاحل وبها العَقَبة العظمى ، فينزل منها إلى حُجْز[٦] بحر القُلْزُم ، ويمشى على حُجزه حتى يقطعَه من الجانب الشماليّ إلى الجانب الجنوبىّ ، ويقيم به أربعة أيام أو خمسة ، وبه سوق عظيم فيه أنواع المتاجر ، ثم يرحل إلى حفل مرحلة واحدة ،ثم إلى برّمدين فى أربع مراحل وبه مغارة شعيب عليه الصلاة والسلام ،

---

(١) تعزّ ، بالفتح ثم الكسر والزاى مشددة : قال ياقوت : «قلعة عظيمة من قلاع اليمن المشهورات» .
(٢) أسبلت الطريق : كثرت سابلتها . (٣) الكوسات : صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير ، يدق أحدهما على الآخر بإيقاعٍ مخصوص ؛ ويتولى إيقاع ذلك الكوسى . صبح الأعشى ٤ : ١٣٢٩ ، وانظر حواشى السلوك ١ : ١٢٦ . (٤) النفير : الناس الذين يحجون .
(٥) هى بركة الحبش ؛ كانت مشرفة على نيل مصر خلف القرافة ؛ وكانت من أجلّ متنزهات مصر ؛ قال ياقوت : «رأيتها ، وليست ببركة ماء ؛ وإنما شبهت بها» . (٦) الحجز ، بالضم أو الكسر : الناحية .

ويقال إن ماءها هو الذى سقى عليه موسى عليه الصلاة والسلام غنم بنات شعيب ، ثم يرحل إلى عيون القصب فى مرحلتين ، ثم إلى المويلحة فى ثلاث مراحل ، ثم إلى الأزلم فى أربع مراحل . وماؤه من أقبح المياه ، وهناك خانٌ بناه الأمير آل ملك الجوكندار ، وعمل هنالك بئرا أيضا ، ثم إلى الوجْه فى خمس مراحل ، وماؤه من أعذب المياه ، ثم إلى أكرى فى مرحلتين وماؤه أصعب ماء فى هذه الطريق ، ثم إلى الحوراء ، وهى على ساحل بحر القُلزم فى أربع مراحل ، وماؤها شبيه بماء البحر لايكاد يشرب ، ثم إلى نَبَط فى مرحلتين وماؤه عذب ، ثم إلى ينْبُع فى خمس مراحل ويقيم عليه ثلاثة أيام ، ثم إلى الدهناء فى مرحلة ، ثم إلى بدر فى ثلاث مراحل ، وهى مدينة حجازيّة وبها عيون وجداول وحدائق ، وبها الجار فرضة المدينة الشريفة ، ثم يرحل إلى رابغ فى خمس مراحل ، وهى بإزاء الجُحْفة التى هى الميقات ، ثم يرحل إلى خُليص فى ثلاث مراحل ، وبها بركة عملها الأمير أرغون الناصرىّ ، ثم إلى بطن مرّ فى ثلاث مراحل ، وفى طريقه بئر عُسْفان ، ثم يرحل من بطن مُرّ إلى مكة المشرّفة مرحلة واحدة .

ثم يرجع فى منازله إلى بدر ، فيمطف إلى المدينة الشريفة ، فيرحل إلى الصّفراء فى مرحلة ، ثم إلى ذى الحُليفة فى ثلاث مراحل ، ثم إلى المدينة الشريفة فى مرحلة ، ثم يرجع إلى الصفراء ويأخذ بين جبلين فى فجْوة تُعرف بنقب علىّ ، حتى يأتى اليَنْبُع فى ثلاث مراحل ، ثم يستقيم على طريقه إلى مصر .

ذكر قدوم المبشّر سابقا يخبر بسلامة الحاج

كان ذلك فى عهد الخلفاء الراشدين: عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان فمنْ حكمة لطيفة قلّ مَنْ يعرفها ، قال الحافظ عماد الدين بن كثير فى تاريخه فى قصة رضى الله عنه : واستمرّ الحصار بالديار المصرية حتى مضت أيام التّشريق ، و من الحجّ ، فأخبر بسلامة الناس ، وأخبر أولئك بأن أهل الموسِم عازمون = إلى المدينة ليكفّوهم عن أمير المؤمنين.

وأخرج مالك فى الموطأ عن ابن دلان عن أبيه أن رجلا من جُهينة الرّواحل فيتغالَى بها ، ثم يسرع السّفر فيسبق الحاجّ ، فأفلس ، فرُفع أمره فقال : أمّا بعد أيها الناس ، إنّ الأسيفِع أسيفِع جهينة رضى من دينه وأمانته سَبَق الحاجّ ، ألا وإنّه أدان معرِضا ، فأصبح وقد دين به فهمد ، فمن كان له فليأتِه بالغداة . فقسم ماله بين غرمائه ، ثم كمل الدّين .

وأخرج الخطيب البغدادىّ فى تالى التلخيص من طريق عبد الملك بن عمير الله بن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، قال : تخرج الدابّة من جبل أجـ التشريق والنّاس بمنًى ، قال : فلذلك جاء سابق الحاجّ يخبر بسلامة الناس .

ذكر حمائم الرسائل

قال ابن كثير فى تاريخه: فى سنة سبع وستين وخمسمائة اتّخذ السلطان نور الدين الشهيد الحمام الهوادِى، وذلك لامتداد مملكته، واتساعها، فإنها من حدّ النُّوبة إلى هَمَذَان[1]، فلذلك اتخذ قلعة، وحبس الحمام الّتى تسرى الآفاق فى أسرع مدّة، وأيسر عدّة، وماأحسن ماقال فيهنّ القاضى الفاضل: الحمام ملائكة الملوك. وقد أطنب فى ذلك العماد الكاتب وأظرف وأطرب، وأعجب وأغرب[2].

وفى سنة إحدى وتسعين وخمسمائة: اعتنى الخليفة الناصر لدين الله بحَمام البطاقة اعتناء زائدا، حتى صار يكتب بأنساب الطير الحاضر إنه من ولد الطير الفلانىّ. وقيل إنه بيع بألف دينار.

وقد ألف القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر فى أمور هذه الحمام كتابا سماه «تمائم الحمائم[3]»، وذكر فيه فصلا فيما ينبغى أن يفعله المنطق وما جرت العادة به فى ذلك فقال:

كان الجارى به العادة أنّها لاتحمل البطاقة إلا فى جناحها، لأمور منها، حفظها من المَطر ولقوّة الجناح؛ والواجب أنه إذا انطلق من معمر لايُطلق إلاّ من أمكنة معلومة، فإذا سُرِّحت إلى الإسكندريّة، فلا تسرَّح إلا من مُنْية عُقْبة بالجيزة، وإلى الشرقية، فمن مسجد التين ظاهر القاهرة، وإلى دمياط فمن بيسوس بشطّ بحر منجى. والذى استقرّت قواعد الملك عليه، أن طائر البطاقة لايابو الملك عنه ولا يغفل، ولا يمهل لحظة واحدة، فتَفوت مهمات لاتستدرَك، إمّا من واصلٍ وإمّا من هارب، وإمّا من متجدد فى الثغور.

(١) بعدها فى ابن كثير: «لا يتخللها إلا بلاد الإفرنج، وكلهم تحت قهره وهدنته».

(٢) تاريخ ابن كثير ١٢ : ٢٦٩.

(٣) قال فى كشف الظنون: «صنفه حين حافظ عليها الفاطميون بمصر، وبالغوا فيها حتى أفردوا لها ديوانا وجرائد بأنساب الحمائم».

ولا يضع[1] البطاقة من الحمام إلا السلطان بيده من غير واسطة أحد ؛ فإن كان يأكل لا يمهل حتى يفرغ ، وإن كان نائما لا يمهل حتى يستيقظ بل ينبّه . وينبغى أن تُكتب البطائق فى ورق الطير المعروف بذلك .

قال : ورأيت الأوائل لا يكتبون فى أوائلها بسملة .

قال : وأنا ما كتبتُها قطّ إلا ببسملة للبَرَكة ، وتؤرّخ بالساعة واليوم ، لا بالسنين ؛ وينبغى ألّا يكثَرَ فى نعوت المخاطب فيها ، ولا يذكر فى البطائق حشو الألفاظ ، ولا يكتبَ إلا لبّ الكلام وزُبدته . ولابد أن يكتبَ شرح الطائر ورفيقه إن كانا طائرين قد سُرِّحا حتى إن تأخّر الطائر الواحد رقب حضوره ، أو يطلق لئلا يكون قد وقع فى بُرْج من أبراج المدينة ولا يعمل للبطائق هامش ولا يحمدىّ ، وجرت العادة بأن يكتب فى آخرها : « وحسبنا الله ونعم الوكيل » ، وذلك حفظٌ لها .

ومن فصل فى وصفها لتاج الدين أحمد بن سعيد بن الأثير كاتب الإنشاء : طالما جادت بها فأضحت مخلفة وراءها تبكى عليها السحب ، وصدق من سماها أنبياء للطير لأنها مرسلة بالكتب .

وفيها يقول أبو محمد أحمد بن علوى بن أبى عقبال القيروانىّ :

خُضْرٌ تفوتُ الريحَ فى طَيَرانِها ... يابُعْدَ بين غدوِّها ورواحِها
تأتى بأخبار الغُدُوّ عشيّةً ... لمسيرِ شهرٍ تحت ريش جناحِها
وكأنّما الروح الأمين بوحْيِه ... نفثَ الهداية منه فى أرْواحِها

وقال غيره :

ياحبّذا الطائر الميمون يطرُقنا ... فى الأمر بالطائر الميمون تنبيها
فاقت على الهُدهد المذكور إذ حملت ... كتب الملوك وصانتْها أعاليها

---

(١) ط : « يقع » .

تلقَى بكلّ كتاب نحو صاحبه ... تصون نظرتَه صَوْناً وتخفيها

فما تمكّن عين الشمس تنظرُه ... ولا تجوز أن تلقيه مِنْ فيها

منسوبة لرسالاتِ الملوك فبالـ ... ـمنسوب تسمُو ويدعوها تسمّيها

أكرم بجيشٍ سعيد ماسعادتُه ... ممّايشكّيك فيها فكرحا كيها[1]

حَمَا حِمَى الغَارِ يوم الغار حرمته[1] ... فيالَها وقعةً عزّتْ مساعيها !

وقوفُه عند ذاك الباب شرّفَهُ ... وللسعادة أوقاتٌ تُواتيهَا

ويوم فتح رسول الله مكّتَهُ ... عند الدّخول إليها من بَواديها

صفّت تظلّلُ من شمسٍ كتيبتَهُ الْـ ... ـخُضْر أمطره فيها تواليها

فظلّلته بما كانت تود هوًى ... لو قابلتْها بأشواقٍ فتنهيها

فعندما حظيتْ بالقرْب أمّنَها ... فشُرِّفَتْ بعطَايا جَلَّ مهديها

فما يحلّ لدى صيد تناولها ... ولا ينال المُنَى بالنار مصليها

ولا تطير بأوْراق الفرنج ولا ... يسير عنها بما فيه أمانيها

سمتْ بملك المعانى غير ذى دنسٍ ... لا ترتضيهم ، ولو جُزّت نواصيها

وانظرلها كيف تأتى للخلائق من ... آلِ الرّسول بحبٍّ كامنٍ فيها

مِنَ المقام إلى دار السّلام فلمْ ... يمضِ النّهار بعزمٍ فى دَواعِيها

وربّما ضل عنه الهند ملتقطاً ... حبّاتِ فُلْفُلِه وارتدّ مُبْطِيها

فجاء فى يومه فى إثْر سابقِه ... حفظاً لحقِّ يدٍ طابَتْ أياديها

مناقبٌ لرسول الله أيسرها ... لدى نبوّته الغرّاء تكفيها

ومن إنشاء القاضى الفاضل فى وصف حمائم الرسائل :

سرحت لاتزال أجنحتها محمّلة من البطائق أجنحة ، وتجهِّزُ جيوش المقاصد والأقلام أسلحة ، وتحمل من الأخبار ماتحمله الضمائر ، وتطوِى الأرض إذا نَشرت الجناح الطائر ،

(١) ط : « جاليها » . (٢) : « حرمته » .

وتزوى لها الأرض حتى ترى مُلْك هذه الأمّة ، وتقرب من السماء حتى ترى مالا يبلغه وهم ولا هِمّة ، وتكون مراكب للأغراض وكانت والأجنحة قلوعاً ، وتركب الجوّ بحراً تصفق فيه هبوب الرياح موجاً مرفوعا ، وتعلّق الحاجات على أعجازها ، ولا تفوق الإراداتُ عن إنجازها ، ومن بلاغات البطائق استفادت ماهى مشهورة به من السجع ، ومن رياض كتبها ألفت الرياض فهى إليها دائمة الرَّجْع . وقد سكنتْ البروج فهى أنجُم ، وأعِدّت فى كنائنها فهى للحاجات أسهُم ، وكادتْ تكون ملائكة لأنها رسُل فإذا نيطت بالرّقاع ، صارت أولِى أجنحةٍ مثنى وثلاث ورباع . وقد باعد الله بين أسفارِها وقرّبها ، وجعلها طيفَ خيالِ اليقظة الّذى صدّق العين وما كذّبها ، وقد أخذت عهود الأمانة فى رقابها أطواقا ، فأدّتها من أذنابها أوراقا ، وصارت خوافِيَ من وراء الخوافى ، وغطّت سرّها المودع بكتمان سحبت عليه ذيول ريشها الضّوافى ، ترغم أنف النّوى بتقريب العهود ، وتكاد العيون تُلاحظها تلاحُظ أنجمَ السعود ؛ وهى أنبياء الطير لكثرة ماتأتى به من الأنباء ، وخُطَباؤها لأنّها تقوم على الأغصان مقام الخطباء [1] .

وقال فى وصفها شيخ الكتّاب ذو البلاغتين السديد أبو القاسم شيخ القاضى الفاضل :

وأمّا حمام الرسائل ؛ فهى من آيات الله المستنطقة الألسن بالتسبيح ، العاجز عن وصفها إعجاز البليغ الفصيح ، فيما تحمِله من البطائق ، وتردُ به مسرعة من الأخبار الواضحة الحقائق ، وتَعالِيه فى الجوّ محلّقا عند مطاره ، وتهدّيه على الطريق التى عليها ليأمن من فوت الإدراك وأخطارِه ، ونظره إلى المقصد الذى يسرح إليه من على ، ووصوله إلى أقرب الساعات بما يصل به البريد فى أبعد الأيام من الخبر الجلى ، ومجيئه معادلاً لرءوس السفّار مسامتا ، وإيثاره بالمتجدّدات فكأنه ناطق وإن كان صامتا ، وكونه يمضى محمولا على ظهر المركوب ، ويرجع حاملا على ظهرِه للمكتوب ، ولا يعرّج على تذكار المدير ، ولا يسأمّ من الدأب فى الخدمة زائدا على التقدير ، وفى تقدّمه البشائر ، يكون

(١) نهاية الأرب ١٠ : ٢٨٠ .

المنىّ بقولهم : أيمنُ طائر ؛ ولا غَرْوَ أن فارق رسل أهل الأرض وفاتهم وهو مرسل والعِنان عنانه ، والجوّ ميدانه ، والجناح مركبه ، والرياح موكبه، وابتداء الغاية شوطه ، والشَّوْق إلى أهله سوطه ؛ مع أمنه مايحدث لمنتاب السَّفار ، ومخبّآت القفار ، من مخاوف الطوارق وطوارق المخاوف ، ومتلف الغوائل وغوائل المتالف ، إلا مايشدّ من اعتراض خارج (١) جارح ، وانقضاض كاسب كاسر ، فتكفّ سعادة الدولة تأميمه ، وتصدّ عنه تصميمه ، لأنه أخذ جيشها من الطّيرين اللذين يحدثان فى أعدائها ؛ هـذا بالإنذار الجاعل كيدهم فى تضليل ، وذلك بما ترى رايتها المنصورة عليهم من تضليل .

وقال القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله تعالى :

ولما وقفت على ما أنشأه القاضى الفاضل ، وعلى ما أنشأه الشيخ السديد أردت أنّ أجرّب الخاطر ، فأنشأت وأنا غير مخاطب أحداً بل مخاطر ، وأين الثرى من الثريّا ، وما الحسن لكلّ أحدٍ يتهيّا ، وعلىّ أن أجيب وما علىّ أن أجيد ، وما كلّ والدٍ يدرك شأوَ الوليد ، ولا كلّ كاتب عبد الرحيم ولا عبد الحميد ، فقلت :

وأمّا حمائم الرسائل فكم أغنت البُرُد عن جَوْب القفار ، وكم قدّتْ جيوبَها على أسرَى أسرار ؛ وكم أعارت السهام أجنحة فأحسنت بتلك العاريّة المطار ، وكمْ قال جناحها لطالب النجاح : لا جناح ، وكم سرتْ فحمدت المساء إذا حَمِد غيرُها من السارين الصباح ؛ وكم ساوقتْ الصّبا والجنائب ففاقتهما ولم تحوج سلام المشتاقين إلى امتطاء كاهل الرّياح .

كم حسَّن ملكَ كلّ منهما ملَك ، وكم قال مسرّحها لمجيئه بها : قرّة عين لى ولك ، كم أجملت فى الهوى تقلّبا ، وإذا غنت الحمائم على الغصون صمتت عن الهديل والهدير تأدبا ، كم دفعتْ شكّا بيقينها ، ورفعت شكوَى بتبيينها ، وكم أدّتْ أمانةولم تعلم أجنحتها

(١) ح ، ط : « جارح » ، وما أثبته من الأصل .

بما فى شمالها ولا شمالها بما فى يمينها . كم التفت منها السّاقُ بالساقِ، فأحسنت لربِّها المساق ، وكم أخذت عهود الأمانة فبدت أطواقا فى الأعناق ، ويقال ماتضمنته من البطائق بعض ماتعلّق منها فى الرياض من الأوراق ، تسبِق اللّمح ، وكم استفتح بها بشيرٌ إذا جاء بالفتح ، تفوت (١) الطَّرْفَ السابق،والطَّرف الرامى الرّامِق ، وما تلت سورة البروج إلا وتلتْ سورة الطارق. كم أنسى مطارها عَدْوَ السُّلَكَةِ والسُّلَيك ، وكم غنيتْ فى خدمة سلطانها عن الغناء وقال كل منهما لرفيقه: إليك عن الأيك .

ما أحوج تصديقهما فى رسالتهما إلى الإعزاز بثالث ، وكم قيل فى كل منهما لمن سام هذا حام فى خدمةِ أبناء يافث ، كم سُرِّحا بإحسان، وكم طارا بأفق فاستحقّ أن يُقال لهما: فرساَ سحاب إذا قيل لأحدهما فرسا رِهان ، حاملةُ عِلْمٍ لمن هو أعلم به منها ، يُغنى السّفار والسّفارة فلا تحوِجهم إلى الاستغناء عنها .

تغدو وتروح ، وبالسر لا تبوح ، فكم غنيت باجتماعها بإلفها عن أنها تنوح . كم سارت تحت أمر سلطانها أحسن السير ، وكم أفهمت أنّ ملك سليمان إذ سخر له منها فى مهمّاته الطير ، أسرع من السهام المفوّقة ، وكم من البطائق مخلقة وغير مخلّقة ، كم ضلات من كيد ، وكم بدت فى مقصورة دونها مقصورة ابن دريد .

ومن إنشاء الأديب تقىّ الدين أبو بكر بن حجة فى ذلك :

سرح فما سَرْح العيون إلا دونَ رسالته المقبولة ، وطلب السبق فلم يرض بعرف البرق سرحا ولا استظلّ صفحته المصقولة ؛ وكم جرى دونه النّسيم فقصّر وأمست أذياله بعَرْف السحب مبلولة . وأرسِل فأقرّ الناس برسالته وكتابه المصدّق ، وانقطع كوكب الصبح خلفه فقال عند التقصير : كتب يُجاب وعلى يدىّ يُخلق ، يؤدِّى ماجاء على يده من الترسّل فيهيج الأشواق، ومابرحت الحمام تحسّن الأداء فى الأوراق، وصحبناه على الهدَى فقال: ﴿ مَا ضَلَّ صاحِبُكم وَما غَوَى ﴾ ، ومن روى عنه الحديث المسند فعن عِكرمة قد روى ، يطير مع

(١) ح ، ط : « تسبق » .

الهوى لفرط صلاحِه ، ولم يبق على السرّ المصون جناح إذا دخل تحت جناحه ؛ إن برز من مقفصه لم يبق للصَّرْح الممرّد قيمة ، بل ينعزل بتدبيج أطواقه ويعلّق عليه من العين تلكَ التّميمة ، ماسُجن إلا صبر على السجن وضيقة الأطواق ، ولهذا حُمِـدت عاقبته على الإطلاق ، ولا غنّى على عود إلا أسال دموع الندى من حدائق الرياض ، ولا أطلِق من كبد الجوّ إلا كان سهما مريشا تبلّغ به الأغراض . كم علا فصاد بريش القوادم كالأهداب لعين الشمس ، وأمسى عند الهبوط لعيون الهلال كالطِّمْس ؛ فهو الطائر الميمون والغـاية السبّاقة ، والأمين الذى إذا أودع أسرارَ الملوك حملها بطاقة ؛ فهو من الطيور التّى خلا لها الجوّ فنقّرت ماشاءت من حبّات النجوم ، والعجماء التى مَنْ أخـذ عنها شرح المعلّقات فقد أعرب عن دقائق المفهوم ، والمقدّمة والنتيجة للـكتاب الجلىّ فى منطق الطير ، وهى من حَملة الـكتاب الّذى إذا وصل القارئُ منه إلى الفتح يتهلّل لحبّه الخير ؛ إن يصـدر البازى بغـير علم فـكم جمعت بين طرفَىْ كتاب ، وإن سألت العقبان على بديـع السَّجْع أحجمت عن ردّ الجواب .

زعتِ النسور بقوة جيف الفـلا ورعى الذّباب الشهد وهو ضعيفُ

ما قدمت إلا وأرتْنا من شمائلها اللطيفة نعم القادمة ، وأظهرت لنـا من خوافيها ما كانت له خير كاتمة . كم أهدت من مخابِها وهى غادية رائحة ، وكم حنت إليها الجوارح وهى أدام الله إطلاقها عزّ جارحة ، وكم أدارت من كؤوس السجع ماهو أرقّ من قهوة الإنشا ، وأبهج على زهر المنثور من صبح الأعشى . وكم عامت بحور الفضاء ولم تحفل بموج الجبال ، وكم جاءت ببشارة وخضبت الـكف من تلك الأنملة قلامة الهلال ، وكم زاحمت النجوم بالمنا كب حتى ظفرت بكلّ كفٍّ خضيب ، وانحدرت كأنها دمعة سقطت على خدّ الشقيق لأمرٍ مريب ، وكم لمع فى أصيل الشمس خضاب كفها الوضّاح، فصارت بسموّها وفرط البهجة كمشكاة فيها مصباح . والله تعالى يديم بأفنانِ أبوابه العالية ألحانَ السواجع ، ولا برح تغريدها مطربا بين البادئ والراجع .

ذكر عادة المملكة فى الخلع والزىّ

قال ابن فضل الله : وأمّا القضاة والعلماء فخِلعُهم من الصوف بغير طراز ، فلهم الطَّرحة ، وأصل الصوف أن يكون أبيضَ وتحته أخضر .

وأما زِىّ القضاة والعلماء فدِلَق [١] متّسع بغير تفريق ، فتحته على كتفه ، وشاش كبير منه ذؤابة بين الكتفين، ويميلها إلى الكتف الأيسر .

وأما من دون هؤلاء فالفرجيّة الطويلة الكمّ بغير تفريج، [٢] وأما زاهدهم فيقصر الذؤابة [٢] ويميلها إلى الكتف الأيسر . ومنهم من يلبس الطَّيلسان .

وأما قاضى القضاة الشافعىّ رضى الله تعالى عنه ، فرسمه الطَّرْحة،وبها يمتاز ومراكبهم البغال ، ويعمل بدلا من الكَنْبُوش [٣] الزنارىّ ، وهو من الجوخ بالعباء المجوّفة الصدر مستدير من وراء الكَفَل .

وألبسة الخطباء دِلَق مدوّر أسود للشّعار العباسىّ ، وشاش أسود وطرْحة سوداء .

وأما زِىّ الأمراء والجند ، فتقدم عند ذكر السّلطان .

وأما خِلَعُهم وخلع الوزراء ونحوهم فأسقطتُها من كلام ابن فضل الله لأنّهـا مابين حرير وذهب ؛ وذلك محرّم شرعا ، وقد التزمت ألّا أذكر فى هذا الكتاب شيئاً أسأل عنه فى الآخرة ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) الداق : نوع من الملابس الصوفية . (٢–٢) كذا فى الأصل وفى ح ، ط : « والذؤابة أيضا ويميلها » ، وكلاهما غير واضح (٣) الكنبوش : من معانيه اللثام الذى يستعمله أهل المغرب لتغطية الوجه من الدقن إلى الخيشوم اتقاء لبرودة الصباح . وانظر حواشى السلوك ١ : ٤٥٢ .

ذكر عادة السلطان فى الكتابة على التقاليد

قال ابن فضل الله : عادته إذا كتب لأحدٍ من النوّاب يكتب اسمه فقط ، فإن كان من كبارهم ، وهو من ذوى السيوف ، كتب « والده فلان » ، وإن كان من القضاة والعلماء كتب : « أخوه فلان » .

ذكر معاملة مصر

قال ابن فضل الله فى المسالك : معاملة مصر الدّراهم ، ثلثاها فضّة وثلثها نحاس ، والدرهم ثمانى عشرة حبة[1] خرنوبة ، والخرنوبة ثلاث قمحات ، والمثقال أربعة وعشرون خرنوبة ، والدّرهم منها قيمته ثمانية وأربعون فَلْسا ، والدينار الحبشى ثلاثة عشر درهما وثلث درهم . وأما الكَيْل فيختلف[2] بمصر : الإردبّ ، وهو ستّ وَيْبات ، الوَيْبة أربعة أرباع ، الربع أربعة أقداح ، القدح مائتان واثنان وثلاثون درهما ؛ هذا إردبّ مصر ، وفى أريافها يختلف الإردبّ من هذا المقدار إلى أنهى ما ينتهى ثلاث ويبات . والرطل اثنا عشر أوقيّة ، الأوقية اثنا عشر درهما .

قال صاحب المرآة : فى سنة خمس وسبعين من الهِجْرة ضرب عبد الملك بن مروان على الدنانير والدراهم اسم الله تعالى ، قال الهيثم : وسببه أنّه وجد دراهم ودنانير تاريخها قبل الإسلام بأربعمائة سنة ، عليها مكتوب « باسم الأب والابن وروح القدس » ، فسبكها ونقش عليها اسم الله تعالى وآيات من القرآن واسم الرّسول صلى الله عليه وسلم . واختُلف فى صورة ما كتب ، فقيل جعل فى وجه : « لا إله إلا الله » وفى الآخر « محمد رسول الله »

(١) ساقطة من ح ، ط .
(٢) ح ، ط : « فمختلف فى مصر » .

وأرّخ وقت ضربهـا . وقيل جعـل فى وجه « قل هو الله أحد » وفى الآخر « محمد رسول الله » .

وقال القضاعىّ : كتب على أحدِ الوجهين « الله أحد من غير قل » ، ولما وصلت إلى العراق أمر الحجاج فزيدفيها فى الجانب الذى فيه محمد رسول الله فى جوانب الدرهم مستديرا : « أرسله بالهدى ودين الحق ... » الآية . واستمرّ نقشها كذلك إلى زمن الرشيد ، فأراد تغييرها فقيل له : هـذا أمر قد استقرّ وألفه الناس ، فأبقاها على ماهى عليـه اليوم ، ونقش عليها اسمه .

وقيل : أوّل من غيّر نقشها المنصور ، وكتب عليها اسمه .

وأما الوزن فما تعرّض أحد لتغييره . انتهى كلام صاحب المرآة .

ذكر كوكب الذنب

قال صاحب المرآة : إن أهل النجوم يذكرون أن كوكب الذَّنَب طلع فى وقت قَتْل قابيل هابيلَ ، وفى وقت الطوفان ، وفى وقت نار إبراهيم الخليل ، وعند هلاك قوم عاد وثمود وقوم صالح ، وعند ظهور موسى وهلاك فرعون ، وفى غزوة بَدْر ، وعند قتل عثمان وعلىّ ، وعند قَتْل جماعة من الخلفاء ، منهم الرضىّ والمعتز والمهتدى والمقتدر .

قال : وأدنى الأحداث عند ظهور هذا الكوكب الزلازل والأهوال .

قلت : يدلّ لذلك ما أخرجه الحاكم فى المستدرك ، وصحّحه من طريق ابن أبى مليكة ، قال : غدوتُ على ابن عباس ، فقال : ما نمتُ البارحة ! قلت : لم ؟ قال : قالوا : طلع الكوكب ذو الذَّنَب ، فخشيت أن يكون الدجّال قد طَرَق .

ذكر بقية لطائف مصر

قال الكندىّ : ذكر يحيى بن عثمان ، عن أحمد بن الكريم ، قال : جُلت للدنيا ، ورأيت آثار الأنبياء والملوك والحكماء ، ورأيت آثار سليمان بن داود عليهما السلام ببيت المقدس ، وتدمُر والأردنّ ، وما بنته الشياطين ، فلم أر مثل برابى مصر ولا مثل حِكمتها ، ولا مثل الآثار التى بها ، والأبنية التى لملوكها وحكمائها . ومصر ثمانون كورة ، ليس منها كورة إلّا وفيها طرائف وعجائب من أصناف الأبنية والطعام والشراب والفاكهة والنبات وجميع ما ينتفع به الناس ، ويدخره الملوك ،وصعيدها أرض حجازيّة ، حرّها كحرّ الحجاز ، تنبت النخل والأراك والقرَظ والدَّوْم والعُشَر ، وأسفل أراضى مصر شامية تمطر مطر الشام ، وتنبت نبات الشام من الكرْم والتّين والمَوْز وسائر الفاكهة ، والبقول والرياحين . ويقع به الثلج ، ومنها لوبية ومراقية[1] برابى وجبال وغياض ،وزيتون وكرُوم برية بحرية جبلية ،بلاد إبلٍ وماشية ، ونتاج وعسل ولبن.وكلّ كورة[2] من مصر مدينة ، قال تعالى : ﴿ وابْعَثْ فى المدائن حاشِرِين ﴾، وفى كل مدينة منها آثار عجيبة من الأبنية والصخور والرخام والبرابى، وتلك المدن كلها تأتى منها السفن ، تحمل المتاع والآلة إلى الفسطاط ، تحمل السفية الواحدة ما يحمله خمسمائة بعير .

قال الكندىّ : وليس فى الدنيا بلد يأكل أهله صيد البحر طريًّا غير أهل مصر .

قال : وذكر بعض أهل العلم أنه ليس فى الدنيا شجرة إلا وهى بمصر ، عرفها من عرفها ، وجهلها مَنْ جهلها .

---

(١) قال ياقوت : « مراقية بالفتح والقاف والياء مخففة ؛ إذا قصد القاصد من الإسكندرية إلى إفريقية فأول بلد يلقاه مراقية ، ثم لوبية » . (٢) الكورة فى اصطلاح القدماء : كل صقع يشتمل على عدّة قرى ، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ، وانظر معجم البلدان ١ : ٣٦ .

ويوجد بمصر فى كلّ وقت من الزمان من المأكول والمأدوم والمشموم وسائر البقول والخضر ؛ جميع ذلك فى الصيف والشتاء ، لا ينقطع منها شىء لبرد ولا حر[1] .

وذكر أنّ بُخْت نَصّر قال لابنه بلسطان : ما أسكنتُك مصر إلا لهذه الخصال . وبلسطان هو الذى بنى قصر الشمع .

وقال بعضُ مَنْ سكن مصر : لولا ماء طوبة ، وخروف أمشير ، ولبن بَرَمْهات ، وورد برمودة ، ونَبِق بشَنْس ، وتين بؤونة، وعسل أبيب ، وعنب مِسْرى ، ورُطب توت ، ورمّان بابة ، وموز هاتور ، وسمك كيهك ، ما أقمتُ بمصر .

وأخرج ابن عساكر من طريق الربيع بن سليمان ، قال : سمعتُ الشافعىّ رضى الله تعالى عنه ، يقول : ثلاثة أشياء ، دواء للداء الذى لا دواء له ، الذى أعيا الأطباء أن يداووه : العنب ، ولبن اللّقاح ، وقصب السكر ، ولولا قصب السكر ما أقمت بمصر .

وقال بعضهم : يجتمع بمصر فى وقت واحد ما لا يجتمع بمدينة ؛ وذلك البنفسج والورْد والسَّوْسن والمنثور والنرجس وشقائق النعمان والبَهار والياسمين والنَّسرين واللّينوفر والنمام والمرزَنْجُوش والريحان والنارَنج والليمون والتفاح الشامىّ والأترجّ والباقلّى الأخضر والعنب والتين والموز واللوز الأخضر والسفرجل والكُمَّثْرى والرمان والنّبِق والقثّاء والخِيار والطَّلْع والبَلَح والبُسْر الرطب واللِّفت والقُنَّبيط والأسفاناخ والقَرْع والجزر والباذِنجان ؛ كل ذلك يجتمع فى وقت واحد من السنة .

وقال بعض من صنّف فى فضائل مصر : بمصر الحمير المَرِّيسيّة ، والبقر الحسينيّة ، والنّجُب النجارية ، والأغنام النّوبية ، والدجاج الحبشيّة ، والمراكب الحربية ، والسفن الزيبقية ، والمناسف الحلية ، والسّتور البَهْنَساويّة ، والغلائل القصبيّة ، والحرم

(١) ح : « لحرّ » .

السمطاوية ، والنّعال السِّنْدِية ، والسّلال الوهبانيّة ، والمضارب السلطانية . ويُحمَل إلى العراق وغيرها من مصر زيت الفُجْل والعسل النّحل ، ويُفخر به على أعسال الدنيا .

ويروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم بارك فيه لمّا أهداه إليه المقوقس .

وبمصر يزرع البَلَسان ، ودهنُه يستعمل فى أكثر العلاج ، والنّفْط وهو من آلة الحرب التى بها قهر الأعداء ، ودهن الخِروع وزيت البزْرِ والدهن الصينى ، وزيت الخردل وزيت الخسّ ، ودهن القرطم ، وزيت السّلجَم ، وخشب اللّبخ ، وهو أصلح من الأبنوس اليونانىّ .

وفى صعيد مصر خشب الأبنوس الأبلق وسائر العقاقير التى تدخل فى الطبّ والعلاج . وكلّ ما زرع فى أرض مصر ينبت .

وفيها من نبات الهند والسّند مثل الأهليلج والخيار شنبر والتمر هندى وغيره مما لا يوجد فى بلد من البلاد الإسلامية .

وبها الشبّ الواحى ؛ وهو أبلغ من اليمانى ، والأفيون والشّاهترج والصُّفْر والزجاج والجَزَع الملوّن والصّوّان ؛ وهو حجر لا يعمل فيه الحديد ؛ وكانت الأوائل تعمده وتقطّعه بأسوان ؛ ومنه العمد الجافية ، التى لا تكون بسائر الدنيا ، وكل حمامات مصر بالرخام لكثرته عندهم ، وكذلك صحون دورهم .

وبها الحجارة المسماة بالكَذّان ؛ يبلَّط بها الدّور ويعقد بها الدَّرَج .

وبها من الحصر العَبَدانىّ ، ومن سائر أصناف الحصر ما لا يوجد فى غيرها ، ويجلب من مصر البزُّ الأبيض من الدّبيقىّ وغيره الذى يعمل بدمياط وتِنّيس . وبالإسكندرية يعمل الوشى الّذى يقوم مقام وشى الكوفة .

وبالصعيد يعمل من الجلود الأنطاع ، وبالبهنسا السّتُور التى هى أحسن ستور الأرض

والبُسط وأجِـلّة الدوابّ والبراقع وسُتور النِّسوان فى المضارب والأكسية والطيالسة .

وكان يعمل بإخميم الفرش التى تسمّى نُطُوع الخز .

وبمصر من أصناف الرّقيق ماليس ببلد من البلدان، وأصناف الطير الحسن الصوت[1] فى صعيدها مثل القِمرىّ والتّوبىّ والنّوّاح والدُّبسىّ الأحمر والأبلق، والكَرَوان الذّى ليس مثله فى بلد .

ومنهـا يُحمل الطير إلى البـلدان فى الشرق والغرب ، والأشماع المتّخذة من الشهد وعسل الأسطروس والنّبيدة المعمولة من القمح والقند والأباليج والطَّبَرْزد ، وماء طـوبة الذّى لايعدِل له شىء ، ولا يتغيّر على ممـرّ الأيام ، والسّمك الذى هو مَلك الأسمـاك ، والبورى الطـرىّ والمملوح، والبلاطىّ الذى كأنه دُروع من الفِضّة ، وطير المـاء ، وطير الحوصل يعمل من جلده الخفاف النّاعمة والفراء الأبيض الذى يقوم مقام الفَنَك فى لِينه ورقته . وبها الـكَتّان ، ومنها يحمل إلى سائر الأرض ، والقراطيس ، وبها من العِلْم القديم ماليس ببلد ، كعلم الطبّ اليونانىّ والمساحة ، والنجوم والحساب القِبطىّ واللُّحون والشّعر الرومىّ .

وفيها من سائر الثّمار والأشجار والمشمومات والعقاقير والنبّات والحشائش مالا يحصى .

والعُصفور يفرخ بمصرَ فى كانون، وليس ذلك فى بلد إلّا بها .

***

وقال الـكندىّ : بمصر معدن الزمرّد ،وليس فى الدنيا زمرد إلا معدن بمصر، ومنها يحمَل إلى سائر الدنيا .

قال : وبها معدن الذهب ، يفوقُ علَى كلّ معدِن .

قال : وفيها القراطيس ، وليس هى فى الدنيا إلا بمصر .

وقال غيره : من خصائص مصر القراطيس ، وهى الطوامير ، وهى أحسن ما كتِب

(١) ح : « الصورة » .

فيه ، وهو من حشيش أرض مصر ، ويعمل طوله ثلاثون ذراعا وأكثر فى عرض شبر. وقيل إنّ يوسف عليه السلام أوّل من اتخذ القراطيس ، وكتب فيها .

قال الكندىّ ، وبها من الطُّرز والقصب التِّنّيسىّ والشرب والدّبيقىّ ما ليس بغيرها ، وبها الثياب الصوف والأكسية المِرْعَزّ [١] ، وليس هى فى الدنيا إلا بمصر . ويحكى أنّ معاوية لمّا كبر كان لايَدْفأ ، فاتفقوا أنه لايُدفئه إلا أكسية تعمل فى مصر ، من صوفها المِرْعزّ العسلىّ غير مصبوغ ، فعمِل له منها عدد ، فما احتاج منها إلا إلى واحد . وبها طراز البهنسا من السّتور والمضارب مايفوق ستور الأرض .

وبها من النّتاج العجيب من الخيل والبغال والحمير مايفوق نتاج أهل الدنيا ، وليس فى الدنيا فَرَس فى نهاية الصّورة فى العنق غير الفرس المصرىّ ، وليس فى الدنيا فرس لايردف غير المصرىّ ، وسبب ذلك قِصَر ساقيه وبلاغة صدرِه وقِصَر ظهره . ويحكى أن الوليد عزم على إجراء الحَلْبة ، فكتب إلى الأمصار أن يوجَّه إليه بخيار خيل كلّ بلد ، فلمّا اجتمعت عرضت عليه ، فمرّت عليه المصريّة ، فلما رآها دقيقة العَصَب ، ليّنة المفاصل والأعطاف ، قال : هذه خيل ماعندها طائل ، فقال له عمر بن عبد العزيز : وأين الخير كله إلا لهذه ! فقال له : ماتترك تعصُّبك لمصر ياأبا حفص ! فلما أجريت الخيل جاءت المصرية كلُّها سابقةً ماخالطها غيرها .

قال : وبها زَيْت الفُجل ودهن البَلَسان والأفيون والأبرميس وشراب العسل والبُسْر البرنىّ الأحمر واللّبَخ والخسّ والكبريت والشمع والعسل وخلّ الخمْز والترمس والجلبان والذرة والنّيدة والأترجّ الأبلق والفراريج الزبليّة . وذكِر أن مريم عليها السلام شكتْ إلى ربّها قلة لبن عيسى ، فألهمها أن غَلَتِ النيدة فأطعمته إياها .

وذكر بعضُهم أنّ رهبان الشام لايكادون يُرَوْن إلا عُمْشا من أكل العدس، ورهبان مصر سالمون من ذلك لأكلهم الجُلُبّان .

(١) فى اللسان : « المرعز كالصوف ، يخلص من بين شعر العنز » .

والبقر الذى بمصر أحسنُ البقر صورةً ، وليس فى الدنيا بقر أعظم خلقا منها ، حتى أن العضو منها يساوى أكبر ثور من غيرها .

وبها الحطب الصّنط والأبنوس الأبلق والقرْط الذى تُعلَفُه الدواب .

وذُكِر أنه يوقد بالحطب الصنط عشرين سنةفى الكانون أو التّنور، فلايوجد له رماد طول هذه المدة .

وجيزتها فى وقت الربيع من أحسن مناظر الدنيا .

وقال صاحب مباهج الفكر : يقال إنّ بمصر سبعمائة وخمسين معدِناً ، توجد بجبل المقطّم:الذهب والفضة والخارصين والياقوت ؛ إلا أنّه لطيف جدًّا ، يستعمل فى الأكحال والأدوية، وفى أسوان يغاص على السنفاوح ومعدن الزّمرد ؛ وليس فى الدنيا غيره ،وبجبال القلْزم المتصلة بجبل المقطم حجر المغناطيس .

ومن خصائص مصر برْكة النّطرون . وينبت فى أرض مصر سائر ماينبت فى الأرض . انتهى .

وقال صاحب غرائب العجائب : بمصر بئر البلسم بالمطريّة ، يسقى بها شجر البَلَسان، ودُهنه عزيز والخاصيّةفى البئر ؛ فإن المسيح عليه السلام اغتسَل فيها، وليس فى الدنيا موضع ينبت فيه البَلَسان إلا هذا الموضع ، وقد استأذن الملك الكاملُ أباه العادل أن يزرعه فأذِن له ، ففعل ولم ينجح،ولم يخاض منه دُهْن ، فسأل أباه أن يُجرىَ له ساقية من المطريّة إليه ، ففعل فلم ينجحْ .

قال : بأرض مصر حجر القىء ، إذا أخذه الإنسان بيده غلب عليه الغَثيان ، حتى يتقيّأ جميع مافى بطنه ، فإن لم يلقه من يده خِيف عليه التلف .

وقال الكندىّ : جعلَ الله مصرَ متوسطة الدنيا ، وهى فى الإقليم الثالث والرابع ، فسلِمتْ من حرّ الإقليم الأول والثانى ، ومن برْد الإقليم الخامس والسادس ، فطاب

هواؤها وبقى حرّها.وضعف حرها ، وخفّ بردها، فسلم أهلهامن مشاتي الجبال ومصائف عُمان وصواعق تهامة ودماميل الجزيرة وجرب اليمن ، وطواعين الشام وغيلان العراق ، وعقارب عسكر مكرم ، وطلب البحرين وحمّى خيبر ، وأمنوا من غارات الترك ، وجيوش الروم وطوائف العرب ، ومكابرة الدّيلم ، وسرايا القرامطة ، وبثوق الأنهار ، وقحْط الأمطار ، وقد اكتنفها معادن رزقِها ؛ وقرب تصرّفها ، فكثر خِصْبها ، ورَغِد عيشُها، ورخص سعرها.

وقال الجاحظ في مصر : إن أهلها يستغنون عن كلّ بلد، حتى لو ضُرب بينها وبين بلاد الدنيا سورٌ لغنِيَ أهلها بما فيها عن سائر بلاد الدنيا ، وفيها ماليس بغيرها ، وهو حيوان السّقنقُور والنّمس ، ولولاه لأكلت الثعابين أهلها ، وهُو لها كقنافذ سِجِسْتان لأفاعيها ، والسمك الرّعاد والحطب الصنط الذّى أوقِد منه يوما أجمع ماوجد من رماده ملء كفّ ، صلب العود ، سريع الوقود، بطيء الخمود . ويقال إنه الأبنوس ؛ لكن البقعة قصرت عن الكتّان ، فجاء أحمر شديد الحمرة ، ودهن البلَسان ، والأفيون وهو عصارة الخشخاش واللّبخ ، وهو ثمر في قدر اللوز الأخضر ؛ إلا أنّ المأكول منه الظاهر ، والأترجّ الأبلق والزّمرد . وأهلها يأكلون صيد بحر الروم وبحر فارس طريًّا ، وفي كلّ شهر من شهورها القبطية صنف من المأكول والمشروب والمشموم ، يوجد فيه دون غيره، فيقال رُطَب توت، ورمّان بابة ، وموز هتور ، وسمك كيهك، وماء طوبة ، وخروف أمشير ، ولبن برمهات ، وورد برمودة، ونبِق بَشَنْس، وتين بئونة ، وعسل أبيب ، وعنب مسرى . وإنَّ صيفها خريف ، وشتاءها ربيع ، وما يقطعه الحرّ في سائر البلاد من الفواكه يوجد فيها في الحر والبر ؛ إذ هي في الإقليم الثالث والإقليم الرابع ، فسلمت من حرّ الأول والثاني وبَرْد الخامس والسادس . ويقال : لو لم يكن من فضل

مصر إلا أنها تغنى فى الصيف عن الخيش والثّلج وبطون الأرض ، وفى الشتاء عن الوقود والفِراء لكفاها .

ومما وُصِفت به أنّ صعيدها حجازىّ كحرّ الحجاز ، يُنبت النخل والدَّوْم وهو شجر المقل ، والعُشَرَ ، والقَرَظ والإهليلج والفُلفل والخيار شنبر ، وأسفل أرضها شامىّ يمطر مطر الشام ،ويقع فيه الثلوج،وينبت التين والزيتون والعنب والجوز واللوز والفستق وسائر الفواكه ، والبقول الرياحين وهى مابين أربع صفات ، فضة بَيْضاء أو مِسْكة[١] سوداء ، أو زبرجدة خضراء أو ذهبة[٢] صفراء ، وذلك أن نيلها يطبّقها فتصير كأنها فضة بيضاء ، ثم ينضُب عنها فتصير مِسكةً سوداء ، ثم تزرع فتصير زبرجَدَةً خضراء ، ثم تستحصِد فتصير ذهبةً صفراء .

وحكى ابن زولاق فى كتابه ، أن أمير مصر موسى بن عيسى كان واقفاً بالميدان عند بِرْكة الحَبش ، فالتفت يميناً وشمالا ، وقال لمن معه من جنده : أترون ماأرى ؟ قالوا : وما يرى الأمير ؟ قال : أرى عجبا ، مافى شىء من الدنيا مثله ، فقالوا : يقول الأمير ، فقال : أرى ميدان أزهار ، وحيطان نخل وبستان شجر ، ومنازل سكنى، وجبّانة أموات، ونهراً عجّاجاً وأرض زرع ومراعىَ ماشية ، ومرابط خيل ، وساحل بحر ، وقانص وحش ، وصائد سمك ، وملاّح سفينة ، وحادىَ إبل ، ومقابر[٣] ورملاً وسهلا وجبلا، فهذه سبعة عشر؛ مسيرها فى أقلّ من ميل فى ميل ، ولهذا قال أبو الصّلت أمية بن عبد العزيز الأندلسىّ يصف الرّصد الذى بظاهر مصر :

يانزهة الرّصد التى قد نزهَتْ ... عن كلّ شىء خلا[٤] فى جانب الوادِى
فذا غديرٌ وذا روضٌ وذا جبلٌ ... فالضبُّ والنّون والملاّح والحادِى

(١) المسكة : نوع من الطيب . (٢) كذا فى ح ، ط ، وفى الأصل : « ذهبية » .
(٣) ط : « معابر » ، وصوابه ما فى الأصل .
(٤) كذا فى الأصل ، وفى ط ، ح : « حلا » .

قال ابن فضل الله فى المسالك : مملكة مصر من أجلّ ممالك الأرض لمَا حوتْ من الجهات المعظمة والأرض المقدّسة والمساجد الثلاثة التى تُشدّ إليها الرّحال ، وقبور الأنبياء والطّور والنّيل والفرات ؛ وهما من الجنّة ، وبها معدن الزمرّد ، ولا نظيرَ له فى أقطار الأرض . وحسب مصر فخرا ما تفرّدَت به من هذا المعدن واستمداد ملوك الآفاق له منها ، وبينه وبين قوص ثمانية أيام بالسّير المعتدل ، والبجاة[1] تنزل حولَه لأجل القيام بحفْرِه ، وهو فى الجبل الآخذ على شرقىّ النيل فى منقطَعٍ من البرّ لاعمارة عنده ، ولا قريبا منه ، والماء عنه مسيرةُ نصف يوم ؛ وهذا المعدِن فى صدر مغارةٍ طويلة فى حجر أبيضَ منه ، يُضرب فيُستخرج منه الزمرّد ؛ وهو كالعروق فيه .

قال : وأكثر محاسن مصر مجلوبةٌ إليها ؛ حتى بالغ بعضهم فقال : إنّ العناصر الأربعة مجلوبة إليها : الماء وهو النيل مجلوبٌ من الجنوب ، والتّراب مجلوب من حَمْل الماء ؛ وإلا فهى رمْل محض لا ينبت ، والنّار لا توجد بها شجرتها وهو الصوّان إلا إذا جُلب إليها ، والهواء لايهبّ إليها إلا من أحد البحرين ، إمّا الرومىّ وإمّا الخارج من القلْزم إليها .

وهى كثيرة الحبوب من القمح والشعير والفول والحمّص والعدس والبسلّة واللّوبيا والدّخْن والأرز ، وبها الرّياحين الكثيرة كالحبَق[2] والآس والوْرد وغيرها ، وبها الأترجّ والنّارنج والليمون والحماض والكباد والموْز الكثير وقصب السكّر الكثير والرُّطب والعنب والتّين والرّمان والتّوت والفرْصاد والخوخ واللّوز والُجمّيز والنّبِق والبرقوق والقرَاصيا والتّفاح . وأما السّفَرجل والكُمّثرى فقليل ؛ وكذلك الزّيتون مجلوب إلا قليلا فى الفيّوم ، وبها البِطّيخ الأصفر أنواع والأخضر والِخيار والقِثّاء على أنواع ، والقلقاس واللّفت والجزَر والقُنّبيط والفُجْل والبقول المنوّعة .

---

(١) البجاة : من القبائل التى كانت تسكن صعيد مصر .

(٢) فى القاموس : « الحبق ، محركة : نبات طيب الرائحة ، فارسيته : الفوتنج ، يشبه الثّام » .

وبها أنواع الدوابّ من الخيل والبغال والحمير والبقر والجواميس والغنم والمعز . ومما يُوصف من دوابّها بالجوْدة الحُمر لفراهتها ، والبقر والغنم لعظمها ، وبها الأوزّ والدّجاج والحمام ، ومن الوحش الغِزلان والنّعام والأرنب ؛ وأما من أنواع الطير فكثير كالكُركىّ وغيره .

وأوسط الأسعار فى غالب أوقاتها الإردبّ القمح بخمسة عشر درهما ،والشعير بعشرة، وبقية الحبوب على هذا الأنموذج ؛ وأما الأرز فيبلغ أكثر من ذلك ، وأما اللحم فقلّ سعره الرطل بنصف درهم .

ويعمل بمصر معامل كالتّنانير، ويعمل بها البيض بصنعة ؛ ويوقد بنار يحاكى بها نار الطبيعة فى حضَانة الدجاجة البيض،ويخرج فى تلك المعامل الفَراريج، وهى معظم دجاجهم. وبها ما يُستطاب من الألبان والأجبان ، وبها العسل بمقدار متوسط بين الكثرة والقلّة، وأما السّكر فكثير جدًّا ، وقيمته المعهودة على الغالب من السِّعر الرطل بدرهم ونصف، ومنها يُجلب السكر إلى كثير من البلاد، وقد نُسِىَ بها ما كان يذكر من سُكّر الأهواز .

وبها الكتّان المعدوم المثل المنقول منه ، ومما يعمل من قماشه إلى أقطار الأرض .

ومبانيها بالحجر،وأكثرها بالطّوب وأفلاق النخل والجريد .وخشب الصَّنوْبر مجلوب إليهم من بلاد الروم فى البحر ، ويسمّى عندهم النِّقْى .

وبها المدارس والخوانق والرُّبُط والزوايا والعمائر الجليلة الفائقة المعدومة المثال المفروشة بالرخام ، المسقوفة بالأخشاب ، المدهونة الملمّعة بالذّهب واللّازَوَرْد .

قال : وحاضرة مصر تشتمل على ثلاث مدن عظام : الفُسطاط ، وهو بناء عمرو بن العاص؛وهى المسماة عند العامة بمصر العتيقة ، والقاهرة بناها جوهر القائد لمولاه الخليفة المعزّ ، وقلعة الجبل بناها قراقوش للملك الناصر صلاح الدين أبى المظفّر يوسف بن أيوب ، وأول من سكنها أخوه العادل . وقد اتصل بعضُ هذه الثلاثة ببعضٍ بسور بناه قراقوش بها

إلّا أنه قد تقطّع الآن فى بعض الأماكن ، وهذا السُّور ، هو الّذى ذكره القاضى الفاضل فى كتاب كتبه إلى السلطان صلاح الدين ، فقال : والله يحيى الموتى حتى يستدير بالبلدين نطاقُه ، ويمتد عليهما رواقه ، فهما عقيلة ما كان معصمهما بغير سوار ، ولا حضرهما ليجْلَى بلاَ منطقةِ نضار[١] .

قال : وبها المارستان المنصورى المعدوم النّظير ، لعظم بنائه وكثرة أوقافه . وبها البساتين الحِسان والمناظر النَّزِهة والآدار المطلّة على البحر ، وعلى الخلجانات الممتدّة فيه أوقات مدّها .

وبها القرافة تربة عظمى لمدفن أهلِها ، وبها العمائر الضخمة ، وهى من أحسن البلاد إبّان رَبيعها للغُدُرِ الممتدّة من مقطعات النيل بها ، ومايحفّها من زرع أخرجت شَطْأها وفتّقت أزهارَها ، وبها من محاسن الأشياء ولطائف الصنائع ماتكفى شهرته ومن الأسلحة والقماش والزّرْكش والمصوغ والكفْت[٢] وغير ذلك مالا يكاد يعدّ تفرّدها به ، والرماح التى لا يُعمل فى الدنيا أحسن منها.. انتهى كلام ابن فضل الله .

وقال الكندىّ فى فضل مصر : بمصر العجائب والبركات ، فجبلها المقدّس ، ونيلها المبارك ، وبها الطُّور الّذى كلّم الله عليه موسى ؛ فإنّ أهل العلم ذكروا أنّ الطُّور من المقطم ، وأنّه داخل فيما وقع عليه القدس ؛ قال كعب : كلّم الله موسى عليه السلام من الطّور إلى أطراف المقطّم من القدس . وبها الوادى المقدّس ، وبها ألقى موسى عصاه ، وبها فلق البحر لموسىَ ، وبها ولد موسى وهرون ، وبها ولد عيسى ، وبها كان ملك يوسف ، وبها النّخلة التى ولدت مريم عيسى تحتها بريف من كُورة أهناس ، وبها اللّبخة التى أرضَعت عندها مريم عيسى بأشْمُون ، نخرج من هذه اللّبخة الزيت ، وبها مسجد

(١) ح ، ط : « نصار » تحريف .
(٢) الكفت : ما تطعم به أوانى النحاس من الذهب والفضة .

إبراهيم ، ومسجد يعقوب ، ومسجد موسى ، ومسجد يوسف ، ومسجد مارية سرية رسول الله صلى الله عليه وسلم حَفْن[1] ، أوصت أن يبنى بها مسجد فبنى ، وبها مجمع البحرين وهو البرْزخ الذى قال الله: ﴿ مَرَجَ البحْرين يلتقيان* بينهما برزخٌ لا يبغيان ﴾[2] وقال : ﴿ وهو الذى مَرَجَ البحرين هـذا عذب فُرات وهَـذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وجعل بينَهما برزخا ﴾[3] .

وقال غـيره : لأهل مصر القلم المعروف بقلم الطـير ، وهو قلم البرابى ، وهو قلم عجيب الحرف

قال : ومصر عنـد الحـكماء العالم الصغير ، سليل العالم الـكبير ؛ لأنه ليس فى بلد غنىّ غريب إلا وفيهـا مثله وأغرب منه ، وتفضُل على البلدان بكثرة عجائبها ومن عجائبها النِّمس ؛ وهو أقتل للثعابين بمصر من القنافد للأفاعى بسجستان .

وبمصر جبلٌ يكتب بحجارَتِهِ كما يكتب بالمداد، وجبل يؤخذ منه الحجر، فيترك فى الزّيت فيقِد كما يقِد السراج .

ويقال : إنه ليس على وجه الأرض نبت ولا حجر إلا وفى مصر مثله ، وليس تُطلب فى سائر الدنيا الأموال المدفونة إلا بمصر .

ويقال : إن بمصر بقْلة؛مَنْ مسّها بيده ثم مسّ السمك الرّعاد لم تُرعَدْ يده ، وبها حجر الخلّ يُطْفَأُ على الخلّ . وبها حجر القىء إذا أمسكه الإنسان بيديه تقيّأ كلّ ما فى بطنه ، وبها خرَزة تجعلها المرأة على حَقْوِها فلا تحبل . وبهـا حجر يوضع على حرف التّنّور فيتساقط خبزه ، وكان يوجد بصعيدها حجارة رِخْوة تـكسر فتقِد كالمصابيح .

ومن عجائبها حوض كان بدلالات مدوّن من حجارة .

---

(١) انظر فتوح مصر .
(٢) الرحمن ٢٠ .
(٣) الفرقان ٥٣ .

السبب فى كون أهل مصر أذلاء يحملون الضيم

قال محمد بن الربيع الجيزىّ : سمعت يحيى بن عثمان بن صالح ، يقول : قدِم سعد بن أبي وقّاص فى خلافة عثمان رسولاً من قِبَل عثمان إلى أهل مصر أيّام ابن أبى حُذَيفة ، فلقوْه خارجا من الفُسطاط ، ومنعوه من دخولها ، فقال لهم : فاتسمعوا ما أقول لكم ؛ فامتنعوا عليه ، فدعا عليهم أن يضربهم الله بالذّل . هذا معناه .

قلت : وسعد ممّن عرف بإجابة الدّعوة ؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم دعا له : « اللهمّ استجِبْ له إذا دعاك » .

فى تذكرة الصلاح الصفدىّ : كان الشيخ تاج الدين الفزارىّ يقول : إنّ الحكماء وأهل التجارب ذكروا أنّ مَنْ أقام ببغداد سنة وجد فى علمه زيادة ، ومن أقام بالموصل سنة وجد فى عقله زيادة ، ومن أقام بحلَب سنة وجَد فى نفسه شحًّا ، ومن أقام بدمشق سنة وجَد فى طباعه غِلْظةً وفظاظة ، ومن أقام بمصر سنة وجد فى أخلاقه رِقّةً وحُسناً .

فى مباهج الفكر : يروَى عن كعب ، قال : لمّا خَلَق الله الأشياء ، قال القتل : أنا لاحق بالشام ، فقالت الفتنة : وأنا معك ، وقال الخِصْب أنا لاحقٌ بمصر ، فقال الذّل : وأنا معك ، وقال الشّقاء : أنا لاحقٌ بالبادية ، فقالت الصّحّة : وأنا معك .

وقال محمد بن حبيب : لمّا خلق الله الخلق خلَق معهم عشرة أخلاق : الإيمان والحياء والنّجدة والفِتنة والكِبْر والنّفاق والغنى[1] والفقر والذلّ والشّقاء ، فقال الإيمان : أنا لاحق باليمن ، فقال الحياء : وأنا معك ، وقالت النجدة : أنا لاحقة بالشّام ، فقالت الفتنة: وأنا معك ، وقال الكِبْر : أنا لاحقٌ بالعراق ، فقال النفاق : وأنا معك ، وقال الغنى : أنا لاحق بمصر ، فقال الذلّ : وأنا معك ، وقال الفقر : أنا لاحق بالبادية، فقال الشقاء: وأنا معك.

(١) ط ، ح : « الفناء » تحريف .

وقال غيره : إنّ الله جعل البركة عشرة أجزاء ، فتسعة منها فى قريش وواحد فى سائر النّاس ، وجعل الكرم عشرة أجزاء فتسعة منها فى العرب وواحد فى سائر الناس، وجعل الغيرة عشرة أجزاء فتسعة منها فى الأكراد وواحد فى سائر الناس ، وجعل المكر عشرة أجزاء ، فتسعة منها فى القِبْط وواحد فى سائر الناس ، وجعل الجفاء عشرة أجزاء، فتسعة منها فى البَرْبر وواحد فى سائر الناس ، وجعل النّجابة عشرة أجزاء ، فتسعة منها فى الرّوم وواحد فى سائر الناس ، وجعل الصناعة عشرة أجزاء؛ فتسعة منها فى الصّين وواحد فى سائر الناس ، وجعل الشّهْوة عشرة أجزاء ، فتسعة منها فى النّساء وواحد فى سائر الناس ، وجعل العَمَل عشرة أجزاء فتسعة منها فى الأنبياء وواحد فى سائر الناس ، وجعل الحَسَد عشرة أجزاء ، فتسعة منها فى اليَهود وواحد فى سائر النّاس .

ويحكى أن الحجّاج سأل ابنَ القِرِّية عن طبائع أهل الأرض ، فقال : أهلُ الحجاز أسرعُ الناس إلى الفتنة وأعجزهم عنها ؛ رجالها حُفاة، ونساؤها عُراة ، وأهل اليمن أهل سَمْع وطاعة ، ولزوم الجماعة ، وأهل عُمان عرب استَنْبَطوا ، وأهل البحرين قِبْط استعربُوا ، وأهل اليمامة أهل جَفاء ، واختلاف آراء . وأهل فارس أهل بأس شديد ، وعزّ عتيد ، وأهل العراق أبحث الناس عن صغيرة ، وأضيعهم لكبيرة . وأهل الجزيرة أشجعُ فرسان ، وأقتل للأقران . وأهل الشام أطوعُهم لمخلوق وأعصاهم لخالق . وأهل مصر عَبيدٌ لمنْ غلب ، أكيس الناس صغاراً ، وأجهلهم كبارا .

وعن ابنِ القِرّية قال : الهند بحر هادِرٌ ، وجَبَلها ياقوت ، وشجرها عود ، وورقها عِطْر . وكِرْمان ماؤها وَشَل[1] ، وثمرها دَقَل[2] ، ولصُّها بطل . وخراسان ماؤها جامد ، وعدوّها جاهد . وعُمان حرّها شديد ، وصيدها عتيد . والبحرين كناسة بين المِصْرين . والبصرة ماؤها مِلْح ، وحربُها صُلح ، مأوى كلّ تاجر ، وطريق كل عابر . والكوفة ارتفعت عن

(١) الوشل : الماء القليل .
(٢) الدقل : أردأ التمر .

(حسن المحاضرة ٢٢ / ٢)

حَرّ البحرين ، وسَفُلت عن بَرْد الشام . وواسط جَنّة ، بين كُماة وكَنّة ، والشّام عروس، بين نساء جلوس،ومصر هواؤها راكد، وحرّها متزائد ،تطوّل الأعمار، وتسوّد الأبشار .

وقال بعضهم : يقال فى خصائص البـلاد فى الجواهر : فيروزج نيسابور ، وياقوت سرَنديب ، ولؤلؤ عُمان ، وزَبرْجَد مِصْر ، وعقيق اليمن ، وجَزْع[1] ظفار ، وكارِى بَلْخ، ومَرْجان إفريقية .

وفى ذوات السّموم : أفاعى سِجِسْتان ، وحيّات أصبهان ، وثعابين مصر ، وعقارب شَهْر زُور ، وجرّارات[2] ، الأهواز ، وبراغيث أرمينيَة ، وفار أردنّ ، ونمل ميّافارقين ، وذباب تلّ بابان[3] ، وأوزاغ بَلَد[4] .

وفى الملابس بُرود اليَمَن ، ووشْى صنعاء ، ورَيْط[5] الشام وقصب مصر ، وديباج الروم ، وقزّ السّوس ، وحرير الصين ، وأكسية فارس ، وحُلَىّ البَحرين وسَقلاطون بغداد ، وعمائم الأبُـلّة والرىّ ، وملحم[6] مَرْو ، وتكك أرمينية ، ومناديل الدّامغان ، وجوارب قزوين .

وفى المراكيب عتاق البادية، ونجائب الحِجاز ، وبراذين طُخارستان ، وحَمير مصر، وبغال بَرْزعة .

وفى الأمراض طَواعين الشام ، وطُحال البحرين ، ودماميل الجزيرة ، وحمّى خَيْبر، وجنون حِمْص ، وعرق اليمن ، ووباء مصر ، وبرْسام العراق ، والنار الفارسيّة ، وقروح بَلْخ .

وقال الجاحظ فى كتاب الأمصار : الصناعة بالبصرة، والفصاحة بالكوفة ،والتخنيث

---

(١) الجزع : الخرز اليمانى .
(٢) الجرارة : ضرب من العقارب الصغار ؛ تجرر أذيالها .
(٣) بابان : بلد بالبحرين .
(٤) بلد ، هى مرو الروذ ، وانظر ياقوت .
(٥) ريط : جمع ريطة ، وهى الملاءة .
(٦) الملحم : ضرب من الأكسية .

ببغداد ، والطَّرْمذة[1] بسَمَرْقَنْد والعِيّ بالرّى ، والجفاء بنيسابور، والحسْن بهراة ، والمروءة ببلخ ، والبلح بمَرْو ، والعجائب بمصر .

وقال غيره : قراطيس سَمَرْقند لأهل المشرق كقراطيس مصر لأهل المغرب .

وقال القاضى الفاضل: أهل مصر على كثرة عددِهم ومايَنسب من وفور المال إلى بلدهم ، مساكين يعملون فى البحر ، ومجاهيد يدأبون فى البرّ ، ومن العجائب شجرة العباس فى دَنْدَار من صعيد مصر ، وهى شجرة متوسّطة ، وأوراقها قصيرة منبسطة ، فإذا قال الإنسان : ياشجرة العبّاس ، جال الناس ، تجتمع أوراقها ، وتحترق لوقتها .

---

(١) المطرمذ : الذى يقول مالا يفعل .

ذكر النيل

قال التِّيفاشيّ فى كتاب سجع الهديل : لم يسمّ نهر من الأنهار فى القرآن سوى النيل فى قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى أمّ مُوسى أن أرضِعيه فإذا خفتِ عليه فألقيه فى اليمّ ﴾ [1] قال : أجمع المفسرون على أنّ المراد باليمّ هنا نيلُ مصر .

أخرج أحمد ومُسلم عن أبى هُريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « النيل وسِيحان وجِيحان والفُرات من أنهار الجنة » .

قال ابنُ عبد الحكم :[2] حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنا الليث ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن أبى الخير ، عن كعب الأحبار ، أنه كان يقول : أربعة أنهار من الجنّة وضعها الله فى الدنيا ؛ فالنّيل نهر العسل فى الجنّة والفُرات نهر الخمْر فى الجنّة ، وسِيحان نهر الماء فى الجنّة ، وجيحان نهر اللّبن فى الجنّة . أخرجه الحارث فى مسنده والخطيب فى تاريخه .

وقال : حدّثنا عثمان بن صالح ، حدّثنا ابن لَهيعة ، عن وهب بن عبد الله المَعافرىّ ، عن عبد الله بن عمرو بن العاصى ، أنه قال : نيل مصر سيدّ الأنهار ، سخّر الله له كلّ نهر بالمشرق والمغرب ، فإذا أراد الله أن يُجرِىَ نيلَ مصر أمر كلّ نهر أن يُمِدّه ، فأمدّته الأنهار بمائها ، وفجّر الله له الأرض عيونا ، فإذا انتهتْ جِرْيتهُ إلى ما أراد الله ، أوحَى الله إلى كلّ ماء أن يرجع إلى عنصره [3] . أخرجه ابن أبى حاتم فى تفسيره .

وقال : حدّثنا عثمان بن صالح ، حدّثنا ابنُ لَهيعة ، عن يزيد بن أبى حُبيب أن معاوية بن أبى سفيان سأل كعب الأحبار ، هل تجد لهذا النيل فى كتاب الله خبرا ؟ قال:

---

(١) القصص ٧ . (٢) فتوح مصر ١٤٩ ، ١٠٥ .
(٣) فتوح مصر ١٤٩ .

أى والذى فلَق البحر لموسى ، إنى لأجده فى كتاب الله يوحىَ إليه فى كلّ عام مرّتين ، يوحَى إليه عند جَرْيه : إن الله يأمُرك أن تجرِىَ فيجرى ما كتب الله ، ثم يوحَى إليه بعد ذلك : يانيل عُدْ [١] حميدًا [٢] .

وأخرج الخطيب فى تاريخه وابن مَرْدويه فى تفسيره والضياء المقدسىّ فى صفة الجنة عن ابن عباس مرفوعا : أنزل الله تعالى من الجنة إلى الأرض خمسة أنهار : سيحون ، وجَيحون ، ودِجلة ، والفرات والنيل ؛ أنزلها الله من عين واحدةٍ من عيون الجنة ، من أسفل درجة من درجاتها، على جناحَىْ جبريل، واستودعها الجبال ، وأجراها فى الأرض ، وجعل فيها منافع للناس ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وأنزلنـا من السماء ماء بقَدَرٍ فأسكنّاه فى الأرض ﴾[٣] ، فإذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج ، أرسل الله جبريل ، فرفع من الأرض القرآن والعلم والحجْر من البيت ومقام إبراهيم وتابوت موسى بمـا فيه ؛ وهـذه الأنهـار الخمسة ، فيرفع كلّ ذلك إلى السماء ؛ فذلك قوله : ﴿ وإنّا عَلَى ذَهابٍ به لَقَادِرُونَ ﴾[٣] ، فإذا رفعت هـذه الأشياء من الأرض عدِم أهلها خيرها .

وأخرج الحـارث بن أبى أسامة فى مسنده وابنُ عبد الحـكم فى تاريخ مصر ، والخطيب فى تاريخ بغداد ، والبيهقىّ فى البعث عن كعب الأحبار ، قال : «نهر النيل نهرُ العسل فى الجنة ، ونهر دجْلة نهر اللبن فى الجنة ، ونهر الفرات نهر الخمر فى الجنة ، ونهر سيحان نهر الماء فى الجنة»[٤] .

وأخرج البيهقىّ فى شُعب الإيمان ، عن عبد الله بن عمرو بن العاصى ، قال : غار النيل على عهد فرعون ، فأتاه أهلُ مملـكته ، فقالوا : أيّها الملك أجرِ لنـا النّيل ، قال : إنى لم أرضَ عنـكم ، فذهبوا ثم أتوْه ، فقالوا : أيّها الملك ، أجْرِ لنا النيل ، قال : إنى لم أرضَ عنـكم ؛ فذهبوا ثم أتوْه ، فقالوا : أيّها الملك ماتت البهائم ، وهلـكت الأبكار ، لئن لم

(١) فتوح مصر : « غر » .
(٢) فتوح مصر ٢٣٩ .
(٣) المؤمنون ١٨ .
(٤) فتوح مصر ١٥٠ .

تُجرِ لنا النيل لنَتخذنّ إلهاً غيرك ، قال اخرجُوا إلى الصعيد ، فخرجوا فتنحّى عنهم حيث لا يروْنه ، ولا يسمعون كلامه ، فألصق خـدَّه بالأرض ، وأشار بالسبابة لله ، ثم قال : اللهمّ إنى خرجت إليك مخرَج العبد الذليل إلى سيّده ، وإنى أعلم أنّه لا يقدر على إجرائه أحدٌ غيرك فأجْرِه . قال : فجرى النيل جرياً لم يجرِ قبله مثله ، فأتاهم فقال: إنّى قد أجريْتُ لـكم النيل ، فخرّوا له سجدا ، وعرض له جبريل ، فقال : أيّها الملك أعْدِنى على عبدى ، قال : وما قصّتُه ؟ قال: عبد لى ملّـكته على عبيدى ، وخوّلته مفاتيحى ، فعادانى ، فأحبّ مَنْ عاديت ، وعادَى من أحببت ، قال : بئس العبد عبدك ! لو كان لى عليه سبيل لغرّقته فى بحر القُلْزم ! فقال : يأيّها الملك ، اكتب لى كتاباً ، فدعا بـكتاب ودواة : ما جزاء العبد الذى خالف سيّده فأحبّ مَنْ عادى وعادى من أحبّ إلا أن يُغرَق فى بحر القلزم . قال : يأيّهـا الملك اختمه لى ، فختمه ثم دفعه إليه ، فلمّا كان يوم البحر ، أتاه جـبريل بالـكتاب ، فقال : خذ هذا ما حكمت به على نفسك .

أثر متصل الإسناد فى أمر النيل

أخبرنى أبو الطيّب الأنصارىّ إجازةً، عن الحافظ أبى الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقىّ ، عن أبى الفتح محمد بن محمد الميدومىّ ، أخبرتْنا أَمَةُ الحقّ شامية بنت الحافظ صدر الدين الحسن بن محمد بن محمد سماعا ، أخبرنا أبو حفص عمر بن طبرزد سماعاً ، أخبرنا أبو القاسم إسماعيل بن أحمد السّمرقندىّ وغيره سماعا ، قالوا : أخبرنا أبو الحسين أحمد بن محمد بن النّقور سماعا ، أخبرنا أبو طاهر محمد بن عبد الرحيم المخلص سماعا ، أخبرنا عبيدالله ابن عبد الرحمن بن عيسى السكرىّ ، حـدثنا أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذىّ وأبو بكر محمد بن صالح بن عبد الرحمن الحافظ الأنماطىّ ، قالا : حدثنا أبو صالح عبد الله ابن صالح بن محمد ، كاتب الليث ، قال : حدّثنى الليث بن سعد ، قال : بلغنى أنّه كان رجل من بنى العِيص يقال له حائد بن أبى شالوم بن العِيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام ، خرج هارباً من ملكٍ من ملوكهم ؛ حتى دخل أرضَ مصر ، فأقام بها سِنين ؛ فلمّا رأى أعاجيبَ نيلها وماياتى به ، جعل لله تعالى عليـه ألّا يفارق ساحلَها حتى يبلغ مُنتهاه ؛ من حيث يخرج أو يموت قبل ذلك ، فسارَ عليه ـ قال بعضهم : سار[1] ثلاثين سنة فى النّاس وثلاثين فى غير الناس . وقال بعضهم : خمسة عشر كذا ، وخمسة عشر كذا ـ حتى انتهى إلى بحرٍ أخضر ، فنظَر إلى النيل ينشقّ مقبِلاً ، فصعد على البحر ، فإذا رجل قائم يصلّى تحت شجرة من تفّاح ، فلما رآه استأنس به ، وسلّم عليه ، فسأله الرجل صاحب الشجرة ، فقال له : مَنْ أنت ؟ قال : أنا حامد[2] بن أبى شالوم بن العِيص بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام ، فمن أنت ؟ قال : أنا عمران بن فلان بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم ، قال : فما الذى جاء بك إلى هنا ياعمران ؟ قال : جاء بى الّذى جاء بك ، حتى انتهيت إلى هذا الموضع ؛ فأوْحَى الله إلىّ أن أقفَ فى هذا الموضع ، حتى يأتيَنى أمرُه ،

(١) ساقط من ط

(٢) ط ، ح : « حائد » .

قال له حامد : أخبرْنى ياعمران ، ما انتهى إليك من أمرِ هـذا النيل ؟ وهل بلغَك فى الـكتُب أنّ أحداً من بنى آدم يبلُغه ؟ قال له عمران : نعم، بلَغنى أنّ رجلا من بنى العِيص يبلغه ، ولا أظنّه غـيرُك ياحامد ، قال له حائد : ياعمران ، أخبرْنى كيف الطريقُ إليه ؟ قال له عمران : لستُ أخبرُك بشىء إلّا أن تجعلَ لى ما أسألك ! قال : وماذاك ياعمران ؟ قال : إذَا رجعت إلىّ وأنا حىّ أقمتَ عندى حتى يوحِيَ اللهُ تعالى إلىّ بأمره ، أو يتوفّانى فتدفِننى ؛ فإن وجدتَنى ميّتاً دفَنْتَنى وذهبتَ ، قال : ذلك لك علىّ ، قال له : سرْ كما أنت على هذا البحر ؛ فإنّك تأتى دابّة ترى آخرها ولا ترى أوّلها ، فلا يهولنّك أمرُها ، اركبْها ؛ فإنها دابّةٌ معادية للشمس ، إذا طلعت أهوتْ إليها لتلتقِمها حتى يحول بينها وبينها حجَبتها ، وإذا غربت أهوتْ إليها لتلتقمَها ؛ فتذهب بك إلى جانب البحر ، فسرْ عليها راجعاً حتى تنتهىَ إلى النيل ، فسرْ عليه ، فإنّك ستبلغ أرضاً من حديدٍ ، جبالها وأشجارها وسهولها من حَديد ؛ فإن أنت جُزتَها وقعتَ فى أرض من نحاس، جبالها وأشجارها وسهولها من نُحاس ، فإن أنتَ جزتَهـا وقعتَ فى أرض من فضّة ؛ جبالها وأشجارها وسهولها من فضّة ، فإن أنتَ جزتَها وقعتَ فى أرضٍ من ذهب جبالها وأشجارها وسهولها من ذهب ، فيها ينتهى إليك علم النِّيل .

فسار حتى انتهى إلى أرض الذّهب ، فسار فيها حتى انتهَى إلى سور من ذهب وشُرفة من ذهب ، وقبّة من ذهب ، لها أربعة أبواب ؛ فنظر إلى ماينحدر من فوق ذلك السّور حتى يستقرّ فى القبّة ثم ينصرف فى الأبواب الأربعة ؛ فأمّا ثلاثة فتغيض في الأرض ، وأمّا واحـد فيسير على وجه الأرض ؛ وهو النيل . فشرب منه واستراح ، وأهوى إلى السّور ليصعد ، فأتاه ملَك فقال له : ياحامد قِفْ مكانك ، فقد انتهى إليك علمُ هذا النيل ؛ وهذه الجنّة ؛ وإنما ينزل من الجنة ، فقال : أريد أن أنظر إلى الجنّة ، فقال : إنك لن تستطيع دخولَها اليوم ياحامد ، قال : فأىّ شىء هذا الذى أرى ؟ قال :

هذا الفَلَك الذى تدُور فيه الشمس والقمر ، وهو شبه الرّحا ، قال: إنى أريد أن أركبه فأدور فيه ـ فقال بعض العلماء : إنه قد ركبَه ؛ حتى دار الدنيا وقال بعضهم : لم يركبه ـ فقال له ياحامد : إنه سيأتيك من الجنّة رزق ، فلا تؤثِرْ عليه شيئاً من الدّنيا ، فإنه لا ينبغى لشىء من الجنّة أن يُؤثَر عليه شىء من الدنيا إن لم تُؤثِرْ عليه شيئاً من الدنيا بقِى مابقيتَ .

قال : فبينا هو كذلك واقف ،إذ نزل عليه عنقود من عِنب فيه ثلاثة ؛أصناف لون كالزبرجد الأخضر ، ولون كالياقوت الأحمر، ولون كاللؤلؤ الأبيض ، ثم قال له : ياحامد، أما إن هذا من حِصْرِم الجنّة ، وليس من طيب عِنَبها ، فارجع ياحامد ، فقد انتهى إليك علم النيل ، فقال : هذه الثلاثة الّتى تغيض فى الأرض ، ماهى ؟ قال : أحدُها الفرات ، والآخر دِجْلة ، والآخر جيحان ، فارجع .

فرجَع حتى انتهى إلى الدابّة الّتى ركبها ، فركِبها ، فلمّا أهوتْ الشمس لتَغْرُب قذفت به من جانب البحر ، فأقبل حتى انتهَى إلى عمران ، فوجده ميّتاً فدفنه ، وأقام على قبره ثلاثا ، فأقبل شيخ متشبِّه بالناس أغرّ من السجود ، ثم أقبل إلى حامد ، فسلّم عليه ، ثم قال له : ياحامد ، ما انتهى إليك من علم هـذا النيل ؟ فأخبره ، فلمّا أخبره ، قال له : هكذا نجده فى الكتب ، ثم أطْرى[1] ذلك التفاح فى عينيه ، وقال : ألا تأكل منه ؟ قال : معى رزقى ، قد أعطِيتُه من الجنّة ونُهيت أن أوثر عليه شيئاً من الدنيا ، قال: صدقت ياحامد ، هل ينبغى لشىء من الجنة أن يؤثّر بشىء من الدنيا ، وهل رأيتَ فى الدنيا مثل هذا التفاح ؟ إنما أُنبتت له فى الأرض ليس من الدنيا ، وإنما هـذه الشجرة من الجنّة ، أخرجها الله لعمران يأكل منهـا ، وما تركها إلا لك ، ولو قد وليتَ عنهـا رفعت ، فلم يزل يُطريها فى عينيه ، حتى أخـذ منها تفاحة ، فعضّها ، فلمـا عضّها عضّ

(١) ح ، ط : « طرى » ، وما أثبته من الأصل .

يده ، ثم قال : أتعرفه ؟هو الذى أخرج أباك من الجنّة ؛ أما إنّك لو سلّمت بهـذا الذى كان معك لأكل منه أهلُ الدنيا قبل أن ينفدَ ، وهو مجهودكَ إن تبلغه فـكان مجهوده أن يبلغه .

وأقبل حامد حتى دخل أرض مصر ، فأخبرهم بهذا ؛ فمات حامد بأرض مصر .

وبهذا الإسناد إلى عبد الله بن صالح ، حدثنى ابنُ لَهيعة عن وهب بن عبد الله المَعَافرىّ ، عن عبد الله بن عمرو فى قوله تعـالى : ﴿ فأخرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وعيون * وكنوزٍ ومَقامٍ كريم ﴾[1] قال : كانت الجنان بحافّتى هذا النيل ، من أوله إلى آخره فى الشّقّين جميعا من أسوان إلى رشيد ، وكان له سبعة خُلُج : خليج الإسكندرية ، وخليج دمياط ، وخليج سرْدوس ، وخليج مَنْف ، وخليج الفيوّم ، وخليج المنهى وخليج سخا، متّصلة لا ينقطع منها شىء عن شىء ، ويزرع ما بين الجبلين كلّه من أوّل مصر إلى آخر ما يبلغه المـاء ، وكانت جميع مصر كلّها يومئذ تروى من ستة عشر ذراعا .

وبهذا الإسناد إلى ابن لَهيعة ، وعن يزيد بن أبى حبيب ؛ أنّه كان على نيل مصر فُرْضة لحفر خليجها ، وإقامة جسورها وبناء قناطرهـا ، وقطع جزائرها مائة ألف وعشرون ألف فاعل ، معهم الطُّور والمساحِى والأداة ، يعتقبون ذلك ، لايدَعون ذلك شتاء ولا صيفا .

وذكر بعضُ الأخباريّين أنّ حامدا هذا لم يتنبّأ ، وأنه أوتىَ الحـكمة ، وأنه سأل الله أن يُريه منتهى النيل ، فأعطِىَ قوّةً على ذلك ، فوصل إلى جبل القمر ، وقصد أن يطّلع إلى أعلاه ، فلم يقدر ؛ فسأل الله فيسّره عليه ، فصعد فرأى خلفه البحر الزفتىّ ، وهو بحر أسود منتِن الريح مظلم ، فرأى النيل يجرى فى وسْطه ؛ كأنه السّبيكة الفضة .

وقال صاحب مباهج الفـكر : ذكر أبو الفرج قدامة أن مجموع ما فى المعمور من

---

(١) الشعراء ٥٧ ، ٥٨

الأنهار مائتان وثمانية وعشرون نهرا ؛ منها ما يجرى من المشرق إلى المغرب . ومنها ما يجرى من الشمال إلى الجنوب ، ومنها ماجريانه كنهر النيل من الجنوب إلى الشمال ، ومنها هو مركّب من هذه الجهات كالفرات وجيحون ؛ فأما النّيل فذكر قدامة أنّ انبعاثه من جبل القمر وراء خط الاستواء من عين تجرى منها عشرة أنهار؛ كل خمسة منها يصب إلى بطيحةٍ[1] كبيرة فى الإقليم الأول ، ومن هذه البطيحة يخرج نهر النيل[2].

وذكر صاحب كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق أن هـذه البحيرة تسمى بحيرة كُورَى منسوبة لطائفـة من السودان ، يسكنون حولها متوحّشين يأكلون مَنْ وقع إليهم من الناس[3] ، فإذا خرج النيل منها يشق بلاد كُورَى ثم بلاد ننه (طائفة من السودان) ، بين كانم[4] والنوبة ، فإذا بلغ دنقلة مدينة النوبة عطف من غربيّها إلى المغرب ، وانحدر إلى الإقليم الثانى ، فيـكون على شطئه[5] عمارة النّوبة ، وفيه هناك جزائر متّسعة عامرة بالمدن والقرى ، ثم يشرّق[6] إلى الجنادل ، وإليها تنتهى مراكب النوبة انحداراً ، ومراكب الصعيد الأعلى صعودا[7] وهناك أحجار مضرّسة لا مرور للمراكب عليها إلا فى أيام[8] زيادة النيل ، ثم يأخذ إلى الشمال ، فيـكون على شرقيّه مدينة أسوان من الصعيد الأعلى ، ثم يمرّ بين جبلين مكتنفين[9] لأعمال مصر شرقىّ وغربىّ إلى الفسْطاط[10] ، فإذا تجاوزها مسافة يوم انقسم إلى قسمين أحدهما يمرّ حتى يصبّ فى بحر الروم [عند دمياط ، ويسمىّ بحر الشرق والآخر وهو عمود النيل ومعظمه يمرّ إلى أن يصب][11] عند رشيد ، ويسمى بحرْ الغرْب ، ومسافة النيل من منبعه إلى

(١) البطيحة: مسيل الماء ، وفى ط : « البطيخة » ، تحريف . (٢) نقله فى نهاية الأرب ١ : ٢٦٢ .
(٣) بعدها فى نهاية الأرب : « ومن هذه البحيرة يخرج نهر غانة ونهر الحبشة » .
(٤) ط : « كانم » . (٥) نهاية الأرب : « شطه » . (٦) ح ، ط : « يشرف » .
(٧) نهاية الأرب : « انحدارا » . (٨) نهاية الأرب : « إبان » . (٩) ح : « يكتنفان » .
(١٠) بعدها فى نهاية الأرب: «حتى يأتى مدينة مصر فتكون فى شرقيه» . (١١) من نهاية الأرب .

أن يصبّ فى رشيد سبعمائة فرسخ وثمانية وأربعون فرسخا .

وقيل إنه يجرى فى الخراب أربعة أشهر ، وفى بلاد السودان شهرين ، وفى بلاد الإسلام شهرا ، وليس فى الأرض نهر يزيد حين تنقص الأنهار غيره ؛ وذلك أنّ زيادته تكون فى القيظ الشديد فى شمس السرطان والأسد والسنبلة . ورُوى أنّ الأنهار تمدّه بمائها .

وقال قوم : إن زيادته من ثلوج يذيبها الصّيف وعلى حسب مدّها تكون كثرته وقلّته [1] .

وذهب آخرون إلى أن زيادته بسبب أمطار كثيرة تكون ببلاد الحبشة .

وذهب آخرون إلى أنّ زيادته عن اختلاف الريح ، وذلك أن الشمال إذا هبّت عاصفة يهيج البحر الرومىّ ، فيدفع إليه مافيه منه ، فيفيض على وجه الأرض ، فإذا هبّت الجنوب سكن هَيَجانُ البحر ، فيسترجع منه ما دبّ إليه ، فينقص .

وزعم آخرون أن زيادته من عيون على شاطئه ، يراها مَنْ سافر ولحق بأعاليه .

وقال آخرون : إن مجراه من جبال الثلج ، وهى بجبل قاف ، وأنه يخرق البحر الأخضر ، ويمرّ على معادن الذهب والياقوت والزمرد والمرجان ، فيسير ما شاء الله إلى أن يأتىَ إلى بحيرة الزنج . قالوا : ولولا دخوله فى البحر المِلْح ، ومايختلط به منه لم يستطع شربه لشدة حلاوته وزيادته بتدريج وترتيب فى زمان مخصوص مدّة معلومة ، وكذا نقصه ومنتهى زيادته التى يحصل بها الرىّ لأرض مصر ستة عشر ذراعا ، والذراع أربعة وعشرون إصبعا ، فإن زاد على الستة عشر ذراعا إصبعا واحداً ازداد فى الخراج مائة ألف دينار لما يروى من الأراضى العالية .

والغاية القصوى فى الزيادة ثمانية عشر ذراعا ؛ هذا فى مقياس مصر ، فإذا انتهى فيه

---

(١) نقله فى نهاية الأرب ١ : ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

إلى ذلك كان فى الصعيد الأعلى اثنين وعشرين ذراعا ، لارتفاع البقاع التى يمرّ عليها ، ويسوق الرّى إليها ، فإذا انتهت زيادته فتحت خلجانات وترع ، فيخرج الماء يمينا وشمالا إلى الأرض البعيدة عن مجرى النيل ؛ حكمة دُبِّرت بالعقول السليمة وقدِّرت ، ومنافع مُهّدت فى الزمن القديم وقُرِّرت .

وللنيل ثمانى خلجانات : خليج الاسكندرية ، وخليج دمياط ، وخليج منف ، وخليج المنهى — حفره يوسف عليه السلام — وخليج أُشْمُوم طَنّاح ، وخليج سَرْدُوس — حفره هامان لفرعون — وخليج سَخَا ، وخليج حفره عمرو بن العاصى زمن عمر بن الخطاب .

ويحصل لأهل مصر يوم وفائه الستة عشر ذراعا الّتى هى قانون الرّى سرور شديد بحيث يركب الملك فى خواصّ دولته الحراريق المزيّنة إلى المقياس ، ويمدّ فيه سِماطا ويخلّق العمود الّذى يقاس فيه ويخلَع على القيّاس ، ويعطيه صلةً مقررة له .

وقد ذكر بعض المفسرين أنه يوم الزينة ، الّذى وعد فرعون موسى بالاجتماع فيه .

هذا كله كلام مباهج الفكر[1] .

وقد اختلف فى ضبط جبل القَمَر ، فقيل : إنه بفتح القاف والميم بلفظ أحد النّيّرين .

قال التِّيفاشىّ : وإنما سُمِّى بذلك لأنّ العين تقمر منه ، إذا نظرتْ إليه لشدة بياضه . قال : ولذلك أيضا سُمّى القمر قمرا . قال : وهذا الجَبل مستطيل من المشرق إلى المغرب ، نهايته فى ناحية المغرب إلى حدّ الخراب ، ونهايته فى المشرق إلى مثل ذلك ، وهو نفسه بجملته فى الخراب من ناحية الجنوب ، وله أعراق فى الهواء ، منها طوال ومنها دونها .

قال فى مختصر المسالك : وذكر بعضهم أنّ أناسا انتهوا إلى هذا الجبل وصعدوه ،

---

(١) نقله صاحب نهاية الأرب فى ١ : ٢٦٤ .

فرأوا وراءه بحرا عجّاجا ماؤه أسود كالّليل ، يشقّه نهر أبيض كالنهار ، يدخل الجبل من جنوبه ، ويخرج من شماله ، ويتشعّب على قبّة هُرْمس المبنية هناك .

وزعموا أن هرمس الهرامسة ـ وهو إدريس عليه السلام فيما يقال ـ بلغ ذلك الموضع ، وبنى فيه قبّة .

وذكر بعضهم أنّ أناسا صعدوا الجبل ، فصار الواحد منهم يضحك ويصفّق بيديه ، وألقى نفسه إلى ماوراء الجبل ، فخاف البقيّة أن يصيبهم مثل ذلك ، فرجعوا .

وقيل : إن أولئك إنّما رأوا حجر الباهت ، وهى أحجار برّاقة كالفضّة البيضاء تتلألأ ، كلّ من نظرها ضحك والتصق بها حتى يموت ، ويُسمى مغناطيس الناس .

وذكر بعضُهم أن ملكا من ملوك مصر الأول ، جهّز أناسا للوقوف على أوّل النيل ، فانتهوْا إلى جبال من نحاس ، فلما طلعت عليها الشمس انعكستْ عليها ، فأحرقتهم .

وقيل إنهم انتهوْا إلى جبال برّاقة لمّاعة كالبلّور ، فلما انعكست عليهم أشعة الشمس الواقعة عليهم أحرقتهم .

وقال صاحب مرآة الزمان : ذكر أحمد بن بختيار أنّ العين التى هى أصل النيل ، هى أوّل العيون من جبل القمَر ، ثم نبعت منها عشرة أنهار ، نيل مصر أحدها. قال : والنّيل يقطع الإقليم الأوّل ، ثم يجاوزه إلى الثانى ، ومن ابتدائه ، من جبل القمر إلى انتهائه إلى البحر الرومىّ ، ثلاثة آلاف فرسخ ، ويبتدى بالزيادة فى نصف حَزيران ، وينتهى إلى أيلول .

قال : واختلفوا فى سبب زيادته ، فقال قوم : لايعلم ذلك إلا الله .

وقال آخرون : سببه زيادة عيونه .

وقال آخرون ، وهو الظاهر : سببه كثرة المطر والسيول ببلاد الحبش والنوبة ،

وإنما يتأخر وصوله إلى الصيف لبعد المسافة . وردّ ذلك قوم بأن عيونه التى تحت جبال القمر تتكدّر فى أيام زيادته ، فدلّ على أنه فعل الله من غير زيادة بالمطر . قال : وجميع الأنهار تجرى إلى القبلة سواه ، فإنه يجرى إلى ناحية الشمال . وكان القاضى بحماه قال : ومتى بلغ ستة عشر ذراعا استحقّ السلطان الخراج ، وإذا بلغ ثمانية عشر ذراعا قالوا : يحدث بمصر وباء عظيم ، وإذا بلغ عشرين ذراعا مات ملك مصر .

وقال ابن المتوّج : من عجائبِ مصر النّيل الذى يأتى من غامض علم الله فى زمن التّقيظ فيعمّ البلاد سهلا ووعراً ، يبعث الله فى أيام مدّدِه الريح الشمال فيصدّ له البحر المالح ، ويصير له كالجسر ، ويزيد . وإذا بلغ الحدّ الذى هو تمام الرّىّ وأوان الزراعة ، بعث الله بالريح الجنوب فكنسته ، وأخرجته إلى البحر الملح ، وانتفع الناس بالزراعة .

ومن عجائب هذا النيل سمكة تسمى الرّعاد[1] مَنْ مسّها بيده أو بعود متّصل بيده أو جذب شبكة هى فيها ، أو قصبة أوْ سنّارة وقعت فيها رعدت يده مادامت فيها ، وبمصر بَقْلة مَنْ مسّها بيده ، ثم مسّ الرّعاد لم ترعد .

وفى النيل خيل تظهر فى بلد النوبة ، ويصيدونها ، وفى سنٍّ من أسنانها شفاء من وجع المعدة .

وقال التّيفاشىّ : سبب زيادة النيل هبوب ريح يسمى الملتِن ، وذلك لسببين أحدها أنها تحمل السحاب الماطر خلف خط الاستواء فتمطر ببلاد السودان والحبشة والنوبة ، والآخر أنها تأتى فى وجه البحر المِلْح ، فيقف ماؤه فى وجه النيل ، فيتراجع حتى يروى البلاد .وفى ذلك يقول الشاعر :

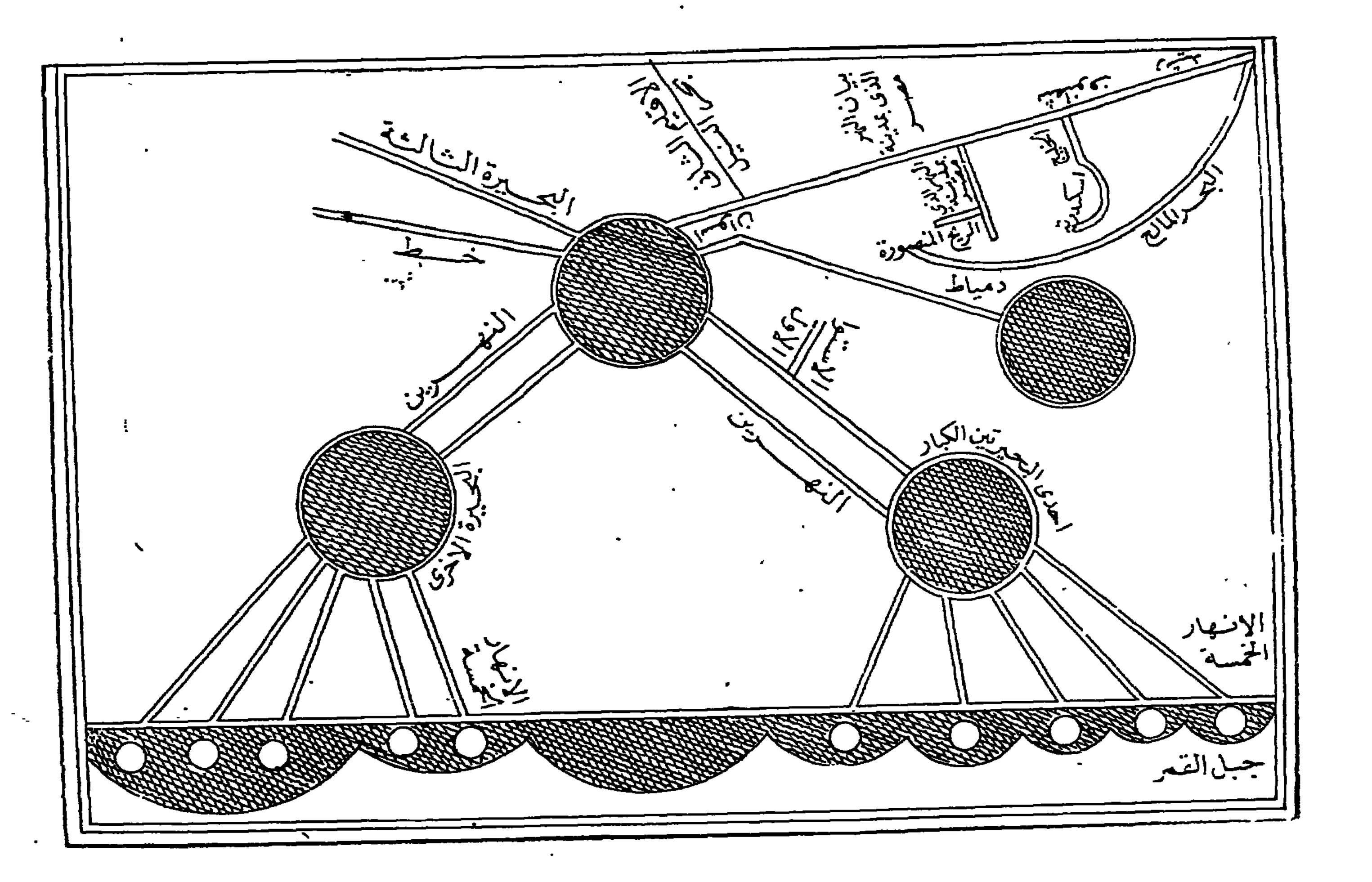
اشفع فللشافع أعلى يدٍ عندى وأسْنَى من يدالمحسنِ
والنّيل ذو فضلٍ ولكنّه الشّكر فى ذلك للملتِن

وقال صاحب سجع الهديل : ذكر جماعة من المنجمين وأرباب الهيئة أن النيل يجىء

(١) معجم البلدان ٨ : ٣٦٥

من خَلْف خط الاستواء بإحدى عشرة درجة ونصف ، ويأخذ نحو الجنوب إلى أن ينتهى إلى دمياط والاسكندرية وغيرهما عند عرض ثلاثين فى الشمال ، قالوا : فمن بدايته إلى نهايته اثنتان وأربعون ومائة درجة ؛ كلّ درجة ستون ميلا وثلث بالتقريب ، فيكون طوله من الموضع الذى يبتدئ منه إلى الموضع الذى منه إلى البحر الملح ثمانية ألف ميل وستمائة وأربعة عشر ميلا وثلثا ميل على القَصْد والاستواء ، وله تعريجات شرقا وغربا ، يطول بها ويزيد على ماذكرناه .

ونقلت من خط الشّيخ عز الدين بن جماعة من كتاب له فى الطبّ ،قال : منبعُ النيل من جبل القمر وراء خط الاستواء بإحدى عشرة درجة ونصف ، وامتداد هذا الجبل خمس عشرة درجة وعشرون دقيقة ، يخرج منه عشرة أنهار من أعين فيه ترمى كلّ خمسة إلى بحيرة عظيمة مدوّرة بعد مركزها عن أول العمارة بالمغرب سبع وخمسون درجة ، والبعد عن خط الاستواء فى الجنوب سبع دَرَج وإحدى وثلاثون دقيقة ، وهاتان البحيْرتان متساويتان ، وقُطْر كلّ واحدة خمس درَج ، ويخرج من كلّ واحدة أربعة أنهار ترمى إلى بحيرة صغيرة مدوّرة فى الإقليم الأوّل بعد مركزها عن أول العمارة بالمغرب ثلاث وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، وعن خط الاستواء من الشمال درجتان من الإقليم الأوّل وقطرها درجتان ،ومصبّ كل واحدٍ من الأنهار الثمانية فى هذه البحيرة غير مصب الآخر ، ثم يخرج من البحيرة نهرٌ واحد ؛ وهو نيل مصر ، ويمرّ ببلاد النوبة ، ويصبّ إليه نهر آخر ابتداؤه من غير مركزها على خط الاستواء ، فى بحيرة كبيرة مستديرة قطرها ثلاثة درَج ، وبعد مركزها عن أول العمارة بالمغرب إحدى وسبعون درجة ، فإذا تعدى النّيل مدينة مصر إلى مدينة يقال لها شطّنوف ،تفرّق هناك إلى نهرين يرميان إلى البحر المالح أحدهما يعرف ببحر رشيد ، والآخر بحر دمياط وهذا البحر إذا وصل إلى المنصورة تفرّع منه نهر يعرف ببحر أشمون ، يرمى إلى بحيرة هناك وباقيه يرمى إلى البحر المالح عند دمياط ، وهذه صورة ذلك :



البحر المالح
دمياط
الرأس المنصورة
البحيرة الثالثة
النهرين
النهرين
احدى البحيرتين الكبار
البحيرة الاخرى
الانهار الخمسة
الانهار الخمسة
جبال القمر
خط الاستوا



وذكر الجاحظ فى كتاب الأمصار ، أن مخرج نهر السند والنيل من موضع واحد ، واستدلّ على ذلك اتفاق زيادتهما ، وكون التمساح فيهما ، وأن سبيل زراعتهم فى البلدين واحد .

وقال المسبِّحىّ فى تاريخ مصر : فى بلاد تكنة أمّة من السودان أرضهم تُنبت الذهب ، يفترق النيل فيصير نهرين أحدهما أبيض وهو نيل مصر ، والآخر أخضر يأخذ إلى المشرق فيقطع البحر المِلْح إلى بلاد السِّند ، وهو نهر ميران .

قال ابن عبد الحكم : حدّثنا عثمان بن صالح ، عن ابن لَهيعة ، عن قيس بن الحجاج ، عمّن حدثه ، قال : لما فتح عمرو بن العاص مصر ، أتى أهلها إليه حين دخل بؤونة من أشهر العجم ، فقالوا له : أيّها الأمير ، إن لنيلنا هذا سنّة لا يجرى إلّا بها ، فقال لهم : وما ذاك؟ قالوا : إذا كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر ، عَمَدنا إلى جارية بِكْرٍ بين أبويها ، فأرضيْنا أبويها ، وجعلنا عليها من الحلىّ والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها فى هذا النيل . فقال لهم عمرو : إن هذا لا يكون فى الإسلام ، وإن الإسلام يهدِم ماقبله ، فأقاموا بؤونةَ وأبيبَ ومسرى لا يجرى قليلا ولا كثيرا ، حتى همّوا بالجلاء ، فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى عمر بن الخطاب بذلك ، فكتب إليه عمر : قد أصبتَ ، إن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وقد بعثت إليك بطاقة[1] فألقِها فى داخل النيل إذا أتاك كتابى . فلما قدم الكتاب على عَمْرو ، فتح البِطاقة فإذا فيها :

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر ، أما بعد فإن كنت تجرى من قِبَلِك ، فلا تجرِ ، وإن كان الواحد القهار يُجريك ، فنسأل الله الواحد القهار أن يُجريَك .

فألقى عمرو البِطاقةَ فى النيل قبل يوم الصّليب بيوم ، وقد تهيّأ أهل مصر للجلاء

(١) فتوح مصر : « ببطاقة » .

(حسن المحاضرة ٢/٢٣)

والخروج منها لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل ، فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعا ، وقد زالت تلك السّنة السوء عن أهل مصر [١] .

حدثنا عثمان بن صالح ، حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب أن موسى عليه السلام دَعَا على آل فرعون ، فحبس الله عنهم النّيل حتى أرادوا الجلاء حتّى طلبوا إلى موسى أن يدعوَ الله رجاء أن يؤمنوا ، فدعا الله ، فأصبحوا وقد أجراه الله فى تلك الليلة ستة عشر ذراعا . فاستجاب الله بتطوّله لعمر بن الخطاب كما استجاب لنبيه موسى عليه السلام [٢] .

ذكر مزايا النيل

قال التّيفاشىّ : اتّفق العلماء على أنّ النّيل أشرفُ الأنهار فى الأرض لأسباب :

منها عموم نفعه ، فإنه لا يُعلم نهرٌ من الأنهار فى جميع الأرض المعمورة يَسقى مايسقيه النيل .

ومنها الاكتفاء بسقيه ، فإنه يُزرع عليه بعد نضوبه ، ثم لا يُسْقَى الزرع حتى يبلغ منتهاه ؛ ولا يُعلم ذلك فى نهر سواه .

ومنها أن ماءه أصحُّ المياه وأعدلُها وأعذبُها وأفضلُها .

ومنها مخالفتُه لجميع أنهار الأرض فى خصال هى منافع فيه ، ومضارّ فى غيره .

ومنها أنّه يزيد عند نقص سائر المياه ، وينقُص عند زيادتها ؛ وذلك أوانُ الحاجة إليه .

ومنها أنه يأتى أرضَ مصر فى أوانِ اشتداد القيْظ والحرّ ويُبس الهواء وجفاف

---

(١) فتوح مصر ١٥٠ .
(٢) فتوح مصر ١٥١ .

الأرض ، فيبلّ الأرض ، ويُرطِب الهواء ، ويعدّل الفصلَ تعديلا زائدا .

ومنها أنّ كل نهر من الأنهار العظام ، وإن كان فيه منافع ، فلابدّ أن يتبعها مضارّ فى أوان طغيانه بإفساد مايليه ونقص مايجاوره ، والنيل موزون على ديار مصر بوزن معلوم ، وتقدير مرسوم لا يزيد عليه ، ولا يخرج عن حدّه ﴿ ذلكَ تقديرُ العزيز العليم ﴾[1] .

ومنها أن المعهود فى سائر الأنهار أن يأتىَ من جهة المشرق إلى المغرب ، وهو يأتى من جهة المغرب إلى الشمال ، فيكون فعلُ الشمسِ فيه دائما ، وأثرها فى إصلاحه متّصلا ملازما ؛ وفى ذلك يقول الشاعر :

مصر ومصرٌ ماؤها عجيبُ ونهرها يجرى به الجَنُوبُ

ومنها أنّ كلّ الأنهار يُوقف على منبعه وأصله ، والنّيل لا يوقف له على أصل منبع . وليس فى الدّنيا نهر يصبّ فى بحر الصين والروم غيره ؛ وليس فى الدّنيا نهر يزيد ثم يقف ، ثم ينقص ثم ينضِب على الترتيب والتدريج غيره ؛ وليس فى الدّنيا نهرٌ يُزرَع عليه مايُزرَع على النيل ، ولا يجىء من خراج غلّة زرعه مايجىء من خراج غلّة زرع النيل .

***

وقال صاحب مباهج الفكر : النّيل أخفّ المياه وأحلاها ، وأرواها وأمراها ، وأعمُّها نفعا ، وأكثرها خراجا ؛ ويحكى أنه جُبِىَ فى أيّام كنماوس ؛ أحد ملوك القِبْط الأوّل مائة ألف ألف وثلاثون وثلاثون ألف دينار وجَباهُ عزيز مصر مائة ألف ألف دينار ، وجَباهُ عمرو بن العاص اثنىْ عشر ألف ألف دينار ، وجباه عبد الله بن أبى سَرْح أربعة عشر ألف ألف دينار ، ثم رذل إلى أن جُبِىَ أيام جوهر القائد ثلاثة آلاف ألف ومائتى ألف دينار ؛ وسبب تقهقره أنّ الملوك لم تسمح نفوسهم بما كان يُنفق فى الرجال الموكّلين

(١) الأنعام ٩٦ .

لحفر خلجه وإصلاح جسوره ، ورمّ قناطره ، وسدّ ترعه ، وقطع القضب وإزالة الحلفاء ؛ وكانوا مائة ألف وعشرين ألف رجل مرتّبين على كُور مصر سبعين ألفاً للصعيد ، و خمسين ألفاً لأسفل الأرض .

ويحكى أنها مُسِحَتْ أيّام هشام بن عبد الملك ، فكان مايركبه الماء مائة ألف ألف فدان ، والفدان أربعمائة قصَبة والقصبة عشرة أذرع .

وأمّا أحمد بن المدبّر ، فإنه اعتبر مايصلح للزرع بمصر فى وقت ولايته ، فوجده أربعة وعشرين ألف ألف فدان ، والباقى قد استبحر وتلف ، واعتبر مدة الحرْث فوجدها ستين يوما ، والحرّاث الواحد يحرُث خمسين فدانا ، فكانت محتاجةً إلى أربعمائة ألف وأربعين ألف حراث .

* * *

وقال صاحب مرآة الزمان : ذكر أحمد بن بختيار أنّ فى النيل عجائب منها التمساح ، ولا يوجد إلا فيه ، ويسمّى فى مصر التّمساح ، وفى بلاد النوبة الورَل ، ووراء النوبة الشّوشار .

قال : والتمساح لا دُبُرَ له ، وما يأكله يتكوّن فى بطنه دودا ، فإذا آذاه خرج إلى البرّيّة فينقضّ عليه طائر فيأكل مابين أسنانه ، وما يظهر من الدود ، وربما يطبق عليه التمساح ، فيبلعه .

* * *

وذكر ابن حَوْقل أن بنيل مصر أماكنَ لا يضرّ التمساح فيها ، كعدوة بوصير والفسطاط .

قال : وفى النّيل السّقَنْقُور ، ويكون عند أسوان ، وفى حدودها . وقيل إنه من نسل التمساح إذا وضعه خارج الماء ، فما قصد الماء صار تمساحا ، وما قصد البرّ صار سقنقورا . وله قضيبان كالضبّ .

وفيه السمك الرعّاد إذا وقع فى شبكة الصياد ، لا يزال ترتعد يداه ورجلاه حتى يلقيها أو يموت ، وهى نحو الذراع .

وفيه سمكة على صورة الفرس . والمكان الذى يكون فيه لا يقربه التمساح .

وفيه شيخ البحر سمكة على صورة آدمىّ ، وله لحية طويلة ، ويكون بناحية دمياط وهو مشؤوم ، فإذا رُئىَ فى مكان دلّ على القحط والموت والفِتَن .

ويقال : إن دمياط ماتنكب حتى يظهر عندها .

ذكر ما قيل فى النيل من الأشعار

قال التّيفاشىّ : قد ذكرت العرب النّيل فى أشعارها ، وضربت به الأمثال ، قال قيس ابن معدى كرب ، فيما أورده الجاحظ فى كتاب الأمصار :

ما النّيل أصبح زاخرًا بمدوده　　وجرتْ له ريح الصَّبا فجرَى بها

قال بعضهم :

واهًا لهـــذا النّيل أىّ عجيبةٍ　　بكر بمثل حديثها لا يسمعُ[1]

يلقى الثرى فى العام وهو مسلِّمٌ　　حتى إذا ما ملّ عاد يودّع

متنقّل[3] مثل الهلال فدهرُه　　أبدًا يزيد كما يريد ويرجعُ

ظافر الحداد :

والنّيل مثل عمامةٍ[2]　　شرب محشّاةٍ بأخضرْ

والجسرُ فيها كالطرا　　زِ وموجُه رقمٌ مصوّرْ

تفريكه ما درّجتْــه له الرياحُ من التسكّرْ

وقال يصف افتراقه عند رأس الروضة :

لِلّهِ يومٌ أناله النيلُ　　حُسْنه جملةٌ وتفصيلُ

فى منظرٍ مشرفٍ على خضرٍ　　كأنّه فى الظلام قِنْديلُ

تُبدى لنا جانبا جزيرته　　أشيًا بها للعينِ تأميلُ

ورقمه جسره وتفريكه المو　　ج وفى نكْتِه للخليج تجميلُ

---

(١) خطط المقريزى ١ : ١٠١ .　　(٢) ط ، ح : « غمامة » .

(٣) المقريزى : « مستقبل » .

ابن الساعاتى :

ولمّـا توسطْنا على النيل غُدوةً ظننت وقلتُ اليومَ باللّهوملآنُ
عشاريةٌ أنشا لهـا الماء مقلةً وليس لها إلا المجاذِيف أجْفَانُ

محيي الدين بن عبد الظاهر :

نيل مصرٍ لمن تأمل مرأى حسنه معجزٌ وبالحسن معجبُ
كَمْ به شاب فوْدُها وعجيبٌ كيف شابت بالنيل والنيل يخضب!

وقال :

كم قطّع الطُّرقَ نيلُ مصرٍ حتى لقـــد خافَهُ السَّبيلُ
بالسيف والرمح من غديرٍ ومن قنـاةٍ لهـــا نصولُ

ابن نباته :

زادتْ أصابعُ نيلِنـــــا وطغَتْ وطافت فى البلاد
وأتتْ بــكلّ مسرّةٍ ماذِى أصابعُ ذى أيادِى

النصير الحمامىّ :

إن تعجّـل النَّيروز قبل الوفَا عجّـل للعالَم صفع القَفـــا
فقـــد كفَى من دمعهم ما جرَى وما جرى من نيلهم ما كَفى

ناصر الدين حسن بن النقيب :

كأنّ النيل ذُو فَهمٍ ولُبٍّ لمـا يبدو لعينِ النَّاسِ مِنهُ(١)
فيأتِي عند حاجتهم إليـــه ويمضِى حين يستغنون عنهُ

آخر :

النِّيل قالَ وقولُه إذ قال ملء مسامِعِى

(٢) المقريزى ١ : ١٠١ ، نهاية الأرب ١ : ٢٨١ .

فى غيظ مَنْ طلب العلا عمّ البـــلادَ
وعيونهمْ بعـــد الْوَفَا قلّعتُهـــا بأم

شمس الدين بن دانيال الحكيم :

كأنّما النيلُ الخِضَمُّ إذ بدا يروى حديثا وهو ذو
لمّا رأى الأرض بها شقيقه ضمّخهـــا بمائه الْ

آخر :

يانيل إجْرِ على حسن العوائدِ فى أرجاء مصركَ واجْبُرْ كلَّ
واعلم بأنك مصرىٌّ فلستَ ترى حلو الفكاهة مالم تأتِ

خليل بن الكفتى :

مولاىَ إن الْبحر لمّـا زرتَه حيّاك وهو أخو الوفا با
فانظر لبسطتِه فرؤيتك الّتى هى مشتهاهُ وروضة
أرخى عليه السّتر لما جئتَه خجَلاً ومدّ تضرعا با

آخر :

سَدُّ الخليجِ بكَسْره جُبِرَ الورى طُرًّا فكلٌّ قد غدا مَسْ
الماء سلطانٌ فكيف تواترتْ عنه البشائر إذ غدا مَـ

شمس الدين سبط الملك الحافظ :

لله دَرّ الخليج إنّ له تفضُّـــلاً لانزال نشـ
حسبُك منـــه بأنّ عادته يجبر مَنْ لا يزال يـ

الصلاح الصفدىّ :

رأيتُ فى أرض مصرَ مذْ حللتُ بها عجـائباً ما رآها النّاس فى
تسودّ فى عينىَ الدّنيا فلم أرَهَا تبيضّ إلا إذا ما كنتُ فِ

وقال :

ركبتُ فى النيل يوماً مع أخى أدب ... فقال : دعْنِيَ مِن قَال ومِنْ قِيلِ
شرحت يابحر صدرى اليوم قلتُ له: ... لا تنكر الشَّرْحَ يانحوىّ للنيلِ

وقال :

قالوا علاَ نيلُ مصرٍ فى زيادتِهِ ... حتى لقد بلَغ الأهرامَ حين طَمَا
فقلت : هــذا عجيبٌ فى بلادكمُ ... أنَّ ابنَ ستةَ عشرٍ يبلغ الهرَمَا

وقال :

قد زادَ هــذا النِّيلُ فى عامِنا ... فأغرق الأرض بإنعامِــــهِ
وكاد أن يعطفَ من مائِهِ ... عُرّى على أزرارِ أهرامِهِ

تميم بن المعز العُبيدىّ :

يومٌ لنــــا بالنيل مختصَرٌ ... ولكل يوم لذاذةٍ قِصَرُ[1]
والسُّفْن تجرى كالخيول بِنَا ... صُعُداً وجيش الماء منحدِرُ[2]
فكأنمــــا أمواجُه عُكَنٌ ... وكأنمــــا داراتُه سُرَرُ

آخر :

مدَّ نيلُ الفسطاط فالبرّ بحرٌ ... زاخرٌ فيه كلُّ سفنٍ تعومُ
فكأنّ الأرضين منــه سَماء ... وكأنّ الضّياع فيهــا نجومُ

ظافر :

ولله مجرى النيل فيها إذَا الصبا ... أرتْنَا به فى سيرها عسكرا مُجْرَى
فشطٌّ يهزّ السَّمهريَّةَ ذُبَّلا ... ونهرٌ يهزّ البِيض هِنْدِيَّةً بُتْرا

---

(١) ديوانه ٢٤١ ، وفيه : « يوم مسرة » .
(٢) الديوان : « السفن تصعد » . . . « فى موجه والماء ينحدر » .

إذا مَدَّحا كى الورد غضًّا وإن صَفَا　　حكى ماؤه لونا ولم يَعْدُه بسرا

أيدمر التركى :

كِيمِيَاءُ النيــل خالصةٌ　　قد أَتَتْنَا منــه بالعَجَبِ

كان من ذوْبِ اللُّجينِ فقَدْ　　عاد بالتّدبير من ذهبِ

راقصٌ بالحسْنِ مبتهِــجٌ　　فهو فى عُجْب وفى طربِ

ومغانى مصر تسمَعُــهُ　　نغمة الشادى بلا صَخَب

ونسيمُ الريح لاعبــةٌ　　فى خلال الرَّوْض بالقُضُب

إبراهيم بن عبدون الكاتب :

والنّيل بين الجانبين كأنمـــا　　صُبَّتْ بصفحتِهِ صَفيحةُ صيْقلِ

يأتيك من كدر الزّواخر مدُّه　　بمسَّكٍ من مائِهِ ومُصَنْدَلِ

فـكأنّ ضوء البــدر فى تمويجه　　برق يموّج فى سحاب مسبل

وكأنّ نور السّرج من جَنَباته　　زهرُ الكوا كب تحت ليلٍ أَلْيَلِ

مثل الرياض مصنّفا أنوارها　　يبــدو لعــين مشبّه وممثّل

آخر :

أرى أبداً كثيرا من قليــلٍ　　وبدراً فى الحقيقة من هلالِ (١)

فلا تعجبْ فكلّ خليــج ماء　　بمصر مشبَّهٌ بخليــج مالِ

زيادة إصبعٍ فى كلّ مــدٍّ　　زيادة أذرُعٍ فى كلّ حالِ

الأمير تميم بن المعز :

نظرْتُ إلى النيل فى مَــدِّهِ　　بمــوجٍ يزيد ولا ينقصُ (٢)

كأن معاطفَ أمواجِــه　　معــاطفُ جاريةٍ ترقصُ

---

(١) المقريزى ١ : ١٠٢ .

(٢) ديوانه ٢٥٥

أيدمر التركيّ :

انْظُرْ إلى النِّيـل السعيد المقبـلِ والمـاء فى أنهـارِه كالسلسِل
أضحى يريك الحسنَ بين مُوَرَّدٍ من لونه حيناً وبين مُصَنْدَلِ
ويمرّ فى قيـــدِ الرياح مسلسلاً بأحسنه من مطلــقٍ ومُسَلْسَلِ
وترى زوارِقَهُ على أمواجِــــهِ منسوبةً للنَّـــاظر المتأمِّلِ
مثلُ العقارب فوق حيّاتٍ غدتْ يسعَى بهـــا فى عَدْوِها ما يأتلى
وكأنّما أسماكهُ من فِضَّـــةٍ مِنْ جُمْـدِ ذائبِ مائه من أوّل

بعضهم :

أتطالبُ من زمانك ذا وفاءً وتأمُل ذاك جَهْـلاً من بنيـهِ
لقــد عــدم الوفاء به وإنّى لأعجبُ من وفاء النّيل فيــه

* * *

ومن كلام القاضى الفاضل فى وصف النّيل المصرىّ الّذى يكسو الفضاء ثوبا فضِّيّاً ، ويدلِى من الأرض ماءه سراجا من النوّر مضيّــاً ، ويتدافع تيّاره واقفاً فى صدر الجدْب بيد الخصْب ، ويرضع أمهات خاجه الزارعَ فيأتى أبناؤها بالعصْفِ والأبّ (١) .

وقال فيه أيضا :

وأما النّيل فقد امتدّتْ أصابعه ، وتـكسرت بالموج أضالعه ، ولا يُعرف الآن قاطع طريق سواه ، ولا مَنْ يرجى ويُخاف إلا إيّاه (٢) .

وقال أيضا :

وأمّا النِّيل المبارك فقد ملأ البقاع ، وانتقل من الإصبــع إلى الذراع ، فــكأنّما غارَ على الأرضِ فغطّاها ، وأغار عليها فاستقعد وماتخطّاها (٣) .

(١) مسالك الأبصار ٢ : ٦٧ . (٢) مسالك الإبصار ١ : ٦٧ .
(٣) المقريزى ١ : ١٠٢ ، نهاية الأرب ١ : ٢٨١ .

ومن كتاب السجع الجليل فيما جرى من النيل :

وأما البحرُ الّذى بنى عليه عنوان هذه العبوديّة ، فلا تسأل عمّا جرى منـــه ، وما نقلت الرّواة من العجائب عنه ؛ وذلك أنّه عمّ فى أوّل قدومه بالنفع البـلاد ، وساوى بين بطون الأودية وظهورها الوهاد . وقـدِم المفرد مبشّراً بوفائه فى جمـع لانظير له فى الآحاد ، واحمرّت على مَنْ طلب الغلاء عيونه ، وتـكفّل للمعسر بأن يوفِى بعـــد وفائه ديونه ، ونزل السّعر حين أخذ منه طالع الارتفاع ، وأحدق بالقرى فأصبح كأنه سماوات كواكبها الضّياع ؛ فلم يكن بعد ذلك إلا كلمح البصر أو هو أقرب ، حتى عَسَل[1] فى شوارع مصر كما عسل الطريق الثعاب ، وجاس خلال ديارها فأصبح على زرائبها المبثوثة بسطة، وأحاط بالمقياس إحاطة الدائرة بالنقطة. ثم علتْ أمواجُه ، واشتدّ اضطرابه، وكاد يمتزج بنهر المجرّة الذى الغمام زبده والنجوم حَبابه .

وشرّقَ حتى ليس للشّرقِ مشرقٌ   وغرّب حتى ليس للغرب مغربُ

إلى أن قال : أما دير الطّين فقد ليّس سقوفَ حيطانِه ، واقتلع أشجار غيطانه ، وأتَى على مافيه من حاصلٍ وغلّة ، وتركه ملقة فـكان كما قيل : زاد الطّين بِلّة .

وأما الجيزة فقد طغَى الماء على قناطرها وتجسّر ، ووقع بها القصب من قامتِه حين علا عليه الماء وتـكسّر ، فأصبح بعد اخضرار بزّته شاحب الإهاب ، ناصل الخضاب ، غارقاً فى قعر﴿ بحر لجيٍّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب﴾ ، وقطع طريق زاويتها على مَنْ بها من المنقطعين والفقراء ، وترك الطالح كالصالح يمشى على الماء ﴿ فتنادَوْا مصبحين . ألاّ يدخلنّها اليوم عليـكم مسكين ﴾ ، وأدركهم الغرق فأيسوا من الخلاص ﴿ وغشيهم من اليم ما غشيهم﴾ فنادوا ﴿ ولات حين مناص ﴾ ، ﴿وخرّ عليهم السقف من فوقهم﴾ فانهدّت قواهم ، واستغاثوا من كثرة الماء بالذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم .

وأما الروضة فقد أحاط بها إحاطة الـكمام بزهرِه ، والـكأس بحباب خمره :

فـكأنها فيـــه بساط أخضرٌ   وكأنّه فيهـــا طرازٌ مذهبُ

---

(١) عسل ، أى سار مسرعا .

فكم بها من مُتْهِم ومنْجد ، ومسافر مما حصل له من المقيم المقعد . وحائك أصبح حول نَوْله ينير ، وجعل من غَزْله بل من غيظه على أجيره يحمل ويسير . ومنجّم وصل الماء من منزله إلى العتبة الخارجة فأصبح فى أنحس تقويم ، ودخل إلى بيت أمراضه ﴿فنظر نظرة فى النجوم فقال إنى سقيم﴾ ، فأصبح فى الطريق وعليه كآبة وصُفرة ، ودموعه فى المحاجر كالحصى لها اجتماع وحمرة . وشاعر أوقعه فى الضرورة بحْره المديد ، واشتغل بهدم داره عن بيت القصيد ، وعروضىّ ضاقت عليه الدائرة فقال : هذه الفاصِلة ، وقلع من عروض بيته وتِدًا أزعج بقلعه مفاصلَه . ونحوىّ اشتغل عن زيد وعمرو يبلّ كتبه ، وذهَل حين استوى الماء والخشبة ، عن المفعول معه والمفعول به ، وطار عقله لا سيّما عن تصانيف ابن عصفور ، وأخبر أنّ البحر وأثاث بيته جارٌّ ومجرور .

وأما الجزيرة الوسطى فقد أفسد جلّ ثمارها ، وأتى على مقاتيها فلم يدع شيئاً من رديّها وخيارها ، وألحق موجودها بالمعدوم ، وتلا على التكرورىّ ﴿سنسمه على الخرطوم﴾ ، وأخاق ديباج روضها الأُنُف ، وترك قُلْقاسها بمدّه وجزره على شفا جرُف .

وأما المنشاة فقد أصبحتْ للهجر مقرّة ، بعد أن كانت للعيون قُرّة ، وقيل لمنشيها : ﴿أنَّى يُحيي هذه الله بعد موتها﴾ ، فقال : ﴿يُحْييها الذى أنشأها أول مرّة﴾ . ومال على ما فيها من شوَن الغلات كلّ الميل ، وتركها تتلو بفمها الذى شقتاه مصراعا الباب : ﴿يا أبا نَا مُنعَ منا الكيل﴾ .

وأما بولاق فقد أصبحت صعيدًا زلَقًا من الملق ، وقامت قيامة المارّ بها حين التفّت الساق بالساق من الزّلَق ، فكم اقتلع بها شجرة لبتّ رءوسها ، وترك ساقية تنوح على أختها التى أصبحت خاوية على عروشها .

وأما الخليج الحاكمى فقد خرج عسكر موجه بعد الكسر على حميّة ، ومرق من قسىّ قناطره كالسهم من الرميّة ، وتواضع حين قبّل بحارةُ زُويلة عِتاب غرفها العالية ، وترك السقايين فى حالة العجز عن وصفها صريع الدلاء وحمّاد الراوية . فأصبحوا من الكساد وقد سئموا الإقامة ، قائلين فى شوارع مصر : يا الله السلامة .

ذكر البشارة بوفاء النيل

جرت العادة كلّ سنة إذا وفّى النيل أن يرسل السلطان بشيراً بذلك إلى البلاد لتطمئنّ قلوب العباد ، وهـذه عادة قديمة ، ولم يزل كتّاب الإنشاء ينشئون فى ذلك الرسائل البليغة ؛ فمن إنشاء القاضى الفاضل فى وفاء النيـل عن السلطان صلاح الدين بن أيوب :

نِعمِ الله سبحانه وتعالى من أضوئها بزوغا ، وأخفاها سبوغاً ، وأصفاها ينبوعا ، وأسناها منفوعا ، وأمدّها بحر مواهب ، وأختمها حسن عواقب . النّعمة بالنيل المصرىّ الذى يبسط الآمال ويقبضها مدّه وجزْرُه ، ويرمى النبات حجرُه ، ويحيى مطلعه الحيوان ، ويجنى ثمرات الأرض صنوانا وغير صنوان ، وينشر مطوىّ حريرها وينشر مواتها ، ويوضح معنى قوله تعالى : ﴿ وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فيها أقواتها ﴾[1] .

وكان وفاء النيل المبارك تاريخ كذا ، فأسفر وجه الأرض وإن كان تنقّب ، وأمِن يوم بشراه مَنْ كان خائفا يترقّب ، ورأينا الإبانة عن لطائف الله التى خفقَت الظنون ، ووفَتْ بالرزق المضمون ، ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾[2] . وقد أعلمناك لتستوفىَ حقّه من الإذاعة ، وتبعده من الإضاعة ، وتتصرّف على مانصرّفك من الطاعة ، وتشهر ما أورده البشير من البُشرى بإبانته ، وتمدّه بإيصال رسمه مُهنًّى على عادته[3] .

* * *

وكتب القاضى محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر عن السلطان إلى نائب السلطنة بحلب بشارة بوفاء النيل :

---

(١) سورة فصلت ١٠ . (٢) الأنعام ٩٩

(٣) ثمرات الأوراق (على هامش المستطرف) ٢ : ٦٠ ، ٦١ .

أعز الله أنصار المُقِرّ وسرّه بكلّ مَبْهَجة ، وهنّأه بكل مَقْدَمةٍ سرور تفِدُ وللخصب والبركة منتجة ، وبكلّ نعمى لا تصبح لِمنّة السحاب مُحْوَجة ، وبكلّ رُحمى لا يستعدّ لأيّامها الباردة ولا لياليها المثلجة . هـذه المكاتبة تفهمه أنّ نعم الله وإن كانت متعدّدة ، ومِنَحَه وإن غدت بالبركات متردّدة ، ومنّته وإن أصبحت إلى القلوب متودّدة ، فإنّ أشملها وأكملها ، وأجملها وأفضلها ، وأجزلها وأنهلها ، وأتمّها وأعمّها ، وأضمّها وألمّها ، نعمة أجزأت المنّ والمِنَح ، وأنزلت فى برك سفح المقطم أغزَر سفْح . وأتتْ بما يُعجب الزّراع ، ويعجّل الهرّاع ، ويعجز البرْق اللمّاع ، ويعلّ القطاع ، ويغلّ الأقطاع ، وتنبعث أفواهه وأفواجُه ، ويمدّ خطاها أمواهه وأمواجُه ، ويسبق وفدَ الريح من حيث ينبرِى ، ويغبط مريخُه الأحمر القمرَ لأنّ بيته السّرَطان كما يغبط الحوتَ لأنه بيت المشترِى ، ويأتى عجبه فى الغدِ بأكثر من اليوم وفى اليوم بأكثر من الأمس ، ويركب الطريق مجداً فإن ظهر بوجهه حمرة فهى مايعرض للمسافر من حرّ الشمس . ولو لم تكن شقّته طويلةً لما قيست بالذّراع ، ولولا أنّ مقياسه أشرف البقاع لما اعتبر ماتأخّر من ماء حوله الماضى بقاع ، بينا يكون فى الباب إذا هو فى الطّاق ، وبينا يكون فى الاحتراق إذا هو فى الاختراق للإغراق ، وبينا يكون فى المجارِى ، إذا هو فى السوارى ، وبينا يكون فى الجباب إذا هو فى الجبال ، وبينا يقالُ لزيادته : هذه الأمواه إذ يقال لغلاّته : هذه الأموال . وبينا يكون ماء إذ أصبح حِبْرا ، وبينا هو يكسب تجارة قد أكسب بحراً ، وبينا يفسد عراه قد أتى بعرار جسور على الجسور جيشه الكرّار ، وكم أمست التّراع منه ترَاعُ والبحار منه تحار . كم حسنت مقطّعاته على مرّ الجديدين ، وكم أعانت مرارة مقياسه على الغرو من بلاد سيس على العمودين[1] . أتمّ الله لطفه فى الإتيان به على التّدريج ، وأجراه بالرّحمة إلى نقص العيون بالتفرج والقلب بالتفريج ، فأقبل جيشه بمواكبه ، وجاء يطاعن الجذب بالصوارى من مراكبه ، ويصافف

(١) كذا فى الأصول .

لجاجةَ الجسور فى بيداء لججه ، ويثاقِف القحط بالتراس من بركه والسّيوف من خُلُجة .

ولمّا تكامل إيابه ، وصح فى ديوان الفلاح والفلاحة حسابُه ، وأظهر ماعنده من ذخائر التيسير وودائعه ، ولفظ [١] عموده حمل ذلك على أصابعه . وكانت الستّة عشر ذراعا تسمّى ماء الساطان ، نزلنا وحضرنا مجلس الوفاء المعقود ، واستوفينا شكر الله تعالى بفيض ماهو من زيادته محسوب ومن صدقاتنا مخرج ومن القحط مردود ، ووقع تيّاره بين أيدينا سطوراً تفوق ، وعلت يدنا الشريفة بالَخلُوق ، وحمدنا السير كما حمد لنا السرى ، وصرفناه فى القُرى للقِرى ، ولم نحضره فى العام الماضى فعملنا له من الشكر شكرانا وعمل هو ماجرى .

وحضرنا إلى الخليج وإذا به أمم قدتلقونا بالدعاء المجاب ، وقرظونا فأمرنا ماءه أن يحثوَ من سدّه فى وجوه المداحين التراب ، ومرّ يبدى المسادّ ويعيدها ، ويزور منازل القاهرة ويعودها ، وإذا سئل عن أرض الطبالة ، قال : جُنِنّا بليلى ، وعن خلجها ، وهى جُنّت بغيرنا . وعن بركة الفيل قال : وأخرى بنا مجنونة لا نريدها . ومابرح حتى تعوّض عن القيعان البقيعة ، من المراكب بالسرر المرفوعة ، ومن الأراضى المحروثه ، من جوانب الأدرب بالزرابىّ المبثوثه .

وانقضى هذا اليوم عن سرور لمثله فليحمد الحامدون ، وأصبحت مصر جنة فيها ماتشتهى الأنفس وتلذ الأعين وأهلها فى ظلّ الأمن خالدون . فليأخذْ حظّه من هذه البشرى التى ماكتبنا بها حتى كتبت بها الرياح إلى نهر المجرّة إلى البحر المحيط ، ونطقت بها رحمة الله تعالى إلى مجاورى بيته من لابسى التقوى ونازعى المخيط ، وبُشّرت بها مطايا المسير الذى يسير من قوص غير منقوص ، ويتشارك بها الابتهاج فى العالم فلا مصر دون مصر بها مخصوص .

---

(١) كذا فى الأصول .

والله تعالى يجعل الأولياء فى دولتنا يبتهجون بكلّ أمر جليل ، وجيران الفرات يفرحون بجريان النيل .

وكتب الصلاح الصفدىّ بشارة إلى بعض النوّاب فى بعض الأعوام :

ضاعف الله نعمة الجناب وسرّ نفسه بأنفس بُشرَى ، وأسمعه من الهناء كلّ آيةٍ أكبر من الأخرى ، وأقدم عليه من المسارّ ما يتحرّز نَاقِلُه ويتحرّى ، وساق إليه كل طليعة إذا تنفس صبحها تفرّق الليل وتفرّى ، وأورد لديه من أنباء الخِصْب مايتبرّم به محلّ المحْل ويتبرّى .

هذه المكاتبة إلى الجناب العالى نخصّه بسلام يُرى كالماء انسجاما ، ويروق كالزهر ابتساما ، ونتحفه بثناء جعل المسك له ختاما ، وضرب له على الرياض النافحة خياما ، ونقصّ عليه من أنباء النيل الذى خصّ الله البلاد المصرية بوفادة وفائه ، وأغنى به قطرَها عن القَطْر فلم تحتج إلى مدّ كافه وفائه ، ونزّهه عن مِنّة الغمام الذى إن جاد فلا بدّ من شهقة رعدِه ودمعة بكائه ، فهى الأرض التى لا يُذمّ للأمطار فى جوّها مطار ، ولا يُزمّ للقطّار فى نفعها قطار ، ولا تُرْمِد الأنواء فيها عيونَ النّوار ، ولا تشيب بالثلوج مفارق الطرق ورءوس الجبال ، ولا تفقد فيها حُلى النجوم لاندراج الليلة تحت السحب بين اليوم وأمس ، ولا يتمسّك فى سنائها المساكين كما قيل بحبال الشمس ، فأين أرضٌ يَخُدّ عجاجها بالبحر العجّاج ، وتَزدحم فى ساحاتها أفواجُ الأمواج ، من أرضٍ لا تنالُ السُّقيا إلا بحرب لأنّ القَطر سهام والضباب عجاج قد انعقد ، ولا يعُمّ الغيث بقاعها لأنّ السحب لا تراها إلا بسراج البرق إذا اتّقد . فلو خاصم النيلُ مياه الأرض لقال: عندى قبالة كلّ عين إصبع ، ولو فاخرها لقال : أنت بالجبال أثقل وأنا بالملق أطبع . والنيل له الآيات الكُبَر ، وفيه العجائب والعِبَر ، منها وجود الوفا ، عند عدم الصفا ، وبلوغ الهرم ، إذا احتد واضطرم ، وأمن كل فريق ، إذا قُطع الطريق ، وفرح قطان الأوْطان إذا كسر وهو كما يقال سُلطان.

(حسن المحاضرة ٢٤/٢)

وهو أكرم منتدى ، وأعزب محتبَى ، وأعظم مجتدَى، إلى غير ذلك من خصائصه، وبراءته مع الزيادة من نقائصه .

وهو أنه فى هذا العام المبارك جذب البلاد من الجدْب وخلّصها بذراعه ، وعصمها بخنادقه التى لا تُراع من تِراعه ، وحصّنها بسوارى الصوارى تحت قلوعه وما هى إلا عمُد قلاعه ، وراعى الأدب بين أيدينا الشريفة بمطالعتنا فى كلّ يوم بحر قاعه فى رقاعه ، حتى إذا أكمل الستة عشر ذراعا وأقبلت سوابق الخيل سراعا ، وفتح أبواب الرحمة بتغليقه ، وجد فى طلب تخليقه ، تضرّع بمدّ ذراعه إلينا، وسلم عند الوفاء بأصابعه علينا . ونشر عَلَم ستره ، وطلب لكرم طباعه جَبْرَ العالم بكسره ، فرسمنا بأن يخلّق ، ويعلّم تاريخ هنائه ويعلّق ، فكسر الخليج وقد كاد يعلوه فوق موجه ، ويُهيل كثيب سدّه هول هيجه ، ودخل يدوس زرابىّ الدور المبثوثة ، ويجوس خلال الحنايا كأن له فيها خَبايا موروثة . ومرّ كالسهم من قسىّ قناطره المنكوسة ، وعلاه زَبَد حركته ولولاه ظهرت فى باطنه من بدور إنائه أشعتُها المعكوسة . وبشر بركة الفيل ببركة الفال ، وجعل المجنونة من تياره المنحدر فى السلاسل والأغلال ، وملأ أكفّ الرجا بأموال الأمواه ، وازدحمت فى عبارة شكره أفواج الأفواه . وأعلَم الأقلام بعجزها عما يدخل من خراج البلاد ، وهنأت طلائعُه بالطوالع التى نزلت بركاتها من الله على العباد .

وهذه عوائد الألطاف الإلهيّة بنا لم نزلْ نجْلس على موائدها ؛ ونأخذ منها ما نهَبُه لرعايانا من فوائدِها . ونخصّ بالشكر قوادمَها فهى تدبّ حولنا وتدرج ، ونخصّ قوادمها بالثناء والمدح والحمد فهى تدخل إلينا وتخرج .

فليأخذ الجنابُ العالى حظّه من هذه البشرى التى جاءت بالمنّ والمَنْح ، وانهلّت أياديها المغدقة بالسّح والسفح ، وليتلقّاها بشكرٍ يضىء به فى الدجى أديم الأفُق ، ويتخذها عِقْدًا تحيط منه بالعنق إلى النطُق ، وليتقدم الجناب العالى بألّا يحرّك الميزان فى هذه البشرى بالجباية لسانه، وليعط كلّ عامل فى بلادنا بذلك أمانه، وليعمل بمقتضى هذا المرسوم

حتى لا يرى فى أسقاط الجباية خيانة ، والله يديم الجناب العالى لقصّ الأنباء الحسنة عليه، ويمتّعه بجلاء عرائس التهانى والأفراح لديه .

***

وكتب الأديب تقىّ الدين أبو بكر بن حجة بشارة عن الملك المؤيد شيخ ، سنة تسع عشرة وثمانمائة :

ونبدى لعلمه الكريم ظهور آية النيل الّذى عاملنا الله فيه بالحسنى وزيادة ، وأجراه لنا فى طرُق الوفاء على أجمل عادة ، وخلق أصابعه ليزول الإيهام فأعلن المسلمون بالشهادة ، كسر بمسرى [1] فأمسى كلّ قلب بهذا الكسر مجبورا ، وأتبعناه بنوروز [2] وما برح هذا الاسم بالسعد المؤيدىّ مكسورا ، دقّ قفا السودان فالراية البيضاء من كلّ قلع عليه ، وقبّل ثغور الإسلام فأرشفها ريقه الحلو فمالت أعطاف غصونها إليه ، وشبّب خريرُه فى الصعيد بالقصب ، ومدّ سبائكه الذهبية إلى جزيرة الذهب ، فضرب الناصريّة واتّصل بأم دينار ، وقلنا : لولا أنه صُبِغ بقوّة [3] لما جاء وعليه ذلك الاحمرار .

وأطال الله عمر زيادته فتردّد إلى الآثار ، وعمّته البركة فأجرى سواقى ملكه إلى أن غدتْ جنّةً تجرى من تحتها الأنهار ، وحضن [4] مشتهى الرّوضة فى صدره ، وحنا عليها حنوّ المرضعات على الفطيم .

وأرشفنا على ظمأ زلالًا ألذَّ من المُدامة للنديم

وراق مديد بحره لما انتظمت عليه تلك الأبيات ، وسقى الأرض سُلافته الخمريّة فخدمته بحلو النبات ، وأدخله إلى جنّات النخيل والأعناب فالق النوى والحبّ ، فأرضع [فى أحشاء الأرض [5]] جنين النّبْت ، وأحيا له أمهات العصف والأبّ . وصالحته كفوف الموز فختمها

(١) ط : « جسره » .

(٢) ط : « بنوروزه » .

(٣) حلية الكميت : « مائه » .

(٤) ط : « وحصن » .

(٥) من حلية الكميت .

بخواتمه العقيقيّة ولبس الورد تشريفه ، وقال : أرجو أن تـكون شوكتى فى أيامه قويّة ، ونسى الزهر بحلاوة لقائه مرارة النّوى ، وهامت به مخدّرات الأشجار فأرخت ضفائر فروعها عليه من شِدّة الهوَى ، واستوفى النبات ما كان له فى ذمة الرىّ من الديون ، ومازج الحوامض بحلاوته فهام النّاس بالسّكّر والليمون ، وانجذب إليه الأكباد وامتدّ، ولـكن قوى قوسه لمّا حظِىَ منه بسهم لا يردّ ، ولبس شَربوش الأترجّ وترفع إلى أن لبس بعده التاج ، وفتح منثور [1] الأرض لعلامتِهِ بسعَة الرزق وقد نفذ أمره وراج ، فتناول مقالم الشنبر وعلّم بأقلامها ، ورسم [2] لمحبوس كلّ سدٍّ بالإفراج ، وسرّح بطائق السفن نخفقت أجنحتها بمخلّق بشائره ، وأشار بأصابعه إلى قتل المحْل فبادر الخصب إلى امتثال أوامره ، وحظى بالمشوق وبلغ من كلّ منْية مناه ، فلا سكن على البحر إلا تحرك ساكنه بعد ماتفقّه وأتقن باب المياه ، ومدّ شفاه أمواجه إلى تقبيل فم الخوْر [3] ، وزاد مترعه [4] فاستحلَى المصريون زائدَه على الفوْر ، ونزل فى بركة الحبش فدخَل التّكرور فى طاعته ، وحمل على الجهات البحرية فـكسر المنصورة وعلا على الطويلة بشهامته ، وأظهر فى مسجد الخضر عين الحياة فأقر الله عينه ، وصار أهل دمياط فى برزخ بين المالح وبينه ، وطلب المالح ردّه بالصدر وطعن فى حلاوة شمائله ، فما شعر إلا وقد ركب عليه ونزل فى ساحله .

وأما المحاسن فدارت دوائره على وَجَنات الدهر عاطفة ، وثقلت أردافُ أمواجه على خصُور [5] الجوارى واضطربت كالخائفة ، ومال شيّق النخيل إليه فلثم ثغر طلعِه وقبّل سالفه ، وأمست سود الجوارى كالحسنات على حمرة وجناته ، وكلما زاد زاد الله فى حسناته ؛ فلا فقير سدٍّ إلا حصل له من فيض نعماه فتُوح ، ولا ميّت خليج إلا عاش به

---

(١) الثمرات : « منشور » .

(٢) ح : « لـكل سد » .

(٣) الثمرات : « الجسر » .

(٤) ح : « زاد بسرعة » .

(٥) فى الأصول : « حضور » ، وصوابه من الثمرات .

ودبّت فيه الروح ، ولكنه احمرّت عينه على الناس بزيادة وترفّع ، فقال له المقياس : عندى قبالة كلّ عين أصبع . ونشر أعلام قلوعه وحمل وله على ذى الجزيرة زجّرة ، ورام أن يهجم على غير بلاده فبادر إليه عزم [1] المؤيدىّ وكسرَه .

وقد آثرنا الجناب بهذه البشرى الّتي سرى فضلُها برّا وبحرا ، وحدّثناه عن البحر ولا حرج وشرحنا له حالًا وصدراً ، ليأخذ حظّه من هذه البشارة البحريّة بالزيادة الوافرة ، وينشق من طيبها [2] نشرا فقد حملت له من طيبات ذلك النسيم أنفاساً عاطرة . والله تعالى يُوصل بشائرنا الشريفة لسمعه الكريم ليصير بها فى كلّ وقت مشنفا ، ولا برح من نيلها المبارك وإنعامنا الشريف على كلا الحالين فى وفا [3] .

---

(١) فى الأصول : « عزمنا » ، وما أثبته من الثمرات. (٢) الثمرات : « طيبات » .
(٣) ثمرات الأوراق ٢ : ٦٣ ، و ٦٤ ، حلية الكميت ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

ذكر المقياس

قال ابن عبد الحكم : كان أوّل مَنْ قاس النيل بمصر يوسف عليه السلام ، ووضع مقياسا بمَنْف ، ثم وضعت العجوز دَلُوكة ابنة زَبّاء مقياساً بأنِصْنا ؛ وهو صغير الذرع ومقياسا بأخميم . ووضع عبد العزيز بن مروان مقياساً بحُلوان وهو صغير ، ووضع أسامة ابن زيد التنوخىّ فى خلافة الوليد مقياسا بالجزيرة ؛ وهى المسمّاة الآن بالرَّوْضة ، وهو أكبرها ؛ حدّثنا يحيى بن بكير ، قال : أدركت القيّاس يقيس فى مقياس مَنْف ويدخل بزيادته إلى الفسطاط .

هذا ماذكره ابن عبد الحكم [1] .

قال التِّيفاشىّ : ثم هدم المأمون مقياس الجزيرة ، وأسسه ولم يتمّه ، فأتمّ المتوكل بناءه وهو الموجود الآن .

وقال صاحب مباهج الفكر : المقياس الذى بأنِصْنا ينسب لأشمون بن قُفطيم بن مصر ويقال إنه من بناء دَلُوكة ، وبناؤه كالطيلسان ، وعليه أعمدة بعدد أيام السنة من الصوّان الأحمر .

ورأيت [2] فى بعض المجاميع مانصّه : قال ابن حبيب [3] : وجدتُ فى رسالةٍ منسوبة إلى الحسن بن محمد بن عبد المنعم ، قال : لمّا فتحت مصر عرف عمر بن الخطاب مايلقَى أهلها من الغلاء عن وقوف النّيل عن مدّه [4] فى مقياس لهم فضلا عن تقاصره ، وإن فَرْط الاستشعار يدعوهم إلى الاحتكار ، ويدعو الاحتكار إلى تَصاعُد الأسعار بغير

---

(١) فتوح مصر ١٦ .

(٢) نقله المقريزى ٤ : ٩٣ عن القضاعى .

(٣) فى المقريزى : « يزيد بن حبيب » .

(٤) المقريزى : « حده » .

قحْط ، فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ، يسأله عن شرح الحال ، فأجابه فقال عمرو [١] : إنى وجدت ماتروَى به مصر حتى لا يقحط أهلُها أربعة عشر ذراعا ، والحدّ الذى يروى منه سائرها حتى يفضل عن حاجتهم ويبقَى عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر ذراعا ، والنهايتين [٢] المخوفتين فى الزيادة والنقصان — وهو الظمأ والاستبحار — اثنتا عشرة ذراعا فى النقصان وثمانى عشرة ذراعا فى الزيادة ؛ هـذا والبلد فى ذلك محفور الأنهار ، معقود الجسور ، عندما تسلموه من القِبْط وخير العمارة فيه .

فاستشار عمر بن الخطاب علىّ بن أبى طالب فى ذلك ، فأمره أن يكتب إليه بأن يبنى مقياسا ، وأن ينقص [٣] ذراعين على اثنتى عشرة ذراعا ، وأن يقرّ مابعدها على الأصل ، وأن ينقص من ذراع بعد الستة عشر ذراعا إصبعين .

ففعل ذلك وبناه بحلوان ، فاجتمع له ما أراد من حال الأرجاف ، وزال ما منه كان يخاف ، بأن يجعل الاثنتى عشرة ذراعا أربع عشرة ذراعا ؛ لأنّ كل ذراع أربعة وعشرون إصبعا ، فجعلها ثمانية وعشرين من أوّلها إلى الاثنتى عشرة ذراعا ، تكون مبلغ الزيادة على الاثنتى عشرة ثمانيـة وأربعين إصبعا ؛ وهى الذراعان ، وجعل الأربع عشرة ستّ عشرة والسّتة عشرة ثمانى عشرة ، والثمانى عشرة عشرين ذراعا ، وهى المستقرّة الآن [٤] .

وقال بعضهم : كتب الخليفة جعفر المتوكل إلى مصر يأمر ببناء المقياس الجديد الهاشمىّ فى الجزيرة سنة سبع وأربعين ومائتين ؛ وكان الذى يتولّى أمرَ المقياس النصارىّ ، فورد كتاب أمير المؤمنين المتوكل فى هذه السنة على بكّار بن قتيبة قاضى مصر ، بألّا يتولّى ذلك إلا مسلم يختاره ؛ فاختار القاضى بكّار لذلك الرّدّاد عبد الله بن

---

(١) فى الأصول : « عمر » وهو خطأ .　　(٢) المقريزى : « والنهايتان » .

(٣) فى ط : « ينقض » ، وما أثبته من المقريزى والأصل .

(٤) المقريزى ١ : ٥٤

عبد السلام المؤدّب،وكان محدثا فأقامهالقاضى بكار لمراعاة المقياس ، وأجرىعليه الرزق ، وبقى ذلك فى ولده إلى اليوم .

وقال صاحب المرآة : المقياس الظاهر الآن بناه المأمون ، وقيل إنما بناه أسامة بن زيد التنوخىّ فى خلافة سليمان بن عبد الملك ، ودَثَر فجدّده المأمون . وبنى أحمد بن طولون مقياسين ؛ أحدهما بقوص وهو قائم اليوم ، والآخر بالجزيرة وقد انهدم .

قال القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر فى العود الذى يطلع به المقسى قيـاس النيل فى كل يوم بزيادة النيل :

قد قلت لمّـا أتى المقسى وفى يدِهِ ... عودٌ بهالنيلقد عُودىوقدنودِى
أيّام سلطاننا سعد السعود وقد ... صحّ القياس بجرْى الماء فى العود

ذكر جزيرة مصر وهى المسماة الآن بالروضة

قال المقريزىّ : اعلم أنّ الرّوضة تطلق فى زماننا على الجزيرة التى بين مدينة مصر وبين مدينة الجيزة ، وعرفت فى أول الإسلام بالجزيرة وجزيرة مصر ، ثم قيل لها جزيرة الحصن ، وعرفت الروضة من زمن الأفضل بن أمير الجيوش إلى اليوم . انتهى .

والجزيرة كلّ بقعة فى وسط البحر لا يعلوها البحر ،سميت بذلك لأنها جُزِرت ، أى قطِعت وفُصِلت من تخوم الأرض ، فصارت منقطعة .

وفى الصِّحاح : الجزيرة : واحدة جزائر البحر ؛ سمّيت بذلك لانقطاعها عن معظم الأرض .

وقال ابن المتوّج فى كتابه إيقاظ المتغفّل واتعاظ المتأمل : إنّما سميت جزيرة مصر بالرّوضة ، لأنه لم يكن بالديار المصرية مثلها وبحر النيل حائز لها ودائر عليها ، وكانت حصينة، وفيها من البساتين والثمار مالم يكن فى غيرها .

ولما فتح عمرو بن العاصى مصر تحصّن الرّوم بها مدة ، فلما طال حصارها وهرب الروم منها خرّب عمرو بن العاصى بعضَ أبراجها وأسوارها ، وكانت مستديرة عليها ، واستمرّت إلى أن عمّر حصنَها أحمد بن طولون فى سنة ثلاث وستين ، ولم يزل هذا الحصن حتى خربه النيل .

***

وقال المقريزى : اعلم أن الجزائر التى هى الآن فى بحر النيل كلّها حادثة فى الإسلام ما عدا الجزيرة التى تُعرَف اليوم بالروضة تُجاه مدينة مصر ؛ فإن العرب لمّا دخلوا مع عمرو ابن العاصى إلى أرض مصر وحاصروا الحِصْن الذى يعرف اليوم بقصر الشمع فى مصر ؛ حتى فتحه الله عنوةً على المسلمين ، كانت هذه الجزيرة حينئذ تجاه القصر ، لم يبلغنى إلى

الآن مَتَى حدثت ، وأما غيرها من الجزائر كلهـا فقد تجدّدَتْ بعد فتح مصر ، وإلى هذه الجزيرة التجأ المقوقس لمّا فتح الله على المسلمين القصر ، وصار بها هو ومن معه من جموع الروم والقبط .

وقال ابن عبد الحكم : كان بالجزيرة فى أيام عبد الملك بن مروان أمير مصر خمسمائة فاعل عدة لحريق إن كان فى البلاد أو هدم .

وقال الكندىّ : بنيت بالجزيرة الصّناعة فى سنة أربع وخمسين — والصّناعة اسم لمكان قد أعدّ لإنشاء المراكب البحرية — وأول صناعة عملت بأرض مصر التى بُنيت بالروضة فى سنة أربع وخمسين من الهجرة ، فاستمرّت إلى أيام الإخشيد ، فأنشأ صناعة بساحل فُسطاط مصر ، وجعل موضع الصناعة التى بالروضة بستانا سمّاه المختار .

وقال القضاعىّ : حصن الجزيرة بناه أحمد بن طولون فى سنة ثلاث وستين ومائتين ، ليحرز فيه حريمه وماله ، وكان سبب ذلك مسير موسى بن بُغَا من العراق واليًا على مصر ، وجميع أعمال ابن طولون ، وذلك فى خلافة المعتمد على الله ، فلمّا بلغ أحمد بن طولون مسيرُه تأمّل مدينة فسطاط مصر ، فوجدها لا تأخذ إلا من جهة النيل ، فبنى الحصن بالجزيرة التى بين الفسطاط والجيزة ليكون معقِلاً لحريمه وذخائره ، واتخذ مائة مركب حربية سوى ما يُضاف إليها من العشاريّات وغيرها ؛ فلما بلغ موسى بن بُغَا بالرّقة تثاقل عن المسير لعظم شأن ابن طولون وقوته ، ثم لم يلبث موسى أن مات ، وكُفى ابن طولون أمره .

وقال محمد بن داود لأحمد بن طولون :

لما قَضَى ابن بُغَا بالرّقتَيْن ملا	ساقَيْه درقًا إلى الكعبين والعقبِ
بنى الجزيرة حِصْناً يَستجِنّ به	بالعسْف والضرْب ، والصّناعُ فى تعبِ
وواثب الجيزة القصوَى نخندَقَها	وكاد يُصعق من خوفٍ ومن رُعبِ

له مراكبُ فوق النيل راكدة لما سوى القار للنّظار والخشب

ترى عليها لباس الذّلّ مذ بنيتْ بالشط ممنوعة من عِزّة الطّلَبِ

فما بناها لغزو الروم محتسبٌ لكن بناها غداة الرّوْع للهرَبِ

وقال سعيد القاص من أبياتٍ :

وإنْ جئتَ رأس الجسر فانظر تأمُّلاً إلى الحصن أوْ فاعْبُر إليه على الجسْرِ

ترى أثراً لم يَبْقَ مَنْ يستطيعُه من النّاس فى بَدْوِ البلاد ولا حَضْرِ

وما زال حصن الجزيرة هذا عامراً أيّام بنى طولون ؛ حتى أخذه النيل شيئًا فشيئًا ، وقد بقيتْ منه بقايا متقطّعة إلى الآن .

وكان نقل الصّناعة من الجزيرة إلى ساحل مصر فى شعبان سنة خمس وعشرين وثلثمائة ، وبنَى مكانَها البستان المختار ، وصُرف على بنائه خمسة آلاف دينار ؛ فاتّخذه الإخشيد متنزّهاً به ، وصار يفاخر به أهلَ العراق ، ولم يزل متنزّها إلى أنْ زالت الدّولة الإخشيّدية والكافوريّة ، وقدمت الدولة العُبيدية ؛ فكان يتنزّه فيه المعزّ والعزيز ، وصارت الجزيرة مدينةً عامرة بالناس ، بها والٍ وقاض . وكان يقال : القاهرة ومصر والجزيرة ؛ فلمّا استولَى الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الدين ، أنشأ فى بحرىّ الجزيرة بستاناً نَزِهاً سمّاه الروضة ، وتردّد إليه تردّداتٍ كثيرةً ؛ ومن حينئذ صارت الجزيرةُ كلها تعرف بالروضة .

قال ابن ميسر فى تاريخ مصر : أنشأ الأفضل الرّوضة بحرىّ الجزيرة ، وكان يمضى كلّ يوم إليها فى العشاريّات الموكبيّة، وكان قتل الأفضل فى سنة خمس عشرة وخمسمائة.

قال : وفى سنة ست عشرة وخمسمائة ، نقل المأمونُ البطائحىّ الوزير عمارةَ المراكب الحربيّة من الصناعة التى بجزيرة مصر إلى الصناعة القديمة بساحل مصر، وبنى عليها منظرةً كانت باقيةً إلى آخر أيام الدولة العلوية، فلما استبدّ الخليفة الآمر بالأمر، أنشأ بجوار البستان

المختار من جزيرة الرَّوْضة مكاناً لمحبوبته البدوّية عُرِف بالهودج ، وذلك لمّا صعب عليها السكنى فى القصور ، ومفارقة ما اعتادته من الفضاء . وكان الهودجُ على شاطئ النيل فى شكل غريب ، ولم يزل الآمر يتردّدد إليه للنُّزْهةِ فيــه ، إلى أن ركب إليه يوما ، فلمّا كان برأس الجسر ، وثب عليــه قوم كانوا كمنوا له بالروضة ، فضربوه بالسكاكين حتى أثخنوه ، وذلك يوم الأربعاء رابع ذى القعدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، ونُهب سوق الجزيرة ذلك اليوم .

قال ابن المتوّج : اشترى الملك المظفّر تقىّ الدين عمر بن شاهِنْشاه بن أيّوب جزيرة مصر المشهورة بالرَّوْضة من بيت المال المعمور فى شعبان سنة ست وعشرين وخمسمائة ، وبقيت على ملــكه إلى أنْ سيّر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ولدَه الملك العزيز عثمان إلى مصر ، ومعه عمّه الملك العــادل ، وكتب إلى الملك المظفّر أن يسلِّم لهما البلاد ، ويقدم عليه إلى الشام ، فلمّا ورد عليه الــكتاب ، ووصل ابن عمه الملك العزيز وعمه الملك العادل ، شقّ عليه خروجه من الديار المصرية ، وتحقّق أنه لا عَوْد له إليها أبدا ، فوقف مدرسته التّى تعرف فى مصر بالمدرسة التقوية ؛ وكانت قديماً تعرف بمنازل العزّ على الفقهاء الشافعية ، ووقف عليها جزيرة الروضة بكمالها ، ووقف أيضا مدرسة بالفيّوم ، وسافر إلى عمه صلاح الدين إلى دمشق ، فملّــكه حَمــاة ، ولم يزل الحــال كذلك إلى أنْ ولىَ الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فاستأجر الجزيرة من القاضى فخر الدين أبى محمد عبد العزيز بن قاضى القضاة عماد الدين أبى القاسم عبد الرحمن بن محمــد المعروف بابن السكرىّ مدرس المدرسة المذكورة لمدّة ستين سنة فى دفعتين : كلّ دفعــة قطعة ، فالقطعة الأولى من جامع عين إلى المنظر طولًا وعرضا من البحر إلى البحر ، واستأجر القطعة الثانية ، وهى باقى أرض الجزيرة الدائر عليها بحر النيل حين ذاك ، واستولى على ما كان بالجزيرة من النخل

والجمّيز والغروس فكأنه لما عمر الملك الصالح مناظر قلعة الجزيرة قطعت النخل ، ودخلت فى العمائر .

وأما الجُميز فإنّه كان بشاطئ بحر النيل صفّ جُمّيز يزيد على أربعين شجرة ، وكان أهلُ مصر فرجهم تحتها فى زمن النّيل والربيع ، قطعت جميعها فى الدولة الظاهريّة ، وعمّر بها شوانىعوض الشوانى التى كان سيرّها إلى جزائر قبرص، وتكسّرت هناك ، واستمرّ تدريس المدرسة التقوية بيد القاضى فخر الدين إلى حين وفاته ، ثم وليها بعده ولده القاضى عماد الدين أبو الحسن علىّ ، وفى أيامه تسلم له القطعة المستأجرة من الجزيرة أولا ، وبقىَ بيد السلطنة القطعة الثانية إلى الآن ، وكان الإفراج عنهما فى شهور سنة ثمان وتسعين وستمائة فى الدولة الناصرية ، ولم يزل القاضى عماد الدين مدرّسها إلى حين وفاته، فوليها ولده وهو مدرّسها الآن فى شعبان سنةِ أربع عشرة وسبعمائة . هذا كله كلام ابن المتوج .

ولم تزل الرَّوْضة متنزّها ملوكيًّا ، ومسكنا للناس إلى أن تسلطَن الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد ، فأنشأ بالرَّوضة قلعة ، واتّخذها سرير ملك ، فعرفت بقلعة المقياس ، وبقلعة الروضة ، وبقلعة الجزيرة وبالقلعة الصالحيّة . وكان الشُّروع فى حفر أساسها يوم الأربعاء خامس شعبان سنة ثمان وثلاثين وستمائة،ووقع الهدْم فى الدّور والقصور والمساجد التى كانت بجزيرة الروضة ، وتحوّل الناس من مساكنهم التى كانت بها ، وهدم كنيسة كانت لليعاقبة بجانب المقياس ، وأدخلها فى القلعة ، وأنفق فى عمارتها أموالًا جمة ، وبنى فيها الدور والقصور ، وعمل لها ستين برجاً ، وبنى بها جامعا ، وغرس بها جميع الأشجار ، ونقل إليها من البرابى العمد الصوّان والعمد الرخام ، وشحنها بالأسلحة وآلات الحرب وما يحتاج إليها من الغلال والأقوات خشية من محاصرة الفرنج فإنهم كانوا حينئذ على عزم قصد بلاد مصر .

وبالغ فى إتقانها مبالغة عظيمة ؛ حتى قيل إنه استقام كلّ حجر فيها بدينار ، وكلّ طوبة بدرهم ، وكان الملك الصالح يقف بنفسه ، ويرتّب مايعمل ، فصارت تدهش من كثرة زخرفها ، ويحيّر الناظر إليها حسن سقوفها المقرنصة ، وبديع رخامها . ويقال إنه قطع من الموضع الذى أنشأ فيه هذه القلعة ألف نخلة مثمرة ، كان رُطَبُها يهدَى إلى ملوك مصر لحسن منظره ، وطيب طعمه . وخرب البستان المختار والهودج ، وهدم ثلاثة وثلاثين مسجداً كانت بالروضة ، وأدخلت فى القلعة .

واتفق له فى بعض هذه المساجد خبر عجيب : قال الحافظ جمال الدين يوسف بن أحمد اليغمورى : سمعت الأمير جمال الدين موسى بن يغمور بن جلدك ، يقول : من عجيب ما شاهدته من الملك الصالح ، أنه أمرنى أن أهدم مسجداً بجزيرة مصر ، فأخّرت ذلك ، وكرهت أن يكون هدمُه على يدى ، فأعاد الأمر ، وأنا كاسر عنه ؛ فكأنّه فهم عنى ذلك ، فاستدعى بعضَ خَدَمه وأنا غائب ، وأمره أن يهدم ذلك المسجد ، وأن يبنىَ فى مكانه قاعة ، وقدّر له صفتها ، فهدم ذلك المسجد ، وعمّر تلك القاعة مكانه وكملت . وقدم الفرنج على الديار المصرية ، وخرج الملك الصالح مع عساكره إليهم ، ولم يدخل تلك القاعة التى بُنيت فى مكان المسجد ، فتوفّىَ السلطان بالمنصورة ، وجُعل فى مركب ، وأُتِىَ به إلى الروضة فجعل فى تلك القاعة التى بُنيت مكان المسجد مدّة إلى أن بُنيت له التربة التى فى جنب مدرسته بالقاهرة . وكان النيل فى القديم محيطا بالرّوضة طول السنة ، وكان فيما بين ساحل مصر والروضة جسر من خشب ، وكذلك فيما بين الروضة والجيزة جسر من خشب يمرّ عليهما الناس والدوابّ من مصر إلى الروضة ، ومن الروضة إلى الجيزة ؛ وكان هذان الجسران من مراكب مصطفة بعضها بحذاء بعض ، وهى موثّقة ، ومن فوق المراكب أخشاب ممتدّة فوقها تراب .

وكان عرض الجسر ثلاث قصَبات ، ولم يزل هذا الجسر قائماً إلى أنْ قدم المأمون

مصر . فأحدث جسرا جديداً ، فاستمرّ الناس يمرّون عليه ، وكان عبور العساكر التى قدمت من المعزّ مع جوهر القائد على هذين الجسرين ، وكان الجسر المتصل بالروضة كرسيه حيث المدرسة الخروبية قبلى دار النحاس ، وكان النّيل عندما عزم الملك الصالح على عمارة قلعة الروضة قد انطرد عن برّ مصر ، ولا يحيط بالرّوضة إلّا فى أيام الزيادة ، فلم يزل يغرق السفن فى ناحية الجيزة ، ويحفر فيما بين الروضة ومصر ما كان هناك من الرّمال ، حتى عاد ماء النيل إلى برّ مصر ، واستمرّ هناك ، فأنشأ جسرا عظيما ممتدًّا من برّ مصر إلى الروضة ، وجعل عرضه ثلاث قصبات . وكان كرسيّه حيث المدرسة الخروبيّة قبليّ دار النحاس ، وصار أكثر مرور الناس بأنفسهم ودوابّهم فى المراكب : لأنّ الجسرين قد احتُرِما بحصولهما فى حيّز قلعة السلطان ، وكان الأمراء إذا ركبوا من منازلهم يريدون الخدمة إلى السلطان بقلعة الروضة يترجّلون عن خيولهم عند البرّ ، ويمشون فى طول الجسر إلى القلعة ولا يمكن أحدٌ من العبور عليه راكباً ، سوى السلطان فقط .

ولما كملت تحوّل إليها بأهله وحريمه ، واتّخذها دار ملك ، وأسكن معه فيها مماليكه البحرية ؛ وكانت عدتهم نحو الألف . وما برح الجسر قائما إلى أن خرّب المعز أيبك قلعة الروضة بعد سنة ثمان وأربعين وستمائة ، فأهمل ، ثم عمّره الظاهر بيبرس على المراكب ، وعمله من ساحل مصر إلى الروضة ، ومن الروضة إلى الجيزة ، لأجل عبور العسكر عليه لمّا بلغه حركة الفرنج .

* * *

وقال علىّ بن سعيد فى كتاب المغرب ـ وقد ذكر الروضة : هى أمام الفسطاط فيما بينها وبين مناظر الجيزة ، وبها مقياس النيل ، وكانت متنزّهاً لأهل مصر ، فاختارها الصالح بن الكامل سرير السلطنة ، وبنى فيها قلعة مسوّرة بسور ساطع اللّون ، محكم

البناء ، عالىَ السُّمْك ، لم ترَ عينى أحسن منه ، وفى هذه الجزيرة كان الهودج الّذى بناه الآمر الخليفة لزوجته البدويّة التى هام فى حبّها ، والمختــار بستان الإخشيد وقصره ، وله ذكر فى شعر تميم بن المعزّ وغيره . ولشعراء مصر فى هذه الجزيرة أشعار منها قول أبى الفتح ابن قادوس الدمياطى :

أرَى سرَح الجزيرة من بعيدٍ كأحـداقٍ تُغازل فى المغازلْ [1]
كأنّ مجرّة الجوزاء خطّتْ وأثبتت المنــــازل فى المنازلْ

وكنتُ أبيت بعض الليالى فى الفسطاط على ساحلها ، فيزدهينى ضحكُ البدر فى وجه النيل . أمّا سُور هذه الجزيرة الدرّىّ اللون ، فلم ينفصل عن مصر حتى كمل سور هـذه القلعة ، وفى داخله من الدور السلطانية ما ارتفعت إليه همّة بانيها ، هو من أعظم السلاطين همّةً فى البناء ، وأبصرت فى هـذه الجزيرة إيوانًا لجلوسه لم تر عينى مثاله ، ولا يقدَّر ما أنفق عليــه ، وفيه من الـكتابة بصفائح الذهب والرّخام الأبنوسىّ والـكافورىّ والجزّع مايذهِل الأفـكار ، ويستوقف الأبصار ، ويفصِل عمّا أحاط به السور أرض طويلة فى بعضها حاظِرٌ حظر على أصناف الوحوش التى يتفرج فيهــا السلطان ، وبعدها بروج يتقطع فيها مياه النيل ، فينظر فيها أحسن منظر ، وقد تفرجت كثيرا فى طرق هذه الجزيرة ممّا يلى برّ القاهرة ، فقطعتُ بها عشيّاتٍ مذهبات ، لا تزال لأحزان الغرْبة مذهِبات ، وإذا زاد النيل فصل مابينها وبين الفسطاط بالـكلّيّة . وفى أيّام احتراقِ النيل يتّصل برّها ببرّ السلطان من جهة خليج القاهرة ، ويبقى موضع الجسر يكون فيه المراكب .

وركبت مرّةً فى هـذا النيل أيام الزيادة مع الصاحب المحسن محيى الدين بن بندار وزير الجزيرة ، وصعدنا إلى جهــة الصعيد ثم انحدرنا ، واستقبلنا هذه الجزيرة وأبراجها تتلألأ ، والنيل قد انقسم عنها ، فقلت:

تأمّلْ لحسن الصالحيّة إذ بدتْ　　مناظرُها مثلَ النجـــومِ تلالا
وللقلعة الغرّاء كالبـــدر طالعا　　يفرّج صدر الماء عنه هلالا
ووافى إليها المــاء من بعد غيبةٍ　　كما زار مشغوفا يروم وِصالا
وعانقهامن فرطشوقٍ لِحُسْنِها(١)　　فمدّ يمينـــا نحوها وشمالا

ولم تزل هذه القلعة عامرةً ، حتى زالت دولة بنى أيّوب ، فلما ملك السلطان الملك المعزّ عز الدين أيبك التركمانىّ أول ملوك الترك بمصر ، أمر بهدمها ، وعمّر منها مدرسته المعروفة بالمعزّية فى رحبة الحنّاء بمدينة مصر ، وطمع فى القلعة مَنْ له جاه ، وأخذ جماعة منها عدّة سقوف وشبابيك وغير ذلك ، وبيع من أخشابها ورخامها أشياء جليلة ، فلمّا صارت مملكة مصر إلى السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارىّ اهتم بعمارة قلعة الروضة ، ورسم للأمير جمال الدين موسى بن يغمور أن يتولّى عمارتها كما كانت . فأصلح بعض ماتهدّم منها ، ورتب بها الجانداريه وأعادها إلى ما كانت عليه من الحُرْمة، وأمر بأبراجها ففرّقت على الأمراء ، وأعطى برج الزاوية للأمير سيف الدين قلاوون الألفىّ ، والبرج الذى يليـه للأمير عز الدين الحلّى ، والبرج الثالث من برج الزاوية للأمير عز الدين أدغان ، وأعطى برج الزاوية الغربى للأمير بدر الدين الشمسىّ، وفرقت بقية الأبراج على سائر الأمراء . ورسم أن يكون بيوت جميع الأمراء وإصطبلاتهم فيها، وسلّم المفاتيح لهم . فلمّا تسلطن الملك المنصور قلاوون ، وشرع فى بناء المارستان والقبّة والمدرسة المنصوريّة نقل من قلعة الروضة هـذه مايحتاج إليه من العمد الصّوّان والعمد الرّخام التى كانت قبل عمارة القلعة بالبرابى ، وأخذ منها رخاما كثيرا ، وأعتابا جليلة مما كان بالبرابى وغير ذلك . ثم أخذ منها السلطان الناصر محمد بن قلاوون ما احتاج إليه

(١) ط : « وحسنها » .

من العمد الصوّان فى بناء الإيوان المعروف بدار العدل من قلعة الجبل وبالجامع الجديد الناصرىّ ظاهر مدينة مصر ، وأخذ غير ذلك حتى ذهبتْ كأنْ لم تكن .

قال المقريزىّ : وتأخر منها عقد جليل تسمّيه العامة القوس ، كان مما يلى جانبها الغربىّ أدركناه باقياً إلى نحو سنة عشرين وثمانمائة ، وبقىَ من أبراجها عدّة قد انقلب كثير منها ، وبنى الناس فوقها دورَهم المطِلّة على النيل ، وعادت الروضة بعد هدم القلعة منها متنزّهاً ، تشتمل على دور كثيرة ، وبساتين عدّة ، وجوامع تقام بها الجمعات والأعياد ، ومساجد .

وفى الروضة يقول الأسعد بن مماتى :

جزيرةَ مصرٍ لا عدتْكِ مسرّةٌ ... ولا زالت اللّذات فيكِ اتّصالُهَا [1]

فكم فيكِ من شمسٍ على غصن بانةٍ ... يميت ويُحيي هجرُها ووصالُها

مغانيك فوق النيل أضحتْ هوادجاً ... ومختلفات الموْج فيها جمالُها

ومن أعجب الأشياء أنكِ جنّة ... ترِفّ على أهل الضلال ظلالُها

وقال ظافر الحداد :

انظر إلى الروضة الغرّاء والنيلِ ... واسمع بدائع تشبيهى وتمثيلِي [2]

وانظر إلى البحر مجموعا ومفترقاً ... هناك أشبه شىء بالسراويل

والريح تطويه أحيانا وتنشرهُ ... نسيمها بين تفريكٍ وتعديل

الأسعد بن مماتى فى الروضة ، وقد حلّها السلطان الملك الكامل :

جزيرة مصرٍ ، أنتِ أشرف موضعٍ ... على الأرض لمّا حلّ فيك محمدُ

وفيك علا البُحران لكنّ كفّ ذا ... على الناس أندى بالعطاء وأجودُ

وأصبحت الأغصان من فرح به ... تمايَلُ ، والأطيار فيكِ تغرِّدُ

يَرِقّ نسيمٌ حين سار وجدولٌ [3] ... ويشدو هَزَارٌ حين يرقص أملدُ

---

(١) ح : « فما زالت » .

(٢) حلبة الكميت ٢٦٥ .

(٣) ح : « فرق نسيم » .

ذكر خليج مصر

قال المقريزىّ : هذا الخليج بظاهر فُسطاط مصر ، ويمرّ من غربىّ القاهرة ، وهو خليج قديم احتفره بعضُ قدماء ملوك مصر، بسبب هاجر أمّ إسمعيل حين أسكنها إبراهيم عليه السلام بمكّة ، ثم تمادَتْه الدهور والأعوام ، فجدّد حفرَه ثانيا بعضُ مَنْ ملك مصر من ملوك الرّوم بعد الإسكندر ، فلمّا فتِحت مصر على يد عمرو بن العاص ، جدّد حفرَه بإشارة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فحُفِر عام الرّمادة ، وكان يصبُّ فى بحر القُلْزم كما تقدّم فى أول الكتاب ، ولم يزل على ذلك إلى أن قام محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علىّ بن أبى طالب بالمدينة ، فكتب الخليفة المنصور إلى عامله بمصر أنّ يُطَمّ هذا الخليج حتى لا تحمل المِيرة من مصر إلى المدينة ، فَطُمّ وانقطع من حينئذ اتصاله ببحر القلزم ، وصار على ماهو عليه الآن .

وكان هذا الخليج يقال له أولا خليج أمير المؤمنين ـ يعنى عمر بن الخطاب ـ لأنه الذى أشار بتحديد حفره ، ثم صار يقال له خليج مصر ؛ فلما بنيت القاهرة بجانبه من شرقيّه صار يعرف بخليج القاهرة ، والآن تسمّيه العامة بالخليج الحاكمىّ . وتزعم أنّ الحاكم احتفره ، وليس بصحيح . وكان اسم الذى حفره فى زمن إبراهيم عليه السلام طوطيس[1] ، وهو الجبّار الذى أراد أخذ سارة ، وجرى له معها ماجرى، ووهب لها هاجر . فلمّا سكنت هاجر مكة وجّهت إليه تعرّفه أنها بمكان جدب ، فأمر بحفر نهر فى شرقىّ مصر بسفح الجبل حتى ينتهىَ إلى مرفأ السفن فى البحر الملح ؛ فكان يُحمَل إليها الحنطة ، وأصناف الغلات ، فتُنقل إلى جُدّة ، ويُحمل من هناك على المطايا ، فأحيا بلد الحجاز مدة . وكان اسم الذى حفره ثانيا أرديان[2] قيصر، وكان عبد العزيز بن مروان بنى عليه قنطرتين فى سنة تسع وستين ، وكتب اسمه عليها ، ثم جدّدهما تكين أمير مصر

(١) فى المقريزى : « طوطيس بن ماليا » (٢) فى المقريزى : « أندرومانوس » .

فى سنة ثمانى عشرة وثلاثمائة ، ثم جدّدها الإخشيد فى سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة ثم عَمِرتا فى أيام العزيز ، وكان موضع هاتين القنطرتين خلف خط السبع سقايات ، وهى التى كانت تفتح عند وفاء النيل فى زمن الخلفاء ، وكان الخليفة يركب لفتح الخليج . فلما انحسر النيل عن ساحل مصر ، ورَبَا الجرف أهملت هذه القنطرة فدثرت ، وعملت قنطرة السدّ عند فم بحر النيل ، وكان الذى أنشأها الملك الصالح أيوب فى سنة بضع وأربعين وستمائة [١] .

قال ابن عبد الظاهر : وأوّل مَنْ رتب حفر خليج القاهرة على الناس المأمون بن البطائحىّ ، وجعل عليه والياً بمفرده .

ولأبى الحسن بن الساعاتى فى كسر يوم الخليج :

إنّ يوم الخليج يومٌ من الحسـ ... ـنِ بديع المرئىّ والمسموعِ
كم لديه من ليث غابٍ صَئُولٍ ... ومَهاة مثـل الغزال المَرُوعِ
وعلى السّدّ عزّة قبـل أن تملـكه ذِلّة المحبّ الخضُوعِ
كسروا جسرَه هناك فحاكَى ... كَسْرَ قلبٍ يتلوه فيضُ دموعِ

(١) المقريزى ١ : ١١٤ مع تصرف .

ذكر الخليج الناصرىّ

حفره الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، لما بنى الخانقاه بسرياقوس ، فأراد إجراء الماء من النيل إليها ليرتب عليه السواقى والزراعات ، وفوّض أمره إلى أرغون النائب ، فحفر فى مدة شهرين من أول جمادى الأولى إلى سلخ جمادى الآخرة ، وبنى فخر الدين ناظر الجيش عليه قنطرة ، وبنى قديدار والى القاهرة قنطرة قديدار وقناطر الأرز وقناطر الأميريّة[1] .

(١) انظر المقريزى ١ : ١١٥ .

ذكر بركة الحبش

قال ابن المتوّج : هـذه البركة مشهورة فى مكانها ، وقد اتصل وقفهـا على قاضى القضـاة بدر الدين بن جماعة على أنّهـا وقف على الأشراف الأقارب والطالبيّين نصفين بينهما بالسويّة ، النّصف على الأقارب والنصف على الطالبيّين ، وثبت قبله عند قاضى القضاة بدر الدين يوسف السنجارىّ أن النصف منها وقفٌ على الأشراف الأقارب بالاستفاضة بتاريخ ثانى عشر ربيع الآخر سنة أربعين وستّمائة ، وثبت قبله عند قاضى القضاة عزّ الدّين عبـد العزيز بن عبد السلام بالاستفاضة أيضـا أنهـا وقف على الأشراف والطالبيّين بتاريخ التاسع والعشرين من ربيع الآخر سنة أربعين وستّمائة .

وفى سنة إحدى وأربعين وسبعمائة أمر الناصر بن قلاوون بحفر خليج من النيل إلى حائط الرّصد ببركة الحبَش ، وحفر عشر آبار كل بئر أربعون ذراعا ، يركب عليها السـواقى ليجرى الماء منها إلى القناطر التى تحمل الماء إلى القلعة ، فشقّ الخليج من مجرى رباط الآثار ، وكان مهمًّا عظيما ، وأمر الناصر فى هـذه السنة بتجديد جامع راشدة ، وكان قد تهدّم غالبه .

ظافر الحداد فى بركة الحبش :

تأمّلتُ نهر النيل طولا وخلفه ... من البركة الغنّاء شكلٌ مقدَّرُ
فـكان وقد لاحت بشَطَّيْهِ خضرةٌ ... وكانت وفيها المـاء باقٍ موفَّرُ
غمـامة شرب فى جواشنِ خُضْرَةٍ ... أضيف إليهـا طيلسانٌ مقوّرُ

أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسىّ :

لله يومٌ ببركة الحبشِ ... والأفْق بين الضياء والغَبَش[1]
والنّيل بين الرياح مضطرب ... كصارم فى يمين مرتعش
ونحن فى روضةٍ منوّقةٍ ... دُبِّج بالنَّوْر عِطفها ووُشى
قد نسجتها يدُ الغمام لنـا ... فنحن من نسجها على فُرُشِ

(١) حلبة الكميت ٢٦٩ .

ذكر ما قيل فى الأنهار والأشجار زمَن الشتاء والربيع من الأشعار

شمس الدين بن التِّلمسانىّ :

ولمّا جلا فصل الربيع محاسنَا وصفّق ماء النهر إذ غرّد القِمْرِى
أتاه النسيم الرطب رقَّصَ دوحَه فنقَّط وجه الماء بالذهب المِصْرى

وقال :

تغنَّتْ فى ذرا الأوراقُ وُرْقٌ ففى الأفنان من طربٍ فنونُ
وكم بسمت ثغور الزَّهر عُجبا وبالأكمام قد رقصت غصونُ

أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن فتحون المخزومىّ يصف نارنجة فى نهر :

ولقد رميت مع العشىّ بنظرة فى منظر غَضّ البشاشة يُبْهِجُ
نهر صقيل كالحسام بشطّهِ روض لنا تفاحُه يتأرّج
تَثْنِى معاطفه الصَّبا فى بردة موشيَّة بيد الغمامة تنسَج
والماء فوق صَفاتِهِ نارنجة تطفُو به وعُبابُه يتموّج
حمراء قانية الأديم كأنها وسط المجرّة كوكب يتأجج

القاضى عياض :

كأنما الزرع وخاماته[1] وقد تبدّت فيه أيدى الرياحْ
كتائبٌ تُجفِل مهزومةً شقائقُ النعمان فيها جراحْ

كتب القاضى شهاب الدين بن فضل الله إلى الأمير الجائى الدوادار :

بلدٌ أنت ساكنٌ فى رُباها بلدٌ تحسد الثُّريا ثراها

(١) الخامة : الرطبة الغضة .

قد تعالت إلى السماء بسكنا كَ ، فألقت على البِطاح رِداها
جمد الطَّلُّ فى الزهور نخِلنا أنه عِقدُ جوهرٍ لرباها
وجرى الماء فى الرياض فقلنا : كسرت فوقه الغوانِى[1] حُلاها
مِثْلَما أنت فى معانيك فردٌ هى فردُ البلاد فى معناها

يقبّل الأرض ، ويُنهى أنه لمّا عبر على هذه الرُّبا المعشِبة ، والغُدران التى كأنها صفائح فضة مذهبة ، ثم مرّ على قرية تعرف بوسيم ، تفترّ من شَنَب زهرها عن ثغر بَسيم ، استحسن مرآها ، ونظم فى معناها ، ما يعرِضه على الخاطر الكريم ، ليوقف الملوك توقيف عليم ، أو يتجاوز عن تقصيره تجاوز حليم :

لمصر فضلٌ باهرٌ لعيشها الرغد النَّضِرْ[2]
فى كلّ سفح يلتقِى ماء الحياة والخِضرْ

وكذلك :

ما مثل مصر فى زمانِ ربيعها لصفاء ماء واعْتِلال نسيم
أقسمتُ ما تحوى البلاد نظيرَها لمّا نظرتُ إلى جمال وَسِيم

وقال :

ما بين أكناف البطاحِ مسك يُذرّ على الرِّياحِ
من حيث يُلْفَى الرّوضُ فى أزهارها رَيّانَ ضاحى
والريح فى السَّحَر البهيـــم يطير مسكىَّ الجناح
تسرى فتَغْتَبِقُ الغصُو ن بها على عين الصَّبَاح
والنّيلُ فى تيّاره الـ منصبّ مهتزّ الصِّفَاحِ
وبه السّفائن كالجبا ل تجُول أمثالَ القِداحِ

(١) ط : « المغانى » . (٢) القريزى ٢ : ١٩٤

فركبتُ من صَهَواتِها دهماءَ ساكِنةَ الجماح[1]
حرّاقةً تجـري على اسـمِ الله فى المـاء القَراح
والأفْق مثلُ حَـديقةٍ خضراء مُزهِرة النواحِى
تحـكى المجرّة بينهـا نهرٌ تدفّق فى أقاحِ
واقتادت الجوزاء للّيـل البهيم إلى الرواحِ
فـكأنه زنجيّـةٌ جُذِبت بأطرافِ الوِشاحِ
وبدا الصباح كوجه أَلْـ جأَى المهلَّل لامتداحى

وقال :

وحـديقة غنّى الربا ب لها بتوقيـع السَّحابِ
فتمايلتْ حتى لقـد رقصتْ على صوت الرَّبابِ

وقال :

فى نيل مصرَ مراكبْ تحوى بدورَ المواكبْ
فـكم بهـا الفُلْكُ فى مجـ راه تسرِى الـكواكبْ

ابن عبد الظاهر :

روض به أشيـاء ليـستْ فى سواه تؤلَّفُ
فمن الهَزار تهـازُزٌ ومن القضيب تقصُّفُ
ومن النّسيم تلطُّفٌ ومن الغَـدِير تعطُّفُ

نور الدين علىّ بن سعد الغمارىّ الأندلسىّ :

كأنّما النهر صفحة كُتِبَتْ أسطرُها والنَّسيمُ منْشِئُها
لمّا أبانت عن حُسْنِ منظرِها مالتْ عليه الغصون تقرؤُها

---

(١) ح : « الجناح ».

الصّلاح الصفدىّ :

قالَ خِلٌّ : باللهِ صِفْ أرضَ مصرٍ ... وفّ كتّانها بوصف محقّقْ

قلت : أرضٌ بالنيل يُرْوَى ثراها ... فلهذا الكتّان نَوْرٌ أزْرَقْ

وقال :

لِمْ لا أهيمُ بمصرٍ ... وأرتضيها وأعشَقْ[1]

ولَمْ ترَ العينُ أحلَى ... من مائها إن تملَّقْ

ابن الواسطىّ :

كأنما السُّفن بأرجائها ... وهى على الماء جَرِيّاتِ

عقاربٌ فى رفع أذنابها ... تسرى على أبْطُنِ حيّاتِ

ابن الساعاتى :

ولقد ركبتُ البحر وهو كحِلْيَةٍ ... والموجُ تحسبه جيادا تركضُ

وكأنما سُلَّت به أمواجُه ... بيضاء تُذْهَب تارة وتُفضَّضُ

كلٌّ يصحّ إذا تصحّ حيأتُهُ ... إلاّ النسيم يصحُّ ساعة يَمْرَضُ

مجير الدين بن تميم :

ياحُسنَه من جدولٍ متدفّقٍ ... يُلْهِى برونق حسنه مَن أبصرا

مازلتُ أنذِرُه عيوناً حَوْله ... خوفا عليه أن يصابَ فيعثرا

فأبَى وزاد تمادياً فى جَرْيِهِ ... حتى هَوَى من شاهقٍ فتكسّرا

وقال :

وحديقة مالتْ بعا ... طف دَوْحها من غير سُكْرِ

والنهر ساجٍ قد غدا ... بسعادة الأغصانِ يجرِى

(١) حلبة الكميت ٢٦٢

وقال :

لِمْ لا أهيمُ إلى الرياض وحسنِها ... وأظلُّ منهـا تحت ظلٍّ وافِ

والرّوض حيّانى بثغرٍ باسمٍ ... والمـاء يلقانى بقلبٍ صافِ

وقال :

ونهرٍ خالف الأهواء حتى ... غدت طوعاً له فى كلّ أمرِ

إذا سرقت حُلَى الأغصان ألقت ... إليه بهـا فيأخذُها ويجرى

وقال :

تأمّلْ إلى الدُّولاب والنّهْر إذْ جرى ... ودمعُهما بين الرّياض غديرُ

كأنّ نسيم الرّوْض قد ضاع منْهما ... فأصبحَ ذا يجـرى وذاك يدورُ

ناصر الدين بن النقيب :

وروضةٍ توَسْوَسَ الغصنُ بهـا ... لمّا هدى فيها النسيم الشّمالُ

قد جُنَّ فى أرجائها جَدْولهَا ... فهو على وجه الثّرَى سلسال

آخر :

وحديقةٍ با كرتُها مطلولةً ... والشمسُ ترشُف رِيقَ أزهار الرُّبا

يتـكسّر الماء الزُّلالُ على الحصا ... فإذا أتى نحوَ الرياض تشعّبا

آخر :

مياهٌ بوجهِ الأرض تجرى كأنها ... صفائح تبر قد سُبِـكْنَ جداولاَ

كأنّ بها من شدّة الجرى جِنّـةً ... وقد ألبستْهنّ الرياح سلاسِلا

ابن قزل :

كأنما النّهر إذْ مرّ النّسيمُ به ... والغيم يهمى وضوءُ البرق حين بَدا

رشقُ السهام ولَمْعُ البيضِ يومَ وغًى ... خاف الغدير سطاها فا كتسى زَرَدَا

آخر :

يا حُسْن وجهِ النّهر حين بَدَا . والسُّحْب تهطِل فَوْقه هَطْلا
فكأنَّه دِرْعٌ وقد ملأتْ أيدِى الكماة عيونَه نَبْلاَ

الغَزِىّ :

فى روضةٍ قَرَن النّهار نجومَها بسنا ذُكاءَ فَزَادهُنّ توقُّدا
وانجرّ فوق غديرها ذيل الصَّبا سَحَراً فأصبحت الصفيحة مِبْرَدا

تاج الدين مظفر الذهبىّ :

وجدول خُطَّ فيه سطر بكفّ القبولِ
بدا عليه ارتعاشٌ كذاك خطّ القليل[1]

الشهاب محمود :

والسَّرْو مثلُ عرائسٍ لُفَّت عليهن المُلاء
شمّرن فضل الأُزْر عن سُوقٍ خلاخلهنّ ماء
والنّهر كالمرآة تبصر وجهَها فيه السّماء

قاضى القضاة مجير الدين بن العديم :

كأنّما[2] النّهر وقد حُفّتْ به أشجارُه فصافحتْه الأغصُنُ
مرآة غيد قد وقَفْنَ حَوْلَهَا ينظرن فيها : أيّهنّ أحسَنُ !

آخر :

شجرات الخريف تكثر من غير سؤالٍ إلى الرياح نشاطَا
تتعرّى مِن لُبسها وهو تِبْرٌ ثم تلقيه للنديم بساطا

آخر :

انظر إلى الرّوض النضير لحسنه للعين قرّهْ

---

(١) ح : « حظ » .
(٢) ح ، ط : « كأنها » تحريف .

فكأن خضرته السَّماَ ء ونهرُه فيه المجرَّةْ

ابنَ وكيع :

غدير يُجعّد أمواهَه هبوبُ الرياح ِ وَمرُّ الصَّبا
إذا الشمس من فوقه أشرقت توهمتَه جوْشَناً مذهبا

سيف الدين علىّ بن قزل :

فى يوم غيم من لذاذة جَوِّهِ غَنّى الحمام وطابت الأنداء
والرّوضُ بين تكبُّرٍ وتواضعٍ شمخ القَضيبُ به وَخرَّ الماء

آخر :

أيا حُسنَها من روضةٍ ضاع نَشْرُها فنادتْ عليه فى الرِّياض طيورُ
ودُولابها أضحى تُعَدُّ ضلوعُه لكثرة ما يبكى بها ويدورُ

سعد الدين بن شيخ الصوفيّة محيي الدين بن عربىّ :

شاهدت دُولاباً له أدمعٌ تكلّفت الروْض بالرِّىّ
فاعجبْ له من فلكٍ دائرٍ ما فيه برج غير مائىّ

آخر :

وناعورة فارقتْ بواكِىَ من جِنسِها
تدورُ على قلبها وتبكِى على نفْسِها

وجيه الدين المناوىّ :

فوّارة تُحسَب مِن حسنِها سبيكة من فضة خالِصَهْ
تُلهيك بالحسن فقد أصبحتْ جاريةً مُلْهيةً راقصَهْ

الصلاح الصفدىّ :

النّهر مولًى والنسيم خَدِيمُه هذا كلام لست فيه أشكّكُ

لو لم يكنْ فى خدمَةِ النهر انبرَى ما كان يصقُل ثوبه ويفرِّكُ

وقال :

لمّـا زها زهر الربيـع بروضةٍ وغَدَا له الفضلُ المبين عَلَيْـهِ
قام الحبـــام له خطيبا بالثّنا وجَرَى الغــدير نخرّ بين يديه

مجير الدين بن تميم :

تـكسّر الماء لمّا أن جرى فغدا الـــدُّولاب ينذُبه شجواً و يَبْـكِيهِ
وأصبح الغصن بالأوراق ملتطماً والوُرْق فوق كراسِي الدَّوْح ترثيه

وقال :

والنهرُ مُذْعلِقَ الغصونَ محبَّةً أضحت تُطيل صدودَه وجفـــاه
فتراه يجرى لاثمـاً أقدامَهــــــا وخريرُه شكوَى الّذى يلقَاهُ

وقال :

بعث الربيـع رسالةً بقـــدومِه للرّوض ، فهو بقُرْبه فرحانُ
ولطيب ما قرأ الهَزار بشدوِه مضمونَها مالت له الأغصانُ

شمس الدين بن التّلِمسانىّ :

كأنمـــــا البرق خلال السّما من فوق غَيْمٍ ليس بالـكابى
طِرَازُ تِبرٍ فى قَبًا أزرقٍ من تحته فَرْوَةُ سِنْجابِ .

وقال :

فَصْل الشتا مَنَح النَّواظر نضرةً لمّا كسا الألوانَ وهْى عَوارِ
لم يُلبِسِ الغبراء لِين مطارفٍ حتى كَسا الزرقاءَ بيضَ إزارِ

مجير الدين بن تميم :

ودولاب روضٍ كان من قبلُ أغصنا تميس فلمّا فرقتْها يد الدهرِ

تذكَّر عهداً بالرياض فكلُّه ... عيونٌ على أيامِ عصر الصِّبا تجرى

آخر :

وناعورةٍ قد ضاعفت بنُواحِها ... نُواحى وأجرتْ[1] مقلتىّ دموعُها

وقد ضعفت مما تئنّ وقد غدَتْ ... من الضعف والشكوى تُعَدّ ضلوعُها

نور الدين علىّ بن سعد الأندلسىّ :

لله دُولابٌ يفيض بسلسلٍ ... فى روضةٍ قد أينعت أفْنَانَا

قد طارحتْ فيه الحمام بشجوِها ... ونحيبِها فتَرَجّع الألحانَا

فكأنه دَنِفٌ يطوفُ بمعهدٍ ... يبكى ويسأل فيه عمَّنْ بَانَا

ضاقت مجَارِى طَرفِهِ عن دَمْعِهِ ... فتفتّحتْ أضلاعُه أجفانَا

ابن منير الطرابلسىّ فى ناعورة :

هى مثل الأفلاك شكلاً وفعلا ... قسمت قسم جاهل بالحقوقِ

بين عالٍ سامٍ يُنَكِّسه الحظّ ... ويعلو بساحل مرزوقِ

آخر :

النَّهر مكسوٌّ غُلالةَ فِضــةٍ ... فإذا جرى سيل فثوبُ نُضارِ

وإذا استقام رأيت صَفْحة مُنصلٍ ... وإذا استدار رأيتَ عِطْف سِوارِ

إبراهيم بن خفاجة الأندلسىّ :

النَّهْر قد رقّتْ غُلالة خَصْرِه ... وعليه من صِبْغ الأصيل طرازُ[2]

تترقرق الأمواج فيــه كأنَّها ... عُكَنُ الخصُور تهزُّها الأعجازُ

بعضهم :

إنّ هــذا الربيــع شىء عجيبٌ ... تضحك الأرض من بكاءِ السماء

---

(١) ط : « وأحرق » .   (٢) نهاية الأرب ١ : ٢٨٣ ، ونسبه إلى أبى مروان بن أبى الخصال

ذهبٌ حيثما ذهبنـــا ودرٌّ   حيثُ درْنا وفضّة في الفضاء

ابن قَلاقس :

كأنمـــا الرّعد والسَّحاب وقَدْ   حَلاّ سويًّا والبرق قد لاحَا

ثلاثة من عدوِّهِمْ نفروا   وقد غدا نحوَهم وقد رَاحَا

فسلَّ ذا سيفَـــه ، وبكَى هـ   ـذا ، وهـذا من خِيفةٍ صاحَا

ذكر الرياحين والأزهار الموجودة فى البلاد المصرية
وما ورد فيها من الآثار النبوية والأشعار
الأدبية والإشارات الصوفية

ماورد فى الفاغية

وهى نَوْر الحنّاء .

أخرج البيهقىّ فى شعب الإيمان عن بريدة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سيّد الرياحين فى الدنيا والآخرة الفاغِية » .

وأخرج البيهقىّ عن أنس ، قال : كان أحبَّ الرياحين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاغية .

* * *

ماورد فى الورد

رويت فيه أحاديث كلها موضوعة ، منها حديث علىّ مرفوعا : « لَمَّا أسرِىَ بى إلى السماء ، سقط إلى الأرض من عرَقى ، فنبت منه الورد ، فمن أحبَّ أن يَشَمّ رائحتى فليشَمّ الورد » . أخرجه ابن عدىّ فى كامله .

وحديث أنس مرفوعا : «الورد الأبيض خُلِق من عرَقى ليلة المعراج ، وخلق الورد الأحمر من عرق جبريل ، وخلق الورد الأصفر من عرق البراق » ، أخرجه ابن فارس فى كتاب الريحان .

والحديثان أوردهما ابن الجوزىّ فى الموضوعات ، ونص على وضع الثانى أيضا الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر .

(حسن المحاضرة ٢/٢٦)

قال صاحب مباهج الفكر : كان الخليفة المتوكّل قد حمَى الوردَ ، ومنعه من الناس كما حمى النعمان بن المنذر الشَّقِيق واستبدّ به ، وقال : لا يصلح للعامّة ، فكان لا يُرى إلا فى مجلسه . وكان يقول : أنا ملك السلاطين ، والورد ملك الرياحين ، وكلٌّ منّا أوْلَى بصاحبه . وإلى هذا أشار ابن سُكّرة بقوله :

للورد عندى مَحَلٌّ لأنَّهُ لا يُمَلُّ
كلٌّ الرياحين جُنْدٌ وهْو الأمير الأجلُّ
إن جاء عَزُّوا وتاهوا حتى إذا غاب ذَلُّوا

قال ابن البيطار فى مفرداته : الورد أصناف : أحمر ، وأبيض ، وأصفر ، وأسود . زاد غيره : وأزرق .

وحكى صاحب كتاب نشوار المحاضرة ، أنه رأى وردا أسودَ حالك السواد ، له رائحة ذكية ، وأنه رأى بالبَصْرة وردة نصفها أحمر قانئ الحمرة ، ونصفها الآخر أبيض ناصع البياض ، والورقة التى وقع الخطّ فيها كأنها مقسومة بقلَم (١) .

قال صاحب مباهج الفكر : رأينا بثغر الإسكندرية الورد الأصفر كثيرا، وعَدَدْت ورق وردة ، فكانت ألف ورقة .

قال : وحكى لى بعضُ الأصحاب أنه رأى بحلَب ورقة لها وجهان : أحدهما أحمر والآخر أصفر .

قال : وحكى بعض الأصحاب أنّه رأى آبارا تجرى إلى شجر الورد ماء مخلوطا بالنيل ، فسأله فقال : إن الورد يكون أزرق بهذا العمل .

قال صاحب المباهج : والظاهر من الورد الأسود ، أنه احتِيل عليه كذلك . وقال

---

(١) نقله صاحب نهاية الأرب ١١ : ١٨٥ ، وبعده : « وفيه ماله وجهان : أحمر وأبيض ، ويقال إنه ربما وجد ورد أحد وجهى الورقة منه أحمر قانئ ، والآخر أصفر » .

الحافظ الذهبيّ فى الميزان : روى قريش عن أنس عن كليب بن وائل ـ وكليب نكرة لا يعرف ـ أنه رأى بالهند ورقا فى الوردة مكتوب فيه « محمد رسول الله » .

وروى ابن العديم فى تاريخه بسنده إلى علىّ بن عبد الله الهاشمى الرّقىّ ، قال : دخلت الهند ، فرأيت فى بعض قراها وردةً كبيرة طيّبة الرائحة ، سوداء، عليها مكتوب بخط أبيض« لا إله إلا الله محمد رسول الله، أبو بكر الصديق ، عمر الفاروق» . فشككت فى ذلك ، وقُلت : إنه معمول ، فعمدت إلى وردة لم تفتح ، ففتحتُها ، فكان فيها مثل ذلك ، وفى البلد منه شىء كثير ، وأهل تلك القرية يعبدون الحجارة ، لا يعرفون الله عز وجل .

ويقال : ورد جُور ، ونَرْجس جرجان ، ونَيلوفَر شَرْوان ، ومنثور بغداد ، وزعفران قُمّ ، وشاهِسْبَرم سمرقند[1] .

قال أبو العلاء صاعد الأندلسىّ فى باكورة وَرْد :

ودونك ياسيّدى وردةً يذكّرك المسكُ أنفاسَها
كعذراء أبصرها مبصرٌ فغطّت بأكمامها راسَها

آخر :

وردةٌ تحكى أمام الوردِ طليعة سابقة للجندِ
قد ضمها فى الغصن قرُّ البرد ضَمّ فمٍ لقبلةٍ مِنْ بُعْدِ

أبو عبادة البحترىّ :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلّما[2]
وقد نبّه النَّوْروزُ فى غَسَق الدُّجَى أوائل وَرْدٍ كنّ بالأمس نوّما[3]

---

(١) الشاهسبرم : الريحان . (٢) ديوانه ٢ : ٢٣٤ ، نهاية الأرب ١١ : ١٨٩ .

(٣) النوروز والنيروز ـ والثانى أشهر ـ أول يوم من السنة الشمسية ، وعند الفرس يوم نزول الشمس أول الحمل .

يُفَتِّحه بَرْدُ النَّـــدى فـكأنَّما   يبثُّ حديثا بينهنّ مكتّما

محمد بن عبد الله بن طاهر :

أما ترى شجرات الورد مظهرةً   لنا بدائعَ قد رُكِّبْنَ فى قَصَبِ [(١)]

كأنهنّ يواقيتٌ يُطيفُ بهـــا   زَبَرْجَدٌ وسْطه شَذْرٌ من الذهبِ

يقال إنه نظم هـذين البيتين من قول أزدشير بن بابك ، وقد وصف الورد : هو دُرٌّ أبيض ، وياقوت أحمر ، على كراسىّ زَبَرْجد أخضر ، بوسطه شَذْرٌ من ذهب أصفر .

الناشى :

قُضُب الزبرجَدِ قد حملن عقائقا   أثمارهنّ قراضة العِقْيانِ [(٢)]

وكأنّ دَمْع القَطْر فى أهدابه [(٣)]   دمع مَرَتْه [(٤)] فواترُ الأجفانِ

محمد بن عبد الله بن طاهر :

مَداهِنٌ من يواقيتٍ مركبةٌ   على الزَّبرجَد فى أجوافها ذهبُ [(٥)]

كأنه حين يبدو من مطالِعِه   صَبٌّ يُقَبِّل حِبًّا وهْو يرتقبُ

خاف الملال إذا طالت إقامته   فظلّ يَظْهر أحيانا ويحتجِبُ

أبو طالب الرَّقّى :

ووردةٍ من نبات مِعْطارِ   حَيّتْ بها فى لطيف أسرارِ [(٦)]

كأنهـــا وجنة الحبيب وقد   نقّطهـــا عاشقٌ بدينارِ

(١) نهاية الأرب ١١ : ١٨٩ .

(٢) نهاية الأرب ١١ : ١٨٩ ، وفيه : « حملن شقاشقا » . (٣) نهاية الأرب : « وكأن قطر الطل » .

(٤) ط ، ح : « فرته » ، والصواب ما أثبته من نهاية الأرب والأصل .

(٥) نهاية الأرب ١١ : ١٨٩ ، وقبل هذا البيت :

أما ترى الوردَ يدعو للورود إلى   خمرٍ معتّقةٍ فى لونهـــا صَهَبُ

(٦) ط : « حب بها » ؟

العِماد الأصبهانى :

قلت للوردِ ما لشوكك يُدمِى كلَّ ماقد سَعَرْتَ منه جِراحى[١]
قال لى : هــذه الرّياحين جندى أنا سلطانها وشوكى سلاحى

فى الورد الأصفر لبعضهم :

رَعَى الله وردا غــدا أصفرا بهيا نضيرا يحاكى النُّضَارَا[٢]
وأسقى غصونا به أثمرتْ وحمّلنَ منـــه شموساً صِغَارا

المؤيد الطغرائى :

شجرات ورد أصفر تخذتْ فى قلب كلِّ متيّم طربا[٣]
سَبَكتْ يدُ الغيم اللُّجينَ لهــا فكسته صِبْغا مونقاً عَجَبا
مَنْ ذا رأى من قبلِهِ شجراً سُقِىَ اللّجينَ فأثمر الذهبا[٤]

وقال :

ألم ترَ أنّ جند الورد وافَى بصُفْرٍ من مطارده وخُضْرِ
أتَى مستلئمًا بالشّوك فيــه نصالَ زمرّد وتراسَ تِبْرِ

فى الورد الأزرق من وصفِ بستان لبعضهم :

وبه وارد من الورد قد أيْــنَع فى رِقّةِ الهواءِ اللطيفِ[٥]

---

(١) نهاية الأرب ١١ : ١٩٠ . (٢) نهاية الأرب ١١ : ١٩٤ .
(٣) نهاية الأرب ١١ : ١٩٤ ، وفيه: « بعثت » .
(٤) بعده فى نهاية الأرب :

خَرَطَتْ نهودَ زبرجدٍ حملتْ أجوافُهَا من عسجدٍ لُعَبا
فإذا الصَّبَا فتقتْ كمائمهــا سَحَراً، ومادَ الغصنُ وانتصَبَا
شبَّهْتُهَا بخريدةٍ طرحَتْ فى الخصْرِ من أثوَابِهَا لَهَبَا

(٥) نهاية الأرب ١١ : ١٩٥ .

شبهوّه بدمعة العاشق الآ ‌لِف نالته جفوة من أليفِ
فهو يحكيه زرقة ومثالُ الـــقُرْصِ لونًا فى خدّ ظبىٍ تَرِيفِ[(١)]
وَرَقٌ أزرقٌ كزُرْقِ يواقيـــتٍ تطلّعن من لَجُيْنٍ مَشُوفِ[(٢)]

فى الورد الأبيض للسرىّ الرّفاء :

وروضٍ كساه الغيث إذْ جاد دمعه مجاسد وشى من بهارٍ ومنثورِ[(٣)]
بدا أبيض الورد الجنىّ كأنما تنسّم للناشى بمسك وكافورِ[(٤)]
كأنّ اصفرارًا منه تحت ابيضاضِه بُرادة تِبْر فى مَدَاهِنِ بَلّورِ

فى الورد الأسود لأبى أحمد الطرارىّ :

لله أسود وردٍ ظلّ يلحظُنَا من الرّياض بأحداقِ اليعافِيرِ[(٥)]
كأنهّا وجنات الزنج نقّطها كفّ الإمام بأنصاف الدنانيرِ

آخر :

وورد أسودٍ خلناه لمّا تنشق نَشْرُه ملاك الزمانِ[(٦)]
مَدَاهنُ عنبرٍ غضّ وفيها بقايا من سَحِيق الزعفرانِ

علىّ بن الرومىّ يهجو الورد :

يا مادح الورد لا ينفكُّ من غَلَطِهْ ألستَ تنظره فى كفّ ملْتَقِطه[(٧)] ؟
كأنه سُرْمُ بغل حين يبرزه عِنْدَ البرازِ ، وباقى الرَّوث فى وَسَطِهْ

قال ابن المعتزّ يردّ عليه :

---

(١) فى الأصول : «يزلف» ، وما أثبته من نهاية الأرب . والتريف : المترف المتنعم .
(٢) المشوف : المجلو .
(٣) نهاية الأرب ١١ : ١٩٣ .
(٤) فى الأصول : «تبسم» وما أثبته من نهاية الأرب والناشى: اسم فاعل من قولهم : « نشيت منه ريحاطيبة»
(٥) نهايةالأرب ١١ : ١٩٥ ، ونسبها إلى مؤيد الدين الطغرائى، واليعافير : الظباء التى بلون العفر وهو التراب.
(٦) نهاية الأرب ١١ : ١٩٦ . (٧) نهايه الأرب ١١ : ١٩٢ .

يا هاجيَ الورد لاحُيِّيتَ من رجلٍ   غلطت، والمرء قد يؤتَى على غَلَطِهْ

هل تنبت الأرض شيئا من أزاهرها   إذا تحلّت يحاكى الوشى مِنْ نمطِهْ

أحلى وأشهر من وردٍ له أرجٌ   كأنما المسك مذرورٌ على وَسَطِهْ:

علىّ بن الرومىّ يفضل النرجس على الورد :

أيّها المحتجّ للور   د بزورٍ ومُحَالِ

ذهب النَّرجس بالفضل فأنصفْ فى المَقَال

لا تقاس الأعينُ النُّجْـــلُ بأسْرَامِ البغالِ

أبو هلال العسكرىّ يردّ عليه :

أفضّل الوردَ على النَّرْجِسِ   لا أجعل الأنجم كالأشْمُسِ[1]

ليس الذى يقعد فى مجلسٍ   مثلَ الذّى يَمْثُل فى مَجلسِ

علىّ بن سعيد المؤرخ :

مَن فضّل النرجس فهو الذى   يرضَى بحكم الورد إذ يرأسُ

أما ترى الورد غدًا قاعدًا   وقام فى خدمتِه النَّرجس

والناس يشبّهون عدم دوام الورد بقلة بقاء الودّ، ولهذا كتب أبو دلف إلى عبد الله ابن طاهر يعاتبه :

أرى حُبَّــكُمْ كالورد ليس بدائمٍ   ولا خير فِيمَنْ لا يدوم له عهدُ[2]

ووُدّى لـكم كالآس حسنًا ونُضْرة   له زهرة تبقى إذا فنىَ الوردُ

فأجابه عبد الله بن طاهر :

وشبهّت ودِّى الورد وهو شبيهُهُ   وهل زهرة إلاّ وسيّدُها الورد

ووُدُّكَ كالآسِ المرير مذاقه   وليس له فى القلب قبلٌ ولا بعدُ

---

(١) نهاية الأرب ١١ : ١٩٢ .   (٢) نهاية الأرب ١١ : ١٩٢ ، ١٩٣ .

واعتذر ديك الجن عن قلة لبث الورد فقال :

الورد حسن وإشراق إذا نظرت إليه عين محبٍّ هاجه الطَّربُ
خاف المَلالَ إذا دامت إقامتُه فصار يَظْهر حينًا ثم يحتجِبُ

ما ورد فى النرجس

روى فيــه حديث موضوع ، أخرجه الديلمىّ فى مسند الفردوس ، وابن الجوزىّ فى الموضوعات بسند مسلسل بالقضاة عن علىّ مرفوعا : «شمّوا النرّجس ولو فى اليوم مرة ، ولو فى الشهر مرة ، ولو السنة مرة ، ولو فى الدهر مرة ، فإنّ فى القلب حبّة من الجنون والجذام والبرص لا يقطعها إلّا شم النرجس» .

قال بُقراط : كلّ شىء يغذو الجسم والنّرجس يغذو العقل .

وقال جالينوس : مَنْ كان له رغيف فليجعل نصفَه فى النرجس ، فإنه راعى الدماغ ، والدماغ راعى العقل .

وقال الحسن بن سهل : من أدْمَن شمّ النّرجس فى الشتاء أمِن البِرسام فى الصيف .

وقال بعض الأدباء : النرجس نزهة الطَّرْف ، وطرف الظرف ، وغذاء الروح ، ومادة الروح. وكان كسرى أنو شروان مغرَمًا بالنَّرجس ، ويقول : هو ياقوت أصفر بين درّ أبيض على زمرّد أخضر .

وقال: إنى لأستحِى أن أباضِـع فى مجلسٍ فيه النّرجس لأنه أشبه شىء بالعيون الناظرة .

وقال الشاعر :

فإذا قضيت لنا بعين مراقبٍ فى الحبّ فَلْيَكُ مِن عُيون النَّرْجسِ

أبو نواس :

لدى نرجس غضِّ القطاف كأنّهُ إذا مَا منحناه العيونَ عيونُ[١]

(١) نهاية الأرب ١١ : ٢٣٠ .

مخالفةٌ فى شكلهنَّ فصفرة[1] مكان سوادٍ والبياضُ جفون

ابن المعتز :

كأن عيونَ النرجس الغَضّ بيننا مَداهِنُ تِبْرٍ حَشْوهنّ عَقيقُ

إذا بلّهنّ القَطْرُ خِلْتَ دموعَها بكاء جفونٍ كُحْلُهن خَلوقُ

كُشاجم :

كأنما نرجسنا وقَدْ تبدّى من كَثَبِ[2]

أناملٌ من فضّةٍ يحمِلن كأساً من ذهب

الصّنوبرىّ :

أضعفَ قلبى النرجسُ المضعف ولا عجيبٌ إن صَبَا مُدْنَف

كأنه بين رياحيننا أعشار آيٍ ضمّها مُصْحَفُ

ابن مكنسة :

ونرجسٍ إلى حدا ئق الرّبا مُحْدِّقِ[3]

كأنما صُفْرَتُه على بياضٍ يقَقِ

أعشار جزء أُذْهِبت فى ورَق من ورِق

أبو بكر بن حازم :

ونرجسٍ ككُئُوس التِّبْر لائحةٍ من الزَّبَرْجد قد قامت بها ساقُ[4]

كأنها من عيونٍ هدبُها وَرِقٌ لهنّ من خالص العِقْيان أحداقُ

آخر :

وأحسن ما فِى الوجوه العيو ن وأشبه شىء بها النَّرجِسُ[5]

---

(١) نهاية الأرب : « بصفرة » . (٢) نهاية الأرب ١١ : ٢٣٠ .

(٣) نهاية الأرب ١١ : ٢٣١ . (٤) نهاية الأرب ١١ : ٢٣١ .

(٥) نهاية الأرب ١١ : ٢٣٥ ، ونسبه إلى ابن الرومى .

يظلّ يلاحظ وَجْه النّدِيـ م فرداً وحيداً فيستأنسُ

الصَّنوبرىّ :

وعندنا نرجس أنيق تَحْيا بأنفاسه النفوسُ
كأن أجفانه بدورٌ كأنّ أحداقه شموسُ

وقال :

أرأيت أحسن من عُيون النرجس أو مِنْ تلاحُظهنّ وسْط المجلسِ[1]
دُرّ تشقّق عن يواقيتٍ عَلَى قُضُب الزبرجد فوق بُسْطِ السندسِ

ابن الرومىّ :

ونرجسٍ كالثغور مبتسمٍ له دموعُ الحدقِ الشاكِى[2]
أبكاه قَطْرُ الندى وأضحكه فهو مع القَطْر ضاحكٌ باكِى

وقال :

انظر إلى نرجس فى روضة أُنُفٍ غنّاء قد جمعت شتّى من الزّهَرِ[3]
كأنّ ياقوتةً صفراء قد طُبِعَتْ فى غُصْنِها حولها ستٌّ من الدرر

آخر :

أبصرت باقة نرجس فى كف من أهواه غضّه[4]
فكأنها قضب الزَّبَرْ جَدِ قُمِّعت ذهباً وفضهْ

ومن رسالة لضياء الدين الأثير يصف منتزها : جاء فيها فى وصف النرجس :

---

(١) نهاية الأرب ١١ : ٢٣١ (٢) نهاية الأرب ١١ : ٢٣٢ ، ونسبه إلى ابن الرومى .
(٣) نهاية الأرب ١١ : ٢٣٢ ، ونسبه إلى شاعر أندلسى .
(٤) نهاية الأرب ١١ : ٢٣٢ ، وفى الحاشية : « فى مباهج الفكر : طاقة » وهو الصواب ، فإن الباقة الحزمة من البقل . أما الطاقة فهى من الريحان .

فمن جانى نرجسٍ يقول : هـذا صاحب القدّ المائس ، والذى عينه عين متيقظ وجيده جِيد ناعس ،وهو بِكْر الربيع والبِكْر أكرم الأولاد على الوالد ، وقد جُعل ذا لونين اثنين ؛ إذ لم يحظَ غيره إلا بلون واحد .

ماورد فى البنفسج

فيه أحاديث ذكرها ابن الجوزىّ فى الموضوعات ، منها حديث أبى سعيد مرفوعا : « فضْل دهْن البنفسج على سائر الأدهان ، كفضلى على سائر الخلق ، بارد فى الصيف حارٌّ فى الشتاء» . أخرجه ابن حبّان فى تاريخ الضعفاء والحاكم فى تاريخ نيسابور والديلمىّ فى مسند الفردوس . وورد أيضا بهـذا اللفظ من حديث أبى هريرة وأنس أخرجهما الخطيب البغـدادىّ ، ومن حديث علىّ أخرجـه ابنُ الجوزىّ وقال فى الأربعـة : إنها موضوعة .

وأخرج أبو نعيم فى الحلية من حديث الحسين بن علىٍّ مرفوعا :« فضل دُهْن البنفسج على سائر الأدهان ، كفضل ولد عبد المطلب على سائر قريش ، وفضل البنفسج كفضل الإسلام على سائر الأديان» . قال أبو نعيم : هذا حديث غريب من حديث جعفر بن محمد ، لم نكتبه إلا بهذا الإسناد عن هذا الشيخ، أفادنا إياه الدارقطنى، وأخرجه ابن الجوزىّ فى فى الموضوعات أيضا .

قال ابن وحشيّة : البنفسج نوعان : جبلىّ وبستانىّ ، والجبلىّ دقيق الورق ، أزرق اللون ، والبستانىّ عريض الورق حائك اللون ، ويوجد فيه الأبيض على لون الشمع ، ولا يوجد إلّا بمصر ، ويسمّى الكوفىّ . ومن عجيب أمره أنّ الإنسان إذا تغوّط فى مجارى الماء إليه مات وذبل ، وكذا إن خرج منه ريح فى مزرعته ، وأنه إذا دام عليه الضباب يوما أو نحوه ضعُف ، ومتى توالى نقصت زهرتُه ، وصغر ورقه ، وتغيّرت

رائحته ؛ ومن الأشياء المضادّة له القصب ، فإنه لا يكاد يفلح بقربه ولا ينمى ، وإن وقعت صاعقة على أربعمائة ذراع منه فأقل هلك سريعا . ويفسده أيضا البرْد والرّعد الشديد المتتابع والسموم وريح الشمال الباردة والمطر الكثير وماء الآبار والدخان وتراب المقبرة .

ومن رسالة لأبى العلاء عطارد بن يعقوب[1] الخوارزمىّ يصف بنفسجة : سماويّة اللباس ، مسكيّة الأنفاس ، واضعةٌ رأسها على ركبتها كعاشق مهجور ، تنطوى على قلب مسجور ، كبقايا النقش[2] فى بنان الكاعب ، أو النِّقس فى أصابع الكاتب ، أو الكحل فى الألحاظ الملاح ، المراض الصحاح ، الفاترات الفاتنات ، المحْييات القاتلات ، لا زوردية أربت بزرقتها على زرق اليواقيت ، كأوائل النار فى أطراف كبريت ، أو أثر القرص فى خدود العذارى .

* أو عذار خلعت فيه العذارا *

أبو القاسم بن هُذيل الأندلسىّ :

بنفسج جمعت أوراقُه فحكتْ ... كحلا تشرّب دمعا يوم تشتيتِ[3]

أو لازورديّة أوفَتْ بزرْقتها ... وَسْط الرياض على زرق اليواقيت

كأنه وضعاف القُضْبِ تحمله ... أوائل النار فى أطراف كبريت

آخر :

بنفسج بذكىّ الريح مخصوصُ ... مافى زمانك إذْ وافاك تنغيصُ[4]

كأنما شُعَل الكبريت منظرُه ... أوخدّ أغيدَ بالتخميش مقروص[5]

(١) نهاية الأرب ١١ : ٢٢٩ ، وفيه : « عطاء بن يوسف السندى » .
(٢) فى الأصول : « النفس » ، وصوابه من نهاية الأرب
(٣) نهاية الأب ١١ : ٢٢٦ ، قال : « ويروى لابن المعتز » . (٤) نهاية الأرب ١١ : ٢٢٧ .
(٥) فى الأصول : « التحميش » ، وصوابه من نهاية الأرب .

آخر :

ماس البنفسجُ فى أغصانه فحكى   زُرْق الفُصوص على بيض القراطيس[1]

كأنه وهبوبُ الريح تعطِفُـه   بين الحدائق أعرافَ الطواويس

آخر فى البنفسج الأبيض :

كأنّ البنفسج فيما حـكى   لطائف أخلاقك المُونِقَه[2]

يلوح ومن تحت طاقاته   فصوصٌ من الفضة المُخْرَقه

الأمير عبد الله الميكالىّ :

يا مهديًا لى بنفسجًا أرجـًا   يرتاحُ صدرى له وينشرحُ[3]

بشرنى عاجلا مصحَّفُه   بأن ضيق الأمور ينفسح

مجير الدين بن تميم الحموىّ :

عاينتُ وَرْد الرّوض يلطم خدَّه   ويقول وهو على البنفسج محنَقُ

لا تقربوه وإن تضوّع نَشْرُه   ما بينكم فهو العدوّ الأزرقُ

آخر :

بنفسج الرّوض تاه عجباً   وقال طيبى للجوّ ضمّخ

فأقبل الزهر فى احتفال   والبانُ من غيظه تنفّخ

ما قيل فى النّيلوفر

قال ابن التلميذ : النيلوفر اسم فارسىّ معناه النيلىّ الأجنحة والنيلىّ الأرياش[4] .

---

(١) نهاية الأرب ١١ : ٢٢٧ .

(٢) نهاية الأرب ١١ : ٢٢٨ .

(٣) نهاية الأرب ١١ : ٢٢٨ .

(٤) نهاية الأرب ١١ : ٢١٩ . وقال : وربما سمى بالفارسية اسما معناه كرنب الماء .

وقال ابن وحشية : الفرْس تسمّيه نينوفر والعرب نيلوفر والهنــد نيلوفك والنّبط نيلوفريا .

قال ابن التلميذ : ومن عاداته أن يحوّل وجهه إلى الشمس إذا طلعت ، فيزيد انفتاحُه بزيادة علوّ الشمس ، فإذا أخذت فى الهبوط ابتدأ ينضمّ على ذلك الترتيب ، حتى ينضمّ انضماما كاملا عند الغروب ، ويبقى مضموما الليــل كله ، فإذا طلعت أخذ فى انفتاح ، وهـــذا دأبه أبدا . قال : وهو نبــات قَمَرِىّ يزيد بزيادة القمر ، وينقص بنقصانه .

أبو بكر الزبيدى الأندلسىّ :

وبركةٍ تزهو بنَيْلُوفَرٍ نسيمُها يشبه رِيح الحبيبْ[1]
حتى إذا الليــلُ دنا وقته ومالت الشمس لوقت المغيبْ[2]
أطبق جفنيه على جَيْبه[3] وغاص فى البركة خوف الرقيبْ

آخر :

وبركة أحيا بهـــا ماؤُها من زهرها كلّ نبات عجيبْ[4]
كأن نَيْـلُوفَرَها عاشقٌ نهارَه يرقب وجه الحبيبْ
حتى إذا اللّيلُ بَدَا نجمُه وانصرف المحبوب خوف الرقيبْ
أطبق جفنيه عسى فى الكرى يُبصر مَنْ فارقه عن قريبْ

آخر :

يا حبذا بركة نَيْلُوفَرٍ قد جمعتْ من كلّ فنٍّ عجيبْ[5]

(١) نهاية الأرب ١١ : ٢٢٤ . (٢) نهاية الأرب :

مُفتّح الأجفانِ فى يومِهِ حَتّى إذا الشمس دنت للمغيبْ

(٣) نهاية الأرب : « حبه » . (٤) نهاية الأرب ١١ : ٢٢١ ، ونسبها إلى أبى بكر الزبيدى .
(٥) نهاية الأرب ١١ : ٢٢٢ ، ومطالع البدور ، ونسبه إلى ابن صابر .

أزرقٌ فى أحمرَ فى أبيضٍ كقَرْصَةٍ فى صَحْن خدّ الحبيبْ
كأنه يعشق شمس الضحى فانظره فى الصبح وعند المغيبْ
إذا تجلّت يتجلّى لهـا حتى إذا غاب سناها يغيبْ (١)

آخر :

كأنّنا باسط اليـدِ نحو نيلوفرٍ ندِي (٢)
كدبابيسِ عسجدٍ قُضْبُها من زبرجدِ

آخر :

انظر إلى بركة نيلوفرٍ محمَّرةِ الأوراق خضراءِ (٣)
كأنما أزهارها أخرجتْ ألسِنَة النّار من الماء

آخر :

ونيلوفرٍ صافحَتْه الريا حِ وعانقها الماءُ صفواً ورَنْقَا (٤)
وتحملُ أوراقُه فى الغديـ ـر ألسنةَ النّار حُمْراً وزرْقَا

آخر :

صفر المدارِى تضمّها شُرَفٌ مُفْتَضِحٌ عند نشرها العِطْرُ (٥)
تحملها خَيْزُرانة ذبلت ذبول صبّ أذابَهُ الهَجْرُ

---

(١) بعده فى نهاية الأرب :

يرنو إليها مبصرًا يومَهُ ولا يحاشى نظراتِ الرقيبْ
لا يبتغِى وجهًا سوى وَجهِهَا فِعْلَ محبٍّ مخلصٍ فى حبيبْ

(٢) نهاية الأرب ١١ : ٢٢٢ ، ومن غاب عنه المطرب للثعالبى ٣٧ ، ونسبه إلى أبى بكر الصنوبرى .
(٣) نهاية الأرب ١١ : ٢٢٢ ، ومطالع البدور ١ : ١١٢ ، ونسبه إلى ابن حمديس .
(٤) نهاية الأرب ١١ : ٢٢٣ ، وفى الأصول : « وريقا » ، وصوابه من نهاية الأرب .
(٥) نهاية الأرب ١١ : ٢٢٣ ، وفيها : « صفر الدرارى » .

كأنها إذ رأيت ألسنةً أنطقها للمهيمن الشكرْ
خناجرُ من حناجر نُزِعَتْ فهى على الماء من دم حمر

الطغرائى :

ونيلوفرٍ أعناقُه أبدا صُفْرُ كأنّ به سُكراً وليس به سُكْرُ[1]
إذا انفتحت أوراقه فكأنها وقد ظهرت ألوانها البيض والصفرُ
أنامل صبّاغٍ صُبغنَ بنيلةٍ وراحتها بيضاء فى وسطها تبرُ

ابن الرومىّ :

يرتاح للنَّيْلوفر القلب الّذى لا يستفيق من الغرام وجَهْدِهِ
والورد أصبح فى الروايح عبدَهُ والنّرجس المسكىّ خادم عبدِهِ
ياحسنَه فى بركة قد أصبحتْ محشوّة مسكاً يشاب بنَدِّه
مهجورِ حِبٍّ ظلّ يرفعُ رأسَه كالمستجير بربِّه من صدِّهِ[2]
وكأنه إذ غاب عند مسائه فى الماء فانحجبت نضارة قَدِّهِ
صبّ تَهدّده الحبيبُ بهجره ظلما فغرّق نفسه من وَجْدِهِ

الوجيه بن الذروىّ يهجو النيلوفر :

ونيلوفر أبدى لنا باطنا له مع الظاهر المخضرّ حمرة عَنْدَمِ
فشبّهته لمــا قصدت هجاءه بكاسات حَجّام بها لُوثة الدم

البشنين

قال فى مباهج العبر : وإذا مرّ النيل بمصر ينبت فى أماكن منخفضة ، قد وقف فيها الماء نباتاً يشبه النّيلوفر، ليست له رائحة ذكية ، يسمّى البَشْنين ، يتّخذ منه دهن وهو

---

(١) نهاية الأرب ١١ : ٢٢٤ .
(٢) نهاية الأرب : « ضده » .

نوعان نوع يسمى الحريرىّ ، يشبه الرّمان ، وتسميه أهل مصر الجُلجلان، والآخر يسمّونه الغزىّ ، وله أصل يسمى البيارون .

ما ورد فى الآس

أخرج ابن السّنىّ وأبو نُعيم ، كلاهما فى الطبّ النبوىّ عن ابن عباس ، قال : أهبِط آدم من الجنة بثلاثة أشياء : بالآسة ، وهى سيدة ريحان الدنيا ، وبالسّنبلة وهى سيدة طعام الدنيا ، وبالعَجْوة وهى سيدة ثمار الدنيا .

وأخرج ابن أبى حاتم فى تفسيره وابن السّنىّ عن ابن عباس قال : أول شىء غرَس نوح حين خرج من السفينة الآس .

وأخرج ابن السكن عن عائشة ، قالت : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُستاك بعود الآس وعود الرّمان ، فإنهما يحركان عِرْق الجُذام .

وأخرج ابن السّنىّ عن الأوزاعىّ، يرفع الحديث إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن التخلّل بالآس ، وقال : إنه يسقى عرْق الجذام .

قال فى مباهج العبر : اليونان تسمّى الآس مرسينا ، وتسميه العامة المرسين .

وقال ابن وحشيّة : الآس سيّد الرياحين، ويعظم حتى إنه يشجر ويثمر ثمراً قَدْر الحِمّص ، وهو ثلاثة أنواع : أخضر وهو المشهور ، وأصفر وهو مافسد من ورق الأول ، وأزرق ويسمى الُخسرُوانىّ ، وهو أن يخلط فى أصوله عند الزرْع ورق النيل، قال الأخيطل الأهوازىّ:

للآس فضلُ بقائه ووفائه ودوامُ منظره على الأوقاتِ [1]

---

(١) نهاية الأرب ١١ : ٢٤١ ، وفيه : «دوام نضرته» ، وبعده هناك :

الجوّ أغبَرُ وهو أخْضَرُ والثرى يَبْسٌ ويبدُو ناضر الورقاتِ

(حسن المحاضرة ٢٧ / ٢)

قامت على أغصانه (١) ورَقاتُه ‏ ‏ ‏ كنصول نَبْل جئن مؤتلفاتِ (٢)

آخر :

ومشمومةٍ مخضرّة اللون غَضَّةٍ ‏ ‏ ‏ حَوَتْ منظرا للناظرين أنيقا (٣)

إذا شَمَّها المعشوق خِلْتَ اخضرارَها ‏ ‏ ‏ ووجنتَـــه فيروزجاً وعقيقا

ابن وكيع :

خليليّ ما للآس يعبَق نشرُه ‏ ‏ ‏ إذا هبّ أنفاس الرياح العواطرِ (٤)

حكى لونه أصداغَ ريمٍ معذّرٍ ‏ ‏ ‏ وصورته آذان خيلٍ نوافرِ

ماورد فى الريحان ، وهو الحبق

روى فيه أحاديث موضوعة ، منهـا حديث ابن عباس مرفوعا : « نعم الريحان ينبت تحت العرش ، وماؤه شفاء للعين » أخرجه العُقيليّ ، وقال : باطل لا أصل له ، وابن الجوزىّ فى الموضوعات . وورد نحوه من حديث أنس أخرجه الخطيب البغدادىّ ، وقال : موضوع، وابن الجوزىّ أيضا .

وأخرج الخطيبُ فى تالى التّلخيص من حديث جابر بن عبد الله مرفوعا « المَرْزَنْجُوش مزروع حول العرش ، فإذا كان فى دارٍ لم يدخلها الشيطان » ، قال الخطيب : باطل .

قال ابن الجوزىّ : وروى بسند مجهول من حديث أنس مرفوعا : «إنّ فى الجنة بيتا سقفه من مَرْزَنْجُوش ».

قال فى مباهج العبر : العرب تطلق اسمَ الريحان على كلّ نبت له ريح طيبة .

---

(١) نهاية الأرب : « قضبانه » . ‏ ‏ (٢) نهاية الأرب : « جـدّ مؤتلفات .

(٣) نهاية الأرب ١١ : ٢٤٢ ، ونسبهما إلى أبى سعيد الأصفهانى .

(٤) نهاية الأرب ١١ : ٢٤٢ .

والحَبَق أنواع: منه الريحان النَّبَطِىّ ، وهو عريض الورق ، ويسمى البَاذَرُوج، وهو المعروف عند الناس المتخذ فى البساتين .

وحَبَق ترجانىّ ، وله رائحة كرائحة الأترجّ ، ويسمّى الباذْرنجبويه والباذْرَنبُويه ، واسمه بالفارسية مَرْماخُوز ، بالزاى المعجمة ، وهو دقيق الورق .

وحبق قَرَنفلىّ ، وله رائحة كرائحة القَرَنْفُل ، ويسمى الفَرَنْجَمَشْك بالفارسية .

وحَبَق صعترىّ، له رائحة كرائحة الصَّعْتر .

وحَبَق كرمانىّ ، ويسمى بالفارسية الشَّاهِسْفَرَم ومعناه ملِك الرياحين ، والعرب تسميه الضَّيْمَران والضَّوْمَرَان ، وهو دقيق الورق جدا ، يكاد أن يكون دون السداب .

وحبق الفَتى وهو المَرْزَنجوش ، والعرب تسميه العَبْقر ، ويقال إنه الثّمام .

وريحان الكافور ، ويسمى بالفارسية سَوْسن ، وشكله شكل المنثور وزهره وورقه يؤديان رائحة الكافور [1] .

قال السَّرى الرَّفّاء يصف حوض ريحان :

وبساط ريحانٍ كماء زبرجَدٍ عبِثَتْ به أيدِى النَّسيم فأرعِدَا[2]
يشتاقه القوم[3] الكرام فكلّما مَرِض النسيم سعوا إليه عوّدا[4]

أبو الفضل الميكالىّ:

أعددتُ محتفلا ليوم فراغى روضا غدا إنسان عين الباغ[5]
روضٌ يروضُ همومَ قلبى حسنُهُ فيه ليوم اللهو أىّ مساغ[6]

---

(١) انظر نهاية الأرب ١١ : ٢٤٧ — ٢٥٠ وحواشيه .
(٢) نهاية الأرب ١١ : ٢٥٢ . (٣) نهاية الأرب : « الشرب » .
(٤) نهاية الأرب : «سروا إليه» . (٥) نهاية الأرب ٢٥٢:١١ . والباغ: البستان فارسى معرب.
(٦) نهاية الأرب : « لكأس اللهو » .

وإذا انثنتْ قضبان ريحانٍ به   حيّتْ بمثل سلاسل الأصداغ

أبو القاسم الصّقلىّ :

أنا بالريحان مفتو   ن ، ولا مثل الحماحمْ
فتأمله تجــد عـذ   راً لصبّ القلْب هائمْ
غلمة الجند بخضر الـ   قمص فى حُمْر العمائم

الطغرائىّ :

مراضيعٌ من الريحان تُسْقَى   سقيطَ الطلِّ أو دَرّ العِهاد[1]
ملابسهنّ خضر مُشْبَعَاتٌ[2]   بأشكالٍ تميل إلى السواد
إذا ذَرّت عليهــا المسكَ ريحٌ   وجاد بفيضهنّ يدُ الغوادى
تخلّلهــا الرياح فسرّحتْها   صنيعَ المشط فى اللّمَمِ الجعاد[3]

ابن أفلح :

وحماحمٍ كأسنّـــة   فى كلّ معـترك قديمْ[4]
أو أنجم بزغت[5] لتُحْـــرق كلّ شيطان رجيمْ
أو مثل أعراف الديو   ك لدى مبارزة الخصومْ
أو كالشقيق تحرّشتْ   بفروعه أيدِى النّسيمْ
أو ثاكل صَبَغت ثيابا[6] من دمِ الخــدّ اللطيمْ

---

(١) نهاية الأرب ١١ : ٢٥٣ .   (٢) نهاية الأرب : « مشبعات » .
(٣) بعده فى نهاية الأرب :

جرَتْ دَهْنًا بِهَا وسَرَت عَليها   فطاب نسيمُها فى كلّ وادِ

(٤) نهاية الأرب ١١ : ٢٥٣ ، وفيه كل معترك قويم » .
(٥) نهاية الأرب : « نزعت » .   (٦) نهاية الأرب : « بنانا » .

ابن وكيع:

هـــذا الحماحِم زَهْرٌ فيـــه حياة النفوسِ
كأنه حين يبـــدُو بُرادة الآبنـــوسِ

آخر:

أما ترى الريحانَ أهدى لنا حماحِماً منـــه فأحيانا
تحسبه فى طلّه والنـــدى زمرّدا يحمل مَرْجانا

ابن وكيع فى الصعترىّ:

صعترىٌّ أرقُّ من أرجل النمـ ـل، وأذكى من نفحة الزعفرانِ[1]
كسطور كُسِينَ نَقْطاً وشكلاً من يدَىْ كاتب ظريف البنانِ

صاعد الأندلسىّ فى الريحان الترنجىّ:

لم أدرِ قبل تُرُنجانٍ مررتُ به أن الزمرّد أغصانٌ وأوراقُ[2]
من طيبه سرق الأُترجّ نكهتَه ياقومُ حتى من الأشجار سُرّاق!

آخر:

ذَكِىّ العَرْف مشكور الأيادى كريمٌ عَرْفه يُسْلِى الحزينا[3]
أغار على التُّرنج وقد حكاهُ وزادَ على اسمه ألفاً ونونا

ما قيل فى المنثور، وهو الخيرىّ

ابن وكيع:

انظر إلى المنثورِ فى مَيْدَانِهِ يدنُو الى النّاظر من حيثُ نظَرْ[4]

---

(١) نهاية الأرب ١١ : ٢٥٥ . (٢) نهاية الأرب ١١ : ٢٥٥ .
(٣) نهاية الأرب ١١ : ٢٥٥ ، وفيه : « كريم عرقه » بالقاف .
(٤) نهاية الأرب ١١ : ٢٧٢ .

كجوهرٍ مختلف لونُه أسْلَمَه[1] سلك نظام فانتثرْ

آخر :

انظُرْ إلى المنثور ما بيننا وقد كساه الطَّلُّ قمصانَا
كأنما صاغتْه أيدِى الحيا من أحمرِ الياقوت مَرْجانا[2]

ومن خواصّه أنه لا تعبق له رائحة إلا ليلًا ، وفيه يقول الشاعر :

ينمّ مع الإظلامِ طيبُ نسيمِهِ ويخفى مع الإصباح كالمتَستّرِ
كعاطرة ليلا لوعْدِ محبّها وكاتمة صبحًا نسيم التّعطر

ما قيل فى الياسمين

كتبَ ناصر الدين التّنيسىّ إلى النصير الحمامىّ ملغزا فيه :

يا مَنْ يحلّ اللغز فى ساعة كلمحةٍ من طرفة العينِ
ما اسمٌ إذا أنقصتَ مِنْ عَدِّه فى الخطّ حرفًا صار اسمْين

فأجابه نصير :

لعرض مولانا وأنفاسِه ألغزتُ لى حقًّا بلامينِ
اسم سداسىٌّ لطيفٌ به نحافة تَظْهَرُ للعينِ
لكنّه يغـدو سمينا إذا أسْقطْتَ من أولاه حَرْفيْنِ

أبو إسحاق الحصرىّ يصف الياسمين قبل انفتاحه :

خليلىّ هُبّا وانفُضَا عنكما الكَرَى وقوما إلى روضٍ ونشر عبيقِ[3]
فقد راح رأسُ الياسمينِ مُنَوِّرًا كأقراط دُرٍّ قُمِّعَتْ بعقيقِ

---

(١) ح ، ط : « أسله » . (٢) نهاية الأرب ١١ : ٢٧٢ .
(٣) نهاية الأرب ١١ : ٢٣٧ ، وفيه : « وكأس رحيق » .

يميلُ على ضَعْفِ الغصون كأنما . له حالتا ذى غَشْيَة ومفيق(١)
إذا الرِّيح أدنته إلى الأرض خِلْتَه نسيمَ جَنوبٍ ضُمِّخت بخَلُوقِ

آخر :

وروضةٍ نَوْرهَا يرفُّ مثل عروسٍ إذا تَزَفُّ(٢)
كأنما الياسمينُ فيها أناملٌ مالها أكفُّ

أبو بكر بن القوطية :

وأبيضَ ناصعٍ صافى الأديمِ يُطّلع فوق مخضرّ بهيمِ
كأنَّ نوّارَه الجنىَّ منه سماءٌ قد تحلّتْ بالنجوم

آخر :

كأنَّ الياسمينَ الغضَّ لما أدرْتُ عليه وَسْطَ الرّوضِ عَيْنِى(٣)
سماءٌ للزبرجد قد تبدّتْ لنا فيها نجومٌ من لُجين

المعتمد بن عباد :

كأنما ياسميننا الغضُّ كواكبٌ فى السماء تبيَضُّ(٤)
والطُّرق الحمرُ فى بواطنِه كخدِّ عذراء مسَّه عَضُّ

ابن عبد الظاهر :

وياسمين قد بدت أزهاره لمن يَصِفْ
كمثل ثوبٍ أخضرٍ عليه قطن قد نُدِفْ

آخر :

وياسمينٍ عبق النشرِ يُزرى بريح العنبر الشِّحْرى(٥)

---

(١) فى الأصول : « ونفيق » تحريف .
(٢) نهاية الأرب ١١ : ٢٣٧ .
(٣) نهاية الأرب ١١ : ٢٣٧ .
(٤) نهاية الأرب ١١ : ٢٣٧ .
(٥) نهاية الأرب ١١ : ٢٣٧ . والشحرىّ : نسبة إلى الشحر ، وهو صقع على ساحل الهند من ناحية اليمن .

يَلوح من فوق غصونٍ له كمثل أقراط من الدرِّ

ابن الحداد الأندلسيّ :

بعثتُ بالياسمين الغضّ مبتسماً وحسنه فاتنٌ للنفس والعينِ [1]

بعثته منبئاً عن صدق معتقَدى فانظر تجد لفظه يأسا من المينِ

وقال آخر :

لا مرحبًا بالياسمـــين وإن غدا فى الرَّوْض زَيْنَا [2]

صحفَّتُه فوجـــدتُه متقابلاً يأسا ومَيْنا

آخر :

وياسمينٍ إن تأمّلتَه حقيقةً أبصرتَه شَيْنًا [3]

لأنه يأسٌ ومَيْنٌ ومن أحبَّ قطّ اليأسَ والمينَا !

ما قيل فى النّسرين

قال ابن وحشية: الياسمين والنّسرين متقاربان حتى كأنّهما أخوان ، وكلّ واحد منهما نوعان : أبيض وأصفر ، ولهما شقيق آخر ورده أكبر من وردهما ، يسمى جلّنسرين ،

قال عبد الرزاق بن علىّ النحوىّ :

زان حُسْنَ الحدائق النَّسْرينُ فالحِجَا فى رياضه مفتون [4]

قد جرىَ فوقه اللّجَين وإلا فهْو من ماء فضةٍ مَدهونُ

أشبهتْه طُــلَى الحسان بياضاً وحوتْه شبه القدود غصون

آخر :

أكْرِمْ بنَسْرينٍ تُذيع الصَّبَا من نشره مسكا وكافورا [5]

(١) نهاية الأرب ١١ : ٢٣٩ .
(٢) نهاية الأرب ١١ : ٢٣٨ .
(٣) نهاية الأرب ١١ : ٢٣٨ .
(٤) نهاية الأب ١١ : ٢١٤ .
(٥) نهاية الأرب ١١ : ٢١٤ ، وفيه « يذيع الصبا » .

ما إن رأينا قطّ من قبله زَبَرْجَداً يُثمر بلّورَا

آخر:

انظرْ لنَسرينٍ يلو ح على قَضيب أملدِ[1]
كمَداهنٍ من فضةٍ فيها بُرادةُ عسجدِ
حَيّتك من أيدى الغصو ن بها أكفّ زبرجدِ

ما قيل فى الأقحوان

مجير الدين محمد بن تميم:

لا تمش فى روضٍ وفيه شقائقٌ أو أقحوانٌ غِبَّ كل غمامِ
إن اللّواحظ والخدود أُجِلُّها عن وطئها فى الرّوض بالأقدامِ

آخر:

كأن نَوْر الأَقَاحِى إذ لاح غِبَّ القطرِ
أناملٌ من لجين أكفُّها من تِبْرِ

علىّ بن عباد الإسكندرانىّ:

والأقحوانة تحكِى وهى ضاحكةٌ عن واضحٍ غيرِ ذى ظَلْمٍ ولاشَنَبِ[2]
كأنّها شمْسة من فِضّة حُرِسَتْ خَوْف الوقوع بمسْمار من الذهبِ

ظافر الحداد:

والأقحوانة تحكى ثغر غانيةٍ تبسّمت فيه من عُجْب ومن عَجَبِ[3]
فى القدّ والبَرْد والرّيق الشهىّ وطيـ ب الرّيح واللّون والتّفليج والشَّنَبِ
كشمسةٍ[4] من لجينٍ فى زبرجدةٍ قد شُرِّفت حول مسمارٍ من الذهب

(١) نهاية الأرب ١١ : ٢١٤ . (٢) نهاية الأرب ١١ : ٢٨٨ ، وفيه : « تجلى وهى ضاحكة » .
(٣) نهاية الأرب ١١ : ٢٨٩ . (٤) الشمسة : القطعة المدورة على هيئة الشمس .

الجمال عليّ بن ظافر المصريّ :

انظر فقد أبدى الأقاح مباسماً ضحكتْ تَهلُّلُ فى قُدُودِ زبرجدِ[1]
كفصوص درٍّ لُطِّفَتْ أجرامُها قد نُظِّمَتْ من حَوْلِ شمسةِ عسجد

آخر :

ظفرتْ يدى للأقحوان بزهرةٍ تاهت بها فى الروضة الأزهارُ[2]
أبدتْ ذراع زبرجدٍ وأناملاً من فضة فى كفّهَا دينارُ

ما قيل فى البان

شمس الدين بن محمد التّلمسانيّ :

تبسَّمَ زهرُ البانِ عن طيبِ نشرهِ وأقبلَ فى حسنٍ يجلّ عن الوصفِ
هَلُمُّوا إليــهِ بين قصفٍ ولذّةٍ فإنّ غصونَ البــانِ تصلُحُ للقَصْفِ

الشهاب محمود على لسان البان :

إذا دغْدَغَتْنِيَ أيدى النّسيم فَمِلْتُ وعندىَ بعضُ الكَسَلْ
فَسَلْ كيف حال قُدودِ المِلاح وعن حال سُمْر القنَا لا تَسَلْ

أبو جَلْنك الشاعر يهجو القاضى شمس الدين بن خلّكان :

لله بستانٌ حَللنا دَوْحَــهُ فى جَنّةٍ قد فَتّحتْ أبوابَها[3]
والبانُ تحسبه سنانيراً رأتْ قاضى القضاة فنَفَّشت أذنابَهَا

تاج الدين بن شقير :

قد أقبـل الصّيفُ وولّى الشّتا وعن قريب نَشْتكى الحرّا
أما تَرَى البــانَ بأغصانهِ قد أقلب الفَرْوَ إلى برّا

---

(١) . . .
(٢) نهاية الأرب ١١ : ٢٩٠ .
(٣) نهاية الأرب ١١ : ٢١٨ ، وفيه : « فى لذة » .

ما قيل فى الشقيق

ابن الرومىّ :

يصوغ لنا كفّ الربيع حدائقاً كعِقْدِ عقيقٍ بين سمطِ لآلِ(١)
وفيهنّ نوّار الشقائق قد حكى خُدود غوانٍ نقِّطت بغوالِ

كشاجم :

فرّجَ القلبَ غاية التفريج ابتهاجى ما بين روض بهيجِ(٢)
فكأنّ الشقيق فيه أكاليـلُ عقيقٍ على رءوسِ زنوجِ

أبو العلاء السّروىّ :

جامٌ تكوّن من عقيقٍ أحمرٍ مُلئت قرارتُه بمسكٍ أذْفَرِ
خرط الربيع مثالَه فأقامه بين الرياضِ على قضيبٍ أخضرِ

أبو بكر الصنوبرىّ :

وكأنّ محمرّ الشقيـقِ إذا تصوّب أو تصَعّدْ
أعلامُ ياقوت نُشِر ن على رماحٍ من زبرجدٍ(٣)

الخيار البلدىّ :

انظُرْ إلى مقل الشقيـ ق تضمّنت حـذق السبجِ
من فوق أغصان حَسُنّ وما سَمُجْنَ من العوَجِ

آخر :

شَقيقةٌ شَقّ على الورد مَا قد لبِسَتْ من كَثْرة الصِّبغ(٤)
كأنّها فى حسنها وجنةٌ يلوحُ فيها طَرَفُ الصُّدغ

(١) نهاية الأرب ١١ : ٢٨٢ .
(٢) نهاية الأرب ١١ : ٢٨٢ .
(٣) نهاية الأرب ١١ : ٢٨٤ .
(٤) نهاية الأرب ١١ : ٢٨٤ .

فى زهر النارنج

للقاضى الفاضل :

نديمىّ هيّا قد قضى النجم نحبَهُ ... وهبَّ نسيمٌ ناعمٌ يوقظ الفجرا
وقد أزهر النارنج أزرار فضة ... تزُرّ على الأشجار أوراقها الخضرا

فى الخشخاش

ابن وكيع :

وخشخاشٍ كأنا منه نَفْرِى ... قميص زَبَرْجَدٍ عن جسم درٍّ[1]
كأقداح من البلّور صِينتْ ... بأغشية من الديباج خُضْرِ

فى نوْر الكتان

ابن وكيع :

ذوائب كتّان تمايل فى الضّحى ... على خضر أغصان من الرّىّ مُيّدِ[2]
كأنّ اصفرار الزّهر فوق اخضرارها ... مَداهن تبرٍ رُكّبَتْ فى زَبَرْجَدِ

آخر :

كأنه حين يبدُو ... مداهن اللّازَوَرْدِ[3]
إذا السماء رأتْه ... تقول : هذا فِرِندى

ابن الرومىّ :

وحِلْسٍ من الكتّان أخضرَ ناعم ... سقى نبتَه دَانِى الرَّباب مطيرُ[4]
إذا درجتْ فيه الشمال[5] تتابعت ... ذوائبـه حتى يقـال غديرُ

(١) نهاية الأرب ١١ : ٢٦ .
(٢) نهاية الأرب ١١ : ٢٧ .
(٣) نهاية الأرب ١١ : ٢٧ .
(٤) نهاية الأرب ١١ : ٢٧ ، ويريد بالحلس النبات الذى يغطى الأرض كثرة ، تشبيها له بالحلس .
(٥) نهاية الأرب « الرياح » . والرباب : السحاب المعلق الذى تراه كأنه دون السحاب .

ذكر الفواكه

ماورد فى البطّيخ

أخرج ابن عدىّ فى الكامل عن عائشة ، قالت : كان أحبَّ الفاكهة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الرُّطَب والبِطّيخ .

وأخرج الطبرانىّ والحاكم فى المستدرك ، عن أنس ، أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يأخذ الرُّطَب بيمينه ، والبِطِّيخ بيساره ، فيأكل الرُّطَب بالبِطّيخ ، وكان أحبَّ الفاكهة إليه .

قال فى مباهج الفكر : البِطّيخ ثلاثة أصناف : هندىّ ويسمّى بمصر البطّيخ الأخضر وبالحجاز الحَبْحَب ، وصَيْنى ويسمّى بمصر الأصفر ، وفيه يقول الشاعر :

ثلاثٌ هنّ فى البطّيخ زَيْنٌ ... وفى الإنسان منقصَةٌ وذِلّهْ [1]

خُشونة لمسِه والثِّقل فيـه ... وصفرة لونِه من غير عِـلّهْ [2]

وخُراسانىّ ، ويسمّى بمصر العبدلىّ منسوب لعبد الله بن طاهر ، فإنه الذى دخل به مصر ، قال أبو طالب المأمونىّ فى البِطّيخ الهندىّ :

ومبيَضّةٍ فيها طرائق خضرةٍ ... كما اخضرّ مَجْرى النّسيل من صَيِّب المزنِ [3]

كحُقّةِ عاج ضُبِّبَتْ بزبرجدٍ ... حوتْ قِطَع الياقوتِ فى عُطَب القطن [4]

آخر :

أخٌ لىَ صادقٌ أهدَى إلينا ... كما يُهدى الصّديق إلى الصديق

---

(١) نهاية الأرب ١١ : ٣١

(٢) بعده فى نهاية الأرب :

إذا شقّقتَـهُ يوماً تراه ... بدوراً أشرقَتْ منها أهِلّهْ

(٣) نهاية الأرب ١١ : ٣٢ .

(٤) نهاية الأرب : « عطب القطن » . والعطبة : القطعة من القطن وجمعها عطب .

قلال زَبَرْجدٍ فيهنّ شَهْدٌ   وحشو الشّهد شىء كالعقيق

آخر :

رأيتُها فى كف جَلاَّبِها   وقد بدتْ فى غاية الحُسْنِ [1]

كسلّةٍ خضراء مختومةٍ   عَلَى الفصُوصِ الحمر فى القُطْنِ

أبو طالب المأمونى فى البِطّيخ الأصفر :

وبِطّيخةٍ مسكيّة عسليّةٍ   لها ثوبُ ديباج وعَرْفُ مُدام [2]

محقّقة ملء الأكفّ كأنها   من الجَزْع كِسْرى لم تُرَضْ بنظام [3]

لها حُلّةٌ من جُلّنار وسَوْسَنٍ   مُعَمّدةٌ بالآس غِبَّ غَمام

تمازجَ فيها لونُ حِبٍّ وعاشق   كساه الهوى والبينُ ثوبَ سَقَامِ

إذا فُصِّلَتْ للأكل كانتْ أهِلّةً   وإن لم تفصَّلْ فهى بَدْرُ تمامِ

وقال :

يُقطّع بالسكين بِطّيخةً ضُحًى   على طبقٍ فى مجلس لَانَ صاحبه [4]

كبدرٍ ببرق فى سماء أهلّةٍ   على هالةٍ فى الأفق شتّى كواكبه [5]

آخر :

أتانا الغلامُ بِبِطّيخةٍ   وسكّينة أشبعوها صِقالَا [6]

فقطّع بالبرق شمس الضّحى   وناول كلَّ هلالٍ هلالا

---

(١) نهاية الأرب ١١ : ٣٣   (٢) نهاية الأرب ١١ : ٣٣ ، ٣٤ .

(٣) الجزع : نوع من الخرز اليمانى .

(٤) نهاية الأرب ١١ : ٣٥ ، ونسبه إلى نجم الدين بن البارزى .

(٥) رواية البيت فى نهاية الأرب :

كشمسٍ ببرقٍ قدّ بدراً أهِلّةً   لدى هالةٍ فى الأفق شتّى كواكِبُهْ

(٦) نهاية الأرب ١١ : ٣٥ .

آخر :

ألا فانظُروا البِطِّيخ وهو مشقّقٌ وقد جاز فى التّشقيق كُلَّ أنيقِ
صفاها كبلّور بدت فى زُمّردٍ مركبّة فيها فُصُوص عقيقِ(١)

ماورد فى الرمان

أخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند وابن السّنى بسندٍ رجاله ثقات ، عن علىّ ابن أبى طالب ، قال : كلوا الرّمان بشحمه ، فإنه دِبَاغٌ للمعدة .

وأخرج الطّبرانىّ بسند صحيح ، عن ابن عباس ، أنه كان يأخذ الحبّة من الرمان فيأكلها ، فقيل له : لم تفعل هذا ؟ قال : بلغنى أنه ليس فى الأرض رمانة إلا تلقّح بحبّةٍ من حبّ الجنة ، فلعلها هذه .

قال بعضهم :

رمّانةٌ صبَغ الزّمانُ أديمَها فتبسّمت فى ناضرِ الأغصان(٢)
فكأنها فى حُقّةٍ من عسجدٍ قد أودِعَتْ خَرَزًا من المَرْجانِ

آخر :

رُمّانةٍ مثلُ نهدِ الكاعب الرِّيمِ تُزْهَى بشكلٍ ولونٍ غيرِ مذمومِ(٣)
كأنّها حُقّةٌ من عسجدٍ مُلئتْ من اليواقيت نثراً غير منظومِ

آخر :

ولاح رُمّانُنَا فأبهجنَا بين صحيحٍ وبَيْن مفتوتِ(٤)
من كلّ مصفرّةٍ مُزَعْفَرَةٍ تفوق فى الحسنِ كلَّ منعوتِ
كأنهـا حُقّـةٌ فإن فُتِحت فصُرّةٌ من فُصوص ياقوتِ

(١) . . .
(٢) نهاية الأرب ١١ : ١٠٢ .
(٣) نهاية الأرب ١١ : ١٠٣
(٤) نهاية الأرب ١١ : ١٠٣ .

آخر :

طَعْم الوِصَال يصونُه طعم النّوى سبحان خالقِ ذا وذا من عودِ (١)

فكأنها والُخضْر من أوراقِهــا خضر الثياب على نهـود الغِيدِ

آخر :

خُذوا صِفة الرّمّانِ عنّى فإنّ لى لساناً عن الأوصاف غيرَ قصيرِ (٢)

حِقَاقٌ كأمثال العقيق تضمّنتْ فصوص بَلَخْشٍ فى غشاء حريرِ (٣)

فى جلّنارة

أبو فِراس الحمدانىّ :

وجلّنــارٍ مشرفٍ على أعالى شجرهْ (٤)

كأنه فى أغصانِه أحمره وأصفره (٥)

قُراضةُ من ذهب فى خِرَقٍ مُعَصْفَرَه

عبد الله بن المعتزّ :

وجُلّنارٍ كاحمرار الخــدّ أو مثل أعراف ديوكِ الهندِ (٦)

ابن وكيع :

وجلّنــــار بهىّ ضِرامُــــه يتوقّدْ (٧)

بدا لنــا فى غصونٍ خُضْرٍ من الرمْىِ مُيَّدْ (٨)

---

(١) نهاية الأرب ١١ : ١٠٤ (٢) نهاية الأرب ١١ : ١٠٢

(٣) البلخش : نوع من الجواهر ؛ وانظر حواشى نهاية الأرب .

(٤) نهاية الأرب ١١ : ١٠٤ .

(٥) سقط هذا البيت من ح ، ط ، وأثبته من الأصل ونهاية الأرب .

(٦) . . .

(٧) نهاية الأرب ١١ : ١٠٥ (٨) نهاية الأرب ١١ : ١٠٥

يحكي فصوص عقيقٍ في قبّة من زبرجد

آخر :

كأنّما الجلّنار لمّا أظهره الروضُ للعيونِ
أناملٌ كلّها خضيبٌ تزهى احمراراً على الغصونِ

ما ورد في الموز

أخرج الخطيب فيما رواه مالك عن مالك بن أنس ، قال : ليس في الدّنيا شيء يشبه ما في الجنة إلا الموز ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾[1] ، وأنت ترى الموز في الشتاء والصيف .

دخل القاضي أبو بكر بن فريقة على عزّ الدولة بن بُويه ، وبين يديه طبق فيه موز ، فلم يدعُه إليه ، فقال : ما بالُ الأمير لا يدعوني إلى الفوز بأكل الموز ! فقال له : صفه حتى أطعمَك منه ، فقال : ما أصفُ من جرُب ديباجيّة ، فيها سبائك ذهبيّة ، كأنما حُشيت زبداً وعسلا ، أو خبيصاً مرملا ، أطيب الثمر كأنه مُخّ الشجر ، سهل المقشر ، ليّن المكسر ، عذب المطعم بين الطعوم ، سَلِسٌ في الحلقوم .

وقال النجم بن إسرائيل :

أنعتُه موزاً شهيّ المنظرِ مستحكم النضج لذيذ المخبرِ[2]
كأنّ تحت جلده المزعفرِ لفّات زُبْدٍ عُجِنَتْ بسُكّرِ

ابن الروميّ :

للموز إحسانٌ بلا ذُنوبِ ليس بمعدودٍ ولا محسوبِ[3]

---

(١) سورة الرعد ٣٥ .
(٢) نهاية الأرب ١١ : ١٠٨
(٣) نهاية الأرب ١١ : ١٠٧

(حسن المحاضرة ٢/٢٨)

يكادُ من موقعه المحبوبِ يُسْلِمُه البَلْعُ إلى القلوبِ

البهاء زهير :

ياحبّذا الموزُ الذى أرسلتَه لقد أتانا طيّبٌ من طيب (١)

فى لونهِ وطعمه وريحــــه كالمسك أو كالتبر أو كالضرَب

واقتْ به أطباقُه مُنَضَّــــداً كأنه مَكاحلٌ من ذهبِ

آخر :

يحكى إذا قشرْتَه أنيابَ أفيالٍ صغارِ (٢)

ذُو باطنٍ مثـل الأقا حِ ، وظاهرٌ مثل البَهارِ

ماورد فى النخل

أخرج الشيخان عن ابن عمر ؛ أنّ النبىّ صلّى الله عليه وسلم، قال: « إنّ فى الشّجر شجرةً، مثلُها مثلُ المسلم ، أخبرونى ماهى ؟ » فوقع الناس فى شجر البوادى ، ووقع فى قلبى أنها النخلة ، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : « هى النخلة » .

وأخرج أبو يعلَى فى مسنده وابن السّنّى عن علىّ ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكرِموا عمّتــكم النخلة ، فإنها خُلِقت من الطين الذى خلق منه آدم ، وليس من الشجر شىء يلقح غيرها » .

قال فى مباهج الفــكر : ويقال إنّ مما أكرم الله به الإسلام النخل، وأنه قُدِّر جميعُ نخل الدنيا لأهل الإسلام فغلبوا على كلّ موضع هو فيه .

وقال الدينورىّ فى المجالسة : حــدّثنا محمد بن عبد العزيز ، حدثنا أبى ، عن محمد بن



(١) ديوانه ٧

(٢) نهاية الأرب ١١ : ١٠٧ ، وقبله :

موزٌ حــــلا فكأنهُ عَسَلٌ ولــكن غــير جار

يزيد بن مطير ، قال : قال محمد بن إسحاق : كلّ نخلة على وجه الأرض فمنقولة من الحجاز ، نقلها النّماردة إلى المشرق ، ونقلها الكنعانيون إلى الشام ، ونقلها الفراعنة إلى باب أليون وأعمالها ، وحملها التّبابعة فى مسيرهم إلى اليمن وعمان والشِّحْر وغيرها .

الحداد :

رَوْضٌ كمخضرّ العِذارِ وجدولٍ نقشت عليه يدُ النسيمِ مَوارِدَا[1]

والنّخل كالهِيفِ الحسان تزيّنت فلبسْنَ من أثمارهنّ قلائدا

فى الطَّلْع

كأنّما الطَّلْع يَحْكى لناظرى حين أقْبَلْ

سلاسلا من لجينٍ يضمها حُقُّ صندل

فى الجمّار

أهْدى لنا جمّارةً مَن لَسْتُ أخشى من عذابهِ

فكأنّما هى جسمُه لمّا تجرّد من ثيابهِ

فى البلح الأخضر

أما ترى النخل نثّرت بلحاً جاء بشيرا بدْولة الرُّطَبِ[2]

كأنه والعيونَ تنظرُه مقمّعاتُ الرءوسِ بالذهب[3]

مكاحلٌ من زبرجدٍ خرَطت مقمّعات الرءوس بالذهب

فى الأصفر

أمَا تَرى البُسر الذِى قد جاءنا بالعجبْ[4]

---

(١) نهاية الأرب ١١ : ١٧٤ .   (٢) نهاية الأرب ١١ : ١٢٧ .

(٣) سقط هذا البيت من الأصول وأثبته من نهاية الأرب .   (٤) نهاية الأرب ١١ : ١٢٧ .

كَيْفَ غَدَا فى لونِهِ كعاشقٍ مكتئبٍ[١]
مكاحلاً من فضّةٍ قد طُليت بالذهب

فى الأحمر :

انظر إلى البُسْر إذْ تبدّى ولونُه قد حكَى الشقيقا[٢]
كأنّمـا خُوصُه عَلَيْهِ زَبَرْجَدٌ مثمرٌ عَقيقـا

ما ورد فى الأترج

أخرج الشيخان عن أبى موسى الأشعرى ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجّة طعمُها طيّب وريحها طيّب » .

وأخرج ابن السنّى عن أبى كبشة ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه النّظر إلى الأترّج والحَمَام الأحمر ..

بعضهم :

كأن أترجّنا النّضير وقد زان تحيــاتنا مُصْبِعَهُ
أيدٍ من التبر أبصرت بدَرا من جوهر فانثنت تجمعه

آخر :

يا حبذا أترجّةٌ تحدث للنفس الطّرَبْ[٣]
كأنها كافورةٌ لهـا غشاء منْ ذهبْ

الأسعد بن مماتى :

لله بل للحُسْن أترجّةٌ تذكّر النّاس بأمر النّعيمِ
كأنهـا قد جمعّت نفسها من هيبة الفاضل عبد الرحيم

(١) ساقط هذا البيت من ح ، ط . وأثبته من الأصل ونهاية الأرب .
(٢) نهاية الأرب ١١ : ١٢٧ . (٣) نهاية الأرب ١١ : ١٨١ .

ابن المعتزّ :

أترجّـــة قد أتتك لَطَفاً　　لا تقبلنْها وإن سُرِرْتَ [1]

لا تهـد [2] أترجّـة فإنى　　رأيت مقلوبها « هُجِرْتَ »

ماورد فى القصب

أخرج ابن عساكر فى تاريخ دمشق من طريق الربيع بن سليمان ، قال : سمعت الشافعىّ يقول : ثلاثة أشياء دواء للداء الذى لا دواء له ، الذى أعيا الأطباء أن يداووه : العنب ولبن اللقاح ، وقصب السكر ؛ ولولا قصب السكر ما أقمت بمصر .

بعضهم :

تحـكيه سُمْر القَنَا ولـكنْ　　تراه فى جسمه طَلاوَهْ

وكلّمـــا زدتَه عـــذاباً　　زادك من ريقـه حَـلاَوه

فى الـكمّثرى

بعضهم :

حَيَّا بـكمثرايةٍ لونهـــا　　لون محبٍّ زائدِ الصُّفْرَهْ

تشبه نَهْد البِنْت إن قعـدتْ　　وهى لهـا إن قلِبت سُرَّهْ

فى الخوخ

بعضهم :

كأنّمـا الخوْخ فى دوحِـنهِ　　وقد بدا أحمره الْعَنـدَمِى

(١) نهاية الأرب ١١ : ١٨٣ .

(٢) نهاية الأرب : « لا تهد » .

بنادقٌ من ذهبٍ أصفرٍ قــد خُضِّبت أنصافها بالدم

ما ورد فى التين

أخرج ابن السّنى والديلمىّ فى مسند الفردوس ، عن أبى ذرّ ، قال : أُهْدِىَ إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم طبق من تين ، فقال لأصحابه : «كلوا ، فلو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة بلا عجم لقلت هى التين ، وإنه يذهب بالبواسير ، وينفع من النِّقرِس » .

كشاجم :

أهــلاً بتينٍ جاءنا منضَّــداً على طَبَقْ [١]
يَحْـكِى الصَّبَاحَ بعضُه وبعضه يحـكى الغَسَقْ [٢]
كسفرة مضمومــة قــد جمعت بلا حلق

ابن المعتزّ :

أنْعِمْ بتينٍ طاب طعماً واكتسى حسنا، وقارب منظرا من مخبرِ [٣]
فى برد ثلجٍ ، فى قفَا تبر ، وفى ريح العبير وطيب طعم السكّرِ
يحكى إذا ما صُبَّ فى أطباقه خِيَماً ضُربن من الحرير الأخضر

فى اللوز الأخضر

ابن المعتزّ :

ثلاثة أثواب على جسدٍ رَطْبِ مخالفةُ الأشكال من صَنْعة الربِّ [٤]
تَقيِــهِ الرّدَى فى ليـــله ونهـارِه وإن كان كالمسجُون فيها بلا ذنبِ

---

(١) نهاية الأرب ١١ : ١٥٩ .
(٢) ساقط من ط ، ح .
(٣) نهاية الأرب ١١ : ١٥٩ ، ١٦٠ .
(٤) نهاية الأرب ١١ : ٨٨ .

آخر :

أما ترى اللّوز حين تُرْجِلُهُ من الأفانين كفُّ مقتطفِ[1]
وقشره قدْ جلاَ القلوبَ لنا كأنه الدُّرُّ داخلَ الصَّدَفِ

ظافر الحداد :

جاء بلوزٍ أخضرٍ أصفره ملء اليدِ[2]
كأنمــا زئبرُه نَبْتُ عذارِ الأمرد
كأنمــا قلوبُه من توأمٍ ومفردِ
جواهر لكنّما الأصداف من زبرجدِ

البدر الذهبي :

مانظرتْ مقلتِي عجيباً كاللّوز لمّا بَدَا نوّارُه
اشتعلَ الرأس منه شيباً واخضرّ من بعد ذا عِذارُه

ماقيل فى المشمش

محيي الدين بن عبد الظاهر :

حبّذَا مشمشٌ على الدوح أضحى ذا شعاع يستوقف الأبصارا
شجر أخضر لنا جعل اللـه تعالى منه كما قال نارا

وقال :

وكأنّ ضوء الشّمس من أوراقِها فى نقش أسوقة الغصون خلاخلُ
وكأنّ مشمشها بصوت هَزارها إذْ حركته به النّسيم جلاجلُ

(١) نهاية الأرب ١١ : ٨٨ ، وترجله ، أى تنزله .
(٢) نهاية الأرب ١١ : ٨٨ .

آخر :

ومشمشٍ جاءنا من أعجب العجبِ أشهى إلىّ من اللّذات والطربِ (١)

كأنه وهُبــوب الريح تنثره بنادق خُرِطت من خالص الذهب

ماقيل فى النبق

ابن الجيلىّ :

انظُرْ إلى النبْق فى الأغصان مُنْتَظِماً والشّمس قد أخذت تجلُوه فى القُضُبِ

كأنّ صفرته للناظرين غــدتْ تحكِى جلاجلَ قدصِيغت من الذهبِ

آخر :

وسِــدْرَةٍ كلّ يوم من حسنها فى فنونِ (٢)

كأنّمــا النبق فيها وقد بدَا للعيونِ

جلاجلٌ من نُضــارٍ قد عُلِّقت فى الغصونِ

---

(١) نهاية الأرب ١١ : ١٤١ .

(٢) نهاية الأرب ١١ : ١٤٤ .

ذكر الحبوب والخضراوات والبقول

فى سنابل البر والشعير

القاضى عياض :

انظر إلى الزَّرْع وخاماته ... تحكى وقد ماست أمام الرّياح[١]

كتيبـــةً تُجْفِلُ مهزومَةً ... شقائقُ النعمان فيها جِراحْ

آخر :

ياحبّــذا سنبلةٌ ... تبدُو لعينِ المبصرِ[٢]

كأنهــا سلسلةٌ ... مَضْفُورَةٌ من عنبرِ

ظافر الحداد :

كأنّ سنابل حَبّ الحصيدِ ... وقد شارفتْ وقت إبّانها[٣]

كنائسُ مضفورة ربِّعت ... وأُرْخىَ فاضـــلُ خيطانها

ابن رافع القيروانىّ :

انظر إلى سنبل الزّروع وقَدْ ... مرّت عليه الجنوبُ والشَّمَلُ[٤]

كأنه البحر فى تموّجه ... يعلُو مرارا ، ومرة يسفُلُ[٥]

والمــاء للسقى فى جوانبِهِ ... المِسْكُ للناظرين أو صندلُ

فى الباقلا

قال بعض الشعراء وهو ابن لنكك[٦] البصرىّ :

فصوص زبرجد فى غلف دُرٍّ ... بأقماع حَـكَتْ تقليم ظُفْرِ[٧]

(١) نهاية الأرب ١١ : ١٦ .
(٢) نهاية الأرب ١١ : ١٧ .
(٣) نهاية الأرب ١١ : ١٦ .
(٤) نهاية الأرب ١١ : ١٦ ، والشمل : ريح الشمال
(٥) نهاية الأرب : « مرارا به ويستفل » .
(٦) فى الأصول : « نيكل » تحريف .
(٧) نهاية الأرب ١١ : ٢٠ ، ونسبه إلى الصنوبرى .

وقد حاكَ الربيعُ لها ثياباً لها لونان من بيض وخضرِ

آخر :

لِي نحوَ ورد الباقلاَ إدمانُ لهو ولهجْ[1]
كأنّما مبيضّه يلوح فى ذاك الدّعَجْ
خواتمٌ من فِضّةٍ فيهافصوص من سَبَجْ[2]

ابن وكيع :

ولاح ورد الباقلاء ناظرا عن مقلة تفتح جفناً عن حَوَرْ
كمثل ألحاظِ اليعافير إذا روّعها من قانِصٍ فرط الحذَرْ
كأنها . مداهنٌ من فضة مجلوّة فيها من المسك أثر
كأنها سوالف من خُرّدٍ قد زيّنت سوادها سود الطّرر

فى القثاء

عبد الرحيم بن رافع القيروانىّ :

أحبب بقثّاء أتا نا من فوق أطباق منضّد[3]
كمضَاربٍ قد حدّرت أجرامهنّ من الزّبرجد
نعم الدواء إذا الهوا ء من الهواجِرِ قد توقّدْ .

ابن المعتزّ :

انظر إليــــه أنابيباً منضّدةً من الزّبَرْجد خضرا ما لها ورقُ
إذا قلبْت اسمه بانَتْ حلاوتُه وكان معكوسه إنّى بكم أثق

(١) نهاية الأرب ١١ : ٢٢ .
(٢) السبج : خرز أسود .
(٣) نهاية الأرب ١١ : ٣٨ .

فى الخيار

لبعضهم :

خيـــار حينَ تنسبه لبيتٍ كريحانِ السّرورِ به اخضرارُ[1]
كأنّ نسيمه أنفاس حِبٍّ فليس لمغرم عنـــه اصطبارُ

فى الفقوس

لبعضهم :

شبّهت حين بدا الفقّوس مبتهجاً على الرّياض بحبٍّ فيـه مأسورِ
مخازن من لُجينٍ لفّ ظاهرها بسندسٍ حشوُه حبّات كافورِ

فى القرع

لعبد الرحيم بن نافع :

وقرع تبدّى للعيون كأنّه خراطيم أفيـال لطخن بزنجارِ
مررنا فعاينّـــاه بين مزارعٍ فأعجب منها حسنه كلَّ نظّارِ

فى الباذنجان

لبعضهم :

أهدتْ لنا الأرضُ من عجائبها ما سوف يَزْهو بمثله وقتِي[2]
إذا أجـــاد الّذى يشبّهه وأحكم الوصفَ منه فى النّعتِ
قال كراتُ الأديم قد حُشِيَتْ بسمسم قُمِّعَتْ بكيمختِ[3]

---

(١) نهاية الأرب ١١ : ٤١ . (٢) نهاية الأرب ١١ : ٤٤

(٣) الكيمخت : ضرب من الجلود المدبوغة يتخذ من ظهور الخيل والحمير .

آخر :

ومستحسن عند الطعام مدحرجٍ ... غذّاه نَميرُ المـاء فى كلّ بستانِ
تطلع من أقماعه فـكأنه ... قلوبُ نعاج فى مخاليبِ عِقْبان

آخر :

وكأنمـا الأبْذَنْج سُودُ حمائمٍ ... أوْ كارُهاروضُ الرّبيعِ المسْكِرِ[1]
لقطت مناقِرُها الزبرجد سمسماً ... فاستودعتْه حواصلاً من عنبرِ

آخر :

وباذنجـــانة حُشيت حَشَاها ... صغار الدّرّ باللّبَنِ الحليبِ
وغشّيت البنفسج واستقلّت ... من الآس الرطيب على قضيبِ

فى السلجم

لابن رافع القيروانىّ :

كأنمـــــا السَّلْجَمُ لمّا بَدَا ... فى حُسنه الرائق من غيرمَيْنِ[2]
قطائعُ الـكافور ملومـــــةً ... لمبصرِيها أو كراتُ اللّجَين

فى الفجل

لبعضهم :

لله فُجـــــــلٌ قد أتتنابه ... جارية تُخجِل شمسَ النهـارِ
كأنّه فى يدهـــا إذْ أتت ... به لنا غصنا بصوْب العطار
سبائِكُ من فضّة قد صفَتْ ... أومثل أنيابِ الفيول الصّغار

---

(١) نهاية الأرب ١١ : ٤٥
(٢) نهاية الأرب ١١ : ٥١

آخر :

أحبب بفُجـــل قد أتانابه   طبّاخنا من بعد تقشير[١]

منضَّـــدا فى طبق خلقه   من حُسنه قضبـــان بلّورِ

آخر :

وبيضاء من حُور الجنان ملكتُها   ولُمْتُ عليها صاحبى وَلِىَ العذْرُ

وما كسيت من سندس الخلد حُلّةً   ولا مُعجرٌّ الكِنْ ذوائبها خُضْرُ

فى الجزر

لابن رافع القيروانىّ :

انظر إلى الجزَر البديع كأنه   فى حسنه قُضُبٌ من المَرْجان[٢]

أوراقُه كزبرجدٍ فى لوْنهـــا   وقلوبُه صِيغَتْ من العِقيان

آخر :

انظر إلى الجزَر الذى   يحكى لنـــا لَهَب الحريقِ[٣]

كمُديةٍ من سندسٍ   فيهـــا نصاب من عقيقِ

فى الثوم

لابن رافع القيروانىّ :

يا حبّذا ثومةٌ فى كفّ جاريةٍ   بديعة الحسن تُسْبى كلّ مَنْ نَظَرا[٤]

أبصرتُهـــا ، وهى من عُجْب تقلّبها   كصُرّة من دبيقىٍّ حوت دررا

آخر :

الثّوم مثلُ اللّوز إنْ قشّرْتَهُ   لولا روائحه وطعم مذاقِهِ[٥]

(١) نهاية الأرب ١١ : ٥٥ .
(٢) نهاية الأرب ١١ : ٥٧
(٣) نهاية الأرب ١١ : ٥٧
(٤) نهاية الأرب ١١ : ٦١
(٥) نهاية الأرب ١١ : ٦١

كالنَّدْل غَرَّكَ منظرا فإذا دُعِى لفضيلةٍ يُنْمَى إلى أعراقِهِ

فى النمام

ابن رشيق :

لمْ كَرِه النَّمامَ أهلُ الهوى. أساء إخوانى وما أحسنوا(١)
إن كان نماما فتنكيسُه من غير تكذيب لهم مأمَنُ

آخر :

لا بَارَكَ اللهُ فى النَّمام إنّ له إسما قبيحًا من الأسماء مهجورًا(٢)
لو لم ينمْ على العُشّاق سَرّهُمُ ما كان فيهم بهذا الاسم مشهورا

فى النعناع

[بعضهم] :

وجاءت بنعناعٍ كأن غصونه وأوراقه مخلوقة من زبرجدِ
إذا مسّه نفح الحرور رأيتَه كأصداغ زنج فلفلت من تجعُّد

فى النارنج

لبعضهم :

تأملْها كُرَاتٍ من عقيقٍ يروقك فى ذُرَا دوحٍ وريقِ(٣)
صوالجُ من غصونٍ ناعماتٍ غذتْها دُرّة العيس الأنيقِ

آخر :

أنظُر إلى منظر يلهيكَ مَنْظَرُه بمثله فى البرايا يُضرَب المَثَلُ(٤)

---

(١) نهاية الأرب ١١ : ٧٢
(٢) نهاية الأرب ١١ : ٧٢
(٣) نهاية الأرب ١١ : ١١١
(٤) نهاية الأرب ١١ : ١١٢ .

نارٌ تَلُوح على الأغصان فى شجرٍ   لا النار تطفِى ، ولا الأغصان تشتعل

أبو الحسن الصّقلىّ :

ونارنجة بين الرّياض نظرتها   على غُصُنٍ رطب كقامة أغيدِ[1]

إذا مَيَّلَتْها الريحُ مالت كأكرةٍ   بَدَت ذهباً فى صولجان زَبَرْجَدِ

وقال :

تنعمْ بنارنجك المجتنَى   فقد حضر السعدُ لما حضرْ[2]

فيا مرحبًا بِقــدود الغُصو   ن ، ويا مرحبًا بخدود الشَّجَرْ

كأنّ السماء همّت بالنّضا   رِ، فصاغت لنا الأرض منها أُكَرْ

ابن المعتز :

كأنّمــا النّارنج لمّا بَدَتْ   صفرتُه فى حُمْرَةٍ كاللّهبْ[3]

وَجْنة معشوق رأى عاشقًا   فاصفرّ ثم احمرّ خوف الرَّهَبْ

آخر :

وشادنٍ قلت له صفْ لنــا   بستانَنَا هذا ونارنجنـا

فقال لى : بستانـكم جنَّـةٌ   ومَنْ جَنَى النَّارنج نارًا جَنَى

فى الليمون

قال ابن وحشية : الليمون والنارنج فى الأصل شجر هندىّ .

السرىّ الرفاء :

ظلَّتْــه شجراتٌ عَطّرهــا أطيبُ عطرِ

فلكٌ أنجمــه اللّيــمون من بيض وصفر

(١) نهاية الأرب ١١ : ١١٦ ،   (٢) نهاية الأرب ١١ : ١١٢ .

(٣) نهاية الأرب ١١ : ١١٣ ، مع اختلاف فى القافية .

أُكَرٌ مِن فضّـــةٍ قد شابهـــا تلويح تبْرِ

آخر :

يا ربّ ليمونةٍ حَيَّابهـا قمـــرٌ حُلْوُ المقبَّل ألْمَى باردُ الشَّنَبِ[1]
كأنها أُكرةٌ من فضة خرطت فاستودعوها غِلافًا صِيغَ من ذهبِ

آخر :

أمَا ترَى الليمونَ لمّا بدا يأخـذ فى إشراقِه بالعيـانِ[2]
كأنّه بَيْض دَجاجٍ وقـــد لطّخهـا العـابث بالزعفرانِ

تم كتاب حُسن المحـــاضرة
ولله الحمـــد

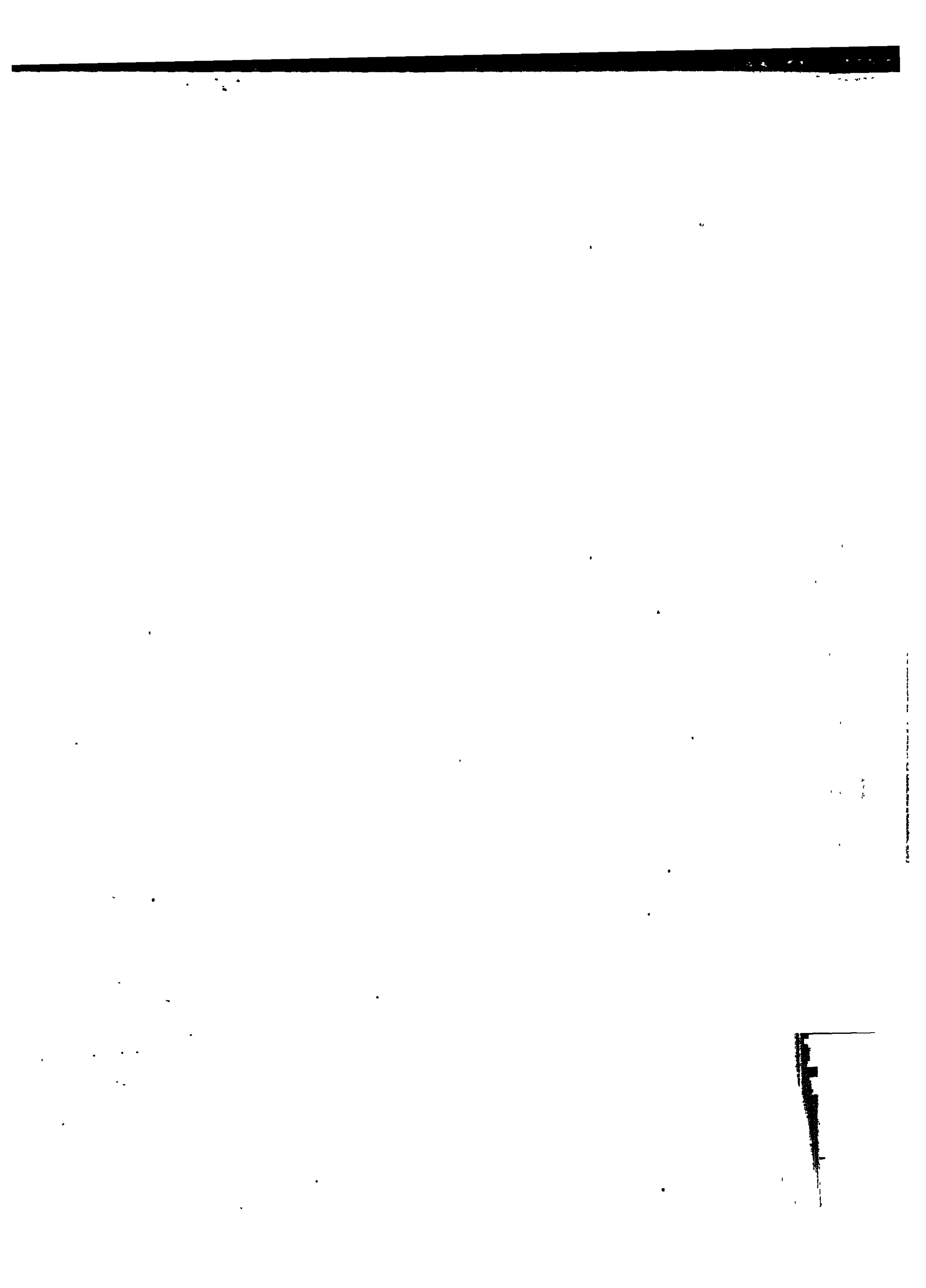
---

(١) نهاية الأرب ١١ : ١١٦ . والشنب : الرقة والعذوبة فى الأسنان .
(٢) نهاية الأرب ١١ : ١١٦ مع اختلاف فى القافية .

فهرس الموضوعات

صفحة

الفهارس



فهرس الأعلام المترجمين (*)

حرف الهمزة

(*) هو فهرس الرجال الذين عاشوا فى مصر أو وفدوا إليها ؛ ممن ذكرهم المؤلف أو ترجم لهم ، من الملوك والخلفاء والسلاطين والولاة والأمراء والوزراء والصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والحفاظ ورواة الحديث والفقهاء على اختلاف مذاهبهم والقضاة وأئمة القراءات والنحاة والمؤرخين والحكماء والأطباء والفلاسفة والأدباء والشعراء والكتاب والمؤرخين والقصاص وغيرهم ؛ على نحو ما أورده الخطيب فى تاريخ بغداد وابن عساكر فى تاريخ دمشق وغيرهما من مؤرخى البلاد والأقاليم .

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

(١) طبع خطأ « أغاثيمون » .

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

حرف التـــــاء

(حرف الثـــاء)

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

(*) ولى القضاء بمصر ولكنه مات قبل أن يصل إليها .

* ذكر المؤلف فى ص ٢٠٠ أنه من الصحابة وفى ص ٢٥٨ أنه من التابعين .

الجزء والصفحة

* وذكر فى ص ٢٦٧ فى التابعين .

* طبع خطأ « جبر »

* واسمه أيضاً « سعد بن سنان ».

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

حرف الظاء

حرف العين

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

(١) طبع خطأ « بن الحكم » .   (٢) طبع خطأ « العلائى » .

الجزء والصفحة

(١) هذا هو الصواب وقد طبع خطأ : « عبد الرحمن بن داود » .

(١) طبع خطأ : « بن العزيز » .

(٢) سقطت كلمة « عبد العزيز » من ترجمته ١ : ٣٥٩ .

* مر فى الفهرس باسم « بهاء الدين » ، والصواب أن موضعه هنا .

(حسن المحاضرة ٣٤/٢)

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

(*) طبعت خطأ (الفقيم) .

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

* طبع خطأً : «جويرية».

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

(حرف الميم)

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

---

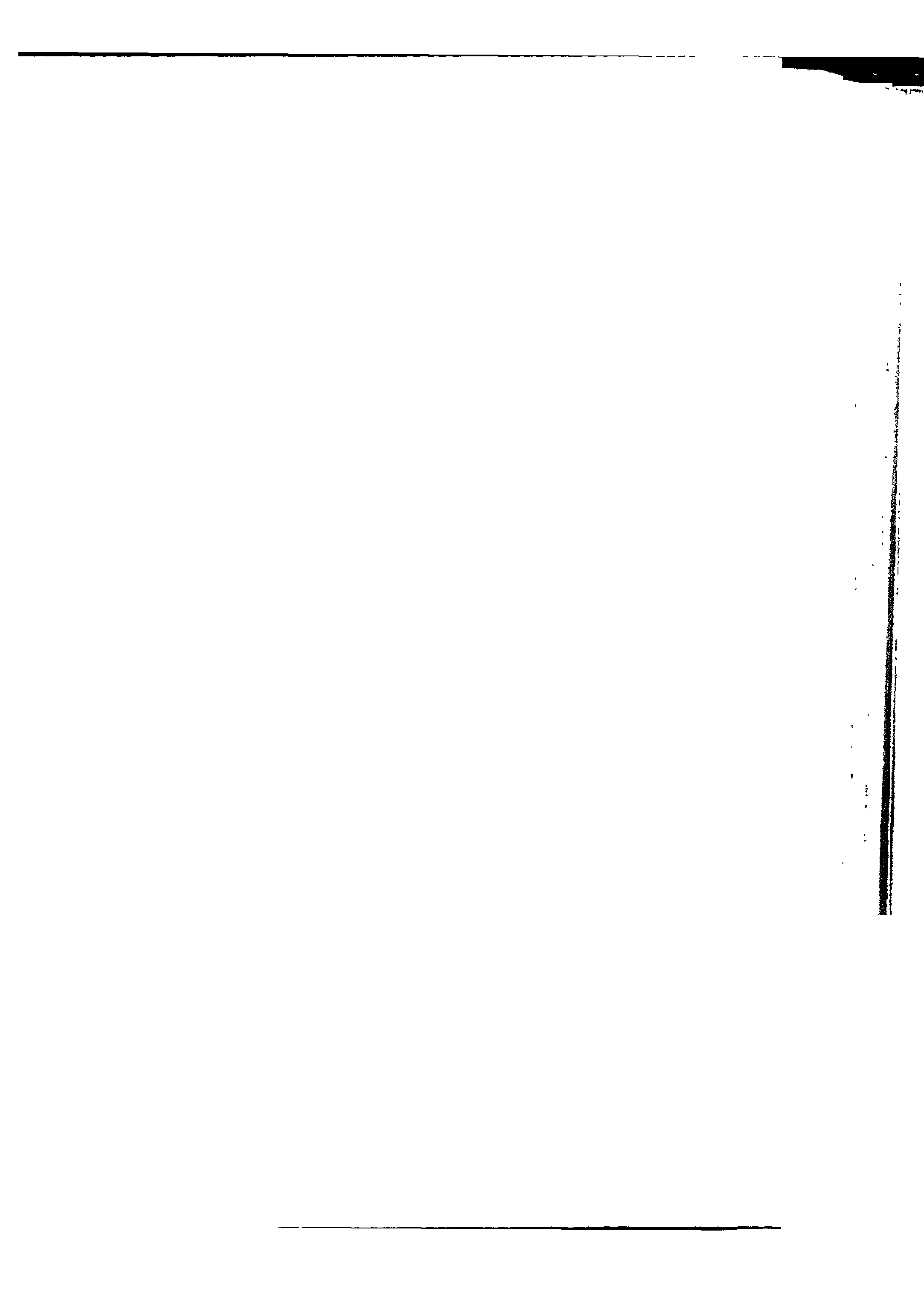
(١) طبع خطأ « الحاكم » .

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

(١) طبع خطأ فى هذه الصفحة « الحكم » .

الجزء والصفحة



---

(١) طبع خطأ « بيان » .

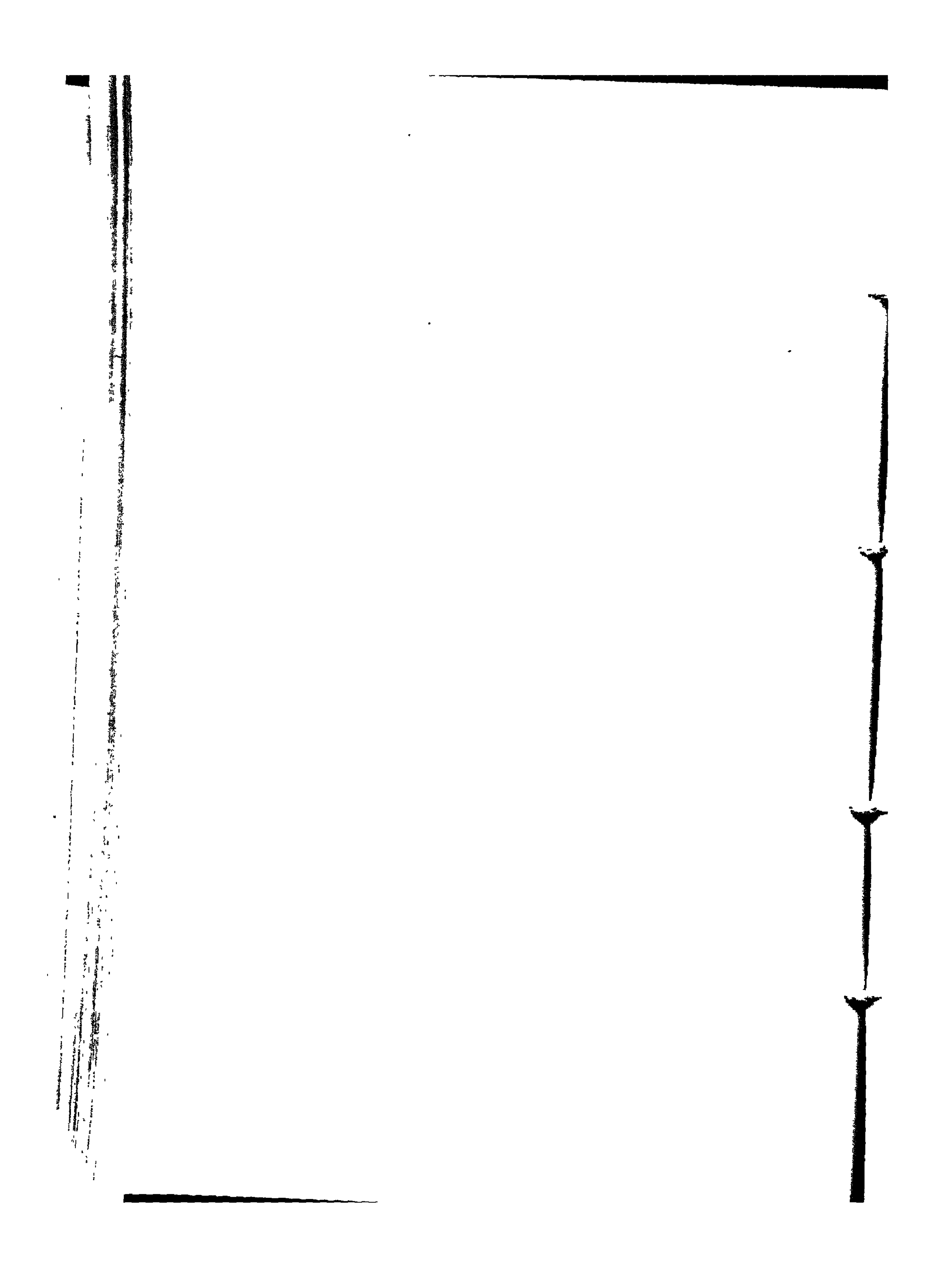
الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

ا

الجزء والصفحة



الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

حرف الواو

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

الجزء والصفحة

(١) به خطأ فى هذه الصفحة : « أبو الفضائل »

فهرس الشعر

حرف الهمزة

حرف الباء

القافية	القائل	عدد الأبيات	الجزء والصفحة
محسوبِ	ابن الرّومىّ	٢	٢ : ٤٣٣ ، ٤٣٤
من طيبِ	البهاء زُهير	٢	٢ : ٤٣٤
الرُّطبِ	—	٣	٢ : ٤٣٥
بالذّهبِ	—	٣	٢ : ٤٣٥
الرّبّ	ابن المعتز	٢	٢ : ٤٣٨
الطّربِ	—	٢	٢ : ٤٤٠
فى القضبِ	ابن الجبلى	٢	٢ : ٤٤٠
الحليبِ	—	٢	٢ : ٤٤٤
الثّنبِ	—	٢	٢ : ٤٤٨
من عذابِهِ	—	٢	٢ : ٤٢٥
	حرف التاء		
موقوتَا	—	٢	٢ : ٢١٥
سررتَ	ابن المعتزّ	٢	٢ : ٤٣٧
حسناتُه	العماد	٦	٢ : ٢١
توليتُه	ابن عَيْنِ الدولة	٢	٢ : ١٦١
حرّياتِ	ابن الواسطىّ	٢	٢ : ٣٩٤
تشتيتِ	أبو القاسم بن هذيل	٣	٢ : ٤١٢
الأوقاتِ	الأُحَنْطِل الأهوازى	٤	٢ : ٤١٧ ، ٤١٨
مفتوتِ	—	٣	٢ : ٤٣١
وقتِى	—	٣	٢ : ٤٤٣
	حرف الجيم		
الدّرَجْ	—	٢	٢ : ١٢٠

(حسن المحاضرة ٢/٣٩)

* مطلع أرجوزة مختلفة القوافى .

حرف الذال

حرف الراء

(١) مطلع أرجوزة مختلفة القوافى

حرف الكاف

القافية	القائل	عدد الأبيات	الجزء والصفحة
الماحِلُ[1]	السيوطى	٢٠	٢ : ١٢٣ ، ١٢٤
وتفصيلُ	ظافر الحداد	٤	٢ : ٣٥٨
السبيلُ	محيي الدين بن عبد الظاهر	٢	٢ : ٣٥٩
الشمالُ	ناصر الدين بن النقيب	٢	٢ : ٣٩٥
لا يُمَلُّ	ابن سكرة	٣	٢ : ٤٠٢
خلاخِلُ	—	٢	٢ : ٤٣٩
الشّمَلُ	ابن رافع القيروانى	٣	٢ : ٤٤١
المثلُ	—	٢	٢ : ٤٤٦ ، ٤٤٧
رواحِلُهْ	بحر بن ضبع	١	١ : ١٧٣
اتصالُها	الأسعد بن ممّاتى	٤	٢ : ٣٧٦
من عِلِ	على بن عمر بن قزل	٣٥	١ : ٤٧
المتأمّلِ	الشهاب المنصورى	٦	١ : ٨٣
الأفاضِلِ	البرهان القيراطى	٩٢	١ : ٤٣٠
قفولِ	جميل بن عبد الله العذرى	٢	١ : ٥٥٨
فى عذَلى	عمارة اليمنى	٢	٢ : ١٦
آجلِ	الصلاح الصفدى	٢	٢ : ١١٧
الموصِلى[2]	محمد بن دانيال	١٠١	٢ : ١٧٥ ـ ١٨١
كالمثلِ	بهاء الدين السبكى	٩	٢ : ٢٦٩ ، ٢٧٠
زُحَلِ	—	٢	٢ : ٢١٧
العملِ	ابن العطار	٢	٢ : ٢٧١

(١) مطلع أرجوزة مختلفة القوافى . (٢) مطلع أرجوزة مختلفة القوافى .

(حسن المحاضرة ٢/٤٠)

القافية	القائل	عدد الأبيات	الجزء والصفحة
الأَغْصَانِ	—	٢	٢ : ٤٣١
للعيونِ	—	٢	٢ : ٤٣٣
فنونِ	—	٣	٢ : ٤٤٠
بسِنانِ	—	٢	٢ : ٤٤٤
من غيرمِيْن	ابن رافعٍ القَيْروانى	٢	٢ : ٤٤٤
من المَرْجاَن	»	٢	٢ : ٤٤٥
بالعيانِ	—	٢	٢ : ٤٤٨
إبائِهَا	ظافر الحداد	٢	٢ : ٤٤١

حرف الهاء

القافية	القائل	عدد الأبيات	الجزء والصفحة
إلّا لَهاَ	أبو العتاهية	١	٢ : ٧٧
فجرى بِهاَ	قيس بن معد يكرب	١	٢ : ٣٥٨
تنبيهاَ	—	٢٠	٢ : ٣١٤ ، ٣١٥
ثراها	شهاب الدين بن فضل الله	٥	٢ : ٣٩١ ، ٣٩٢
ماهُو	مظفّر الأعمى	٩	٢ : ٣٢
يجتلُوه	السراج الوراق	٢	٢ : ٢٢١
جفاهُ	مجد الدين بن نجم	٢	٢ : ٣٩٨
فقيه	الشاطبى	٢	١ : ٤٩٧
إليه	—	٢	٢ : ١١٩
بنيهِ	—	٢	٢ : ٣٦٢

حرف الواو

القافية	القائل	عدد الأبيات	الجزء والصفحة
طلاوَهْ	—	٢	٢ : ٤٣٧

فهرس الأماكن

(ب)

(ت)

(ش)

(حسن المحاضرة ١ / ٤١ ٢)

فهرس الأمم والقبائل

مراجع التحقيق

الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر . مطبعة نهضة مصر
الإصابة فى أسماء الصحابة لابن حجر . مطبعة السعادة سنة ١٣٢٣ ﻫ
ابن أصيبعة = طبقات الأطباء
الأعلام لخير الدين الزركلى (الطبعة الثانية) . مطبعة كوستا (١٩٥٤ ـ ١٩٥٩ م)
الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار للدكتور حسن الباشا . نشرة مكتبة الأنجلو سنة ١٩٥٧ م
إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطى . طبع دار الكتب
البداية والنهاية لابن كثير . مطبعة السعادة سنة ١٣٥١ ﻫ
بدائع البدائه لابن ظافر الأزدى . طبع بولاق ١٣٧٨ ﻫ
البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكانى . طبع مصر سنة ١٣٤٨ ﻫ
بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة لجلال الدين السيوطى . مطبعة عيسى الحلبى سنة ١٩٦٥ م
تاريخ ابن الأثير . إدارة الطباعة المنيرية بمصر سنة ١٣٤٨ ﻫ
تاريخ بغداد للخطيب البغدادى . طبع القاهرة (نشرة الخانكى ١٣٤٩ ﻫ)
تاريخ الخلفاء لجلال الدين السيوطى . مطبعة السعادة سنة ١٩٥٧
تاريخ الطبرى : طبع دار المعارف بمصر
تاريخ ابن كثير = البداية والنهاية
تقريب التهذيب لابن حجر . نشرة مكتبة القاهرة سنة ١٣٨٠ ﻫ
تمام المتون فى شرح رسالة ابن زيدون لصلاح الدين الصفدى . نشرة دار الفكر العربى سنة ١٩٦٩ م
تهذيب التهذيب لابن حجر . مطبعة دار المعارف بحيدر آباد سنة ١٣٢٥ ﻫ

ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب للثعالبى : نشرة مطبعة نهضة مصر ١٩٦٥ م

ثمرات الأوراق لابن حجة ، على هامش المستطرف مطبعة المعاهد ١٣٥٤ ﻫ

الجامع الصغير لجلال الدين السيوطى . مطبعة عيسى الحلبى ١٩٥٤م

الجواهر المضية فى طبقات الحنفية . دائرة المعارف بحيدر آباد سنة ١٣٣٢ ﻫ

حلبة الكميت للنواجى . المطبعة الأميرية ١٢٧٦ ﻫ

خريدة القصر فى شعراء العصر (قسم مصر) . لجنة التأليف والترجمة بمصر سنة ١٣٥١ ﻫ

خطط المقريزى . مطبعة النيل ١٣٢٤ ﻫ .

ابن خلكان . المطبعة الميمنية بمصر سنة ١٣١٠ﻫ

الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة . مطبعة حيدر آباد (١٩٤٥ – ١٩٥٠ م)

الديباج المذهب فى أعيان المذهب ، لابن فرحون . مطبعة المعاهد بمصر سنة ١٣٥١ ﻫ

ديوان جميل . (دار مصر للطباعة)

ديوان حسان بن ثابت . المطبعة الرحمانية ١٩٢٩ م

ديوان المتنبى . مطبعة مصطفى الحلبى سنة ١٩٣٦ م

ديوان ابن نباته المصرى . مطبعة التمدن بمصر ١٩٠٨ م

الذيل على الروضين لأبى شامة . طبع بالقاهرة سنة ١٣٦٦ ﻫ

رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر . المطبعة الأميرية ١٩٥٧ م

سكردان السلطان لابن حجلة – على هامش المستطرف . مطبعة مصطفى الحلبى سنة ١٣١٧ ﻫ

السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى . طبعة لجنة التأليف والترجمة بمصر (١٩٣٩ – ١٩٤٣ م) .

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى . نشرة القدس سنة ١٣٥٠ ﻫ

الشعر والشعراء لابن قتيبة . مطبعة عيسى الحلبى ١٣٦٤ ﻫ

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا للقلقشندى . طبع دار الكتب المصرية

صحيح مسلم . طبع عيسى الحلبى ١٩٥٥ م

الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع للسخاوى . طبع فى مصر (١٣٥٣ ـ ١٣٥٥ ﻫ)

الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد . طبع فى مصر سنة ١٩١٤ م

طبقات الأطباء المسمى بعيون الأنباء لابن أصيبعة . طبع بمصر سنة (١٢٩٩ ـ ١٣٠٠ ﻫ)

طبقات ابن سعد . بيروت ١٩٥٧ م

طبقات الشافعية . طبع فى القاهرة سنة ١٣٢٤ ﻫ

طبقات الشعرانى . نشرة مكتبة صبيح

طبقات القراء لابن الجزرى . طبع بمصر سنة ١٣٥١ ﻫ

العبر فى خبر من غبر للذهبى . طبع الكويت ١٩٦٠ م

غاية النهاية = طبقات القراء

فتوح مصر لابن عبد الحكم . لندن ١٨٥٨ م

الفخرى فى الآداب السلطانية لابن طباطبا الطقطقى . مطبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٣٨ م

الفهرست لابن النديم . ليبسك سنة ١٨٧١ م

فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى . مطبعة السعادة بمصر

الفوائد البهية فى تراجم الحنفية ، لمحمد عبد الحى الكلنوى . طبع بمصر سنة ١٣٢٤ ﻫ

القاموس المحيط للفيروزابادى . طبع بمصر سنة ١٣٣٠ ﻫ

الكامل لابن الأثير = تاريخ ابن الأثير

الكامل للمبرد . مطبعة نهضة مصر ١٩٦٦ م

كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون . إستانبول سنة ١٣٦٠ هـ
لسان العرب لابن منظور . طبعة بولاق (١٣٠٠–١٣٠٨ هـ)
مجمع الزوائد للحافظ نور الدين على ابن أبى بكر الهيثمى . نشرة القدسى سنة ١٣٥٢ هـ
مروج الذهب للمسعودى . نشرة المكتبة التجارية سنة ١٩٥٤ م
مسالك الأبصار فى عجائب الأمصار ، لابن فضل الله العمرى . طبع دار الكتب
المضاف والمنسوب = ثمار القلوب
مطالع البدور فى منازل السرور للغرولى . مطبعة الوطن ١٢٩٩ هـ
معجم البلدان لياقوت . طبع فى مصر (١٣٢٣–١٣٢٥ هـ)
معجم الشعراء للرزبانى – مطبعة عيسى الحلبى ١٩٦٠ م
الملل والنحل لعشهرستانى . مكتبة الأنجلو ١٩٥٦ م
المنتظم لابن الجوزى . طبع حيدر آباد بالهند ١٣٥٧ هـ
النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة ، لابن تغرى بردى
نكت الهميان فى نكت العميان لصلاح الدين الصفدى . نشرة أحمد زكى باشا
سنة ١٩١٠ م
نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى مطبعة دار الكتب بمصر
نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار للشبلنجى . المطبعة المحمودية بمصر سنة ١٣١٣هـ
وفيات الأعيان = ابن خلكان
الولاة والقضاة للكندى . طبع بيروت ١٩٠٨ م

تعليقات على الجزء الأول

صفحة	سطر	
٢٠٠	٦	زهير بن قيس البلوى ، ذكره المؤلف أيضا فى صفحة ٢٥٨ ضمن التابعين
٢٥٢	٢	صواب العبارة : « بعد ما ذكر زياد »
٢٥٣	٨	الصواب : « أم عبد الله بنت نبيه بن الحجاج »
٢٥٥	٠	وقع فى رموز المترجم لهم من التابعين ورواة الحديث بعض الخلاف ، نتيجة لاختلاف المراجع
٢٨٥	٦	سعيد بن زكريا الادم المصرى ، قال فى التقريب : « الادم ، بهمزة مقصورة ومهملة مفتوحتين »
٢٩٦	٢	فى الأصول: «أبو عبد الرحمن»،والصواب أنه« عبدالله بن عبدالرحمن ابن حجيرة » ، وانظر الجزء الثانى ٢ : ١٣٨
٣٦٨	١٦	هو أبو محمد عبد الله بن أحمد ، وانظر العبر ٢ : ٢١٧
٣٧٤	١٤	الخِلعى ، بكسر الخاء ؛ هو علىّ بن الحسين الموصلى الفقيه الشافعىّ . وانظر ص ٤٠٤ من هذا الجزء
٣٧٤	١٥	ابن رفاعة ، هو أبو محمد بن عبد الله بن رفاعة بن غدير السعدى ، قاضى الجيزة ، ذكره المؤلف فى فقهاء الشافعية ص ٤٠٦
٣٧٨	٦	ابن الحباب، كذا فى الأصول والنجوم الزاهرة ، وفى العبر: «الجبّاب»
٣٧٨	٩	ابن رواج ، كذا ضبطه فى العبر
٣٨٠	٤	ابن بنين ، بفتح الباء ، وانظر المشتبه ١ : ٩٤
٤١٥	٦	ابن بذر العلامى، بالتخفيف منسوب إلى علامة، قبيلة، وكذا حيث يرد
٤١٥	٢٠	موسى بن حماد

صفحة	سطر	
٤٥٩	٥	ابن الحاج ، هو أبو عبد الله محمد بن محمد العبدرى
٥٦٩	٦	تكتب العبارة هكذا : « قال ابن فضل الله : من شعراء مصر الذين جاءوا بباقى السحر »
٥٧١	٦	هو شهاب الدين أحمد بن محيي الدين يحيى،صاحب المسالك والأبصار
٥٧٢	٥	« إبراهيم بن شرف الدين بن عبد الله »

* * *

تعليقات الجزء الثانى

٨٥	٣	اسمه العباس
١٦٧	١٤	تحذف الحاشية رقم ١
٤٦٣	١	يضاف رقم ٢ : ١٧٤ فى القضاة
٤٦٦	٩	يضاف رقم ١ : ٤٦٣
٤٧٩	٠	يوضع بعد السطر الأول : « إسماعيل بن الأنماطى رقم ١ : ٣٨٣
٥٠٨	٢	الصواب : « سلامش بن الظاهر بيبرس »

تصويبات الجزء الأول

صفحة	سطر	الصواب
٢٨	٤	الطندتاوية
٣٦	٩	خِرْبتا بن مالِيق
٣٩	١٨	الرّيان ، ومثله فى الصفحة التالية
٦٠	٤	أغاثوذيمون
٦٠	٦	إسلاوس
١٦٩	١٠	الأرقم بن حُفينة
١٧٠	٦	أيمن بن خُزيم
٢٠١	٥	زياد بن فائد
٢١٠	١٤	ثعلبة بن وبرة
٢١٨	١٣	قيس بن أبى العاص
٢١٩	٧	عروة الفُقَيْمِىّ
٢٥٦	١٠	قيس بن سُمَىّ
٢٥٧	٣	التُّجيبىّ
٢٧١	٣	وهب بن عبد الله
٢٧١	١٤	أبو أحمد والحاكم
٢٨٨	١٤	عمرو بن سواد
٢٩٠	١٠	وهب بن بيان
٢٩٢	١٤	أحمد بن يحيى بن الوزير
٢٩٧	١٤	تَوْبة بن نمر
٣١٢	٥	حَزْبوية،وكذلك حيث ورد

صفحة	سطر	الصواب
٣٤٥	٥	عبد الرحمن بن هر... أبو داود
٣٤٦	٤	الليث بن سعد ، ابن لهي...
٣٤٨	٦	عبدالحكم وكذلك حيث...
٣٤٩	٤	الفهمى المصرى
٣٥٢	١١	عبد الواحد بن محمد
٣٥٩	١١	عز الدين بن عبد العز... أبو عمر بن قاضى القضا...
٣٦٣	٤	أحمد بن الحافظ عبدالر... أبى الفضل
٣٦٨	١٣	عبد الرحمن بن أحمد ... الحجاج أبو محمد الرشيد...
٣٧٥	١٠	محمد بن بنان
٣٧٦	٥	هبة الله بن يحيى
٣٨٠	٦	أبو بكر محمد بن فتوح
٣٨٢	٧	مكين الدين
٣٨٥	١٢	ابن الأغلاق وكذا حيث...
٣٨٦	٦	ابن رواج ، وكذلك حيث ورد
٣٨٩	٤	المقدسى
٣٨٩	٤	الحسن بن عبد الكريم

صفحة	سطر	الصواب
٣٩٨	٢	ابن ابن عم الشافعىّ
٤٠٤	٧	أحمد المعروف بالمصيص
٤٠٦	١٥	الخبوشانى
٤٢٦	١١	أحمد بن إبراهيم بن حيدرة
٤٢٧	٧	أخو شرف الدين
٤٢٩	٥	النفيسىّ
٤٦١	٣	القَفْصِىّ بالفتح
٤٨٦	١٧	الرّشِيد بنِى
٥١٢	١٩	أبو الحسن بُنان
٥٢٣	١٦	عبد الظاهر بن علىّ
٥٢٦	١٤	أبو المحاسن بن عبد الله
٥٢٧	٣	حسن بن عبد الله ابن الفرات
٥٢٨	١٧	ابن رفاعة
٥٤٥	١٠	بتبريز
٥٥٨	٨	كثيّر

تصويبات الجزء الثانى

صفحة	سطر	الصواب
٦	٤	بجامع ابن طولون
١٨	٤	أريحاء
٢١	١٩	ابن عُنين وكذلك صفحة ٢٢
٦٣	٣	المستكفِى
٨٣	٢	المستعصِم
٩٠	١	سُيِّر
٩٣	٧	هَمَذان
١١٢	٦	الوداعى
١١٣	٢١	أسوان
١٣٧	١٤	فولّى عبدُ العزيز
١٤١	٣	ثمّ ولّى مكانه
١٤٣	٣، ٤، ١١	ولّى
١٤٧	١١	الحسن بن عبد العزيز
١٤٧	١١	استعفَى
١٤٩	١٨	عبد الحاكم وكذلك ص ١٥١
١٥٢	٨	الحطيئة
١٦٧	٨	الحسن بن رزين
١٦٧	١٤	عبد الوهاب بن الحسين
١٧٥	١٠	زكريا بن محمد الأنصارى
٢٠٣	١٤	الأشرف أبى غالب
٢١٦	١٤	شيخ الشيوخ
٤٢٤	٩	شينا

